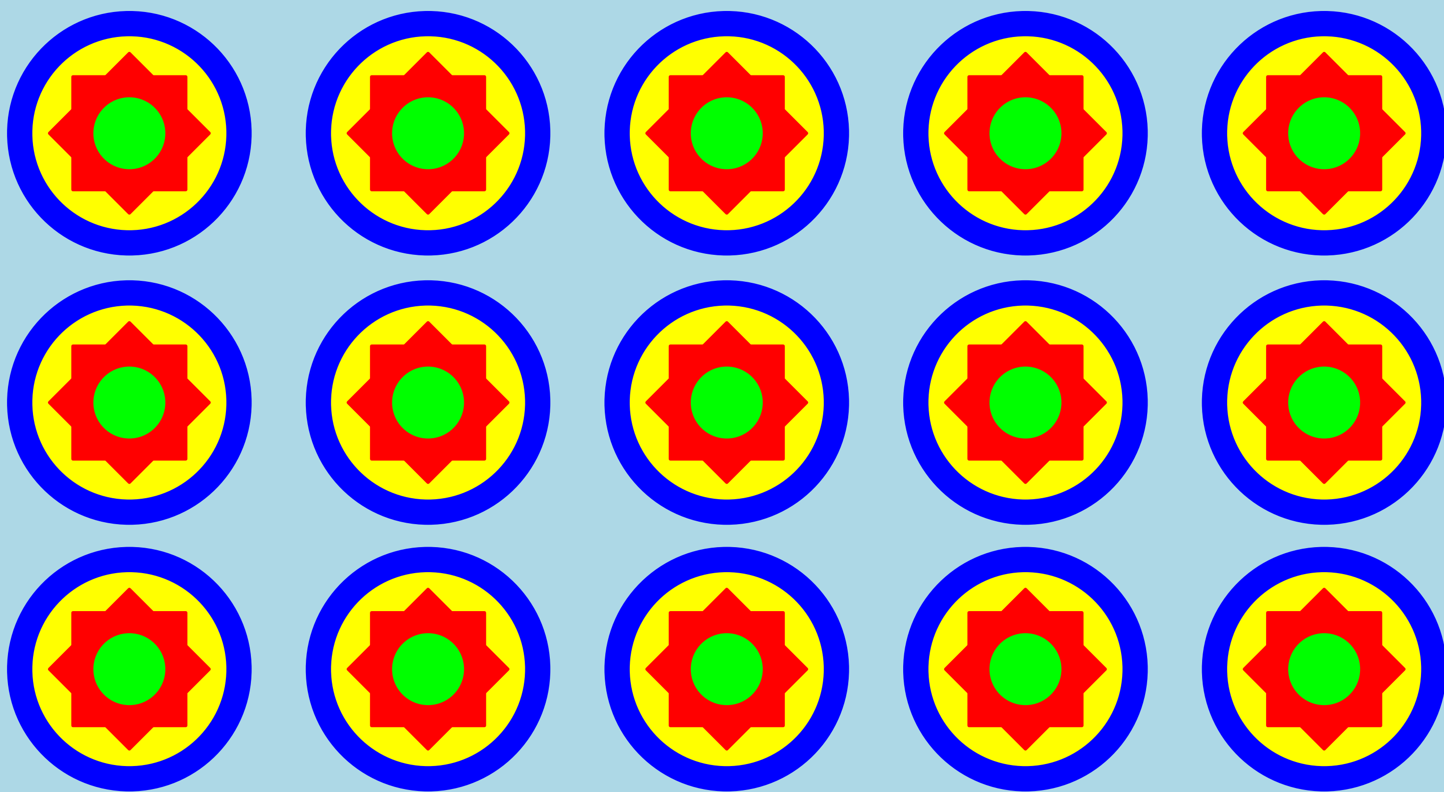
طوفان الأقصى

دراسة تحليلية في المعطيات والنتائج



طه محمود

المقدمة

أُقدِّمُ في هذا الكتاب دراسة تحليلية مفصّلة عن عملية طوفان الأقصى التي نفذتها فصائل المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة بقيادة حركة المقاومة الإسلامية (المعروفة اختصاراً بـ 'حماس') في السابع من تشرين الأول عام 2023 والتي هاجمت فيها مقرات للجيش الصهيوني مرفقة بقصف صاروخي ومدفعي لعدد من المستوطنات والمدن الصهيونية في غلاف غزة وداخل عمق فلسطين المحتلة وهو ما أدّى الى اندلاع أطول الحروب العربية الصهيونية وأشرسها واكثرها دموية والتي ما زالت تدور رحاها حتى ساعة كتابة هذا الكتاب.

ورغم انّ طوفان الأقصى ـ وفق المعايير العالمية ـ حدث صغير جدّاً من حيث المضمون العسكري والامتداد الجغرافي الا انه واحد من اهم الأحداث في العصر الحديث. ولا أبالغ إذ أقول إنه يرقى ـ بمفاعيله وارتداداته ـ الى مستوى أحداث كبرى غيّرت مجرى التاريخ كالحربين العالميتين وانهيار الاتحاد السوفييتي. والسبب في ذلك انه هزّ أركان النظام الدولي القائم وعرّى جوانب الخلل والضعف فيه بما عجزت عن فعله أحداث أكبر منه بكثير. كما انه ساهم في خلق حراك دولي غير مسبوق لا تجاه القضية الفلسطينية فحسب بل تجاه كل قضايا التحرّر والعدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار والهيمنة وما شاكلها.

هذه المعطيات (ومعطيات أخرى) هي ما دفعني الى كتابة هذا الكتاب رغم انني لم أكن أحلم بفعل ذلك حتى الأمس القريب بسبب طبيعة اهتماماتي الأكاديمية التخصصية البحتة المتصلة اساساً بالفيزياء والرياضيات والفلسفة. ورغم انني لا استطيع الادّعاء انني محايد حين يكون الأمر متعلّقاً بالقضية الفلسطينية التي ألتزم بدعمها والتعاطف معها منذ طفولتي (حين كنت أتحلّق مع بقية أطفال الأسرة وشبابها حول المذياع لنستمع ونردّد أناشيد الثورة الفلسطينية التي كنت وما زلت أحفظ الكثير منها عن ظهر قلب)، الا انني سأحاول جهد المستطاع ان أكون محايداً وان أتّبع منهجاً قريباً من المنهج الذي اتّبعه حين اكتب في الرياضيات او الفيزياء او ميكانيك السوائل او نظرية المعرفة (وكان الله في عوني على ذلك).

وينبغي ان ألفت انتباه القارئ الى ان هذا الكتاب هو دراسة تحليلية (كما يصرح بذلك عنوان الكتاب) لا توثيقية[١] ولذا لم أكلف نفسي عناء سرد كثير من تفاصيل الأحداث ومجرياتها لأن هذه التفاصيل متوفرة للجميع في وسائل الإعلام وعلى الانترنت وما شابه ذلك، ويستطيع القارئ ان يحصل عليها ـ إن اراد ـ دون جهد يذكر. كما انني لم أكلف نفسي عناء ذكر الأسماء والتواريخ وما شابه ذلك من تفاصيل متعلقة بالأحداث

[١] الأدق ان هذا الكتاب هو دراسة استعراضية تحليلية لا توثيقية تفصيلية.

والقضايا التي تعرضت لها ما دامت هذه التفاصيل معلومة من السياق او عديمة الفائدة لمقاصد الدراسة ولا تخدم غرضاً من أغراضها. نعم، هناك بعض الأحداث والتفاصيل المختلَف عليها ـ إذ هي موضع نزاع بين اطراف النزاع ـ وقد التزمت ببيان اختياراتي وترجيحاتي بشأنها إن كان للدراسة في ذلك حاجة.

كذلك ينبغي الإشارة الى وجود بعض النواقص في التنضيد والإخراج لقصور برنامجَي لاتيك (LaTeX) وليكس (LyX) المستخدمين في تنضيد الكتاب وإخراجه. فهذان البرنامجان (بنسختهما العربية) يعانيان من جوانب خلل جمة في تنضيد النص العربي وإخراجه فهما لم يصمما لهذا الغرض اساساً. ورغم ذلك اخترتهما لإنتاج هذا الكتاب، تنضيداً وإخراجاً، لمزاياهما الكثيرة ولخبرتي الطويلة بهما.

كما اود ان اشير الى ان المراجع التبادلية (cross references) في النسخ الإلكترونية من هذا الكتاب مطعمة بوصلات نشطة (hyperlinked) وذلك من أجل راحة القراء وتسهيل وصولهم الى مبتغاهم من الموضوعات المرتبطة دون تجشم عناء او تشتت افكار. وقد آثرت ان لا أُعلِّم هذه الوصلات وأُظهِّرها (باستخدام الألوان مثلاً) تفادياً للنشاز والتشويه المحتمل.

طه محمود

لندن، 25 تموز 2024

المحتويات

الفصل الاول
الطوفان

نمهّد في هذا الفصل لدراسة عملية طوفان الأقصى ببحث أساسي عن دوافع هذه العملية واهدافها ومجمل الإنجازات التي حققتها وعما إذا كان من الممكن تصنيفها فعلاً إرهابياً أم لا، كما ندرس طبيعة الرد الصهيوني والأداء الصهيوني في هذا الرد والدعم اللامسبوق الذي تلقاه هذا الكيان من رعاته وداعميه الغربيين وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية.

١.١ دوافع وأهداف العملية

لقد كان لعملية طوفان الأقصى[٢] دوافع وأهداف عديدة بعضها مرحلي تكتيكي وبعضها دائم واستراتيجي. وسنجمل فيما يلي من نقاط اهم دوافع وأهداف هذه العملية (حسب وجهة نظرنا وتقديرنا التي قد تتجاوز الدوافع والأهداف المعلنة والمضمرة من قبل المقاومة كما ان بعضها يتسم بالتخمين والاحتمال):

١. الرد على الانتهاكات الإسرائيلية (خاصةً من قبل عتاة المستوطنين وغلاتهم) المتكررة للمقدسات الإسلامية وعلى رأسها المسجد الأقصى الذي لم يُخْفِ الإسرائيليون (ممثَّلين ببعض الأحزاب المشاركة في الحكومة وحركات الاستيطان والتهويد) رغبتهم في اقتسامه زمانياً ومكانياً بل وحتى مصادرته وهدمه لبناء هيكلهم المزعوم. وكان هذا الرد على الانتهاكات الإسرائيلية ضرورياً لردع اسرائيل عن المضي في مخططاتها من جهة (او لعقابها على انتهاكاتها على الأقل)، وللحفاظ على مصداقية المقاومة من جهة ثانية (إذ وعدت المقاومة وتوعدت بفعلٍ كهذا رداً على هذه الانتهاكات). وواضح ان اسم 'طوفان الأقصى' يشير الى ذلك.

---

[٢] يجب ان ينتبه القارئ الى اننا نستخدم مصطلح 'عملية طوفان الأقصى' للإشارة الى ما قامت به المقاومة الفلسطينية في السابع من تشرين الثاني (وبعض التوابع واللواحق المباشرة لها في الأيام القليلة التالية للسابع من تشرين الثاني) بينما نستخدم مصطلح 'ملحمة طوفان الأقصى' للإشارة الى تسلسل الأحداث التي رافقت وتلت 'عملية طوفان الأقصى' بكل ارتداداتها وآثارها ومآلاتها (اي كل ما يتصل بـ 'عملية طوفان الأقصى' من احداث ـ عسكرية وغير عسكرية ـ منذ لحظة وقوعها الأولى الى ما شاء الله). كما اننا نستخدم مصطلح 'طوفان الأقصى' ترهلاً في الخطاب وتسامحاً فيه رغم انه غالباً ما يعني 'عملية طوفان الأقصى'.

٢. الحصول على عدد معتبر من اسرى الحرب الإسرائيليين لمبادلتهم بـ (كل) المقاومين والسجناء السياسيين والمعتقلين الإداريين (اي بكل 'الرهائن' الفلسطينيين) الذين تحتجزهم اسرائيل. وهذا ما عبرت عنه حركات المقاومة الفلسطينية بـ 'تبييض السجون'.

٣. إحياء القضية الفلسطينية التي اراد لها الصهاينة وحلفاؤهم الغربيون وعملاؤهم العرب ان تُطمَر ويُهال عليها التراب عبر التطبيع وما يسمى بـ 'صفقة القرن' التي تقود الى تحالف استراتيجي بين اسرائيل (كقائدة) والعملاء العرب (كذيول واتباع) ولا يكون فيها لفلسطين والفلسطينيين موقع من الإعراب (وهو مايعني تصفية القضية الفلسطينية تماماً وانتصاراً اسرائيلياً كاملاً ونهائياً).

٤. تحصيل معلومات استخبارية بالاستيلاء على سجلات وحواسيب فرقة غزة في الجيش الإسرائيلي بالإضافة الى تحقيق مكاسب عسكرية مهمة كتصفية جزء مهم من فرقة غزة مع تدمير وغنيمة مقدار معتبر من الأسلحة والعتاد والتجهيزات.

٥. زعزعة نظرية الاستيطان بإفقاد المستوطنات الصهيونية (خاصة في غلاف غزة) شعورها بالأمن والاطمئنان والاستقرار وهو ما يكبح الهجرة الداخلة ويشجع الهجرة الخارجة ويساهم في إفشال سياسة الاستيطان والتهويد.

٦. تكبيد العدو خسائر اقتصادية هائلة بتعرية هشاشة امنه وافتقار مدنه ومستوطناته للحماية الكافية التي يحتاج اليها لجلب السياحة والاستثمارات الأجنبية والمشروعات الصناعية والبحثية (خاصة في مجالات التكنولوجيا المتقدمة). هذا بالإضافة الى الخسائر المباشرة التي يتكبدها العدو عسكرياً وامنياً واقتصادياً خلال العملية ومآلاتها من تدمير اسلحة ومعدات ومبانٍ ومنشآت وما شابه ذلك مما يحدث اثناء الاشتباك العسكري وفي قصف المدن والتجمعات الاستيطانية.

٧. هز سمعة إسرائيل في الحقل العلمي والتكنولوجي (خاصة في المجال العسكري والأمني) والتي هي مصدر فخرٍ ومالٍ لإسرائيل التي كانت تروج لنفسها ولصناعاتها انها الأكثر تقدماً وان تكنولوجيتها هي الأرقى والأقوى والأضمن وهو ما يجلب لها الاحترام الدولي ويعزز مكانتها وسمعتها كما يجلب لها الكثير من المال مما تبيعه من منتجاتها وتقنياتها والخدمات المتصلة بها.

٨. كسر قوة الردع الإسرائيلي بخرق قواعد الاشتباك بنحو صارخ وغير محسوب. وهذا بالتأكيد سيجعل اسرائيل اقل شعوراً بالأمن والاطمئنان ما دام اعداؤها يتصرفون (او مستعدين للتصرف) بنحو 'طائش ولاعقلاني' ولا يحترمون قواعد الاشتباك المعروفة مما يجعل التنبؤ بسلوكهم والتحسب لردود افعالهم عسيراً

او مستحيلاً.

٩. ربما كان من اهداف عملية طوفان الأقصى اعاقة عملية التطبيع بين اسرائيل والأنظمة العربية وإفشال ’صفقة القرن‘ المشار اليها آنفاً. وربما يشير الى ذلك ان عملية طوفان الأقصى قد جاءت وسط مؤشرات عن تطبيع سعودي ـ اسرائيلي وشيك ووسط استعدادات لإقامة ممر بري يربط بين سواحل الخليج الفارسي ـ العربي وبين سواحل فلسطين المحتلة المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

١٠. ربما كان من اهداف عملية طوفان الأقصى جر اسرائيل الى مواجهة استنزافية طويلة الأمد ترهقها عسكرياً واقتصادياً. وربما يشير الى ذلك استعداد المقاومة في غزة لمعركة طويلة الأمد كما أظهرت الأحداث اللاحقة حيث تدخل ملحمة طوفان الأقصى شهرها العاشر (حتى كتابة هذه السطور) دون ان تظهر المقاومة وهناً او نقصاً في السلاح او العتاد او التجهيزات بل المؤشرات الأخيرة تدل على عكس ذلك إذ تدل هذه المؤشرات على تحسن اداء المقاومة وسلاحها وعتادها في الأشهر الأخيرة.

١١. ربما كان من اهداف عملية طوفان الأقصى إفقاد اسرائيل صوابها بتوجيه ضربة ساحقة ماحقة لها على يافوخها تفقدها صوابها وتجعلها تتصرف كالمجنون مما يفضح طبيعتها الإجرامية الدموية ويكشف مدى رعونتها واستخفافها بالقيم والقوانين والأعراف الدولية والإنسانية (كما اثبتت الأحداث اللاحقة ذلك مما شهدناه ونشهده حتى الآن). وربما يشير الى ذلك الفهم العميق الذي يتصف به ويبديه قادة المقاومة في غزة للعقلية الإسرائيلية والثقافة اليهودية (كما اعترف بذلك كثير من خبراء العدو ومحلليه فضلاً عن امثالهم من المراقبين المحايدين وانصار المقاومة ممن يعرفون قادة المقاومة عن قرب) وهو ما يعني ان المقاومة لم تكن غافلة عن ان عملية بحجم ونوع طوفان الأقصى ستقود حتماً الى ردود الأفعال الإجرامية الجنونية التي ارتكبتها وترتكبها اسرائيل.

١٢. ربما كان من اهداف عملية طوفان الأقصى تعميق الانقسامات الداخلية الصهيونية وخلق انقسامات جديدة تساهم في إرباك الوضع الداخلي الصهيوني وخلق حالة من انعدام الشعور بالأمن والاستقرار وهو ما يخلق حالة دائمة من القلق والخوف لدى المستوطنين الصهاينة ويعزز الهجرة المضادة. وربما يشير الى ذلك ان عملية طوفان الأقصى جاءت وسط زوابع وأزمات داخلية شهدها المجتمع الإسرائيلي (كان من ابرزها الانقسامات الآيديولوجية بين العلمانيين والمتدينين او الليبراليين والسلفيين وما رافقها من تفاعلات ما يسمى بالإصلاحات القضائية) وحالة عدم استقرار وغليان داخلي كانت تنبئ بأزمة بنيوية في المجتمع الصهيوني. كما قد يشير الى ذلك ما حدث خلال ملحمة طوفان الأقصى من تزايد الانقسامات الداخلية تنوعاً وشدّةً

رغم التوحد الظاهر للمجتمع الصهيوني في مواجهة الفلسطينيين وتأييد حرب الإبادة.

٢.١ تقييم اولي إجمالي للإنجازات

سنبحث بالتفصيل ـ على مدى هذا الكتاب ـ بشكل مباشر او غير مباشر مدى نجاح عملية طوفان الأقصى في تحقيق اهدافها ومراميها التي استعرضناها إجمالاً في القسم السابق (راجع § ١.١). ولكن يحسن بنا هنا في هذا الفصل الاستعراضي الأول ان نقيّم بشكل اولي وإجمالي مدى نجاح (او فشل) هذه العملية وما إذا كانت حسابات ورهانات المقاومة (وقادتها السياسيين والعسكريين في غزة بالخصوص) صائبة ودقيقة وناجحة ام لا.

ورأْيُنا الواضح والقاطع في هذا الصدد ان المقاومة قد نجحت في تحقيق معظم الأهداف المرجوة من عملية طوفان الأقصى (كما اثبتت الأحداث والتطورات اللاحقة ذلك)، بل حققت العملية في بعض الأحيان والمجالات انجازاتٍ ونجاحاتٍ اكبرَ كثيراً مما كان يُتوقَّع منها. كما ان كل الدلائل الراهنة تشير الى ان المستقبل قادم بمزيد من الإنجازات والنجاحات والانتصارات، وان ما لم يتحقق من الأهداف المرجوة حتى الآن هو في طريقه الى التحقق (ولو جزئياً على الأقل).

فقد بلغت العملية حد الكمال في التخطيط والأداء وكانت بحق تحفة من تحف التاريخ العسكري القديم والحديث، وهو ما يبدو انه ادهش المقاومة نفسها (والإسرائيليين طبعاً) بقدر ما ادهش المراقبين والمحللين المختصّين فضلاً عن السواد الأعظم من الجمهور. ويكفي في الدلالة على ذلك والتأييد له حجم الخسائر البشرية والمادية التي تكبدها العدو خلال هذه العملية وحجم الاختراقات والخروقات التي نجحت المقاومة في احداثها (استخبارياً وامنياً وعسكرياً وسيبرانياً وجغرافياً وما الى ذلك مما هو معروف للجميع). كما كانت غلّة العملية من الأسرى والمواد الاستخبارية وغنائم الحرب وفيرة وفريدة إذ لم يحصل للمقاومة الفلسطينية بكل فصائلها واطيافها وعلى مدى تاريخها الطويل ان حصلت على هذا الكم الكبير من الأسرى والمواد الاستخبارية والغنائم في عملية يتيمة مفردة لم تستغرق سوى سويعات قليلة.

واما النجاحات والإنجازات المتوقعة والمرجوة من مآلات هذه العملية وتبعاتها (مما اشرنا له في القسم السابق؛ راجع § ١.١) مما كان يدور (او يفترض ان يدور) في عقول المخططين لهذه العملية (كزعزعة نظرية الاستيطان وتكبيد العدو خسائر اقتصادية) فقد تحقق معظمها وبشكل باهر (حسبما سنتعرف عليه تفصيلاً في الأقسام

والفصول القادمة من هذا الكتاب).

والواقع ان عملية طوفان الأقصى إن دلت على شيء فانما تدل على عبقرية المخطط الفلسطيني الذي وضعها ـ عسكرياً وسياسياً وتكتيكياً واستراتيجياً ـ وقدرته الفائقة على فهم الماضي والحاضر واستشراف المستقبل بل التنبؤ به. وتتجلى هذه العبقرية باوضح اشكالها ومظاهرها في القدرة على توظيف وتسخير وتطويع موارد ووسائل وتقنيات بسيطة وشحيحة نسبياً (بفضل الحصار المفروض على غزة) لتحقيق اهداف ضخمة جدّاً مما يقود الى انتصارات ساحقة على عدو يمتلك تفوقاً هائلاً في السلاح والتقنيات والموارد ويحظى بدعم دولي لامحدود. وهذا على النقيض تماماً من المخطط الاسرائيلي الذي اظهر غباءاً وجهلاً وحمقاً ورعونة قلَّ نظيرها وأثبت انه لا يحسن الا استخدام تكنولوجيا القتل الجماعي والإجرام المنظم لإبادة الأطفال والنساء والشيوخ وامثالهم من المدنيين (مما سنستعرضه بالتفصيل لاحقاً).

٣.١ طبيعة العملية

نبحث في هذا القسم قضية جوهرية عن طبيعة عملية طوفان الأقصى وما إذا كان يصح تصنيفها عملاً إرهابياً أم لا (بغض النظر عن تصنيف حماس ككيان ارهابي لدى الغرب وبعض الأنظمة العميلة له، ملاحظين ان حماس غير مدرجة في قائمة الإرهاب لدى المنظمات الأممية ولدى السواد الأعظم من دول العالم). وفي هذا الإطار ينبغي ملاحظة ما يلي:

١. ينبغي ان يكون واضحاً انه ليس كل ما يصدر عن 'الإرهابي' إرهاب. فحتّى لو قبلنا بتصنيف حماس منظمةً ارهابية يبقى مجال واسع للتداول فيما إذا كان طوفان الأقصى عملية إرهابية ام لا.

٢. ينبغي ان نتذكر ان حماس غير مصنفة كمنظمة ارهابية الا لدى عدد قليل من الدول. بل لولا الضغط الأمريكي في السنين الأخيرة على بعض دول اوروبا لإدراج حماس في قائمة الإرهاب لكان تصنيف حماس مقتصراً على اسرائيل وامريكا وقليل من الدول الفاقدة ـ في معظمها ـ للسيادة واستقلال القرار لا يتجاوز عدد اصابع اليد.

٣. ان مفهوم الإرهاب وتعريفه وتطبيقه على مصاديقه امور مسيَّسة تخلو من اي محتوىً او ضابطٍ علمي او موضوعي. كما انها عرضة ـ بشكل استثنائي ـ للتحيز وسوء الاستخدام كما يتبين ذلك من استعراض ما وُصف وصُنف إرهاباً منذ ظهور هذا المفهوم حتى يومنا هذا. وهذا ينزل بـ 'الإرهاب' الى منزلة السباب والشتم ويفقده اي قيمة معنوية حقيقية او محتوىً قانوني او أخلاقي.

٤. لا ينطبق وصف المدنيين على الغزاة المعتدين (بمن فيهم نساء الغزاة وأطفالهم) والمستوطنين الغاصبين لأرض الغير والمنتهكين لسيادته وحقوقه. بل حتى لو قبلنا ان نساء الغزاة وأطفالهم هم من المدنيين الذين لا يجوز استهدافهم بالأعمال القتالية عن قصد، فان وجودهم في مواقع القتال من ارض مغصوبة لاينبغي ان يكون عائقاً لفعل المقاومة ومحدداً لنشاطاتها لأنها لا تتحمل المسؤولية الأخلاقية او القانونية عما يصيبهم لأن مسؤولية من يسقط ضحيةً للأعمال المسلحة (بين المقاومة المشروعة والاحتلال الغاصب) من النساء والأطفال انما تقع بالكامل على من جاء بهم الى الأرض المغصوبة وأسكنهم فيها. وينبغي ان يعد جلب النساء والأطفال الى الأرض المحتلة (التي يشرع فيها عمل المقاومة) من قبيل التمترس بالمدنيين (إن صح وصفهم بالمدنيين) وهو ما لا ينبغي ان يكبل يد المقاومين في قتالهم ضد المحتل. والواقع انه إذا كانت جيوش الإجرام الغربية والصهيونية تبرر جرائمها (المتعمدة غالباً والتي لا تكترث للمدنيين دائماً) في حق المدنيين من نساء وأطفال آمنين في اوطانهم وديارهم بكونها اضراراً جانبية (collateral damage) فلماذا لا يحق للمقاومة المشروعة ان تبرر ما يقع لـ 'مدنيي' الاحتلال بالأضرار الجانبية (رغم ان المقاومة تتجنبهم غالباً او على الأقل لا تستهدفهم عمداً وقصداً وابتداءاً).[٣]

٥. حتى لو افترضنا ان نساء الغزاة المعتدين وأطفالهم هم من المدنيين الذين لا يجوز استهدافهم بالأعمال القتالية ابتداءاً (او تعريضهم للخطر بسبب هذه الأعمال او جرّاءها) فانه ينبغي ان يجوز ذلك من باب المعاملة بالمثل قصاصاً للعدو وردعاً له عن استهداف نساء وأطفال المغزوّين والمعتدى عليهم.[٤] ولا يجوز اقحام حجة 'ولا تزر وازرة وزر أخرى' هنا للاعتراض على كونه قصاصاً لأن الـ 'أخرى' ينبغي ان تُحدَّد بالمقام والسياق، فما يجوز في نزاعات الأفراد قد لا يجوز في نزاعات الشعوب والأمم (والعكس صحيح). ثم انه حتى لو لم نقبل حجة القصاص هذه (او بالأحرى قبلنا بحجة 'ولا تزر وازرة وزر أخرى' او لم نرفضها) فانه ينبغي

---

[٣] نحن واثقون ان حركات المقاومة الإسلامية عموماً (في فلسطين ولبنان وغيرهما) لا تستهدف عمداً وقصداً وابتداءاً المدنيين (بل ولا 'المدنيين' عموماً وابتداءاً) لسبب بسيط وهو انها ـ خلافاً لإسرائيل الحمقاء الرعناء ـ تهتم كثيراً بصورتها وسمعتها المحلية والدولية (لدى قواعدها وحواضنها والشعوب والدول العربية والإسلامية والأجنبية واحرار العالم) وتتجنب ما يشوه صورتها ويلطخ نقاءها السلوكي والأخلاقي، فضلاً عما يربطها من علاقات وصداقات مع دول وجهات مؤثرة (كتركيا وروسيا والصين وبعض جماعات اليسار الدولي) لا ترضى عن مثل هذه الأعمال بل تشجبها وتتجنب من يرتكبها (وهو ما يشكل رادعاً لهذه الحركات عن ارتكاب هذه الأعمال تجنباً لإغضاب أصدقائها و'أصدقائها'). فحتى لو افترضنا ان حركات المقاومة الإسلامية هذه لا تكترث للمدنيين او 'المدنيين' ولاتهتم بسلامتهم وتجنيبهم القتل والضرر لاعتبارات شرعية واخلاقية وهي في ذلك كداعش واخواتها (وهو ما ليس كذلك) فانها تبقى تكترث لذلك وتهتم به للهدف المصلحي المذكور.

[٤] الواقع ان معادلة المدني بالمدني التي وضعها وطبقها حزب الله خير دليل على قوة الردع هذه.

ان نقبل ذلك الاستهداف والتعريض من باب جلب المصلحة ودفع المفسدة (او بالأحرى من باب جلب المصلحة الكبيرة ودفع المفسدة الكثيرة بـ 'المفسدة' القليلة) لأن الردع الذي يحققه الاستهداف والتعريض المشار اليهما سيحمي من المدنيين و 'المدنيين' ما هو اكثر بكثير مما سيحميه تجنب الاستهداف والتعريض (خاصةً إذا لاحظنا ان المحميين الكثر هم غالباً من المدنيين بينما المستهدَفون القلة هم من 'المدنيين'). وعلى كل حال، ينبغي ان يعدّ جلب العدوّ الغازي لنسائه واطفاله الى الأرض المغتصبة نوعاً من التمترس بالمدنيين (اي مدنيي العدو المحتل الغاصب) لتمكين العدو من ارتكاب الجرائم بحق المدنيين (اي مدنيي المقاوم المحتل المغصوب) وهذا ما لا يجوز ان يُسمح به.

٦. لم يثبت ان المقاومة الفلسطينية قد استهدفت المدنيين او تعرضت لهم خلال عملية طوفان الأقصى وما تلاها (على الأقل بنحو فردي وحصري وعن سابق قصد وإصرار). بل ان كل ما ادُّعي من فظائع ارتكبتها المقاومة خلال هذه العملية (كقطع رؤوس الرضع واغتصاب النساء) ثبت انه اكاذيب صهيونية مختلقة لا اساس لها إطلاقاً (راجع مثلاً § ٣.٤). والواقع انه إذا كان يحق للغربيين ان يشككوا في نوايا اسرائيل وجرائمها الصريحة الواضحة الفاضحة ويقترحوا لها من المعاذير والحجج والتبريرات ما يناقض حتى شهادة العين المجردة فلماذا لا يحق للمقاومة ان تستفيد من هذا 'الشك والغموض' حول ما ادُّعي من بعض افعالها وتصرفاتها لتبرير ما حدث (لو كان حدث) كما هو الحال في ادعاء إساءة المقاومة معاملة بعض 'المدنيين' او انتهاك حقوقهم وكرامتهم.

والنتيجة التي نخلص اليها من هذه النقاط ان تصنيف عملية طوفان الأقصى كعمل ارهابي لا أساس له إطلاقاً بل هذه العملية هي عمل من اعمال المقاومة والبطولة والجهاد المشرّف دون ادنى شك. فلا يعدو وصف عملية طوفان الأقصى بالإرهاب كونه سباباً بذيئاً وكذباً رخيصاً يحترفه الغرب وابواق دعايته ويمارسه بكل وقاحة وصلافة في الوقت الذي يدعم فيه الإرهاب الإسرائيلي (بنفس الوقاحة والصلافة) بل يشارك في الإرهاب ويمارسه هو بنفسه (مستقلاً احياناً ومستعيناً بإسرائيل احياناً اخرى).

٤.١ الردّ الصهيوني

رغم ان الإجرام الصهيوني المفرط غير جديد ـ إذ عادةً ما يكون الردّ الصهيوني على اي فعل عدواني ضدّه وضدّ مصالحه مضاعفاً وغير متناسب مع الفعل لا كماً ولا كيفاً ـ فقد أدهش التوحش الصهيوني المفرط ـ الذي وصل الى حدّ الجنون ـ في الرد على عملية طوفان الأقصى كثيراً من المراقبين المختصين بالشأن الصهيوني فضلاً

عن عموم الناس. والواقع ان لهذا الجنون الصهيوني اسباباً موضوعية ونفسية نلخصها في النقاط التالية:

١. حجم الفعل الفلسطيني المقاوم الذي فاق كل التوقعات والتقديرات وتجاوز في ضخامته اي عملية اخرى قامت بها المقاومة الفلسطينية بايٍّ من فصائلها وتشكيلاتها على مدى تأريخها الطويل، وهذا ينعكس في حجم الخسائر الصهيونية وحجم الدمار والألم الذي الحقته هذه الضربة بالكيان ـ كدولة وجيش ومؤسسات أمنية ـ وكذلك بالأفراد والممتلكات. والخلاصة ان طوفان الأقصى كان فذّاً في نوعه وفريداً في حجمه وواحداً من اكبر العمليات في تاريخ حركات المقاومة في العالم على الإطلاق مما استدعى ـ في اعين الصهاينة ـ ردّاً فريداً في عنفه ودمويته ومكافئاً له في وقعه وايقاعه.

٢. حجم الأثر النفسي والمعنوي الذي تركه هذا الفعل الفلسطيني المقاوم على الكيان الصهيوني وهو ما افقد الكيان صوابه وجعله يتصرف بغريزة التوحش والدموية الخالصة بعيداً عن اي اعتبارات عقلانية ومتجاهلاً اي اعتبارات اخلاقية او انسانية مما كان يتظاهر بالالتزام به في ارتكاب جرائمه السابقة. وباختصار، لقد اطلق هذا الفعل الفلسطيني المقاوم الوحش الصهيوني من عقاله مجرّداً كما هو من دون زركشة او رتوش او تجميل او تزويق.

٣. رغبة الصهاينة في استعادة الهيبة والردع اللذين اسقطهما طوفان الأقصى الذي هزّ صورة الكيان ودمّر هيبته وما كان يحتمي به من ستائر القوة والبطش والجبروت التي ظن انها كفيلة بردع اعدائه ومنعهم من التجرؤ عليه بهذا النحو الصارخ الفاضح الذي تجلى في طوفان الأقصى الذي اسقط كثيراً من اصول الاشتباك وقواعد الردع التي حاول الكيان فرضها على الخصوم والأعداء. لقد دأب الكيان منذ انشائه على ان يقدم نفسه للعالم عموماً ـ ولخصومه وأعدائه خصوصاً ـ كبعبع مهول ومارد جبار لا يجوز لأحد ان يتطاول عليه، وقد جاءت عملية طوفان الأقصى لتعرّيه من هذا اللبوس الكاذب وتقدمه للعالم كأضحوكة تحيط نفسها بكثير من الزيف والغرور والدعاية الكاذبة والتهويل الإعلامي مع قليل من القوة والبأس والاقتدار الحقيقي رغم ما يمتلكه من قدرات تقنية هائلة وتسليح لا يضاهى في التطور والفتك ودعم مطلق من حماته ورعاته الغربيين.

٤. طبيعة الشخصية الصهيونية ـ بجذورها اليهودية العبرانية ـ إذ هي شخصية بدوية قبلية عاطفية حقودة ساعية للثأر والانتقام ولا تتوانى فيهما بل تعتبر الصفح ـ او الاعتدال في العقاب ـ نوعاً من الضعف والخور بل نقيصة وسبّة بدل ان يكون شيمة كريمة وخصلة فضيلة. وهذا يمكن ملاحظته بسهولة في منابع الثقافة العبرانية ونصوصها الدينية والأدبية، كما يمكن تفهّمه سيكولوجياً ـ بغض النظر عن تبريره او لا تبريره ـ من

كونه نابعاً من ثقافةٍ أقليةٍ بشرية كانت تشعر دوماً على مدى تاريخها الطويل انها عرضة للتهميش والاعتداء والاضطهاد ويطاردها الإحساس بالقلة والضعف امام الجماعات الأخرى التي تساكنها او تجاورها، ولذا فان العنف المفرط هو وسيلة للتعبير عن عقدة النقص هذه (كما هو وسيلة ـ في رأيها ـ للردع الفعال كما سيأتي). وهذا في الواقع يفسر شبه الإجماع لدى المجتمع الصهيوني على تأييد الإبادة والتحريض عليها ـ بكل وحشيتها ودمويتها ـ كما اظهرته وسائل الإعلام والتصريحات واستطلاعات الرأي داخل المجتمع الصهيوني وذهابهم في ذلك بعيداً الى حد يصعب تصوره وتصديقه.

مضافاً الى هذا ان هناك قناعة راسخة لدى المجتمع الصهيوني عموماً ان العنف المفرط ـ حين يكون صادراً من موقع القوة والاقتدار ـ هو وسيلة ممتازة للردع وتحقيق الأمن بأقل الأثمان والتضحيات. وهذه القناعة في الواقع من اغبى القناعات واكثرها سذاجة لأن هذا العنف المفرط سيقود لا محالة الى عنف اكثر إفراطاً قد يودي في المستقبل بحياة مجتمعات يهودية بكاملها لأنه يخلق أعداءاً لا يرحمون آخذين بنظر الاعتبار ان موازين القوى لا يمكن ان تظل كما هي خصوصاً إذا لاحظنا ان اليهود اقلية قليلة تعيش وسط تجمعات بشرية ضخمة لا تنظر لها عموماً بعين الود والرضا. والحقيقة ان افضل نظرية للردع والأمن لأقلية كهذه ليس نظرية اللجوء الى العنف المفرط والتوحش السادي ـ كما يفعله الصهاينة في غزة منطلقين من دعم شعبي يقارب الإجماع المطلق ـ بل العكس تماماً اي الالتزام بثقافة التسامح والصفح والاعتدال التي تجلب التعاطف وتكثّر الأصدقاء على النقيض من اللجوء الى العنف المفرط الذي يجلب الغضب والنقمة ويكثّر الأعداء والخصوم ويخلق مبررات للإبادة والاستئصال.

١.٤.١ أنواع الجرائم الصهيونية

لقد تنوعت الجرائم الصهيونية وتعددت اشكالها وكانت ـ بحق ـ لا تعبيراً عن طبيعة الشخصية الصهيونية العُصابية السادية المريضة فحسب بل عن عبقرية هذه الشخصية في مجال التوحش والإجرام. ولئن كانت داعش ـ حتى وقت قريب ـ مضرباً للأمثال في التوحش والإجرام والابتكار الخلّاق في هذا المجال (من قتل وتعذيب وتدمير) فقد جاءت الجرائم الصهيونية في ملحمة طوفان الأقصى لتظهر وتثبت ـ بل لتؤكد ـ ان الصهاينة هم اساتذة داعش في حقل التوحش والإجرام (كما قد يكونون كذلك في حقول أخرى). ونجمل فيما يلي بعضاً من انواع الجرائم التي ارتكبها 'جيش الدفاع الإسرائيلي' (والصهاينة بنحو اعم) خلال ملحمة طوفان الأقصى:

١. تدمير مجمعات سكنية بالكامل (بما فيها ومن فيها) ومحو عوائل ممتدة ـ لثلاثة او اربعة اجيال ـ تماماً من السجل المدني. ولئن كان هناك ادنى شك في صدق مفهوم وتعريف 'الإبادة' القانوني على ما ارتكبه الصهاينة في ملحمة طوفان الأقصى بحق غزة والغزيين بالمجمل فلا ينبغي الشك في هذه 'الإبادات الجزئية' بحق عوائل فقيرة مسكينة لم يكن لكثير منها اي ارتباط بحماس (ولا بغير حماس) لا من قريب ولا من بعيد ولم يكن لها اي نشاط معادٍ لإسرائيل (ولا لغير اسرائيل) ولم يكن لها في هذه الحرب ناقة ولا جمل (ولا اي شيء آخر) ولم يكن لها من ذنب الا ان حظها العاثر قد وضعها في هذا الزمان والمكان لتُقطّع اوصالها او تُدفن حيةً او تُحرق كذلك (او يُقضى عليها بميتات لا تقل بشاعةً ورعباً عن هذه) لتكون قرباناً لشهوات اسرائيل السادية المجنونة وحقدها العبراني المتراكم عبر ثلاث ألفيات او يزيد.
٢. تدمير البنى التحتية كالمدارس والمستشفيات والمساجد والطرقات وانظمة الصرف الصحي ومصادر المياه والطاقة الكهربائية والطرقات العامة وكل ما هو ضروري او كمالي للحياة البشرية. وباختصار، لقد دمرت اسرائيل كل البنى التحتية (والفوقية) لغزة ولم تبق منها شيئاً ولم تذر. والمثالان النموذجيان لذلك تدميرها للمستشفى المعمداني باستهداف مقصود (اعترفت به اسرائيل اولاً وان غيرت بعد ذلك روايتها حين ادركت ـ ربما بإشارة ونصح من اصدقائها وداعميها ـ حجم الضرر الذي سيلحق بها من ذلك) راح ضحيته مئات المدنيين الأبرياء، وتدميرها لمستشفى الشفاء (بما فيه ومن فيه) وهو جريمة استثنائية في بشاعتها لم تتكشف اهوالها كاملة بعد وما زالت التحقيقات بشأنها جارية حتى كتابة هذه السطور حيث هناك الكثير من الدلائل (مما استُخرج من المقابر الجماعية وغيرها) التي تشير الى ارتكاب اسرائيل اعدامات جماعية واغتصاباً بشكل منهجي ومنظم بحق الأطفال والنساء (فضلاً عن الرجال من المرضى والطواقم الطبية)، كما ان هناك دلائل تشريحية على ان بعض الضحايا قد دُفنوا أحياءاً.
٣. الإعدام الميداني للأطفال والنساء فضلاً عن الرجال المدنيين او المشتبه بانتمائهم الى المقاومة (مما اشير الى بعضه فيما تقدم من إعدام جماعي ميداني للمدنيين ـ من مرضى وطواقم طبية ونازحين ملتجئين ـ ممن كان في مستشفى الشفاء خلال عملية تدميرها الكامل والممنهج). وقد اتسمت بعض عمليات الإعدام بالسادية والوحشية المفرطة (كدفن الضحايا احياءاً).
٤. استهداف الصحفيين والمراسلين والطواقم العاملة معهم بهدف قتلهم وايقاف او إعاقة التغطية الإعلامية لجرائم الإبادة والتطهير فيها ليظل العالم جاهلاً (ولو جزئياً) لما يجري في غزة بما يسهل ترويج الرواية الإسرائيلية الكاذبة وقبولها.

٥. خطف المدنيين واعتقالهم تعسفياً وتعذيبهم (بل وقتل بعضهم تحت التعذيب) وإذلالهم ـ بتعريتهم مثلاً ـ مما وثقه الإسرائيليون بانفسهم او صرحوا به او اومأوا اليه. وقد تنوعت اساليب تعذيب المخطوفين والمعتقلين وتعددت اشكالها (من قبيل الضرب المبرح والإهانة والسب والإذلال والتجويع والتعطيش والحرمان من النوم). كما ان هناك دلائل قوية على ان كثيراً من حالات الاغتصاب (خاصةً للنساء والقاصرين) قد حدثت (وربما بشكل منهجي وواسع النطاق) في السجون والمعتقلات الإسرائيلية.[٥]
٦. التجويع والتعطيش الجماعي للغزيين بمنع الماء والطعام عنهم بما يعنيه ذلك من آلام قاسية يعانيها (وقد عاناها بالفعل) مئات الآلاف من المدنيين الأبرياء. ونتيجةً لهذا التجويع والتعطيش الجماعي الممنهج فقد سُجلت ووُثّقت الكثير من حالات الموت والهزال الشديد (خاصة بين الأطفال) بسبب سوء التغذية والجفاف وشح الطعام والماء الصالح للشرب.
٧. تعريض حياة المرضى والمحتاجين الى الرعاية الطبية الخاصة (كمرضى الكلى والسرطان والأطفال الخدج ومن يحتاجون الى عمليات جراحية طارئة او حيوية) الى الخطر بما يؤدي (وقد ادى فعلاً) الى الموت او الألم الشديد او الإعاقة او الزمانة بقطع امدادات الوقود والكهرباء والمعدات والأدوية والمواد الطبية وما شابه ذلك مما يحتاجه القطاع الصحي لتوفير الحد الأدنى من الخدمات الضرورية.[٦] كما ينبغي ان نلاحظ هنا تسجيل ارتفاع ملحوظ في بعض الأمراض وتفشي بعض الأوبئة في قطاع غزة بسبب تدمير او تعطيل شبكات الصرف الصحي والتلوث الشديد وتدهور حالة النظافة العامة (بسبب فقدان او شحة المواد والمعدات اللازمة لها) وانعدام الرعاية الصحية المطلوبة للوقاية من هذه الأمراض والأوبئة وعلاجها.
٨. تجريف ونسف اعداد كبيرة من المنازل والمجمعات السكنية والمرافق والمنشآت والمصانع والورش ودوائر

---

[٥] مشكلة الاغتصاب انه جريمة يحرص الضحية فيها (ربما اكثر من الجاني) على اخفائها والتستر عليها وانكارها لما تجره على الضحية من إذلال وآثار اجتماعية سيئة طويلة المدى، وذلك بسبب الثقافة الإنسانية الفاسدة التي تجرّم الضحية وتعاقبه على جريمة لا ذنب له فيها. وتزداد هذه المشكلة وتتضاعف آثارها في المجتمعات المحافظة المتدينة (كالمجتمع الفلسطيني). وهذا يجعل الاغتصاب الجريمة المثلى لدى الجاني (لعلمه او اطمئنانه بأنه سينجو من العقاب ـ بل وبمساعدة الضحية المنكر لوقوعها ـ مع شعور بعض الجناة بالفخر الداخلي بها والتلذذ الجنسي والسادي بذكراها) والجريمة الأكثر تدميراً للضحية (لآثارها النفسية المدمرة للضحية لشعوره العميق بالإذلال وعجزه عن الشعور داخلياً بالفخر بها ـ خلافاً لجرائم اخرى قد تولد شعوراً بالفخر لدى الضحية، كقطع الأطراف مثلاً، لكونه 'مناضلاً' او ما شابه ذلك ـ ولعلمه بنجاة الجاني من العقاب).

[٦] يجب ان نذكر في هذا السياق عمليات بتر الأطراف (وما شابهها) التي اضطُر الى اجرائها لكثير من المصابين والمرضى (ومنهم كثير من الأطفال) من دون تخدير لفقدان مواد التخدير. كما يجب ان نذكر المضاعفات المرضية التي سببها التلوث لفقدان مواد التعقيم مما أدى الى الموت او الإعاقة (فضلاً عن الآلام والمضاعفات الثانوية الأخرى).

الدولة والمعابر والشوارع والطرقات والحقول والمزارع ونحوها من المرافق الخاصة والعامة بحجةٍ وسبب (كاستحداث ممرات لدبابات الاحتلال ومدرعاته واقامة معسكرات ميدانية لجنوده وتأمين سلامتهم وسلامة المستوطنين في المستوطنات المجاورة بإقامة مناطق عازلة او أحزمة امنية ونحو ذلك) وبلا حجة وسبب (اي بدافع التشفي والانتقام والعبث بحياة الناس ومقدراتهم).

٩. سرقة كل ما تقع عليه ايدي الجنود في غزة من ممتلكات خاصة وعامة (بما في ذلك الحاجات الشخصية للمواطنين الغزيين وما وجده الجنود من مال ومتاع في بيوتهم او في محلات الصرافة او في دوائر الدولة وما شابه ذلك). وقد وثّق الصهاينة ذلك بأنفسهم في الفيديوهات التي صوروها ونشروها بأنفسهم على مواقع التواصل الاجتماعي من سرقات فردية وبما اعترفوا به رسمياً من مصادرة أموال وممتلكات عائدة ـ بحسب زعمهم الكاذب ـ لحماس وقادتها ومقاتليها. كما مارس الصهاينة كذلك سياسة الإتلاف المنهجي ـ لكل ما لا يسرق او لا يمكن سرقته ـ بالحرق والتحطيم وما شابه ذلك.

١٠. تدمير المقابر ـ تجريفاً ونبشاً ـ واستخراج الجثث منها وتركها في العراء او اخذها والعبث بها بحجة البحث عن ادلة ودلائل ترتبط بمقاتلي حماس او بـ 'الرهائن' المحتجزين لدى حماس.

١١. التدمير المنهج للبيئة ومظاهر الحياة فقد اتلفت اسرائيل البيئة الطبيعية لقطاع غزة نتيجة عملياتها العسكرية وما ألقته من كميات هائلة من المتفجرات (المحرمة دولياً وغير المحرمة) ما يعادل في قوته التدميرية وأثره السام على البيئة مفعول عدة قنابل نووية. كما انها تعمدت اتلاف (اي بغرض الإتلاف) كثير من الأراضي الزراعية والحقول والمساحات الطبيعية بما تحويه من غطاء نباتي وحياة برية. والواقع ان التلوث البيئي الذي ألحقته اسرائيل بقطاع غزة سيظل اثره لأجيال قادمة ويحتاج جهداً جباراً لإزالته وتحييد آثاره وإبطال مفاعيله التي فعلت ـ وستظل تفعل لأجيال عديدة قادمة ـ اثرها السلبي في حياة الغزيين وصحتهم وسلامتهم.[٧]

١٢. قطع الانترنت ووسائل الاتصال بالعالم الخارجي وحرمان سكان القطاع من التواصل فيما بينهم وبالعالم الخارجي بما يتضمنه ذلك من حرمانهم من خدمات اساسية وحيوية قد يؤدي في بعض الحالات الى تعريض حياة او سلامة المدنيين للخطر.

---

[٧] من هذه الآثار العتاد الذي لم ينفجر والذي سيظل يشكل خطراً على حياة المدنيين في المستقبل المنظور رغم ان المقاومة الفلسطينية قد وجدت له استخداماً مفيداً بتدويره لاستخدامه ضد الجيش الصهيوني وآلياته وتجهيزاته، ويبدو انه (مع اشياء اخرى مما خلفه الجيش الصهيوني كالشظايا والقطع المعدنية والمركبات المدمرة) سيشكل خط امداد مهماً للمقاومة بالمواد الأولية اللازمة لتصنيع السلاح والعتاد الذي تحتاجه المقاومة وتعويض اي نقص قد يطرأ على مخزوناتها وامداداتها.

٢.٤.١ الأهداف المعلنة وغير المعلنة للرد الصهيوني

اما الأهداف المعلنة لحرب الإبادة الصهيونية على غزة فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١. القضاء على حماس (تعبيراً عن كل حركات المقاومة الفلسطينية في غزة) بكل قدراتها العسكرية من رجال مقاتلين واسلحة وعتاد حربي وتحصينات وشبكة انفاق وما شابه ذلك.

٢. استعادة 'الرهائن' (او تحرير 'المخطوفين' الذين هم في الحقيقة أسرى حرب) بالقوة والعمل الأمني والعسكري لا بالتفاوض وعقد صفقة تبادل مع حركة المقاومة.

٣. السيطرة على القطاع إما عسكرياً وفعلياً وإما مدنياً وأمنياً. وقد تعددت الآراء والمخططات والنيات (الصهيونية وغير الصهيونية) في كيفية تحقيق ذلك فمنهم من يقترح اخضاع غزة بالقوة باحتلالها بالكامل وحكمها حكماً عسكرياً مباشراً بالحديد والنار، ومنهم من يقترح اقامة سلطة محلية من عملاء فلسطينيين يأتمرون بأوامر اسرائيل ويعملون وفق رغباتها ومخططاتها، ومنهم من يريد لما يسمى بالسلطة الوطنية الفلسطينية (وهي لاتختلف كثيراً في دورها وتكوينها عن العملاء المحليين المذكورين آنفاً) ان تعود فتبسط سيطرتها على غزة (كما كان الحال قبل 'انقلاب' حماس في 2006 وسيطرتها على القطاع) وتديره لصالح الصهاينة كما تفعل ذلك في الضفة الغربية، ومنهم من يقترح ان يُعهَد امر ادارة القطاع وتصريف شؤونه المدنية الى سلطة امية او ادارة دولية تشكلها الأمم المتحدة بمعاونة دول عربية واجنبية، ومنهم من يقترح ان يُعهَد ذلك الى دول عربية 'معتدلة' او يتم بالتعاون والتنسيق معها في ذلك. وقد ظل الإسرائيليون (ومن معهم) يضربون اخماساً في اسداس ويتشاجرون مع انفسهم ومع غيرهم حول هذا الموضوع دون ان يجدوا له حلاً (سهلاً او صعباً) او يصلوا فيه الى نتيجة وقرار. كل ذلك يحدث وحماس (ومن معها من فصائل المقاومة) لا تظهر وهناً او ضعفاً (بل تبدي قوة وصلابة وعزماً تتنامى مع مرور الزمن وتراكم التجارب والتكيف مع الوضع الجديد وتصاعد قيمة الإسناد الذي تتلقاه من جبهات اليمن ولبنان والعراق) فضلاً عن ان تكون على وشك الانهيار والدمار (وهو ما يفترض حدوثه قبل ان يكون الحديث عن هذه الخطط والأحلام ذا معنى).

واما الأهداف غير المعلنة للحرب الصهيونية على غزة فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١. تهجير سكان غزة الى خارج القطاع (بل خارج فلسطين) للتخلص منهم نهائياً (اي إحداث نكبة ثانية). والواقع ان هذا كان هدفاً معلناً في البداية بحجة تهجيرهم موقتاً خلال عملية 'تطهير' غزة من حماس بهدف

حمايتهم وتجنيبهم ويلات الحرب والقتل والإصابات ثم اعادتهم الى غزة بعد انتهاء عملية 'التطهير'. وقد كانت هذه خدعة مفضوحة لم تنطلِ على احد من الفلسطينيين او من غيرهم. كما ان هذا كان - وما زال - هدفاً معلناً لبعض غلاة المستوطنين داخل الحكومة الإسرائيلية وخارجها (كسموتريتش وبن غفير) الذين صرحوا برغبتهم في تهجير سكان غزة (او اغلبيتهم الساحقة على الأقل) ليتم الاستيلاء على غزة وإقامة المستوطنات فيها والحاقها بإسرائيل.

٢. استعادة الردع المفقود بإحداث مجزرة بشعة مهولة واسعة النطاق تُدمَّر فيها غزة بالكامل وتُحوَّل الى مكان غير صالح للحياة والعيش (كما حدث بالفعل) بهدف ردع الفلسطينيين (وغير الفلسطينيين) عن التفكير بالتحرش بإسرائيل في المستقبل لما سيواجهونه من ابادة ودمار مشابهين لما حصل في غزة. وقد كان هذا الهدف واضحاً في تهديدات الصهاينة للبنان حيث كانوا دائماً يذكّرون اللبنانيين بما سينتظرهم من تحويل لبنان الى غزة ان استمروا (واحياناً حتى إن لم يستمروا) في 'اعتداءاتهم' على إسرائيل. وقد ردد الصهاينة تهديدات مشابهة - مذكّرين بنموذج غزة الردعي - ضد سكان الضفة الغربية (وربما بنحو مشابه لا مطابق ضد سكان فلسطين داخل الخط الأخضر إن فكروا بالتمرد على 'اسيادهم' الصهاينة).

والواقع ان رسالة الردع (التي اشرنا اليها آنفاً بـ 'استعادة الردع المفقود') التي وُجّهت بما فعلته اسرائيل - بمعونة الغرب - من مجازر في غزة كانت ذات هدف أبعد ومنطوق اوسع من حيث المُرسِل والمتلقّي، فلم يقتصر المُرسِل على إسرائيل (بل تعدّى ذلك الى الغرب) كما لم يقتصر المتلقّي على الفلسطينيين وبعض الجيران العرب (بل تعدّى ذلك الى كل من يرى ويسمع في هذا العالم خاصةً الشعوب العربية والإسلامية). والخلاصة ان الغرب ارسل رسالة واضحةً - عبر إسرائيل ومنها كذلك - الى كل شعوب المنطقة والعالم مفادها ان من يجرؤ على تحدي الإرادة الغربية ويقف ضد مصالح الغرب الحيوية ونزواته الإجرامية فان مصيره هو الإبادة والدمار الشامل (كما حدث لغزة التي جُعلت مثالاً لهذا المصير القاتم). ويبدو ان إسرائيل - ومن ورائها الغرب - قد تعمدت ان تكون هذه الإبادة مفضوحةً في بعض اجزائها وتفاصيلها (او على الأقل لم تُتخذ اجراءات كافية للتستر على بعض وقائعها وفظائعها وإخراجها بنحو اكثر 'ذكاءاً') لكي تحقق الهدف المرجو وهو تحقيق الردع المطلوب ونشر الذعر لدى الأعداء الفعليين والمحتملين.

٣. الانتقام من الفلسطينيين بإبادتهم وتجويعهم وتدمير مساكنهم ومرافقهم المدنية (وهو ما فعله الإسرائيليون بالفعل) تشفياً وانتقاماً وإطفاءاً لجمرة الحقد الذي يعتلج في صدورهم ويؤرق مضاجعهم.

٤. تحويل غزة الى مكان غير صالح للحياة البشرية (او على الأقل الى مكان غير مريح للعيش ولا مرغوب

فيه) بهدف الانتقام منهم من جهة (كما في النقطة السابقة) وبهدف تهجيرهم والتخلص منهم نهائياً من جهة ثانية حيث ان مكاناً كهذا سيدفع ساكنيه الى هجره والرحيل عنه ويكون حافزاً للبحث عن مكان بديل للعيش والسكن.

٥.١ الأداء الصهيوني

لقد كان الأداء الصهيوني في ملحمة طوفان الأقصى سيئاً عموماً، ولم يقتصر هذا على الجانب السياسي والدبلوماسي (الذي لا يعرف عن اسرائيل حنكتها فيه)[٨] بل تعداه الى الجانب العسكري والاستخباري (الذي يشار الى اسرائيل فيه بالبنان كواحدة من دول العالم الأولى في هذا المجال).

فأما الجانب السياسي والدبلوماسي فقد اظهرت اسرائيل فشلاً فاضحاً في ادارته بحكمة وذكاء بما يخدم مصالحها ويحقق اهدافها. فقد ألّبت ـ بافعالها الإجرامية وسلوكها المتهور وتصريحاتها الرعناء وعنجهيتها المتغطرسة ـ دول العالم وشعوبها ضدّها وخلقت جواً من الكراهية والرفض لها لم تشهده من قبل إلا أسوأ الدول صيتاً في التاريخ (كألمانيا النازية ودولة الفصل العنصري في جنوب افريقيا). وقد ساعد على هذا الفشل والتخبط الاضطراب الداخلي في الكيان الصهيوني والانقسامات الحادة داخل النخب الإسرائيلية (سياسيةً وغير سياسية) وداخل المجتمع الإسرائيلي وتضارب الآراء فيما ينبغي وما لاينبغي فعله وما قاد اليه من تجاذب وصراع وغليان داخلي وشلل احياناً عن القدرة على اتخاذ القرارات والإجراءات المطلوبة بسبب التجاذبات والتوازنات الحرجة داخل الحكومة والنخب الصهيونية.[٩]

---

[٨] ينبغي ان نلاحظ هنا ان كل الإنجازات والنجاحات التي حققتها اسرائيل في المجال السياسي والدبلوماسي على طول تاريخها إنما تعود اساساً الى الدعم الغربي اللامحدود لها ووقوف الغرب الى جانبها دوماً في المحافل الدولية والاقليمية وتقديم كل اشكال العون والمساندة لها، وليست بسبب حنكتها او دهائها او ألمعيتها في السياسة والدبلوماسية (كما هو حال ايران مثلاً)، بل ان العكس هو الصحيح إذ اظهرت اسرائيل ـ بصلفها وغطرستها ورعونتها واستهتارها وتهورها ـ انها واحدة من اغبى الدول وافشلها في مجال السياسة والدبلوماسية لأنها ـ بأفعالها الحمقاء الرعناء وتصرفاتها الصفيقة المتهورة ـ تشتري الأعداء لنفسها بالجملة وبالمجان وتؤجج الكراهية ضدها. وابسط دليل على ذلك ان اسرائيل ظلت على طول تاريخها دولة منبوذة سيئة السمعة والصيت تنظر لها معظم شعوب الأرض وتُعاملها على انها كيان شاذ لا ينتمي الى الإنسانية ولا ينتسب الى المجتمع البشري. ويحلو لإسرائيل ان ترجع ذلك الى كراهية اليهود ومعاداة السامية بينما الواقع ان مرد ذلك هو غباؤها وحمقها وصفاقتها ورعونتها وفشلها في السياسة والدبلوماسية وعجزها المُقعِد عن فهم الواقع بذكاء والتصرف معه بحكمة.

[٩] يمكن ان نضيف الى هذه الأسباب والعوامل (او بالأحرى نقدم مثالاً واضحاً لها) الوضع الحرج لرئيس الحكومة الصهيونية نتنياهو بسبب تحالفاته الشاذة الحرجة مع احزاب فائقة التطرف والحمق وبسبب الملفات القضائية التي تلاحقه مما يقيد حريته ويقلل

وأما الجانب العسكري والاستخباري فقد كان اداء الكيان فيه ضعيفاً وفاشلاً عموماً قبل عملية طوفان الأقصى وخلالها وما تلاها. فقد عجزت اجهزة الاستخبارات الصهيونية ـ مثلاً ـ عن التنبؤ بـ او الكشف عن عملية طوفان الأقصى (او على الأقل عجزت عن تحليل المعلومات الاستخبارية التي كانت بحوزتها آنذاك وتقييمها بشكل صائب واتخاذ الإجراءات المناسبة إزاءها). كما عجز الجيش الصهيوني بكل الإمكانات الهائلة المتاحة له آنذاك (حتى مع الأخذ بنظر الاعتبار الفشل الاستخباري المشار اليه آنفاً) عن التعامل مع هجوم حماس وصده (او على الأقل إفشاله جزئياً) حيث كان نجاح حماس باهراً وبلغ ـ او كاد يبلغ ـ حد الكمال والإعجاز. كذلك عجزت الاستخبارات الصهيونية والجيش الصهيوني عن تدمير حماس بما يتطلبه ذلك من معلومات استخبارية عن شبكة انفاق حماس وتشكيلات وحداتها القتالية والتعامل بكفاءة ونجاح مع منظومات حماس التسليحية (رغم بساطتها النسبية) ومع اساليبها القتالية وخططها الميدانية والتكتيكية والاستراتيجية. فبعد مضي ما يزيد عن تسعة اشهر (عند كتابة هذه السطور) على ملحمة طوفان الأقصى لا يرى احد ـ بمن فيهم الصهاينة ـ ان حماس قد اصيبت بمقتل وانها على وشك الانهيار، بل لا توجد اي علامات على وهنها وضعفها. بل توجد دلائل ومؤشرات قوية على ان حماس قد امتصت الصدمة وتكيفت مع الوضع القائم وراكمت تجارب وخبرات ومعدات واسلحة واعتدة جديدة وطورت اساليب وتقنيات وتكتيكات مبتكرة وجندت آلاف المقاتلين الجدد وهي بذا حافظت على قوتها وربما زادتها. وقد انعكس هذا في ادائها المتميز في الأشهر الأخيرة (وربما المتفوق على أدائها في الأشهر الأولى). وقد اعترف الكثير من النخب الإسرائيلية (من رسميين وغيرهم) بأن هدف القضاء على حماس هو حلم ووهم وان الحديث عن ذلك هو ذر للرماد في العيون.

نعم، لقد كان النجاح الصهيوني باهراً في تخطيطه وتنفيذه لجريمة الإبادة بقتل النساء والأطفال والمدنيين ودفنهم احياءاً وتعويقهم وتدمير غزة تدميراً كاملاً وتجويع الغزيين وتعطيشهم وحرمانهم من ابسط مقومات الحياة وارتكاب كل افعال الإجرام المعروفة وغير المعروفة. وسيخلد التاريخ هذه 'الإنجازات الرائعة' للجيش الصهيوني لتبقى الأجيال القادمة تتذكره على انه الجيش الأكثر إجراماً وهمجية وتوحشاً في التاريخ.

من خياراته في ادارة الملفات السياسية والدبلوماسية.

٦.١ الدعم الذي تلقاه الكيان الصهيوني

لقد كان الدعم الذي تلقاه الكيان الصهيوني من داعميه (ممثلين بأمريكا وحلفائها وتوابعها الغربيين وعملائها العرب) هائلاً وغير مسبوق لا في تاريخ الكيان ولا في تاريخ غير الكيان. فقد تنوع هذا الدعم وتعدد ليشمل كل المجالات (عسكرية واستخبارية وسياسية ودبلوماسية واقتصادية ومالية واعلامية و ... إلخ) وكان ـ باختصار ـ فريداً من نوعه في التاريخ البشري كمّاً وكيفاً.

فقد اقيمت جسور وخطوط نقل جوية وبحرية وبرية لتزويد الكيان بكل ما يطلبه من اسلحة وعتاد وذخائر ومعدات وما شابه ذلك من تجهيزات عسكرية وغير عسكرية يحتاجها الكيان في حربه ضد غزة وارتكاب جريمة الإبادة. وقد تدفقت (حتى كتابة هذه السطور) عبر هذه الجسور وخطوط النقل مئات الآلاف من الأطنان من المعدات العسكرية وشبه العسكرية مضافاً الى ملايين الأطنان من المعدات والمواد الأخرى او ذات الاستخدام المزدوج (وما زالت هذه الإمدادات تتدفق على الكيان دون انقطاع حتى كتابة هذه السطور). بل ان الولايات المتحدة وحلفاءها وعملاءها لم يترددوا في الاشتراك المباشر في القتال الى جانب إسرائيل حين تحتاج الى ذلك. وقد تمثل هذا الاشتراك المباشر بإرسال الولايات المتحدة قوات نخبة الى غزة للتخطيط للعمليات وادارتها والإشراف عليها (وربما المشاركة في القتال ايضاً) وفي اعتراض الصواريخ والمسيرات اليمنية والإيرانية من قبل نظم الدفاع الغربية والنظم التابعة لجيوش الأنظمة العربية العميلة. بل ان الولايات المتحدة وبعض حلفائها واتباعها (وربما بعض عملائها العرب) لم يترددوا في القتال المباشر على جبهة اليمن المساندة لغزة بقصف اليمن بنحو منتظم لتحييده وإخراجه من الحرب ضد اسرائيل. والواقع ان الاشتراك المباشر ينبغي ان يشمل ارسال مرتزقة مأجورين ومجندين صهاينة من مزدوجي الجنسية للقتال في غزة وهو ما تتغاضى عنه ـ بل تشجعه ـ دول غربية عديدة. هذا هو المعلن والظاهر من الاشتراك المباشر و (ربما) ما خفي كان اعظم.

كما سُخّرت كل القدرات الاستخبارية للدول الغربية والأنظمة العربية العميلة في خدمة اسرائيل لتزويدها بكل ما تحتاج اليه من معلومات ومواد استخبارية لتنفيذ حرب الإبادة بكفاءة ونجاح. وقد وُظفت لذلك أحدث تقنيات ومنظومات الرصد والمراقبة وجمع المعلومات وتحليلها التي تشمل نظم الأقمار الصناعية ومحطات المراقبة والرصد البرية والبحرية والجوية والطائرات المسيرة والمطوقمة واجهزة الاستخبارات العسكرية والمدنية والتقنيات والقدرات السيبرانية وما شابه ذلك.

كما شُنت حملات دبلوماسية واسعة وخيضت حروب علاقات عامة شرسة وَظّفت فيها الولايات المتحدة (مدعومة ـ بشكل سري او علني ـ من حلفائها واتباعها وعملائها) كل قدراتها ومهاراتها في الإقناع والإغراء والضغط والتهديد والابتزاز لدعم مواقف اسرائيل في المحافل الدولية والاقليمية وتوفير الغطاء الدبلوماسي والسياسي والقانوني الذي تحتاجه لشن حرب الإبادة والاستمرار فيها ومنع اتخاذ إجراءات وعقوبات ضدّها. وقد شمل ذلك الدعم استخدام الولايات المتحدة لـ 'حق' النقض في مجلس الأمن لمنع تمرير قرارات تدعو لوقف اطلاق النار (وماشابه ذلك) لا تعجب اسرائيل ولا تتفق مع رغباتها. كما شمل ذلك ممارسة ضغوط على المنظمات والمحاكم الدولية والمنظمات غير الحكومية (وما شابهها) لردعها عن اتخاذ اي اجراءات ضد اسرائيل (او على الأقل تخفيف هذه الإجراءات وتلطيفها) او فضح جرائمها وانتهاكاتها.

كما وفرت الولايات المتحدة ومن معها ـ من حلفاء واتباع وعملاء ـ دعماً مالياً واقتصادياً هائلاً يشمل ـ فيما يشمل ـ منحاً مالية وقروضاً وتسهيلات وخدمات مصرفية بقيمة عشرات المليارات من الدولارات. وينبغي ان يشمل هذا الدعم كذلك اقامة ممرات وخطوط تجارة برية بديلة عن الممرات وخطوط التجارة البحرية التي فقدتها اسرائيل بفعل الحصار البحري الذي يفرضه اليمن عليها.

واما الدعم الإعلامي فحدّث عنه ولا حرج إذ تظافرت اجهزة الدعاية والتزييف والإرجاف وابواق الكذب والتهريج في الدول الغربية والدول التابعة لها لدعم الرواية الإسرائيلية والدفاع عنها وتشويه صورة حركات المقاومة ومحور المقاومة وتلميع صورة اسرائيل وتزويق حرب الإبادة وتمرير ما ينبغي ان يمرر وحجب ما ينبغي ان يحجب وما الى ذلك من اساليب وتكتيكات دعائية قذرة تستخدم في حروب الإعلام والحروب النفسية. وقد اشتركت في هذا الجهد الإعلامي المساند للكيان كل انواع وادوات الإعلام والدعاية المعروفة من مقروءة ومسموعة ومرئية ومن تقليدية وبديلة ونحو ذلك. وقد كان لأجهزة الإعلام العربي المتصهين (خاصةً في بعض دول الأعراب ولبنان) دور مركزي في هذا الجهد الإعلامي الداعم للصهاينة، فقد فاق هذا الدور في أهميته وحماسه في دعم الصهاينة دور كثير من اجهزة الإعلام الأجنبي وأدواته لأنه ـ بحكم لغته وثقافته ـ كان يستهدف بيئة المقاومة والمجتمعات الحاضنة لها والشعوب التي يُنتظر تعاطفها ودعمها للمقاومة، كما انه كان مستعداً للجوء الى اساليب غاية في القذارة (يُحتاج اليها احياناً) يترفع عن استخدامها حتى الإعلام الساقط في الدول الأجنبية. وبذا لعب هذا الإعلام المتصهين دوراً 'مشرفاً' وابلى بلاءاً حسناً في دعم حرب الإبادة وتسويقها وفاق في هذا الدور نظراءه من الإعلام الأجنبي الذي كان يتعفف ـ رغم انحطاطه ـ عن اقتراف ما يقترفه الإعلام العربي المتصهين. بل فاق هذا الإعلام 'العربي' المتصهين في حماسه وانحطاطه احياناً كثيراً من ابواق

الإعلام العبري المتطرف (فضلاً عن بعض الأصوات المعتدلة نسبياً في الكيان) فكان بذلك إعلاماً عبرياً مكتوباً بأحرف عربية وناطقاً بلسان عربي مبين.

الفصل الثاني
المجتمع الدولي وطوفان الأقصى

نقدم في هذا الفصل استعراضاً سريعاً للأصداء وردود الفعل الدولية على عملية طوفان الأقصى وملحمته ممثلة بالمواقف والتصريحات والإجراءات التي اعلنتها وتبنتها المنظمات الدولية والاقليمية ومنظمات المجتمع المدني ودول العالم عموماً (مع التركيز على الدول ذات العلاقة الخاصة بفلسطين المحتلة والقضية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية وتلك التي اتخذت مواقف مميزة سلباً او ايجاباً تجاه طوفان الأقصى). كما نستعرض بايجاز وإجمال مواقف بعض الشعوب وردود افعالها على طوفان الأقصى حيث نختتم الفصل بالحديث عن مسؤولية الشعوب العربية والمسلمة تجاه ما يحدث في طوفان الأقصى (بل عموماً).

١.٢ المنظمات الدولية والاقليمية

نقدم في هذا القسم عرضاً سريعاً لمواقف المنظمات الدولية والاقليمية تجاه طوفان الأقصى والأحداث المتصلة بهذا الطوفان.[١٠]

١.١.٢ الأمم المتحدة

اما مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فهو ـ كما هو معروف ـ مسيطر عليه غالباً من قبل اعضائه الخمسة الدائمين الذين يمتلكون 'حق' النقض، ولذا هو يصبح مشلولاً في القضايا المختلف عليها بين هذه الدول وهو ما حدث فعلاً في هذه القضية حيث أُبطلت عدة قرارات مقترحة من قبل روسيا ودول اخرى (متوازنة الى حد ما وتدعو الى وقف اطلاق النار) بنقض من قبل الولايات المتحدة (احياناً بمعونة غيرها)، كما

[١٠] الواقع اننا سندرج الأونروا هنا رغم اختلاف طبيعتها ودورها لأنه المكان الأنسب لها ضمن هذه الدراسة.

حدث العكس بابطال قرارات مقترحة من قبل الولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى (غامضة ومتحيزة الى اسرائيل) بالنقض الروسي والصيني. بل حتى القرارات القليلة التي مُرّرت لم يكن لها اي مفعول على الأرض إذ تجوهلت من قبل اسرائيل (وبتواطؤ غربي) ونُسيت سريعاً والتحقت بسلسلة طويلة من القرارات الأممية التي لا تزيد قيمتها على قيمة الحبر الذي كتبت به. وعلى كل حال حتى لو افترضنا انه كانت هناك ارادة دولية لتطبيق القرارات الممررة فانه لا توجد آليات وأدوات ووسائل عملية لفرضها وتطبيقها على الأرض امام الرفض الإسرائيلي.

واما الجمعية العامة للأمم المتحدة فهي لا تعدو ان تكون كياناً تشريفياً ذا قيمة فخرية ممثلة بما تعكسه الجمعية العامة من 'رأي عام' دولي لايقدم ولا يؤخر، وهي بذلك اعجز حتى من مجلس الأمن الكسيح المقعد في فرض ارادتها وقراراتها (التي بعضها على الأقل غير ملزم حتى نظرياً وقانونياً حسب شرعة الأمم المتحدة). وعلى كل حال فقد حققت فلسطين بعض 'الإنجازات' واحرزت بعض 'الانتصارات' في الأمم المتحدة مما عجزت عن تحقيق مثله في مجلس الأمن (فمبروك والف مبروك لفلسطين والشعب الفلسطيني على هذه المكاسب الرائعة!). وقد زادت هذه المكاسب عدداً وقيمة بمرور الوقت وتتابع اهوال حرب الإبادة مما زاد من التعاطف الدولي مع الفلسطينيين وأدى الى تخلي بعض اصدقاء اسرائيل عنها او فتور حماسهم لها ولأفعالها (رغم ان هذا التخلي والفتور كان في الغالب رياءاً وحفظاً للسمعة من ان تتدنس بالنجس الصهيوني وليس من باب صحوة الضمير او فضيلة الاعتراف بالخطأ او ما شابه ذلك).

واما المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة (كمنظمة الصحة العالمية وبرنامج الغذاء العالمي ومنظمة اليونيسيف بل حتى منظمة الأونروا التي هي فلسطينية الطابع) فقد كانت مواقفها عموماً ايجابية وإن كانت غالباً ما تتجنب استخدام تصريحات ومقاربات شديدة او تصادمية (بما يتناسب مع هول احداث الإبادة) خوفاً من اسرائيل وحماتها (وعلى رأسهم امريكا). وعلى كل حال، هذه المنظمات لا تقل عجزاً عن مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة في فرض ارادتها وقراراتها امام التعنت الصهيوني المدعوم أمريكياً وغربياً لافتقارها الى الوسائل العملية لفعل ذلك.

واما المسؤولون الكبار في الأمم المتحدة (وعلى رأسهم امينها العام) فقد اصدروا تصريحات وتبنوا مواقف ايجابية عموماً (اي منددة باسرائيل ومساندة للحق الفلسطيني) رغم انهم قد خضعوا للضغوط والابتزازات الغربية والصهيونية بتخفيف لهجتهم غالباً وبسحب تصريحاتهم احياناً بل حتى بانحيازهم (جزئياً او ضمنياً) لإسرائيل احياناً اخرى. وعلى كل حال لا ينتظر من هؤلاء اكثر او احسن مما صدر منهم فهم ليسوا سوى

موظفين (لا ثواراً او مناضلين) في منظمة كسيحة ذات دور تشريفي في الغالب تتحكم بها وتتمر عليها الدول الغربية (وعلى رأسها الولايات المتحدة) ولاتمتلك اي ادوات ذاتية او مستقلة عن الدول الأعضاء لتطبيق مقرراتها وفرض ارادتها.

وعلى كل حال، إذا لم يفعل العرب والمسلمون ـ بمنظماتهم ومسؤوليهم ـ أي شيء ذي قيمة فلماذا ينتظر من غيرهم غير ذلك. بل الواقع ان غيرهم الكثير قد فعل اكثر كثيراً مما فعله اكثرهم (وهو ما سنستعرضه في الأقسام والفصول القادمة).

٢.١.٢ جامعة الدول العربية

لم تكن هذه التحفة المسماة بجامعة الدول العربية لتفعل شيئاً اكثر من اصدار بعض البيانات الفارغة وعقد قمة متأخرة جاءت لتصدر قرارات لم ينفذ منها شيء لأن هذه الجامعة لم تبذل اي جهد لتنفيذها، بل لم يكن هنالك اي معنى لبذل جهد لتنفيذها. فقرار العمل على فتح المعابر وايصال المساعدات ـ مثلاً ـ بيد مصر تنفيذه (لو ارادت) برفع الحصار الذي تفرضه على غزة، فما دامت مصر هي التي تحاصر غزة فما معنى المطالبة بالعمل على فتح المعابر وايصال المساعدات وكيف تستطيع اي لجنة ـ من الجامعة او من خارجها ـ ان تنفذ هذا القرار ما دامت مصر مصرّة على فرض الحصار وتنفيذ ارادة اسرائيل وامريكا (بل وربما ارادة قيادتها التي كان يسرها سحق غزة ـ كما فعلت بأبنائها في القاهرة وغيرها ـ حتى لو لم تُرِد اسرائيل وامريكا ذلك).

والواقع انه ما دامت هذه الجامعة العربية المزعومة (التي لا هي بجامعة ولا بعربية بل هي مفرقة عبرية) مُسيطَراً عليها ومُسيَّرة من قبل انظمة حكم متواطئة مع امريكا واسرائيل فكيف يُتوقع منها ان تفعل شيئاً غير عقد الجلسات والمؤتمرات العقيمة والصدح بالخطب الرنانة وإصدار البيانات الفارغة (وهو ما لا يزعج امريكا واسرائيل بل تقر به عينهما). ولتفادي التبسيط واحتراماً للعدل والإنصاف ينبغي ان نضيف لذلك ان هذا لا يعود فقط الى سيطرة الدول العميلة عمالة صريحة للغرب على قرار هذه المنظمة الكسيحة وتسييرها وادارتها وفق اهوائها وارادتها بل لأن البقية الباقية من 'الشرفاء' في هذه الجامعة لم يكونوا ليفعلوا اكثر من هذا ولا احسن منه إما لأنهم عملاء مبطنون وإما لأنهم جبناء متخاذلون تنقصهم الإرادة والشجاعة والمروءة والنخوة.

والخلاصة، لقد كان خزي العرب وعارهم وشنارهم بهذه الجامعة (كما بغيرها) كعهدنا به من قبل، بل زاد اضعافاً مضاعفة هذه المرة بما يتناسب مع حجم الكارثة التي حلت بغزة والتي لم يشهدها العرب ولا غير العرب من قبل. لقد فاق عار العرب وخزيهم هذه المرة كل خزي وعار ـ بما في ذلك عار اسرائيل وخزيها ومن يدعمها

ـ لأن هؤلاء انما يذبحون اعداءهم بينما العرب يذبحون اخوتهم وابناءهم.

٣.١.٢ منظمة التعاون الإسلامي

لم يكن اداء منظمة التعاون الإسلامي وفعلها بأحسن من اداء جامعة الدول العربية وفعلها فهما في الترهل والعجز والفشل سواء. ونكرّر ما قلناه آنفاً بشأن جامعة الدول العربية وهو انه ما دامت هذه المنظمة مُسيطَراً عليها ومُسيَّرة من قبل انظمة حكم متواطئة مع امريكا واسرائيل فكيف يُتوقع منها ان تفعل شيئاً غير عقد الجلسات والمؤتمرات العقيمة والصدح بالخطب الرنانة وإصدار البيانات الفارغة (وهو ما لا يزعج امريكا واسرائيل بل تقر به عينهما). فضلاً عن ذلك ان معظم الدول الإسلامية هي كالدول العربية في التبعية للغرب والخضوع لابتزازاته وتهديداته وإغراءاته وهو ما يُعجز 'الشرفاء' ـ كغيرهم ـ عن فعل اي شيء مفيد. وعلى كل حال، اذا لم يفعل الأقربون شيئاً فلماذا يُنتظَر من الأباعد اكثر من ذلك.

والخلاصة، لقد كان خزي المسلمين وعارهم وشنارهم بهذه المنظمة (كما بغيرها) كعهدنا به من قبل فقد عجز المسلمون (ممثلين بهذه المنظمة) كما عجز العرب (ممثلين بجامعتهم الميمونة). وبذا نستطيع القول ان حرب الإبادة الصهيونية كانت مدعومة بالعجز العربي الإسلامي عن القيام بفعل مفيد بقدر ما هي مدعومة بالإسناد اللامحدود الذي قدمته وتقدمه الولايات المتحدة وبقية دول الغرب لإسرائيل. وفي رأيي ان العامل الأول لايقل في اهميته (لإنجاز الجريمة) عن العامل الثاني كما انه لا يقل في مسؤوليته (عن وقوع الجريمة) عن العامل الثاني، فما كانت الجريمة لتحدث (على الأقل بهذا الشكل الفظيع) لولا العجز العربي الإسلامي عن القيام بفعل مفيد كقطع العلاقات الدبلوماسية والتجارية واستخدام القدرات الاقتصادية الهائلة للدول العربية والإسلامية (ومنها سلاح النفط والغاز)[١١] وفرض مقاطعة تجارية او حصار بحري او جوي (مستغلين سيطرة الدول العربية والإسلامية على اهم الممرات البحرية والجوية في العالم) وغيرها الكثير مما كان يمكن فعله (فضلاً عما كان يمكن فعله من عمل عسكري وهو ما لم يحلم احد به فضلاً عن المطالبة به).[١٢] ولقد اثبت اليمن انه

[١١] يحضرني في هذا الصدد موقف مضحكٌ مبكٍ لوزير الطاقة السعودي وذلك حين سُئل إبان ذروة حرب الإبادة في غزة عما إذا كان من الممكن للسعودية ان تستخدم سلاح النفط ضد الدول الغربية على غرار ما حدث عام 1973 إذ قابل الوزيرُ هذا السؤالَ ـ قبل ان يجيب عليه ـ بضحكة مترهلة تكشف ـ برأيي ـ عن خبايا الموقف السعودي (إن كان هناك خبايا). وكأني بهذه الضحكة تجيب على هذا السؤال الأحمق بالقول: كيف لنا ان نستخدم النفط سلاحاً ضد من نتحالف معهم في هذه الحرب على غزة.

[١٢] الواقع ان كلامي هذا ينبغي ان يكون مدعاةً للضحك والسخرية لأن ما حدث هو العكس تماماً إذ بدلاً من ان تهبّ الدول العربية والإسلامية لمساعدة غزة، هبّت دول عربية واسلامية عديدة لمد يد المساعدة الى إسرائيل وامدادها بكل ما تحتاجه لتنفيذ

كان بامكان العرب والمسلمين لو كانوا حقاً يمتلكون جامعةً ومنظمة تمثلانهم وتدافعان عن حقوقهم ومصالحهم ان يركّعوا لا اسرائيل فحسب (وهي أتفه من ان يكون لتركيعها قيمة تذكر) ولا امريكا والغرب كذلك بل العالم كل العالم.

٤.١.٢ مجلس التعاون الخليجي

وإذا فشلت الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي (وغيرها من المنظمات الدولية والاقليمية) ان تفعل شيئاً مفيداً فماذا ننتظر من مجلس التعاون الخليجي (وهو بالمناسبة اصبح مفككاً ومشتتاً ـ بل مشلولاً ومهمشاً ـ وفقد اندفاعته السابقة بعد الأزمة القطرية). بل الخطب هنا اعظم لأن هذا المجلس يتشكل اساساً من دول تابعة لأمريكا وبعضها يقيم علاقات دبلوماسية وامنية وعسكرية واقتصادية متينة مع اسرائيل بل هو متحالف معها.

وعلى كل حال، لقد انشئ مجلس التعاون الخليجي لمواجهة 'الخطر الإيراني' والوقوف بوجه المطامع والتمددات الاقليمية المحتملة للدول الكبيرة المجاورة لدول المجلس (كما حدث حين اجتاح العراق الكويت)، ولذا آخر ما ينتظر من مجلس كهذا ان يهتم اهتماماً حقيقياً بالقضية الفلسطينية او يقدم لها دعماً حقيقياً (فضلاً عن ان يدعم المقاومة الفلسطينية المسلحة او يناصب اسرائيل العداء).[١٣] والخلاصة، ان ما يُنتظر من مجلس التعاون الخليجي (وهو ما حدث بالفعل عموماً) ان يكون نشطاً وفعالاً وقوياً وصارماً وحازماً بوجه ايران او العراق او اليمن لا بوجه اسرائيل او امريكا او اوروبا (فهم ـ اي الخليجيون ـ نمور شرسة تجاه الأولين وحملان وديعة تجاه الآخرين).[١٤]

جريمة الإبادة (راجع مثلاً § ٦.١).

[١٣] يحلو للخليجيين الحديث عن الدعم المالي السخي الذي قدموه ويقدمونه للفلسطينيين متناسين ان معظم هذا الدعم يذهب الى اطراف وجهات فلسطينية 'معتدلة' سائرة في ركب الغرب او متماشية معه وبغرض دعمها وتقويتها للوقوف بوجه قوى الثورة والمقاومة الحقيقية. فهذا الدعم غالباً ما يكون للتآمر على القضية الفلسطينية لا لدعمها. وهذا الامر لا يقتصر على الماضي القريب من دعمهم لما يسمى بالسلطة المحلية الفلسطينية بل هو كذلك حتى في دعمهم للقيادة التاريخية للثورة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية (متمثلة بياسر عرفات المعروف بتوجهاته والاعيبه التي انتهت بمؤامرة اوسلو الكارثية التي كادت ان تنجح في تصفية القضية الفلسطينية لولا الجهد المقاوم الحقيقي من حماس والجهاد الإسلامي الذي توّج بطوفان الأقصى).

[١٤] او كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.

٥.١.٢ الاتحاد الاوروبي

لقد تميزت مواقف الاتحاد الاوروبي عموماً بالانقسام الداخلي بين مسؤوليه ومتحدثيه الذين اتبعوا غالباً مواقف او توجهات الدول التي ينتمون اليها. فمثلاً، بينما كانت 'رئيسة الاتحاد الأوروبي' الالمانية أورسولا فون دير لاين متطرفة في تأييدها لإسرائيل نجد 'وزير خارجية' الاتحاد الاوروبي الاسباني جوزيب بوريل معتدلاً ومتوازناً الى حد ما (وان كان ـ طبعاً ـ لا يصل الى الحد المطلوب).

ولكن نستطيع القول باجمال ان الاعم الغالب في مواقف الاتحاد الاوروبي وتصريحاته هو الانحياز الى اسرائيل (وبشكل فاضح غالباً). والسبب واضح وهو ان معظم دول الاتحاد الاوروبي منحازة بشدة الى اسرائيل وقد عبّرت عن ذلك بصراحة ووضوح خاصة في المراحل الأولى من ملحمة طوفان الأقصى. فضلاً عن ذلك، ان الدول المهيمنة على الاتحاد الاوروبي (خاصة المانيا التي هي اكبر واهم دولة فيه) منحازة بشدة الى اسرائيل. ثم ان دول الاتحاد الاوروبي خاضعة للضغوط الامريكية بل تابعة ـ الى حد كبير ـ للقرار الأمريكي والسياسات الأمريكية في مجال السياسة الخارجية والدفاع (آخذين بنظر الاعتبار ان معظم دول الاتحاد الاوروبي ـ بل كلها تقريباً ـ هي اعضاء في حلف شمال الاطلسي الذي تقوده امريكا).

فضلاً عن كل ذلك، اوروبا بغربها وشرقها ـ دولاً ومؤسسات وحكومات ـ مسيطر عليها من قبل الحركة الصهيونية وخاضعة لتاثير اللوبيات وجماعات الضغط الصهيونية ومن يعمل لهم ـ بأجر وبدون أجر ـ ويتبادل الخدمات معهم. ثم ان اوروبا ثقافياً معادية للإسلام والمسلمين وتجتاحها في هذه الحقبة تيارات فاشية قوية ظهر اثرها في البرلمان الاوروبي (خاصة في نتائج الانتخابات الأخيرة التي حقق اليمين الفاشي فيها انتصارات مهمة) وهو ما ينبغي ان ينعكس ويتجلى في سياسات الاتحاد الاوروبي وتوجهاته.

والخلاصة، ان الاتحاد الاوروبي لم يكن داعماً للحق الفلسطيني ورافضاً لحرب الإبادة، بل ولا عاطلاً وصامتاً ومتواطئاً مع اسرائيل، بل كان داعماً ـ وبقوة غالباً ـ لجرائم اسرائيل وافعالها بالقول والفعل. وينبغي ان يضاف هذا العار لا الى سجل الاتحاد الاوروبي فحسب بل الى سجل اوروبا وانجازاتها 'الحضارية' التي لم تبتدئ بالحروب الصليبية في 'العصور الوسطى' ولم تنته بها إذ ما زالت حروبها الصليبية جارية حتى اليوم ومنها ما تفعله اوروبا (والغرب عموماً) بغزة على ايدي اليهود.

٦.١.٢ محكمة العدل الدولية

يعرف الجميع ما قامت به دولة جنوب افريقيا (نيابة عن الدول العربية والإسلامية!) من عمل رائع حين رفعت قضية الإبادة ضد اسرائيل امام محكمة العدل الدولية وقدمت من الحجج والأدلة والبراهين ما لا مزيد عليه ورافعت وحاججت امام المحكمة بمهارة وحماس فائقين كما لو انها كانت دولة فلسطين لا دولة جنوب افريقيا.[١٥] ورغم ان محكمة العدل الدولية قد اتخذت اجراءاً اولياً لا باس به (باعتبارها ان الدعوى المرفوعة جديرة بالنظر لاحتمال صدق تعريف الإبادة على ما يجري في غزة) فان من الواضح انه كان بإمكان المحكمة ان تفعل اكثر من هذا كالمطالبة بوقف اطلاق النار وهو ما لم تفعله. وباختصار، ان هذا القرار لم يكن الا نصف قرار.

كما ان المحكمة قَصُرت وقَصّرت في القضية التي رفعتها نيكاراغوا ضد المانيا بتهمة مساهمة المانيا في الإبادة بدعم اسرائيل تسليحياً ومالياً وما شابه ذلك. فقد اختارت المحكمة رفض النظر في هذه الدعوى (بما يعنيه ذلك من رفض اتخاذ إجراءات طارئة لوقف صادرات الأسلحة الألمانية إلى إسرائيل والطلب من المانيا استئناف تمويلها للأونروا) بحجة ان المحكمة ترى أن الظروف التي عرضت عليها ليست كذلك ولا تستدعي اتخاذ تدابير احترازية. وواضح ـ في رأيي على الأقل ـ ان هذا القرار مسيّس ومنحاز إذ لا يمكنني ان اتصور ان قضاة هذه المحكمة بلغوا من العمى ما يعجزهم عن رؤية ان الظروف التي عرضت على المحكمة هي كذلك (لا 'ليست كذلك') او على الأقل ان الظروف كان فيها مجال للشك والاحتمال مما لا يبرر ـ او على الأقل يشكك في ـ رؤيتهم هذه. والطريف ان حكم هذه المحكمة كان قاطعاً هذه المرة ولا ينتابه شك او تردد خلافاً لأحكامها وقراراتها بشأن القضايا المناصرة لفلسطين والرافضة لحرب الإبادة والتي هي في حقيقتها مترددة إذ هي ليست الا انصاف قرارات وانصاف 'حلول' (كما هو حال قرارها الأول ـ المشار اليه آنفاً ـ الذي فشل في المطالبة بوقف اطلاق النار وقرارها الثاني ـ الذي سنشير اليه لاحقاً ـ والذي فشل في المطالبة بوقف

---

[١٥] كما ان هذا العمل النبيل والرائع من دولة جنوب افريقيا ينبغي ان يُتذكر كتجلٍّ رائع للإنسانية وقيمها السامية وكدَيْن في اعناق العرب والمسلمين لدولة جنوب افريقيا وشعبها الى يوم الدين، فانه ينبغي ان يتذكر كذلك كوصمة عار في جبين العرب والمسلمين (تضاف الى سجلهم الحافل بالعار) وكشاهد على مدى فشلهم وتقصيرهم في نصرة اخوتهم في غزة، حيث قامت جنوب افريقيا ـ وهي دولة لا عربية ولا مسلمة ـ بما تقاعس جميعهم عن القيام به (رغم سهولته) وهو لم يكن بالنسبة اليهم وما ينتظر منهم إلّا اقل القليل مما يجب عليهم فعله بل هو أدنى واضعف حتى من اضعف الإيمان. كما ان فشل العرب والمسلمين هذا يكشف عن مدى شللهم وعجزهم وجبنهم امام الولايات المتحدة والغرب وارتهانهم للإرادة الأمريكية والغربية.

اطلاق النار في كامل قطاع غزة).[١٦]

وقد خرجت علينا محكمة العدل الدولية مرة اخرى بنصف قرار حين طالبت المحكمة اسرائيل بوقف هجومها العسكري على مدينة رفح (لا في كل القطاع). وكأني بهذه المحكمة تريد ان تقول ضمناً ان لإسرائيل الحق في مواصلة هجومها (فضلاً عن الابتداء به) على بقية اجزاء القطاع. والواقع ان هناك الكثير من جوانب القصور والتقصير (بل التحيز الضمني) في قرارات هذه المحكمة عموماً ومنها هذا القرار لا مجال للخوض فيها وتفصيلها بسبب طبيعة دراستنا هذه (اي كونها استعراضية تحليلية) والحجم المقرر لها.

والنتيجة انه يمكن القول باختصار ان مقاربات محكمة العدل الدولية وقراراتها كانت عموماً ناقصة وقاصرة ومجتزأة ولا تبلغ المدى المطلوب منها للوفاء بواجبها وتحمل مسؤوليتها تجاه ابادة شرسة وشاملة كهذه. وكالعادة، يمكننا بسهولة ان نشخص السبب وراء هذا السلوك المشين للمحكمة وهو التحيز الشخصي لدى القضاة او بعضهم (بسبب رغبتهم في الالتزام بمواقف بلدانهم مثلاً) وخضوع المحكمة للضغوط والتدخلات الغربية (خاصة من الولايات المتحدة).

٧.١.٢ محكمة الجنايات الدولية

لم يكن اداء محكمة الجنايات الدولية بأفضل من اداء محكمة العدل الدولية بل كان في الحقيقة اسوأ وابلغ في التحيز والتواطؤ. فقد ظلت هذه المحكمة متجاهلة للإبادة الجارية امام اعينها (واعين العالم قاطبة) رغم الكمية الهائلة من الأدلة على هذه الإبادة والجرائم البشعة التي ارتكبت فيها ورغم كثرة الدعاوى التي رفعت امام المحكمة ضد مجرمي الحرب الصهاينة. والواقع ان هذا التجاهل والتعامي يعود الى ما قبل طوفان الأقصى بسنين إذ ظلت المحكمة عاطلة متبطلة عن اتخاذ اي اجراء ضد الصهاينة رغم كثرة الدعاوى التي رفعت امامها بهذا الخصوص.

كما ينبغي ان نقارن هذا العمى والتغابي والتبطل في مقاربة المحكمة لحرب الإبادة في غزة بالبصر الحاد والبصيرة الثاقبة والحماسة الفائقة التي اتسمت بها هذه المحكمة تجاه المزاعم ضدّ الرئيس الروسي فيما 'ارتكبه من جرائم' خلال الحرب الروسية الأطلسية على الأرض الأوكرانية (مما سنشير اليه لاحقاً) فسارعت الى اصدار مذكرة

[١٦] ربما يجب ـ للإنصاف ـ ان ننوه بالقرار (او الأحرى الرأي الاستشاري) الذي اصدرته محكمة العدل الدولية اخيراً بشأن الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967 ولاشرعية بناء المستوطنات فيها (مع ملاحظة ان هذا القرار استشاري اولاً وهو لا يعدو ان يكون تقريراً لأوضح الواضحات ثانياً ومن ثم هو قليل القيمة بلحاظ هذين الأمرين).

اعتقال بحقه دون تردد او تأخير بل وبمبادرة من مدعيها العام دون ان يدعوه احد لفعل ذلك او يرفع دعوى ضد الرئيس الروسي.

ولا ينبغي الشك في انحياز المدّعي العام لهذه المحكمة (كريم خان) ولاأمانته ولاشفافيته إذ هو ليس سوى رجل الغرب الذي اختير لهذا المنصب (بل عُيّن فيه في الواقع بألاعيب بريطانية وغربية معروفة وموثقة) ليدير للغرب ملفاته 'القضائية' ودعاواه ضد الخصوم والمستضعفين من المشاكسين من قادة وزعماء 'العالم الثالث' ومن هم على شاكلتهم.[١٧] وقد ثبت هذا بالدليل القاطع من خلال مسارعة كريم خان ومبادرته الى اصدار مذكرة اعتقال بحق الرئيس الروسي فلاديمير بوتين مستنداً الى حجج ومبررات واهية مع طول عجزه وتردده (قبل وبعد طوفان الأقصى) عن اصدار مذكرة واحدة ضد مجرمي الحرب الصهاينة (وهم بالألوف) ممن وُثِّقت جرائمهم (او وَثَّقوا هم جرائمَهم بأنفسهم) بالأدلة القاطعة.

ويبدو لي واضحاً ان الدعوى التي رفعها كريم خان ضد نتنياهو وغالانت لم تصدر عن وازع اخلاقي او ضمير انساني او احترام لما يسمى بالقانون الدولي او القوانين الإنسانية، بل اغلب الظن انها جاءت تعبيراً عن رغبات بعض الدول الأوروبية التي ـ رغم كل تواطؤها وانحيازها لإسرائيل ـ وجدت نفسها في موقف صعب وحرج شديد وقدّرت انها ستفقد كامل مصداقيتها إن لم تفعل شيئاً رمزياً من هذا القبيل.

والخلاصة انه لا ينبغي الظن ان قرار كريم خان جاء بسبب صحوة ضمير او احترام لقواعد المهنة ومتطلبات المنصب، إذ لا ينبغي الشك في عدم نزاهة هذا الرجل فله تاريخ طويل في المماطلة والتأخير باتخاذ اي إجراء ضد إسرائيل ومجرميها (قبل وبعد طوفان الأقصى). كما لا ينبغي ان ننسى مقالته التي انحاز فيها الى جانب اسرائيل ورسم لها صورةً برّاقة كدولة قانون ذات مؤسسات ونظم وقواعد (بما في ذلك 'جيش الدفاع الإسرائيلي' المعروف ببطشه وإجرامه) وانها لا تُقارن بحماس الإرهابية.

ثم ان كريم خان باقتصاره على نتنياهو وغالانت وخلطه حماس بإسرائيل كان واضحاً في لاموضوعيته ولامهنيته خصوصاً حين يتعلق الأمر بطلب إصدار مذكرة اعتقال بحق إسماعيل هنية الذي لم يشارك في اي نشاط عسكري او 'إرهابي'. ولو كان كريم خان متّسقاً في قراره ومنطقياً في توجيهاته لأصدر مذكرة اعتقال بحق رئيس الكيان الصهيوني[١٨] الذي له مواقف معروفة في التحريض على الإبادة وتبريرها (وهو ما ليس له

[١٧] ينبغي ان نتذكّر بهذا الصدد ما نُقل عن كريم خان من قوله إن شخصية كبيرة أخبرته أن المحكمة الجنائية الدولية بنيت من أجل أفريقيا والبلطجية مثل بوتين، وليس من أجل الغرب وحلفائه. كما ينبغي ان نتذكّر كذلك اتهام الرئيس الدوري للاتحاد الأفريقي للمحكمة الجنائية الدولية بأنها تمارس نوعاً من المطاردة العنصرية ولا تلاحق إلا أفارقة.

[١٨] هذا في الحقيقة ليس سوى مثال (مناظر لهنية) وإلا فهناك المئات والألوف من المجرمين الصهاينة الذين ينطبق عليهم لا

نظير او مقابل في سلوك هنية وتصريحاته).

وكما قلنا، فان اغلب الظن ان قرار كريم خان جاء بضغط او طلب من بعض اسياده الأوروبيين الذين اصابهم شيء من الحرج امام هول المذبحة المتواصلة التي اضرّت بسمعتهم ومصداقيتهم واراقت ماء وجوههم (آخذين بعين الاعتبار ان نتنياهو وحكومته المتطرفة ليسوا محبوبين حتى لدى حلفاء إسرائيل المخلصين ولذا فمطاردة نتنياهو وغالانت ليست تضحية كبيرة من الأوروبيين). وربما حاول كريم خان بمذكرته هذه إنقاذ شيء من سمعته وماء وجهه كذلك بعدما بان تخاذله بل تواطؤه مع الكيان الصهيوني وجرائمه.

وعلى كل حال، قضية محكمة الجنايات الدولية ما زالت جارية ولم تستكمل إجراءاتها وفصولها بعد، ولا ندري ما يخبّؤه المستقبل لنا في هذا الخصوص مما قد يكشف المزيد من تواطؤ كريم خان (ومن معه ومن وراءه) حتى في قضية الدعوى هذه. كما يمكن ان يكون من فوائد هذه الدعوى للأطراف الصهيونية والداعمة لإسرائيل انها تقتصر على شخصين اثنين وكأنّ كل هذه الجرائم البشعة التي شارك فيها كل 'شعب' اسرائيل تقريباً هي من فعل نتنياهو وغالانت (وربما يلتحق بهم بضعة اشخاص آخرين فيما بعد) وليست هي جريمة إبادة ترتكبها 'أمّة' ضد أمّة أخرى.

بل ربما تكون اجراءات محكمة الجنايات الدولية لعبة اشغال للحفاظ على شيء من مصداقية هذه المحكمة ومدعيها العام حيث يقوم هذا المدعي بطلب اصدار مذكرات توقيف بينما تقوم دول نافذة كبريطانيا بإعاقة الإجراءات ووضع العصي في العجلات وبذا تكون المحكمة (بمدعيها العام) قد احتفظت بشيء من مصداقيتها دون ان تخسر بريطانيا شيئاً يذكر لأن الموقف البريطاني في دعم اسرائيل هو متطرف اساساً ويبلغ الذروة ولن يزيده او ينقصه شيئاً إعاقة إصدار مذكرات توقيف. ولا ينبغي ان نستغرب إذا وجدنا في النهاية ان مذكرات التوقيف قد صدرت بحق قادة حماس فقط ولم يصدر اي منها بحق اي صهيوني بمن فيهم نتنياهو وغالانت (فيكون الأمر من باب صيد عصفورين بحجر).

٨.١.٢ الأونروا

يختلف الأمر مع الأونروا لأنها منظمة 'فلسطينية' في جوهرها وينبغي ان تعد من رموز الوجود الفلسطيني،

ما ينطبق على رئيس الكيان الصهيوني فحسب بل ما ينطبق على نتنياهو وغالانت كذلك (بل وما ينطبق على مجرمي الحرب الميدانيين كالطيارين الإسرائيليين ومرتكبي مجزرة مستشفى الشفاء وغيرها مما يصعب عدّه وحصره).

فقد انشئت هذه المنظمة بهدف اغاثة اللاجئين الفلسطينيين وتقديم العون لهم.[١٩] ولذا كانت الأونروا هدفاً لنقمة اسرائيل وداعميها لأنها تمثل شاهداً حياً على النكبة والاحتلال وشريان حياة للفلسطينيين كشعب يعاني ـ في معظمه ـ من اللجوء والتشرد.[٢٠] وكلنا يذكر وقف إدارة دونالد ترامب تمويل الأونروا ـ بإيحاء من حليفه نتنياهو وصهره جاريد كوشنر اليهودي الصهيوني ـ كجزء من الحملة الصهيونية الأمريكية الشرسة (التي رافقت بالمناسبة مشروع ما يسمى بـ 'صفقة القرن' وربما عُدّت جزءاً متمماً لها) للقضاء على وجود الفلسطينيين كشعب وتصفية القضية الفلسطينية نهائياً.

وقد ظلت اسرائيل تتهم الأونروا بدعم الإرهاب وتمويل نشاطات حماس وغير ذلك من التهم والأكاذيب والتلفيقات التي عهدناها من اسرائيل والإسرائيليين وصارت صفة مميزة لها ولهم.[٢١] وقد تعمدت اسرائيل خلال حربها الإبادية ضد غزة (بل وفي حروبها وجرائمها السابقة لطوفان الأقصى) استهداف المراكز والمنشآت والتجهيزات والممتلكات التابعة للأونروا وهو ما ادى الى استشهاد الكثير من المدنيين الفلسطينيين وموظفي الأونروا فضلاً عن تدمير واتلاف الكثير من المباني والممتلكات والتجهيزات والمواد الإغاثية وتعطيل وإعاقة قدر كبير من الخدمات والتسهيلات التي توفرها الأونروا للفلسطينيين.

ثم ان اسرائيل لم تكتف بكل ذلك فادّعت (ضمن خطة او مسرحية متفق عليها فيما يبدو مع الأمريكيين) أن عدداً من موظفي الأونروا في قطاع غزة شاركوا في هجوم حماس في السابع من تشرين الأول (اي عملية طوفان الأقصى) وأن المئات من موظفي الأونروا في القطاع ينتمون الى جماعات ارهابية مسلحة (اي حركات المقاومة في القطاع). وقد أدّى هذا الادعاء (الذي لم تُرفقه اسرائيل باي دليل والذي ثبت فيما بعد انه لا اساس له من الصحة اطلاقاً بل هو اختلاق اسرائيلي صرف)[٢٢] الى ايقاف جماعي (تصدّرته امريكا

---

[١٩] هذا يعني طبعاً اختلاف مقاربتنا للأونروا هنا عن مقاربتنا لبقية المنظمات الدولية والاقليمية لاختلاف طبيعتها ودورها واننا ندرج الأونروا هنا لأنه المكان الأنسب المتاح في هذه الدراسة.

[٢٠] حسب وزارة الخارجية والمغتربين لدولة فلسطين فان '70 بالمائة من الشعب الفلسطيني في العالم من اللاجئين، حيث يعدّ واحد من كل ثلاثة لاجئين في العالم لاجئاً فلسطينياً، ولا يحمل نصف اللاجئين الفلسطينيين الجنسية' (انتهى الاقتباس). ويبدو ان هذا (اي كون معظم الفلسطينيين لاجئين) مما يتفرد به الشعب الفلسطيني ويتميز عن بقية شعوب الأرض وهو تعبير صارخ عن حجم الظلم الذي تعرض ـ وما زال يتعرض ـ له الشعب الفلسطيني ومستوى النذالة التي بلغها الغرب إذ شرد واضطهد شعباً كاملاً ليخلق وطناً مزعوماً لجماعات من المأفونين وشذّاذ الآفاق كانت لهم اوطان (بل وما زالت لكثير منهم اوطان لأن كثيراً من الإسرائيليين يحملون جنسيات أخرى بالإضافة الى جنسيتهم الصهيونية).

[٢١] يجدر الإشارة هنا الى ان الكنيست الإسرائيلي قد صادق (في أواخر الشهر الخامس من عام 2024) في قراءة تمهيدية على مشروع قانون يهدف إلى تصنيف الأونروا منظمةً إرهابية (وقد صادق عليه كذلك في ثلاث قراءات لاحقة).

[٢٢] هذه السلاسة والسهولة التي يشعر بها الإسرائيليون (ويعلمها غيرهم جيداً) في ممارسة الكذب والاختلاق (والتي تصل

وكثير من الدول الأوروبية والغربية) لتمويل الأونروا. ويبدو ان المواقف والإجراءات الخرقاء (وربما الخبيثة) التي اتخذها بعض مسؤولي الأونروا (كفصل بعض 'المشتبه بهم' من العاملين في الأونروا وايقاف بعضهم الآخر عن العمل في الأونروا ريثما يتم التحقيق في المزاعم الإسرائيلية) قد ساعدت على اعطاء انطباع ان لهذه الأكاذيب اساساً من الصحة وانها جديرة بالنظر والتحقيق.

ورغم ان معظم هذه الإيقافات (اي ايقافات التمويل) قد الغيت لاحقاً بعد ثبوت زيف الادعاءات الإسرائيلية (او على الأقل انعدام الدليل عليها) فان الولايات المتحدة وبعض توابعها واتباعها ظلوا متمسكين بإيقاف تمويلهم للأونروا ودعمهم لها. وهنا ينبغي ان نقارن بين المقاربة الأمريكية والغربية حينما يتعلق الأمر بالفلسطينيين (حيث يؤخذ بالشبهة والشك والادعاء فيكون المتهم مجرماً قبل ان تثبت ادانته) والمقاربة الأمريكية والغربية حينما يتعلق الأمر بالإسرائيليين (حيث يُرفض الدليل القاطع ويؤوّل تعسفاً ويلوى عنقه فيكون المجرم بريئاً حتى بعد ان تثبت ادانته).

٢.٢ المنظمات غير الحكومية

ونعني بالمنظمات غير الحكومية المنظمات الخيرية ومنظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان وما شابهها من منظمات وجمعيات غير رسمية مهتمة بالشأن الفلسطيني. ورغم ان معظم هذه المنظمات قد وقفت موقفاً مشرفاً عموماً فقدمت المساعدة الى الشعب الفلسطيني وساهمت في فضح جرائم الاحتلال وإدانتها، فان من الملاحظ انه كان هناك احياناً قدر من التلكؤ والتردد وتبني مواقف ملطَّفة تجاه جرائم الاحتلال الصهيوني واستخدام لغة مائعة (او تكاد) في إدانة هذه الجرائم (وإن كان هذا لا يصدق ـ طبعاً ـ على جميع هذه المنظمات).

وهذا يرجع عادةً الى خوف هذه المنظمات من انتقام اسرائيل ومضايقاتها وما قد تتعرض له هذه المنظمات من ملاحقات ومضايقات وحملات من داعمي اسرائيل الغربيين (من حكومات وغيرها). وهو يدل على قدرة وفعالية البلطجة الإسرائيلية والغربية ودورها في تنفيذ ما تريده اسرائيل وتحقيق رغباتها. كما انه يدل على مدى نفوذ الحركة الصهيونية وقوتها وتغلغلها في مراكز النفوذ والقرار حول العالم وقدرتها على الضغط على هذه المنظمات المستقلة عموماً عن الحكومات وغير الخاضعة ـ فرضاً ـ لتأثيرها (وربما قدرة الحركة الصهيونية على التدخل المباشر في عمل ومواقف وتصريحات هذه المنظمات ايضاً).

احياناً كثيرة الى حد تصديق الإسرائيليين لاكاذيبهم واختلاقاتهم) إنما تنبئ عن حقيقة ان هذه السجية انما هي جزءٌ اصيل ومكّون اساس للطبيعة العبرانية والثقافة اليهودية.

وينبغي ان نذكر هنا تحيز بعض منظمات حقوق الإنسان (كهيومن رايتس ووتش)[٢٣] ضد الفلسطينيين ولصالح الإسرائيليين في تقاريرها واحكامها، فهي إذ تستخدم غالباً لغة قوية في إدانتها لجرائم حماس المزعومة وتبالغ في حجمها نراها تستخدم في كثير من الأحيان لغة ناعمة في إدانة الجرائم الإسرائيلية البشعة والموثقة وهو ما يقلل ـ إيحاءاً ـ من بشاعتها وهولها. ورغم ان هذا التحيز الظاهر يرجع عادةً الى الضغوط التي تمارس على هذه المنظمات من قبل الحكومات والنخب السياسية (وربما الممولين) فانه يعود كذلك الى كون هذه المنظمات غربية في كنهها وجوهرها وقيمها (وحتى في عنصريتها المبطنة واللاشعورية في احسن الأحوال). ولذا فهي ليست سوى جزء من المنظومة الغربية واحدى تمظهرات 'الحضارة الغربية' (بل ربما يكون دور بعضها خَدَمياً لهذه المنظومة و 'الحضارة' بتجميل صورتها وتحسين مصداقيتها وهي بذا لا تعدو ان تكون اداة من ادواتها ووسيلة لخدمة اغراضها وتحقيق اهدافها).

٣.٢ الدول

نستعرض في هذا القسم بإجمال مواقف وردود افعال الدول المعنية مباشرة بطوفان الإقصى. كما نتعرض باقتضاب شديد لمواقف وردود افعال دول العالم الأخرى (ممثلة غالباً بالتكتلات الجغرافية التي تنتمي اليها هذه الدول). ولم نلتزم طريقة ثابتة وموحدة في هذه الاستعراضات والتعرضات بل التزمنا بتسليط الأضواء على الجوانب المهمة لهذه المواقف وما يعنينا بالدرجة الأولى في هذه الدراسة منها، فقد نقتصر ـ مثلاً ـ على استعراض الموقف الرسمي للدول المعنية في بعض الحالات، بينما نتطرق كذلك الى موقف الأحزاب او ردود افعال الشعوب والجماهير في حالات اخرى. والضابط والرابط في كل ما نقوم به هو طبيعة هذه الدراسة (اي كونها استعراضية تحليلة) وحجمها المقرر والأهداف المتوخاة منها.

---

[٢٣] لقد كشفت هيومن رايتس ووتش وجهها القبيح وارتباطاتها الصهيونية في تقريرها الأخير عن احداث السابع من تشرين الثاني لأن من يقرأ التقرير (دون علم بصدوره عن هيومن رايتس ووتش) لن يشك في انه تقرير اسرائيلي صهيوني انتجته وسائل الدعاية والتهريج والاختلاق في الكيان (إذا استثنينا اجزاءاً قليلة من هذا التقرير). والواقع ان رأيي السيء هذا في هيومن رايتس ووتش ليس جديداً او بسبب هذا التقرير فحسب بل هو ناتج عن تراكم كثير من الشواهد والأدلة لدي من تقارير ومواقف سابقة لهذه المنظمة. وليس لدي ادنى شك ان هذه المنظمة ليست سوى واجهة واداة من ادوات المنظومة الغربية في حربها على اعدائها. وما تنشره هذه المنظمة من تقارير او تتخذه من مواقف 'معادية للغرب' ليس سوى ذر للرماد في العيون ولإعطائها شيئاً من المصداقية التي تحتاجها لتمرير سمومها ضد اعداء الغرب. كما ان معظم ما تنشره هذه المنظمة من تقارير 'معادية للغرب' ليس سوى حقائق يعرفها الجميع (وموثقة غالباً من مصادر اخرى) وبذا فان ما يصدر عن هذه المنظمة بشأنها لا يقدم شيئاً ولا يؤخر (او على الأقل لا يحظى الا بقيمة قليلة وليس سوى اضافة تافهة).

١.٣.٢ فلسطين

أما دولة فلسطين فهي المسرح والمركز والبؤرة لاهم أحداث طوفان الأقصى (عمليةً وملحمةً) ومعظمها تقريباً ولذا ينبغي ان نفصّل بعض الشيء في اوضاعها و 'مواقفها' وتعقيداتها.

أما السلطة الوطنية الفلسطينية (التي تنتحل صفة 'دولة فلسطين' والتي تمثل سلطة الحكم في الضفة الغربية رسمياً وشكلياً وإن كانت في الواقع لا تملك الكثير من أمرها لأن السلطة الحقيقية هي بيد الاحتلال) المسيطر عليها من قبل حركة فتح (بجيلها الثاني والثالث غالباً) فهي ليست سوى اداة من ادوات اسرائيل وامريكا (او على الإقل هكذا تعاملها وتعتبرها وتنتظر منها اسرائيل وامريكا ان تكون) للسيطرة الأمنية (بالدرجة الأولى) على اكبر كتلة سكانية فلسطينية في الأراضي المحتلة عام 1967 وإراحة اسرائيل من همّ إدارة شؤون هذه الكتلة التي هي عبء على اسرائيل. ولذا لا ينتظر من سلطة كهذه ان تقف الى جانب اعمال المقاومة كعملية طوفان الأقصى. ولكن بالمقابل، الدور المُنتظَر من هذه السلطة ان تؤديه في خدمة إسرائيل وأمريكا يملي عليها ان لا تتخذ موقفاً عدائياً صريحاً ضد اعمال المقاومة كي لا يحلّ بها غضب كثير من رعاياها (وربما غالبيتهم) ممن يتعاطف مع المقاومة وكي لا 'ينفضح' امرها كأداة من ادوات الاحتلال.

ولهذا فان موقف (او بالأحرى مواقف) هذه السلطة ازاء طوفان الأقصى اتسم عموماً بالغموض والتذبذب بين التزام الصمت وبين الإيحاء بالوقوف الى جانب المقاومة (من بعض المسؤولين والفتحاويين، بعضهم صادقاً وبعضهم منافقاً) وبين التعبير عن الإدانة الضمنية والصريحة لعملية طوفان الأقصى (من بعض آخر من المسؤولين والفتحاويين وعلى رأسهم رئيس السلطة محمود عباس) باعتبارها عملاً مضراً بالفلسطينيين والقضية الفلسطينية محتجين غالباً بالدمار الذي جرّته هذه العملية على قطاع غزة.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل خرج البعض من هؤلاء المسؤولين والفتحاويين (من 'المتحمسين' او 'المنفلتين') بمواقف وتصريحات شاذة حيث أدان عملية طوفان الأقصى ووصفها ـ وحماس ـ بالإرهاب. والواقع ان التصريحات والمواقف الخيانية لبعض المسؤولين في هذه السلطة ومن يرتبط بها من الفتحاويين (كإدانة عملية طوفان الأقصى واعتبارها عملاً ارهابياً ـ او على الأقل مضراً بالقضية الفلسطينية ـ والصاق تهمة الإرهاب بحماس) مثلت الحضيض الذي وصلت اليه هذه السلطة التي لم تعد تختلف كثيراً في دورها وأدائها (بل وحتى في تصريحاتها ومواقفها المعلنة) عن الدور الخياني الذي قام به 'جيش' سعد حداد وانطوان لحد في خدمة اسرائيل ابان الاحتلال الصهيوني لجنوب لبنان.

وعلى كل حال، حتى لو برّأْنا هذه السلطة من تهمة الخيانة والعمالة والتآمر (مبرّرِين افعالها ومواقفها مثلاً

بادعاء خضوعها للضغوط الأمريكية والإسرائيلية التي لا تطاق، وصعوبة الخيارات المتاحة امامها، ورغبتها في الوصول الى تسوية سلمية بالدفع بالتي هي احسن مع المراهنة على تغير الظروف الدولية وما شابه ذلك) فانها لم تقم حتى بالحدّ الأدنى من الدور المنتظر منها واللائق بها كإيقاف التنسيق الأمني مع الاحتلال والكف عن مطاردة المقاومين ـ من حماس والجهاد وغيرهما ـ واعتقالهم او التجسس عليهم والوشاية بهم لدى اسرائيل (وحتى قتلهم احياناً) وشن حملة دولية واسعة ضد اسرائيل وداعميها امام الرأي العام الدولي والمحافل والمنظمات الدولية والانسحاب من مسيرة اوسلو والعمل على انتفاضة جديدة وما شابه ذلك مما كان بإمكانها ان تفعله ولم تفعل. وقد كانت افعالٌ وإجراءاتٌ كهذه من قبل السلطة ستشكل ضغطاً كبيراً على اسرائيل وداعميها وإسناداً مهماً لقطاع غزة في محنته، بل كانت ـ في بعض تفاصيلها ـ ستجعل من الضفة الغربية جبهة إسناد مشابهة لجبهات الإسناد اللبنانية واليمنية والعراقية.

وهنا ينبغي ان نتوقف لنلقي اللوم لا على 'السلطة الوطنية' (كسلطة وهيئة رسمية وكمسؤولين فحسب) بل على منتسبي هذه السلطة وموظفيها كأفراد (من رجال امن وشرطة وأمثالهم وهم يعدّون بعشرات الآلاف وغالبيتهم مسلحون او قادرون على الحصول على السلاح وحمله) إذ وقفوا صامتين عاطلين امام المجازر التي ترتكب بحق اخوانهم في غزة، فلو ابدوا (بألوفهم لا بعشرات ألوفهم) اي نوع من الحراك (عسكرياً ام غير عسكري) ضد اسرائيل لقلبوا كثيراً من المعادلات والموازين ولغيروا مسار الأحداث والشكل الذي تتخذه ملحمة طوفان الأقصى. فلماذا يَنتظر هؤلاء (والفلسطينيون عموماً) من اخوانهم العرب والمسلمين (في الدول العربية والإسلامية التي قصّرت في اسنادهم بل حتى في اليمن ولبنان والعراق) نصرة غزة ودعمها بينما هم يظلون عاطلين صامتين ويتباكون كالتماسيح، وكيف يحق لهم ان يلوموا غيرهم على التقصير عن فعلٍ هُم أَولى به. صحيح ان لدى منتسبي هذه السلطة وموظفيها ومن يرتبط بهم كثيراً مما سيخسرونه لو قاموا بذلك (وهو ما سنتعرض له لاحقاً) ولكن اليس للغزيين وغير الغزيين (من العرب والمسلمين المقصرين واليمنيين واللبنانيين والعراقيين) ما سيخسرونه كذلك، ومتى كانت الحسابات في القضايا الكبرى والمصيرية حسابات تجارة وربح وخسارة.

هذا كله فيما يتعلق بالسلطة الوطنية الفلسطينية والشؤون والقضايا المرتبطة بها. وفيما يلي نتطرق الى الموضوع الثاني المتعلق بدولة فلسطين وهو الكتل السكانية الفلسطينية (في كل فلسطين التاريخية) و 'مواقفها' تجاه طوفان الأقصى او استجابتها له وما عبرت به من افعال وردود افعال عما جرى ويجري في هذه العملية والملحمة التي رافقتها وتلتها ونتجت عنها. فكما هو معروف، تنقسم فلسطين الى ثلاثة أجزاء رئيسة: الجزء

المحتل قبل نكسة حزيران عام 1967 (اي الجزء الذي اقيمت فيه اسرائيل عام 1948)، والضفة الغربية (بما يشمل القدس الشرقية) وقطاع غزة.

فأما الجزء الأول فلم يشهد حراكاً ملحوظاً (رغم بعض التململ والحراك المدني المحدود وعمليات الطعن المنفردة وما شابهها) وذلك يعود بالدرجة الأولى الى سياسة القبضة الحديدية والترهيب التي اتبعتها اسرائيل تجاه فلسطينيي هذا الجزء بعد عملية طوفان الأقصى (بل وحتى قبلها وإن بدرجة أقل). ولكن ينبغي ان لا ننسى عاملاً آخر وهو ان قسماً مهماً من سكان هذا الجزء مندمجون في الحياة الإسرائيلية والمجتمع الإسرائيلي ولذا فانهم إن لم يقفوا في صف اسرائيل ضد حماس (كما هو حال البعض) فهم ـ على الأقل ـ لا يقفون ضد اسرائيل فضلاً عن ان يقفوا الى جانب حماس او يساندوها.[٢٤] يضاف الى ذلك ان فلسطينيي هذا الجزء عموماً (ممن ينقمون على اسرائيل وربما يتعاطفون مع حماس) لديهم الكثير مما يفقدونه لو انتفضوا ضد اسرائيل (بخلاف اخوتهم في قطاع غزة مثلاً بل وحتى شرائح مهمة من فلسطينيي الضفة الغربية) وهو ما يقيد حركتهم بل يشلها. والخلاصة ان اسرائيل نجحت في تحييد فلسطينيي الجزء المحتل عام 1948 وذلك بفضل سياسة العصا الغليظة و 'الحوافز' وتخاذل جزء كبير من فلسطينيي هذا الجزء (بل وحتى تواطؤ بعضهم وانحيازه الى جانب اسرائيل).[٢٥]

وأما الجزء الثاني فلم يشهد حراكاً ملحوظاً إلا في بعض بؤر المقاومة (كبعض المخيمات في جنين) وهذا يعود الى اسباب شبيهة بالأسباب التي ذكرناها في الجزء الأول. فالقبضة الأمنية المشددة لعبت دوراً في ردع السواد الأعظم من فلسطينيي هذا الجزء عن الانخراط في حراك فعال او عمل مسلح او انتفاضة شعبية او ماشابه ذلك. كما ان قسماً كبيراً من فلسطينيي هذا الجزء يملكون الكثير مما يخسرونه لو انخرطوا في حراك كهذا. يضاف الى كل ذلك وجود 'السلطة الوطنية الفلسطينية' في هذا الجزء و 'حكمها له' بشكل من الأشكال، فهذه السلطة متعاونة ـ من جهة ـ مع الاحتلال امنياً واستخبارياً وهي بذلك تقمع (او على الأقل تساعد اسرائيل في قمع) اي حراك بما توفره من معلومات استخبارية (بل وإجراءات أمنية كذلك) ضد اي نشاط معادٍ لإسرائيل ومهدّد لسيطرتها. ثم انها توظف اعداداً كبيرة من الفلسطينيين (بما يعنيه ذلك من اعالة

---

[٢٤] طبعاً هذا القسم المندمج في الحياة الإسرائيلية والمجتمع الإسرائيلي لا يقتصر على دروز فلسطين وبدو النقب وامثالهم ممن اختاروا تاريخياً ونمطياً التحالف مع الصهاينة ضد اخوتهم بل يشمل كذلك كثيراً من الفلسطينيين 'العاديين' او 'النموذجيين' او 'المنتمين الى الأكثرية' ممن هم معادون لإسرائيل تاريخياً.

[٢٥] كما في الحاشية السابقة، هؤلاء المتواطؤون والمنحازون لا يقتصرون على دروز فلسطين وبدو النقب وامثالهم بل يشملون كثيراً من الفلسطينيين 'العاديين'.

عوائلهم كذلك) وهي بذلك 'ترشو' قسماً مهماً ومؤثراً من فلسطينيي هذا الجزء وتثبطهم عن المشاركة في هذا الحراك لما سيخسرونه جراء ذلك.

وأما الجزء الثالث فهو غزة التي هي المسرح الأول والأهم لموضوع كتابنا هذا (وهو طوفان الأقصى عمليةً وملحمةً)، وهذا يعني اننا لسنا بحاجة الى الخوض في التفاصيل المتعلقة بهذا الجزء هنا تحديداً ما دام كتابنا اساساً هو حول هذا الجزء. نعم، سنتطرق لاحقاً الى موقف سكان غزة من عملية طوفان الأقصى وملحمته (ممهِّدين لذلك باستعراضنا لموقفهم من حماس ومدى شعبيتها بينهم).

فالخلاصة ان الإسهام الأكبر ـ بل شبه الأوحد ـ لفلسطين في ملحمة طوفان الأقصى انما هو لغزة (كما هو الحال في عملية طوفان الأقصى التي هي غزية خالصة بامتياز). وهذا يعني اننا نتهم ـ صراحةً ـ كلاً من فلسطينيي الجزء الأول (اي الفلسطينيين داخل الخط الأخضر) وفلسطينيي الجزء الثاني (اي فلسطينيي الضفة الغربية) بالتقصير عموماً في نصرة اخوانهم في غزة ونلومهم على ذلك (خصوصاً من اختار منهم الوقوف الى جانب اسرائيل او التعاون معها كأولئك المندمجين في الحياة الإسرائيلية من فلسطينيي الجزء الأول وكموظفي 'السلطة الوطنية الفلسطينية' من فلسطينيي الجزء الثاني). وبما ان الأقربين أَولى بالمعروف فهم أَولى باللوم كذلك. وهذا يعني ان هؤلاء الفلسطينيين يقع عليهم لوم اكبر من اللوم الذي يقع على بقية العرب والمسلمين من المقصرين والمتخاذلين والمتواطئين والمتعاونين. كما ان هذا يعني ان هؤلاء الفلسطينيين لا يحق لهم ان يعتبوا (كما يحلو لكثير منهم ان يفعل) على 'إخوتهم العرب والمسلمين' (فضلاً عن غيرهم) ويتهموهم بالتقصير والتخاذل والخذلان والخيانة وما شابه ذلك ما داموا هم أَولى بهذه الأوصاف وأجدر.

ثم اننا ينبغي ان نتحدث قليلاً عن موقف سكان غزة من عملية طوفان الأقصى وملحمتها وما جرّه عليهم هذا الطوفان من مصائب وأهوال، وهذا يفرض علينا التمهيد بالحديث اولاً عن مدى شعبية حماس وسط فلسطينيي قطاع غزة والتأييد الذي تحظى به لديهم. فقد يحلو للبعض (كبعض اجهزة اعلام محور المقاومة) ان يصوّر او يوحي ان جميع الغزيين تقريباً يقف وراء حماس ويساند طوفان الأقصى وما شابه ذلك. كما يحلو للبعض الآخر (ككثير من اجهزة الإعلام الصهيوني والغربي والإعلام العربي المتصهين) التصريح او الإيحاء بان حماس تفرض نفسها بالقوة في قطاع غزة وانها لا تحظى إلا بتأييد أقلية من سكان القطاع وانه لو اتيح لسكان القطاع التخلص من حماس لفعلوا ذلك وأطاحوا بها.

وفي رأينا ان كلا 'الروايتين' مجانب للحقيقة فلا حماس (بنهجها وخطها وليس فقط بشكلها الحركي والتنظيمي) تحظى بإجماع او شبه إجماع بين سكان القطاع ولاهي بالتي تفرض نفسها بالقوة ولا تمثل إلا أقلية ضئيلة

او يزيد. بل الأمر بين الأمرين فهي تحظى بشعبية واسعة تؤهلها (كما تمنحها الشرعية) لـ 'السيطرة' على القطاع وحكمه وإدارته 'ديمقراطياً' (بما يعنيه ذلك من حكم اكثرية مقابل اقلية) حتى لو افترضنا ان الشرعية الديمقراطية التي اكتسبتها حماس في الانتخابات التشريعية عام 2006 لم تعد قائمة لانقضاء فترة صلاحية نتائج تلك الانتخابات.

والواقع ان وراء شعبية حماس الواسعة هذه (بالإضافة طبعاً الى كونها حركة تحمل فكراً إسلامياً مقاوماً أصيلاً يعبر عن تطلعات شعب رازح تحت الاحتلال وساعٍ الى التحرر والخلاص ويجسد هويته الدينية وانتماءه الثقافي) نجاح حماس (بذكائها وحنكتها وجهد قادتها وحركييها ونشطائها الذي لا يكل ولا يمل فضلاً عن إخلاصها وصدقها ونزاهتها عموماً) في إحداث نقلة نوعية في المجال الثقافي والديني والاجتماعي والحركي داخل القطاع هي التي مكنتها من 'السيطرة' على القطاع وتحقيق هذه الشعبية العريضة و 'فرض' نفسها كأفضل خيار متاح لسكان القطاع في ظروفهم الراهنة وما يعانونه من الرزوح تحت الاحتلال (والحصار لاحقاً). فحماس بتغييرها 'البنيوي' للمجتمع الغزي خلقت لنفسها شعبية واسعة وأصيلة ومتجذرة لا يمكن لأحد ان ينكرها او يشكك فيها.

والخلاصة، ان حماس لا هي 'مجمع عليها' لدى سكان القطاع ولا هي اقلية تفرض نفسها بالقوة والبطش بل هي حركة عريضة القاعدة تحظى بدعم شعبي واسع (وربما كاسح ولكن غير كامل) يجعلها تسيطر على القطاع وتديره 'ديمقراطياً' (حتى لو لم تحظَ بالشرعية الديمقراطية الشكلية في الوقت الحاضر)، وهذا ما أثبتته الانتخابات التشريعية عام 2006 التي ما زالت مؤشراً صالحاً يعكس مدى شعبية حماس الحالية رغم تغير الظروف والأحوال.[٢٦] والواقع ان شعبية حماس (خاصة في السنين الأخيرة التي فقد الفلسطينيون فيها الأمل بمسيرة اوسلو فسادهم ايمان بأن المقاومة هي السبيل الوحيد للتحرر والخلاص من الاحتلال) لا تقتصر على غزة بل تمتد الى كثير من اجزاء فلسطين التاريخية (بل وحتى خارج فلسطين لدى اوساط اللاجئين والمغتربين الفلسطينيين). بل نستطيع القول ان حماس تتمتع بشعبية كبيرة حتى لدى العرب والمسلمين من غير

---

[٢٦] استند في حكمي هذا الى مؤشرات كثيرة لا مجال لسردها وتفصيلها ولكن اود الإشارة هنا الى ان الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي كانت مقررة عام 2021 والتي الغيت (فيما يبدو بتدخل او ضغط من الصهاينة والأمريكيين وبرغبة من عملائهم العرب والفلسطينيين) ربما كان السبب وراء الغائها الخشية من فوز حماس (ومن معها) في هذه الانتخابات كما حدث في عام 2006 (ومن ثم اعطاء حماس شرعية إضافية) وهو ما يدل على مدى شعبية حماس ومدى معرفة و 'اعتراف' اعداء حماس بشعبيتها (آخذين في الاعتبار ان شعبية حماس إن تغيرت بعد طوفان الأقصى فلابد ان يكون التغير نحو الأحسن عموماً بلحاظ عموم فلسطين لا غزة بالخصوص).

الفلسطينيين، وهذه الشعبية سابقة على طوفان الأقصى، وكل الدلائل تشير الى ازديادها بشكل ملحوظ بعد طوفان الأقصى لأن حماس التي كانت قبل طوفان الأقصى محطاً لبعض الإشكالات والحساسيات (مثلاً بسبب بعض مواقفها السياسية او توجهاتها الطائفية او جذورها الإخوانية وما شابه ذلك) اصبحت تمثل (بنظر الكثير من العرب والمسلمين وربما اغلبهم) رمزاً ورائداً لا لمحاربة اسرائيل والتصدي للمشروع الصهيوني بمعناه الضيق فحسب بل رمزاً ورائداً لمحاربة المشروع الصهيوني الصليبي الغربي ضد الإسلام والمسلمين ورأس حربتهم في مواجهته والتصدي له. وبذا تغير بين ليلة وضحاها وضع حماس من كونها 'محل نزاع' بسبب مواقفها وطائفيتها وإخوانيتها الى كونها 'محل إجماع' لدورها القيادي الريادي الذي يتسامى ويترفع 'الجميع' عن التشكيك فيه او تلطيخه بمواقفها وطائفيتها وإخوانيتها (ناسين او متناسين كل ذلك).

ولكن رغم كل هذا (راجعين الى كلامنا عن شعبية حماس داخل القطاع بعد هذا الاستطراد عن شعبيتها خارج القطاع)، يجب ان نعترف ان شعبية حماس لا تعني موافقة من يؤيدها ويتعاطف معها على كل ما تقوم به حماس (ومنها بالطبع عملية طوفان الأقصى). صحيح ان الغزيين يؤيدون اعمال المقاومة عموماً ولكن صحيح ايضاً انهم دفعوا ويدفعون اغلى الأثمان لهذه الأعمال وهذا يعني ان التأييد الشعبي لهذه الأعمال محكوم بارتداداتها وآثارها على حياتهم اليومية. ويبدو لي ان الغزيين بمعظمهم قد تلقَّوا عملية طوفان الأقصى بمزيج من الفرح (لما حققته من انجازات وانتصارات وما الحقته بالعدو من هزائم وانكسارات) والخوف (لعلمهم بأن هذه العملية ستجر عليهم من الويلات ما لم يخبروه من قبل). ولذا كان تأييدهم لها ممزوجاً (لدى كثير منهم) بالتشاؤم منها ومن تبعاتها. ومع تحقق الأسوأ مما توقعوه وخافوه ينبغي ان تكون ردود افعالهم متضاربة بين التصلب في دعم المقاومة بما جرّته عليهم (كرد فعل نفسي انتقامي ورافض للشعور بالهزيمة والخسران) وبين التذمّر منها لما جرّته عليهم من كوارث ومحن. وعلى كل حال، يصعب تقدير المواقف 'الداخلية' للمواطنين الغزيين تجاه عملية طوفان الأقصى وتبعاتها وتقييم الموقف 'الداخلي' الإجمالي للغزيين، ولكن يبدو ان الغزيين بغالبيتهم العظمى ملتزمون بدعم المقاومة في العلن والظاهر شعوراً منهم بالمسؤولية الوطنية وتحدياً للاحتلال ورفضاً لشعور الهزيمة والانكسار (لا خوفاً من حماس كما يدّعي البعض او يوحي به).

وفي نهاية حديثنا عن 'مواقف' الكتل السكانية الفلسطينية داخل فلسطين ينبغي ان نتطرق باقتضاب الى 'مواقف' الجماعات والمجتمعات الفلسطينية خارج فلسطين من لاجئين ومهاجرين ومغتربين. والواقع ان من الصعب معرفة وتحديد هذه المواقف لتنوع ظروف وحالات الجماعات والمجتمعات الفلسطينية (والأفراد كذلك) خارج فلسطين ولغياب مؤشرات ومعايير واضحة لرصد وقياس وتقييم هذه المواقف بسبب تعقيد

الظروف والعوامل التي تحيط بهذه الجماعات والمجتمعات لكونها عموماً اقليات سكانية مندمجة (وربما ذائبة ومتفرقة) ضمن حواضن اجتماعية كبيرة.

ولكن يبدو لي ان التأييد لطوفان الأقصى هو السمة الغالبة على مواقف الجماعات والمجتمعات الفلسطينية خارج فلسطين وهذا يعود جزئياً الى الشعور الوطني الطاغي في الغربة وتفاعلات الحنين الى الوطن مما قد لا يخبره مواطنو الداخل. كما يعود كذلك الى انعدام الضغوط والمصاعب المباشرة[٢٧] لأعمال المقاومة الفلسطينية على فلسطينيي الخارج خلافاً لما هو الحال مع فلسطينيي الداخل الذين يتعرضون لأعمال الانتقام الصهيوني والعقاب الجماعي بسبب هذه الأعمال (من قبيل ما يفعله الصهاينة من جرائم ضد سكان الضفة بسبب اعمال المقاومة وما يرتكبونه من جرائم ومجازر مروّعة ضد سكان القطاع بسبب عملية طوفان الأقصى) وهو ما يشكل سبباً للتذمر من اعمال المقاومة والرفض لها لدى بعض فلسطينيي الداخل.

وإذ انتهينا من الحديث عن 'مواقف' الكتل السكانية الفلسطينية داخل فلسطين و 'مواقف' الفلسطينيين خارج فلسطين (من لاجئين ومهاجرين ومغتربين)، ينبغي اخيراً التعرض بإيجاز الى مواقف الفصائل الفلسطينية (اي التنظيمات والجماعات الفلسطينية المسلحة بشقيها العسكري والسياسي) وبعض الأحزاب او التشكيلات السياسية (ومن على شاكلتهم من نشطاء وحركيين مستقلين بارزين في مجتمعاتهم). اما مواقف الفصائل الفلسطينية فقد كان هناك إجماع اوشبه اجماع لدى هذه الفصائل (إذا استثنينا جزءاً من حركة فتح) على تأييد عملية طوفان الأقصى واعتبارها انجازاً فلسطينياً رائعاً على طريق التحرير والنصر (ملاحظين ان هذه العملية هي من فعل احدى هذه الفصائل ـ وهي حماس ـ مع مشاركة محتملة ـ ربما بتأخير زمني قصير ـ للجهاد الإسلامي وبعض الفصائل الأخرى). وكذا الحال مع الأحزاب والتشكيلات السياسية والنشطاء والحركيين فقد كان التعاطف والدعم والتأييد (وبحماسة غالباً) لعملية طوفان الأقصى سمة مميّزة لمواقفهم وردود افعالهم في الأعم الأغلب (مستثنين بالطبع بعض الأصوات النشاز الفتحاوية او المرتبطة بها او المرتبطة بالأنظمة العربية العميلة او اسرائيل ممن هم في الغالب مأجورون يتقاضون اثماناً على مواقفهم هذه). وبذا نستطيع القول ان عملية طوفان الأقصى قد حظيت بتأييد واسع لدى هذه النخب التي تعكس وتعبر عن ضمير الشعب

---

[٢٧] الواقع ان الفلسطينيين خارج فلسطين يتعرضون لضغوط ومصاعب غير مباشرة (بل وحتى مباشرة) لما يرونه من تعرض ابناء وطنهم (وربما عوائلهم واقاربهم) للظلم والاضطهاد وما يسببه هذا من الم وحزن. كما ان بعضهم قد يتعرض لضغوط ومصاعب من شكل آخر بسبب ارتباطاتهم بالداخل الفلسطيني. ولكن من الواضح ان الضغوط والمصاعب التي يتعرض لها فلسطينيو الخارج بسبب اعمال المقاومة تختلف عموماً من حيث الكم والنوع عن الضغوط والمصاعب التي يتعرض لها فلسطينيو الداخل الذين يقع عليهم العبء الاكبر من هذه الضغوط والمصاعب.

الفلسطيني وتطلعاته إجمالاً وغالباً.

٢.٣.٢ إسرائيل

ولئن كانت فلسطين هي المسرح الأول والأهم لعملية طوفان الأقصى وملحمته فينبغي ان تكون 'اسرائيل' هي المسرح او الطرف الثاني والتالي في الرتبة والأهمية.[٢٨] ولا داعي لنا لإضاعة الوقت والجهد في سرد وتحليل ما هو معروف للجميع من ردّ جنوني متوحش ساحق ماحق مدمر فاق كل التوقعات والتصورات والتصديقات (مما تعرضنا له سابقاً وسنقابل فيما سيأتي بعض تفاصيله وتحليلاته؛ راجع مثلاً § ٤.١) والتجاذبات الداخلية الصهيونية والدعم الخارجي وما شابه ذلك، فكل هذا متاح للجميع على الانترنت ووسائل الإعلام التقليدية وليس لدينا الكثير مما نضيفه إليه او نزيده عليه.

ولكن ينبغي لنا التوقف عند ظاهرة هي الأخطر والأعجب والأكثر استدعاءاً للتأمل والنظر (بل للخضوع لدراسات اكاديمية تفصيلية معمقة) وهي عموم هذا التوحش السادي لدى المجتمع الاسرائيلي حيث تملكته نوبة هستيرية عارمة جارفة شاملة للجميع (إذا استثنينا قلة قليلة من الأفراد الذين ينبغي ان يُشكّ حتى في إسرائيليتهم ويهوديتهم) إذ صار الإسرائيليون يتبارون في التعبير عن احقادهم ورغباتهم السادية في ابادة الفلسطينيين قاطبة وتجويعهم وتعذيبهم دون اعتبار لقوانين دولية او اعراف انسانية او اي شيء ينتمي الى البشرية. ولقد كان الكثير يعتقد قبل ذلك ان التطرف والعُصابية والخلل السيكولوجي ظاهرة شائعة (وربما غالبة) في المجتمع الإسرائيلي ولكن لم يتصور احد (بحسب علمي) ان هذه الظاهرة بهذه الدرجة من السعة والشمول وانها تجتاح المجتمع الإسرائيلي بكامله (بقضه وقضيضه!).

وباختصار، لقد كشف طوفان الأقصى ان المجتمع الصهيوني ـ برمته ـ يعاني من خلل سيكولوجي خطير فهو مجتمع عنصري سادي متوحش يفتقر لأبسط المشاعر والعواطف الإنسانية (فضلاً عن القيم الأخلاقية والمثل العليا) وهو بذا يتميز عن كل المجتمعات البشرية المعروفة. وهذه العصابية والسادية والاعتلال السيكولوجي لم يأت من فراغ ولم يحدث بالصدفة وإنما هو نتيجة عقود ـ بل قرون والفيات طويلة ـ من التثقيف على افكار الحقد والعنصرية والانتقام والتدمير التي ترجع جذورها الى الفكر العبراني التوراتي التلمودي لـ 'شعب' (او بالأحرى لجماعة بشرية) ذي جذور بدوية قبلية ظل عبر تاريخه الطويل مفتقراً للشعور بالأمن بسبب الاضطهاد (المبرَّر واللامبرَّر) ورغبته الشديدة في الاحتفاظ بهويته ـ بما تتضمنه من انماط سلوكية وثقافية

[٢٨] رغم ان اسرائيل عصابة اجرامية وليست دولة فقد وضعناها في هذا القسم لأسباب وأغراض تنظيمية معروفة ومفهومة.

بائدة عفا عليها الزمن ـ وسط مجتمعات حاضنة او مجاورة له تفوقه عدداً وعدة (راجع § ٧).

ولا ينبغي التشكيك في عموم هذا الخلل النفسي والسادية والتوحش بادعاء ان المجتمع الإسرائيلي متعدد ومتنوع ولا يمكن ان يكون متحداً في هذا الشأن (بالادعاء مثلاً ان هذا التوحد في موقف المجتمع الإسرائيلي ناتج عن التغطية الإعلامية المنحازة واللامتوازنة داخل اسرائيل وخارجها) لأن هذا التشكيك واضح البطلان إذ إسرائيل ـ دون شك ـ دولة ديمقراطية لسكانها اليهود وهم يتمتعون بحريات كبيرة (تصل احياناً الى حد التسيب والانفلات والفوضى) في التعبير عن آرائهم ومواقفهم ومعتقداتهم لا يتمتع بها (بل ولا بجزء منها) كثير من جيرانهم العرب (بل حتى معظم جيرانهم العرب). فلو كانت هناك قلة قليلة كهذه لبانت وعبّرت عن نفسها بمظاهرات وفعاليات مشابهة ولغُطيت هذه المظاهرات والفعاليات من الإعلام بشكل استثنائي ـ وربما مضخَّم ـ خاصةً من الإعلام المتعاطف مع الفلسطينيين لما تمنحه هذه التغطية من دعم استثنائي للغزيين وضغط إضافي على المعسكر الإسرائيلي والغربي المؤيد للإبادة (ملاحظين كذلك ان لليهود المعارضين لإسرائيل والحريصين على تبرئة اليهود من جرم الإبادة وتحميلهم مسؤوليتها دافعاً قوياً للفت الانتباه الى مظاهرات وفعاليات كهذه). فهذا التوحد في الإعلام دليل كاشف على التوحد في موقف المجتمع الإسرائيلي وان الإبادة هي خيار اجماعي ورغبة شاملة لدى الإسرائيليين (اذا استثنينا بعض الأفراد المشار اليهم آنفاً).

كما لا يجوز إرجاع هذا التوحد في موقف المجتمع الإسرائيلي تجاه الإبادة الى عامل الجهل (اي ان الإسرائيليين لم يكونوا يعلمون بما جرى ويجري في غزة بسبب حجب الإعلام الإسرائيلي والإعلام العالمي المتواطئ وقائع الإبادة واحداثها عن اعين الإسرائيليين واسماعهم) لأن هذا العامل لو صدق في الأيام والمراحل الأولى من ملحمة طوفان الأقصى (وهو بالتأكيد غير صادق لأن الإسرائيليين كانت لديهم الكثير من السبل والوسائل للاطلاع على ما كان يجري) فلن يصدق في المراحل اللاحقة بعد ان بانت الحقيقة وظهرت جليةً وعلمتها جميع شعوب الأرض بمن فيهم 'شعب اسرائيل'. بل ان كثيراً من المتبجحين الإسرائيليين (من جنود 'جيش الدفاع الإسرائيلي' مثلاً) كانوا يوثقون جرائمهم بأنفسهم وينشرونها بين مواطنيهم على شبكة الانترنت ومنصات التواصل الاجتماعي مما كان يصل اليه معظم الإسرائيليين بل كلهم.

والخلاصة ان مسؤولية هذه الجريمة (اي جريمة إبادة غزة) تقع على عاتق 'شعب اسرائيل' بأكمله وليست مقصورة على فئة او جماعة او حزب او ما شابه ذلك فكلهم مشتركون ـ بشكل مباشر وغير مباشر ـ فيما جرى ويجري في غزة وما يرتكب فيها من جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب وجرائم إبادة. فلم تكن جريمة الإبادة الصهيونية بحق غزة من فعل او مسؤولية افراد او طغمة او جيش او حكومة او دولة فحسب بل

هي ـ قبل كل شيء ـ من فعل ومسؤولية ’شعب‘ بحق شعب. فالمجرم الأول هنا هو ’شعب اسرائيل‘ ومن ينبغي ان يعاقب ويدفع الثمن في المستقبل هو هذا ’الشعب‘.

٣.٣.٢ الولايات المتحدة

لاينبغي لنا تضييع وقتنا في بيان موقف الولايات المتحدة الأمريكية (الرسمي وغير الرسمي والعلني وغير العلني) من اسرائيل ودعمها اللامحدود لها (سياسياً وعسكرياً واستخبارياً ومالياً و ... إلخ) وإجرامها بحق الفلسطينيين (كما بحق كثير من شعوب العالم الأخرى) ودورها في حرب الإبادة الأخيرة في غزة الذي هو استمرار لأدوارها الإجرامية السابقة المعروفة لدى الجميع. فالانحياز الأمريكي للكيان الصهيوني واضح لا لبس فيه، وامريكا تشارك بفعالية في حرب الإبادة ضد غزة بدعمها لاسرائيل بالمال والسلاح والاستخبارات وحتى بالقتال المباشر معها احياناً. بل انها تشارك بالقتال المباشر معها فعلاً بنحو ممنهج ودائم كما هو الحال مثلاً في حربها ضد اليمن الذي ليس هو الا جبهة من جبهات القتال ضد اسرائيل. وكذا الحال في تصديها المباشر للمسيرات والصواريخ الموجهة ضد اسرائيل من اليمن وايران مثلاً، فهذا ليس سوى انخراط مباشر في القتال مع اسرائيل إسناداً لحرب الإبادة التي تشنها على غزة.

ولا غرابة في كل ذلك ما دامت الولايات المتحدة تابعاً لإسرائيل (أي في الشؤون المتعلقة بالمنطقة العربية والمصالح المباشرة لإسرائيل) بفضل اختراق الحركة الصهيونية للدولة الأمريكية والسيطرة شبه التامة على معظم مفاصلها الحيوية من مال واقتصاد وإعلام وثقافة وفن ودين وسياسة وشركات كبرى وغير ذلك الكثير الكثير. وقد بلغ الحد في التصهين الأمريكي أن صار الولاء لإسرائيل جزءاً من الثقافة العامة الأمريكية (من فن وأدب وإعلام وسينما ونحو ذلك) ومن التقاليد السياسية الأمريكية (حيث تجد الولاء لإسرائيل قضية حاضرة وأساسية في كل الانتخابات الرئاسية والتشريعية والمحلية) فضلاً عن كونه عقيدة دينية لعشرات الملايين من المسيحيين الإنجيليين وغير الإنجيليين فضلاً عن اليهود. ويكفي ان الرئيس الأمريكي جو بايدن لا يكف عن التباهي والافتخار بكونه صهيونياً.

وهنا ينبغي ان نلاحظ ان القاء اللوم على الرئيس الأمريكي بايدن في هذا الدعم اللامحدود لإسرائيل هو تبسيط ساذج رغم قبولنا ان بايدن صهيوني نذل ومجرم حرب ويتحمل مسؤولية كاملة عن دعمه لحرب الإبادة. والسبب في ذلك ان هذا موقف الدولة الأمريكية الذي سيلتزم به اي رئيس امريكي سواء كان

ديمقراطياً ام جمهورياً وسواء كان يمينياً ام ليبرالياً. بل الواقع ان بايدن انما يقوم بالحد الأدنى لما سيقوم به اي رئيس امريكي في دعم اسرائيل وتزويدها بكل ما تحتاجه لارتكاب الإبادة وتمكينها منها، فاي رئيس امريكي آخر لن يقوم الا بما يقوم به بايدن او اكثر (لا أقل). فضلاً عن ذلك ان بايدن الخرف الذي رُدَّ الى أرذل العمر فصار عاجزاً عن التحكم حتى بمؤخرته ليس سوى العوبة بيد من حوله من الصهاينة فكيف يُنتظَر منه التحكم بدولة بحجم امريكا وتشابكاتها وتعقيداتها.

وينبغي أخيراً ان نتعرض الى موقف الشعب الأمريكي من مجريات طوفان الأقصى وحرب الإبادة، فرغم الحراك الملحوظ الذي شهدته امريكا في تأييد فلسطين ورفض حرب الإبادة فان الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي تظل مؤيدة لإسرائيل ومتعاطفة معها حتى لو ابدى البعض من هؤلاء شيئاً من التململ و 'العتب' على اسرائيل لكونها 'قاسية نوعاً ما' مع الفلسطينيين 'احياناً'. وهذا التأييد الشعبي الكبير لإسرائيل يعود لما قلناه توّاً من ان الولاء لإسرائيل هو جزء من الثقافة العامة والسياسة الداخلية ـ بل والدين كذلك ـ لدى الأمريكيين. كما ينبغي ان نلاحظ ان الحراك المؤيد لفلسطين في امريكا متكون اساساً من العرب والمسلمين وبعض الأقليات المهمشة و 'الليبراليين' و 'اليساريين' (ومن على شاكلتهم) وكل هؤلاء لا يشكلون وزناً يذكر في ميزان السياسة والحياة العامة في امريكا وإن كان من الممكن ان يكون لهم دور مهم احياناً بفضل بعض التوازنات الداخلية والانتخابية الحرجة.

ونخلص من كل ما قدمناه من تقييم عام للموقف الرسمي والشعبي الأمريكي (وتذكير بالدور الأساس الذي لعبته وتلعبه امريكا في دعم اسرائيل المطلق وتمكينها من ارتكاب جرائمها بل المشاركة المباشرة في ارتكاب هذه الجرائم) ان الولايات المتحدة إن لم تكن المسؤول الأول عن جرائم اسرائيل (اي حتى قبل اسرائيل) فعلى الأقل هي مسؤول اول عن هذه الجرائم كإسرائيل (وعلى قدم المساواة مع إسرائيل). وانا شخصياً لا أقبل ان تصنف الولايات المتحدة كشريك في الجرائم الصهيونية إن كانت الشراكة تعني الاشتراك التبعي لأن الولايات المتحدة في رأيي هي مجرم بالأصالة كإسرائيل (إن لم تزد عليها احياناً). فلولا هذا التمكين (بل الاشتراك الفعلي الأصيل) الذي تمنحه امريكا لإسرائيل لما استطاعت اسرائيل ان تقترف عشر معشار ما اقترفته من جرائم عبر تاريخها الحافل بالإجرام.

وكما قلنا بشأن اسرائيل، هذه المسؤولية الأمريكية عن الجرائم التي اقترفتها (وتقترفها) الولايات المتحدة عبر تاريخها الحافل بالإجرام ليست مسؤولية افراد او طغمة او جيش او حكومة او دولة فحسب بل هي ـ قبل كل شيء ـ مسؤولية شعب بحق شعوب ارتكبت بحقها جرائم ابادة مروعة (واولها طبعاً حرب الإبادة

للسكان الأصليين الذين يشار اليهم بالهنود الحمر، تليها جريمة الاستعباد والتعذيب والإبادة التي ارتكبت بحق عشرات الملايين من الأفارقة المساكين الذين استجلبوا عنوةً الى امريكا ليسخروا ويعاملوا معاملة البهائم بل اسوأ، وآخرها طبعاً حرب الإبادة في غزة).

ولا اعتقد ان للشعب الأمريكي بمعظمه ضميراً (حياً او ميتاً او نائماً) لأستصرخه وأستنهضه ولكن ينبغي على البشرية ان تعلم ان ماضيها المظلم سيقود الى مستقبل اظلم ان لم تتحد البشرية بوجه هذا الوحش الأمريكي (الذي يقود الوحوش الغربية الأخرى) لإيقافه عن الإجرام وشل قدرته على الفتك والتدمير والإبادة. وانا لا ادعو الى حمل السلاح والقتال وسفك الدماء (وان كان كل ذلك مبرراً في وقته وسياقه ومواضعه) بل ادعو البشرية الى الكف عن مد الوحش الأمريكي بوسائل القوة التي تمكنه من ارتكاب افعاله الإجرامية، فالبشرية ـ كل البشرية ـ مسؤولة فعلاً عن تمكين الوحش الأمريكي من ارتكاب جرائمه بمده بوسائل القوة.

وفي رأيي ان اقوى وأخطر وأفتك ما تملكه الولايات المتحدة من اسلحة ليس هو ترسانتها الهائلة من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية وقواعدها العسكرية المنتشرة حول العالم وحاملات طائراتها وغواصاتها النووية التي تمخر عباب البحار والمحيطات (وما شابه ذلك ورافقه وسانده من منظومات استخبار وتجسس ودعم ونحوها) بل هو سلاح الدولار. وفي اليوم الذي يُدمَّر فيه هذا السلاح او يصاب بمقتل ستنهار امريكا بكل جبروتها العسكري وغير العسكري وستعجز عن ممارسة هوايتها المفضلة في القتل والتدمير والإبادة والإجرام. ولذا ينبغي ان تنصب كل الجهود الإنسانية الخيرة (وعلى راسها وفي مقدمتها قوى المقاومة والتحرر حول العالم) على تدمير الدولار الذي هو اخطر اسلحة الدمار الشامل التي انتجتها البشرية في تاريخها وحاضرها (وربما مستقبلها) إطلاقاً. ففي اليوم الذي يختفي فيه الدولار او يفقد فيه سطوته وجبروته سيختفي اكبر مصدر للقتل والتدمير والإبادة والإجرام في العالم.

٤.٣.٢ بريطانيا

لقد كان الموقف البريطاني مطابقاً للموقف الأمريكي في دعمه المطلق لإسرائيل في حرب الإبادة وما اتخذته من إجراءات عقابية ضد الفلسطينيين كافّة دون تمييز بين مدني ومقاوم. وقد اتفقت الحكومة والمعارضة على هذا الموقف من دعم اسرائيل دعماً مطلقاً مبررين ذلك ـ كالعادة ـ بحقها المزعوم في الدفاع عن نفسها وضمان امنها ومحاربة 'الإرهاب' الذي يستهدفها.[٢٩] بل ان زعيم المعارضة آنذاك كير ستارمر (وهو بالمناسبة محامٍ

[٢٩] نحن نتحدث عن الحكومة المحافظة والمعارضة العمالية في الأشهر التسعة الأولى من ملحمة طوفان الأقصى (ملاحظين ان

بارز في مجال حقوق الإنسان وقد صار حديثاً رئيساً للوزراء) قد ذهب بعيداً في دعمه لإسرائيل وتأييدها في حرب الإبادة حين منح إسرائيل الحق في تجويع الفلسطينيين ومنع مقومات الحياة عنهم.

ولا عحب في ذلك الموقف من دولة وعد بلفور التي كانت تاريخياً اهم معقل للحركة الصهيونية ومهداً للعقيدة الصهيونية بشقها المسيحي (او مايسمى بالمسيحية الصهيونية) كما بشقها اليهودي وكانت المسؤول الأول عن جريمة إقامة الكيان الصهيوني بتواطئها (كدولة انتداب على فلسطين آنذاك) مع الحركة الصهيونية وعصابات الإجرام الصهيوني حين سهلت الهجرة اليهودية الى فلسطين ومكنت المستوطنين اليهود من التمدد فيها على حساب الفلسطينيين والسيطرة على اراضيهم وممتلكاتهم وأمدّتهم ـ اي المستوطنين اليهود ـ بما يحتاجونه من سلاح وعتاد ومؤن لفعل ذلك (او على الأقل سهّلت وصول هذه الإمدادات وتغاضت عنها).

ورغم ان الدول الغربية كانت مجمعة تقريباً على دعم اسرائيل دعماً مطلقاً فان الموقف البريطاني كان متميزاً في هذا الدعم إذ كان مشابهاً ومواكباً ومسايراً للموقف الأمريكي ـ بل متماهياً معه ـ في كثير من الجوانب كتقديم دعم مباشر للعمليات العسكرية الإسرائيلية في غزة (بحجة الإسناد الاستخباري بهدف تحرير 'الرهائن') والمشاركة بالقطع الحربية البحرية في المهمة الأطلسية شرق البحر الأبيض المتوسط في الأشهر الأولى من ملحمة طوفان الأقصى (فضلاً عن توفير كل ما تطلبه اسرائيل من سلاح وعتاد وتقنيات ومعلومات استخبارية وما الى ذلك وهو ما لم تقصّر فيه دول اخرى كذلك كألمانيا مثلاً). بل وصل هذا التماهي البريطاني مع الموقف الأمريكي الى حد الاشتراك المباشر في العدوان على اليمن بحجة حماية الملاحة البحرية وحركة التجارة الدولية عبر باب المندب والممرات والكتل المائية المحيطة به. ولا عجب في ذلك فالسياسة الخارجية البريطانية كانت تاريخياً تابعةً عموماً للسياسة الخارجية الأمريكية منذ أفول نجم الامبراطورية البريطانية بنهاية الحرب العالمية الثانية (او هكذا يقال) وقد قيل في ذلك ان بريطانيا تعمل تحت المظلة الأمريكية او انها الكلب المدلل للولايات المتحدة وماشابه ذلك من مقولات كثيرة تحاول التعبير عن حقيقة هذه العلاقة اللصيقة وتصويرها وفهم كنهها.

وهنا ينبغي ان نتوقف قليلاً لنبحث هذا الموضوع المهم (الذي نحتاجه لفهم التشابه المُلاحَظ في السياسة الخارجية بين بريطانيا وامريكا) وهو طبيعة العلاقة البريطانية مع امريكا وما إذا كانت حقاً علاقة التابع بالمتبوع والخادم بالمخدوم وما شابه ذلك. ويبدو لي ان هذا الوصف (اي وصف هذه العلاقة بالتبعية) لايخلو من

الحال قد انقلب في الانتخابات الأخيرة إذ صارت الحكومة عمالية والمعارضة محافظة رغم ان وصفنا وتقييمنا اعلاه حول الموقف من دعم اسرائيل يظل صادقاً عموماً). وأما مواقف الأحزاب البريطانية الأخرى (وهي أحزاب صغيرة عموماً) فهي تتفاوت بين متعاطفة مع فلسطين (كالحزب الوطني الاسكتلندي وحزب الخضر) ومتطرفة في دعمها لإسرائيل (كبعض الأحزاب الفاشية ومنها حزب المحافظين) ومعتدلة في هذا الدعم (كالحزب الليبرالي الديمقراطي).

تبسيط وانخداع بالمظاهر مع اعترافي بأن وصف هذه العلاقة بالتبعية لا يخلو من حقيقة وصدق. وترجيحي في هذا المقام ان العلاقة البريطانية مع امريكا هي من قبيل علاقة الأخ الأصغر بالأخ الأكبر ولذا يصح وصفها بعلاقة 'التبعية الأخوية' وليست من قبيل علاقة الخادم بالمخدوم او علاقة 'التبعية الذيلية'.

فرغم ان البريطانيين هم الطرف الأضعف في هذه العلاقة (وهو ما قد يبرر الصاق صفة التبعية بهذه العلاقة) الا انهم ليسوا كارهين لهذه التبعية ولا مكرهين عليها بل هم يتبعون الأمريكيين بكامل حريتهم وإرادتهم إدراكاً منهم لمصالحهم وتبعاً لهذه المصالح (باوسع معنى 'المصالح') التي تحققها هذه التبعية (او الشراكة) الاخوية. والسبب في ذلك هو التشابه اللغوي والثقافي والمصلحي بين هذين الاخوين ('الانكلوسكسونيين') مما يجعلهما يفكران ويخططان ويعملان بطريقة متشابهة وهو ما يبرر ويفسر ويدعو الى عملهما معاً. فهما يفكران ويخططان ويعملان معاً بتناغم واتساق عموماً بسبب هذا التشابه الأخوي ـ لا بسبب الفرض والتسلط من أحدهما على الآخر ـ رغم ان الأخ الأكبر يظل محتفظاً بحق اتخاذ القرار النهائي (خاصةً في القضايا المصيرية) بينما يظل للأخ الأصغر دالّة الاعتراض وقدرة الضغط على الأخ الأكبر لتغيير او تعديل قراره او حتى التمرد على اخيه الأكبر احياناً بما لا يصل الى حد التخلي عنه و 'الغدر' به و 'الخيانة' له.

وهناك دلائل عديدة على ان بريطانيا تلعب احياناً دور الدماغ المفكر في بعض المخططات الأمريكية، كما انها قد تتجاوز الموقف الأمريكي وتتقدم عليه احياناً كما هو الحال في الموقف البريطاني تجاه روسيا قبل وخلال الحرب الروسية الأطلسية على الأرض الأوكرانية حيث اتسم هذا الموقف عموماً بتشدد بريطاني تجاه روسيا اكبر مما اظهرته امريكا. كما ابدت بريطانيا في بعض المواقف نوعاً من الاستقلال عن امريكا ـ ولو ظاهراً ـ كموقفها من الاتفاق النووي مع ايران عند انسحاب امريكا منه في عهد دونالد ترامب (وإن كان هناك احتمال آخر هو ان يكون هناك تقاسم للأدوار حيث تلعب بريطانيا والشركاء الأوروبيون دوراً تكميلياً لدور الولايات المتحدة لإبقاء ايران ملتزمة بالاتفاق النووي دون ان تحصل على فوائد منه فتمثل الولايات المتحدة بذلك دور الشرطي السيء بينما تمثل بريطانيا والشركاء الأوروبيون دور الشرطي الجيد).

وعلى كل حال، لا توجد حدود واضحة تماماً في تشبيه العلاقة البريطانية الأمريكية بعلاقة التابع بالمتبوع او علاقة الأخ الأصغر بالأخ الأكبر لتعقيد مثل هذه الأمور ودخول كثير من التفاصيل في خصوصيات المسائل والقضايا. ولكن يبقى من الواضح ـ في رأينا ـ انها علاقة تمتزج فيها التبعية (بفضل التفوق الأمريكي في الموارد والقدرات) بالأخوة (بفضل التشابه اللغوي والثقافي والمصلحي او التشابه 'الانكلوسكسوني') ولذا هي علاقة اخ صغير تابع بأخ كبير متبوع.

هذا كله فيما يتعلق بالموقف البريطاني الرسمي (حكومةً ومعارضةً). أما الموقف الشعبي (او المواقف الشعبية) فهو رغم انه ليس كالموقف الشعبي الأمريكي سوءاً في دعمه لاسرائيل (لأن الشعب البريطاني عموماً اكثر وعياً وانفتاحاً من الشعب الأمريكي كما ان تأثير العقائد الدينية الجاهلة فيه اقل كثيراً من تأثيرها في الشعب الأمريكي المتطرف في جهله الثقافي ـ او اميّته الثقافية ـ بقدر تطرفه في تقدمه التكنولوجي) يبقى لإسرائيل دعم شعبي قوي بين البريطانيين (خاصة في مجتمعات السكان الأصليين المنغلقة تقريباً والبعيدة نسبياً عن تأثيرات الهجرة والمهاجرين) لأسباب دينية وثقافية بالإضافة طبعاً لفعل الإعلام الصهيوني المسيطر عموماً والتقاليد السياسية البريطانية التي تنعكس طبعاً على الثقافة العامة وصعود اليمين الفاشي وكراهية الإسلام والمسلمين وما شابه ذلك. ولكن ينبغي ان نسجل لبريطانيا انها تحتضن اقوى (او على الأقل واحدة من اقوى) الحراكات الشعبية الداعمة لفلسطين في الدول الأوروبية والغربية وهو ما انعكس ـ مثلاً ـ في المظاهرات الضخمة التي نظمت في انحاء بريطانيا (ولندن خصوصاً) دعماً لفلسطين ورفضاً لحرب الإبادة في غزة.

وينبغي ان نكرر ما قلناه من قبل بشأن اسرائيل والولايات المتحدة وهو ان الجرائم التي اقترفتها (وتقترفها) بريطانيا عبر تاريخها الحافل بالإجرام (وعلى رأسها جريمة العصر بإقامة 'دولة إسرائيل' وكذلك جريمة إبادة غزة) ليست مسؤولية افراد او طغمة او جيش او حكومة او دولة فحسب بل هي ـ قبل كل شيء ـ مسؤولية شعب بحق شعوب (وعلى رأسها الشعب الفلسطيني).[٣٠] وهذا يفرض على بريطانيا (وكذا على امريكا والمانيا وبقية داعمي اسرائيل) ان تدفع تعويضات هائلة (كحد ادنى) للفلسطينيين في المستقبل لما سببته لهم من قتل ودمار وآلام وتشرد واضطهاد وإبادة إذ لبريطانيا نصيب وحصة في كل ما ارتكبته وترتكبه اسرائيل من جرائم سواء اشتركت بريطانيا مباشرة في هذه الجرائم ام لم تشترك.

وينبغي ان ننوه اخيراً الى ان القضية الفلسطينية وحرب الإبادة في غزة كانت حاضرة بقوة ـ نسبياً ـ في الانتخابات التشريعية الأخيرة في بريطانيا والتي حقق فيها حزب العمال فوزاً ساحقاً. ورغم ان المرشحين (أكانوا مستقلين ام متحزبين) المؤيدين لفلسطين لم يحققوا في هذه الانتخابات الا نجاحات تافهة (وذلك بسبب اهتمام المواطن البريطاني بالهموم المعيشية اولاً ولطبيعة النظام الانتخابي البريطاني ثانياً) الا ان الصوت المؤيد لفلسطين كانت له آثار غير مباشرة مهمة (كإسقاط بعض المرشحين الموالين لإسرائيل وإضعاف شعبية بعضهم الآخر وانجاح بعض المرشحين المعتدلين بامدادهم بالأصوات الإضافية التي يحتاجونها للفوز ضد المرشحين

[٣٠] الواقع ان هذا يصدق عموماً على جميع الدول الغربية ذات الماضي او الحاضر الاستعماري من حيث مسؤولية شعوبها عن جرائمها (ولذا لا حاجة لتكرار هذا في المستقبل).

الموالين لإسرائيل) وهو ما أثار قلق الأوساط الصهيونية والفاشية. والواقع انه لو كانت الحملة المؤيدة لفلسطين احسن تنظيماً وتمويلاً وتنسيقاً (بتفادي بعض التضاربات الداخلية والاتفاق على مرشحين توافقيين في الدوائر الانتخابية المنقسمة) لربما كانت النجاحات المباشرة اكبر بكثير.[٣١]

وعلى كل حال، كتجربة اولى لـ 'الصوت الفلسطيني' في الحياة البرلمانية البريطانية (والممارسات الانتخابية بشكل اعم) ينبغي ان يكون ما حققه هذا الصوت من انجازات ونجاحات مباشرة وغير مباشرة مُرضياً عموماً وإن لم يكن كافياً ولا ينبغي القبول به والركون اليه خاصةً في التطلع للمستقبل. ويؤمل من القوى الرئيسية التي تقف وراء الصوت الفلسطيني في بريطانيا (وفي غير بريطانيا كذلك) ان تحسن اداءها وتنسق فيما بينها لتحصل على نتائج افضل وتحقق انتصارات اكبر تليق بها وتستحقها فلسطين. واول ما ينبغي ان تفعله هذه القوى هو ان تقيّم تجربتها الأولى هذه وتستفيد من دروسها وتستخلص عبرها وان تنبذ تضارباتها ونزاعاتها الداخلية وتسعى لتوسيع وتحشيد قواعدها الانتخابية وتنويع مصادرها المالية (وما شابه ذلك).

٥.٣.٢ ألمانيا

لقد كان الموقف الألماني في تأييد الكيان الصهيوني ودعم جرائم الإبادة متميزاً وعلى جميع الصعد. كما انه كان شاملاً للكيانات السياسية (كالمسؤولين الرسميين والأحزاب) والثقافية والكنسية بل وحتى الشعبية إذ تحمست نسبة كبيرة من الشعب الألماني في دعم اسرائيل والوقوف الى جانبها في جرائم الإبادة.[٣٢] وقد أدهش الموقف الألماني هذا كثيراً من المراقبين وهو ما لا ينبغي ان يكون لأن هذا الموقف الألماني نابع من ومعبر عن الثقافة الألمانية والروح الألمانية الأصيلة القائمة على العنصرية واستساغة الإجرام، وهو بذا تعبير صادق عن العقلية الألمانية والروح الألمانية والهوية الألمانية. ومن يتذكر جرائم الإبادة البشعة التي ارتكبها الألمان في افريقيا واوروبا (وربما حتى في امريكا الشمالية على يد جماعات عرقية المانية) والتي راح ضحيتها

---

[٣١] في رأيي ان الحملة المؤيدة لفلسطين (ومنها بالطبع تيار اليسار الحقيقي البريطاني) في الانتخابات البريطانية الأخيرة لو كانت بدرجة ذكاء وتنظيم وتنسيق التحالف المناهض للفاشية في فرنسا (وعلى رأسه تيار اليسار الحقيقي الذي حقق فوزاً كبيراً في الانتخابات التشريعية الفرنسية الأخيرة وهو ما سنشير اليه لاحقاً في § ٦.٣.٢) لحققت الكثير من النجاحات والانتصارات الانتخابية المباشرة.

[٣٢] تشير الإحصاءات واستطلاعات الرأي الى ان الشعب الألماني هو واحد من اكثر الشعوب دعماً لإسرائيل وتحمساً لجرائمها وتبريراً لإبادتها. ولا غرابة في ذلك فـ 'الشعبان' الألماني والصهيوني صنوان في العنصرية والإبادة والتطهير العرقي فما فعله 'شعب' اسرائيل في فلسطين من ابادة وتطهير عرقي وتجويع مدنيين وما شابه ذلك قد فعله الشعب الألماني من قبل في افريقيا وشرق اوروبا وكل هذا موثق تاريخياً بالأدلة القاطعة.

عشرات الملايين من الأبرياء يستطيع ان يتفهم هذا التعاطف الألماني مع الإجرام الصهيوني الذي يعبر عن حنين الألمان للماضي والتزاماتهم للحاضر وتطلعاتهم للمستقبل.

ومن يظن ان جرائم المانيا ابان الحكم النازي (اي الرايخ الثالث) هي نتاج لهتلر والحزب النازي والعقيدة النازية فهو واهم لأن الحقيقة عكس ذلك تماماً، اي ان هتلر والحزب النازي والعقيدة النازية ليسوا سوى نتاج للعقلية الألمانية والثقافة الألمانية القائمة على التفوق العنصري بما يتضمنه ذلك من استساغة لجرائم الإبادة والتطهير العرقي وجرائم الحرب وما شاكلها.[٣٣] والخلاصة ان هتلر والحزب النازي والعقيدة النازية انما هم العرض لا المرض، إذ مرض المانيا يمتد الى اعمق اعماقها فيتوطن روحها ويطبع هويتها ويشكل ثقافتها وهو ما يقف وراء ظهور هتلر والحزب النازي والعقيدة النازية.

ومما يجدر التنبيه له في هذا السياق ان هتلر كان احد السياسيين الأكثر شعبية في العالم مع ان فكره العنصري الإبادي الذي دوّنه في كتابه 'كفاحي' كان مقروءاً ومسموعاً لدى جميع الألمان تقريباً (لأنه كان يدرّس في المدارس والجامعات ويتلى في المحافل والمؤتمرات ويقتبس في وسائل الإعلام و ... إلخ). يضاف الى ذلك ان الخطاب النازي (لهتلر ولغير هتلر من كبار مسؤولي الحزب النازي والرايخ الثالث) الذي هو خطاب إجرامي إبادي كان مقروءاً ومسموعاً ومرئياً من جميع الألمان ولم يعارضه الا قلة قليلة (كان بعضها لاسباب مصلحية او سياسية او عسكرية وليس لاسباب اخلاقية او مبدئية او انسانية). وهذا يدل على مدى عنصرية الثقافة الألمانية والعقلية الألمانية اللتين تستسيغان فكراً همجياً بربرياً إبادياً كهذا.

وهنا يحسن التنويه بالدعم المطلق الذي تقدمه الأحزاب المسيحية والكنائس المسيحية الألمانية لجرائم الإبادة الصهيونية. وهذا ينبغي ان يذكّرنا بالمواقف الإجرامية للكنائس الألمانية ابان الحكم النازي حيث لم توفر هذه الكنائس غطاءاً روحياً ومعنوياً للإجرام النازي بدعمها المباشر للنظام النازي وبتقديم كهنتها للخدمات الروحية (بما يتضمنه ذلك من دعم معنوي) لجيش الإجرام النازي فحسب، بل ان هناك حوادث كثيرة اشترك فيها كهنة مسيحيون المان ـ بشكل مباشر او غير مباشر ـ في جرائم ابادة راح ضحيتها نساء واطفال ومدنيون او وفروا غطاءاً معنوياً وأخلاقياً لها.

والخلاصة ان الكنائس الألمانية (بل و 'المسيحية الألمانية' عموماً) لها تأريخ حافل بالإجرام، ليس مباركةً وتنظيراً له فحسب بل مشاركةً فيه كذلك. ولذا لا ينبغي ان نستغرب من كنائس كهذه ان تصطف الى

---

[٣٣] ينبغي ان نلاحظ هنا ان تقييمنا هذا لا ينطبق على المانيا وحدها بل ينسحب على كل امتداداتها من دول وجماعات محيطة بالجغرافيا الألمانية او مرتبطة بها ثقافياً كالنمسا.

جانب الكيان الصهيوني وتدعم جرائم الإبادة في غزة فهي المانية بامتياز ومشبعة بروح العنصرية والإبادة والإجرام التي تستمدها من الثقافة الألمانية وروافدها الفكرية والروحية الخبيثة.

وهنا يجدر التذكير كذلك بان كثيراً من رموز وشخصيات ونشطاء اليمين الفاشي المتطرف والفكر العنصري الاستئصالي ممن هم خارج حدود الدولة الألمانية وامتداداتها المجاورة (كبعض السياسيين ورجال الدين وقادة الفكر ورموز الثقافة في بريطانيا او الولايات المتحدة مثلاً) هم من اصول المانية وهذا يدل على مدى اصالة الفكر الفاشي العنصري في الشخصية الألمانية وتغلغله في جيناتها وتوارثه عبر أجيالها جيلاً بعد جيل حتى حين تنشأ هذه الأجيال وتترعرع في ظل ثقافات وجماعات اخرى.

ومن الطرف السخيفة ما يدعيه البعض من ان الدعم الألماني الرسمي والشعبي لإسرائيل وجرائمها انما هو ناتج عن عقدة الذنب تجاه اليهود بسبب المذابح التي ارتكبها الألمان بحق اليهود ابان الحكم النازي. وأقول لهؤلاء: متى كان للألمان ضمير ليشعروا بعقدة الذنب، ولو كان لهم ضمير حقاً فلماذا لا يشعرون بالتعاطف مع الفلسطينيين الذين يذبحون على مرأىً ومسمعٍ منهم ولِمَ لا يشعرون بعقدة الذنب من دعمهم للإجرام الصهيوني ووقوفهم الى جانب اسرائيل في حرب الإبادة. لقد كان الأولى بالألمان ان يتعاطفوا مع ضحايا مجزرة قائمة على قدم وساق وتُبث حيّةً على الهواء لحظة بلحظة بدل ان يثقلوا ضميرهم المزعوم بجرائم ارتكبها آباؤهم واجدادهم منذ عهد بعيد.

ونقول اخيراً انه ينبغي ان ينسب الفضل لطوفان الأقصى في تذكير العالم بان المانيا هي واحدة من اخطر دول العالم - إن لم تكن اخطرها على الإطلاق - لأن الالمان لو انفلتوا من عقالهم واتيحت لهم الفرصة ليسودوا في الأرض لملؤوها بجرائم الإبادة والتطهير العرقي والعنصرية وكل اشكال الأعمال البربرية والأفعال الهمجية (كما فعلوا من قبل في افريقيا واوروبا). ويكفي ان نعلم ان المانيا هي اكبر خزان ورافد للفكر الفاشي والتطرف اليميني في اوروبا وحول العالم. كما ان هذا العنصر الخبيث متجذر حتى في الفلسفة الألمانية التي هي - في جزء كبير منها - فلسفة متعالية متغطرسة ترتفع بـ 'مثاليتها' الى آفاق التفوق العرقي والاستعلاء الآيديولوجي. كما ان الشخصية الألمانية شخصية عُصابية غير سوية[٣٤] ولذا هي - بما تمتلك من علم وتكنولوجيا - تشكل خطراً هائلاً على الجنس البشري (وعلى الشرق بالخصوص). ومن يعتقد ان التاريخ لا يعيد نفسه وان الألمان قد تلقنوا الدرس من الدمار الذي لحق بهم في الحرب العالمية الثانية فهو واهم. بل يكفي ان نتذكر

[٣٤] قد يكون افضل تعبير عن عصابية الشخصية الألمانية وخللها الحركات المخبولة التي كان يقوم بها هتلر اثناء القاء خطاباته النارية وما كانت تحظى به من اعجاب لدى الألمان وتأسرهم بل كانت من اهم عناصر التأثير والتحشيد لديهم.

ان الألمان لم يتعلموا الدرس من الحرب العالمية الأولى فجاؤوا بحرب أشرس منها وهم بذلك لن يترددوا في القيام بحروب اشد تدميراً من سابقاتها (ربما باتجاه اهداف مختلفة هذه المرة كالشرق العربي المسلم) لو اتيحت لهم فرصة ذهبية كهذه لممارسة هوايتهم المفضلة في القتل والتدمير والإبادة والإجرام. كما ينبغي ان نتذكر ان هذا الانبعاث للفكر الفاشي اليميني المتطرف في المانيا (وما حولها) يدل على ان الألمان لم يتلقنوا الدرس بل ربما سيعودون هذه المرة اشد عنفواناً وإصراراً بعد ان اخذوا الدرس من اخطائهم السابقة ليرتكبوا هذه المرة جرائم احسن تنظيماً واخراجاً مع اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة للنجاة من العقاب بل للخروج بنصر مؤزر على اعدائهم (الذين قد يكونون هذه المرة اقل 'ذكاءاً' وتنظيماً وتسليحاً منهم ومن اعدائهم السابقين).

وهنا يحسن ان نشير اشارة عابرة الى النمسا التي يمكن اعتبارها صورة مصغرة لألمانيا. فاشتراكهما في اللغة والثقافة والتاريخ النازي يجعل من الطبيعي ان تكون مواقف النمسا وافعالها ـ حكومةً وشعباً ـ تجاه القضية الفلسطينية وحرب الإبادة مشابهة تماماً لمواقف المانيا وافعالها. بل ان النمساويين قد تفوقوا احياناً على اخوتهم الألمان في النازية والإجرام وكانوا اكثر حماساً منهم في التصهين والنذالة.

٦.٣.٢ فرنسا

لم يكن الموقف الفرنسي الرسمي استثناءاً عن بقية المواقف الغربية خلال الفترة الأولى من ملحمة طوفان الأقصى إذ اظهر الفرنسيون من الحماس في دعم اسرائيل واسنادها في حرب الإبادة ما اظهره نظراؤهم الأمريكيون والبريطانيون والألمان وغيرهم من الداعمين الرئيسيين للكيان. كما حج رئيسهم الى اسرائيل ـ سائراً على هدي من سبقه من الزعماء الغربيين وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي ـ في الأسابيع الأولى من ملحمة طوفان الأقصى لتقديم واجب العزاء والولاء للصهاينة.

ولكن الموقف الفرنسي الرسمي بدأ يتغير شيئاً ما بعد الأشهر القليلة الأولى من حرب الإبادة، فصار يدعو مرة الى وقف اطلاق النار وإنهاء الحرب ويدعو مرة اخرى ـ بخجل واستحياء ـ الى احترام القانون الدولي الإنساني وشرائع الحرب وتجنب استهداف المدنيين وما شابه ذلك. وعموماً، اتسم الموقف الفرنسي ـ بعد الفترة الأولى من ملحمة طوفان الأقصى ـ بقدر من التذبذب فتارة يتطرف في دعم اسرائيل (فيساير ويوازي الموقف الأمريكي والبريطاني والألماني وموقف امثالهم من المتحمسين لحرب الإبادة) وتارة يبدي شيئاً من العقلانية والاعتدال تجاه المطالب والحقوق الفلسطينية وجرائم الإبادة التي ترتكب في غزة.

وعلى كل حال، لا ينبغي ان يفسر هذا بصراع فرنسا مع ضميرها الإنساني الذي يملي عليها مواقف مغايرة

للمواقف التي تمليها عليها مصالحها وتحالفاتها وتوجهاتها السياسية والاستراتيجية. فهذا التذبذب يعود من جهة الى رغبة فرنسا في الاحتفاظ بشيء من الاستقلالية لها عن الأمريكيين ومواقفهم المتطرفة في دعم اسرائيل (وهو ما تمليه توازنات وخيارات وعلاقات فرنسا الدولية التي هي اكثر تنوعاً وتشعباً من توازنات وخيارات وعلاقات الولايات المتحدة واتباعها الخلص كبريطانيا وتابعيها كألمانيا). كما يعود من جهة أخرى الى رغبة فرنسا في الاحتفاظ بشيء من مصداقيتها وسمعتها وصورتها التي ظلت تسوقها للعالم كحاملة لشعار 'الحرية والمساواة والأخوة' ووريثة للثورة الفرنسية ومبادئها 'السامية' وراعية لحقوق الإنسان واحترام القانون الدولي وما شابه ذلك من شعارات الكذب والنفاق. ولكن ينبغي ان نعترف رغم كل ذلك ان الموقف الفرنسي عموماً وإجمالاً لم يكن في السوء والتطرف في دعم اسرائيل كنظيره الأمريكي او البريطاني او الألماني (وغيرهم من المتطرفين في اوروبا والغرب).

وأما الموقف الشعبي الفرنسي (او بالأحرى المواقف الشعبية الفرنسية) فقد انقسم انقساماً حاداً بين اليمين الفاشي الداعم لإسرائيل بقوة (لا حباً باليهود ولا حتى بإسرائيل بل انتهازاً وكرهاً للإسلام والمسلمين) وبين اليسار ومن معه من مهاجرين ومغتربين (وذريتهم من عرب ومسلمين) واقليات عرقية وتيارات وجمعيات ذات توجهات انسانية وما شابه ذلك. وربما كان الحراك الفرنسي المؤيد لفلسطين هو الأكبر والأهم والأكثر تأثيراً في اوروبا (إذا استثنينا بريطانيا) بل كانت القضية الفلسطينية حاضرة بقوة في الانتخابات التشريعية الفرنسية التي جرت اخيراً والتي حقق اليسار فيها فوزاً كبيراً غير متوقع. وقد كان لليسار الحقيقي الفرنسي (بزعامة ميلانشون) مواقف مشرفة في دعم فلسطين ورفض حرب الإبادة وهو ما ينبغي ان يذكر فيشكر.

٧.٣.٢ بقية دول اوروبا

كانت معظم دول اوروبا الأخرى داعمةً للكيان الصهيوني في عدوانه على غزة وتأييد حرب الإبادة بشكل مطلق او شبه مطلق خاصةً في المراحل الأولى من ملحمة طوفان الأقصى وحرب الإبادة. فمثلاً كان الموقف الإيطالي متماهياً مع الموقف الصهيوني وداعماً له دعماً كاملاً في التصريحات والمواقف كما في الإمداد بالسلاح والعتاد والتجهيزات وكل ما يحتاجه الكيان من إيطاليا. ولا غرابة في ذلك فالحكومة الإيطالية فاشية شكلاً ومضموناً وقلباً وقالباً وهي قد وصلت الى الحكم ببرامج انتخابية واحزاب قائمة على كراهية الإسلام والمسلمين، كما لا يُخفي بعض ما فيها ومن فيها جذوره وتطلعاته وتوجهاته الصليبية. وكذا حال النمسا التي تعرضنا لها سابقاً (راجع الفقرة الأخيرة من § ٥.٣.٢). اما دول شرق اوروبا فذهب معظمها بعيداً في دعم اسرائيل وتأييدها

في حرب الإبادة. بل ان بعضها (كتشيكيا والمجر وبولندا) تطرّف في دعمه لإسرائيل والتضامن معها.

وقد اتخذت بعض الدول الأوروبية مواقف افضل من هذه قليلاً (او بالأحرى اقل سوءاً من هذه) فاتسمت بشيء من التوازن وان قصرت عن دعم الحق الفلسطيني وإدانة حرب الإبادة بما يستحقان (اي دعم كامل للحق الفلسطيني ورفض تام لحرب الإبادة). وعلى رأس هذه الدول آيرلندا وإسبانيا والنروج (وربما بلجيكا كذلك) التي اعترفت ثلاثتها بالدولة الفلسطينية (وهو إجراء شكلي رمزي لا يقدم ولا يؤخر). ورغم ذلك واصلت بعض هذه الدول 'الجيدة' امداد الكيان الصهيوني بالسلاح والعتاد كما فشلت جميعها في اتخاذ اي إجراءات حقيقية ضده (كقطع العلاقات التجارية او الدبلوماسية او تجميدها او تخفيضها).

وعلى كل حال، لم يكن موقف الأوروبيين اجمالاً مشرّفاً او لائقاً بما يزعمونه من قيم اخلاقية ويتشدقون به من حقوق الإنسان واحترام للقانون الدولي وما شابه ذلك من ترهات واكاذيب، بل كان احياناً مخجلاً ومقززاً الى درجة لا تُصدَّق حتى من امثالهم من المنافقين المعروفين من تاريخهم بالإدمان على الكذب والدجل والرياء.

والخلاصة ان اوربا 'حاملة مشعل الحضارة الإنسانية' قد فشلت فشلاً ذريعاً في هذا الاختبار وكشفت انها ليست سوى وريثة قيم البرابرة الصليبيين وابنائهم القراصنة المستعمرين واحفادهم النازيين والفاشيين. فهذه هي حقيقة اوروبا وروحها وقيمها التي فشل الطلاء الكاذب والتزويق المزيف في اخفائها والتستر على قبحها.

والواقع ان هذه النظرة القاتمة لا تنطبق على اوروبا الرسمية فحسب بل تنطبق كذلك على شعوبها عموماً. فلم تشهد اوروبا الشرقية حراكاً مناصراً لفلسطين ورافضاً لحرب الإبادة، كما ان الحراك الشعبي المناصر لفلسطين في غرب اوروبا غاب عن بعض الدول او لم يكن بالمستوى المطلوب كما انه تشكل في كثير من الأحيان (في معظمه على الأقل) من الجاليات العربية والمسلمة وقليل من النشطاء المحليين ولم يكن ممثلاً لنبض الشارع الأوروبي المحلي او عاكساً له. ولا غرابة في كل ذلك ما دام كره العرب والإسلام والمسلمين هو جزء لا يتجزأ من الثقافة الأوروبية (البيتية والعامة) بل هو يجري في عروق الأوروبيين مجرى الدماء بل هو مكتوب في جيناتهم ومنقوش في مورثاتهم (وهذا ينطبق كذلك على الثقافة الغربية والغربيين عموماً).

٨.٣.٢ الصين وروسيا

الصين وروسيا ـ رغم وزنهما الثقيل عسكرياً واقتصادياً ـ قزمان فيما يتعلق بالسياسة الدولية المرتبطة بقضايا لا

تتصل بها مباشرة (ومنها القضية الفلسطينية طبعاً). وهذا بالطبع يعود من جهة الى الهيمنة الغربية (والأمريكية خصوصاً) التي لا تألو جهداً في احتكار القرار والنفوذ الدوليين وإبعاد اي فاعل آخر بحكم الماضي الاستعماري لدول الغرب، كما يعود من جهة أخرى الى انكفاء الصين وروسيا على مصالحهما الذاتية المباشرة وهو ما يعكس قصر نظر هاتين الدولتين (كما اثبتت ذلك تجربة الحرب الروسية الأطلسية على الأرض الاوكرانية مثلاً). وعلى كل حال تبقى مواقف هاتين الدولتين المرتبطة بتداعيات طوفان الأقصى ايجابية عموماً (من المنظور الفلسطيني) ضمن مدى التوقعات المنتظرة منهما.

والواقع ان طوفان الأقصى كان ينبغي ان يكون فرصة لهاتين الدولتين لمد نفوذهما وزيادة ثقلهما على مسرح السياسة الدولية ولكن هاتين الدولتين إما فشلتا في رؤية هذه الفرصة وإما 'آثرتا السلامة' والرضا بالقليل. نعم، لقد حاولت هاتان الدولتان لعب دور اكبر باستضافة مؤتمرات للفصائل الفلسطينية ومحاولة توحيد مواقفها ونبذ خلافاتها مثلاً، الا ان هذا جهد متواضع جداً إذ كان بإمكانهما ان تفعلا اكثر من ذلك بكثير. بل كان بإمكانهما (من منطق براغماتي انتهازي) ان تقلبا الطاولة على الغرب وتعيدا شيئاً من التوازن المفقود بفعل الطغيان الغربي.

وعلى كل حال، هذه التجربة ـ كغيرها من التجارب السابقة ـ ينبغي ان تكون تذكيراً لنا ـ كعرب ومسلمين ـ بحقيقة ان هاتين الدولتين لا ينبغي الاعتماد عليهما في قضايانا المصيرية فهما قد تصلحان ان تكونا شريكاً مرحلياً او صديقاً عابراً او ما شابه ذلك، ولكن من الخطأ اتخاذهما او اعتبارهما حليفاً حقيقياً لغياب التزامهما الآيديولوجي والأخلاقي مضافاً الى التباينات الثقافية معهما والبعد الجغرافي عنهما. وهما في معظم الأحيان انما تنظران اولاً وأخيراً الى مصالحهما التجارية والاقتصادية والسياسية الآنية المباشرة دون اعتبار لقضايا الحق والعدالة بل ولا حتى الى مصالحهما الاستراتيجية البعيدة المدى وما يمكن ان تحققاه من مكتسبات تاريخية واستراتيجية.

فمثلاً حتى وقت قريب (اي ما قبل ارهاصات الحرب الروسية الأطلسية على الأرض الأوكرانية) كان هدف روسيا الاندماج في المنظومة الغربية كشريك وند وهو ما لم تحصل عليه مما ادى الى اندلاع هذه الحرب. كما ظلت الصين وروسيا سائرتين في ركاب ما يسمى بالنظام الدولي ـ وهو نظام غربي استعماري قائم على اساس البطش والهيمنة ـ وراضيتين به ما دامت مصالحهما محفوظة. وينبغي على الجميع ان يتذكر الكثير من المواقف المخزية لروسيا والصين في الانصياع وراء الإرادة الغربية في مجلس الأمن ومحافل دولية أخرى (مثلاً في مسألة فرض العقوبات على عدد من الدول المنفلتة عن العقال الغربي وشن الحروب عليها)

مداهنة للغرب في صفقات بيع وشراء رخيص للمواقف. كما ينبغي ان نتذكر ان الصين وروسيا تتعاملان مع الكيان الصهيوني بنفس 'الودّ' الذي تتعاملان به مع 'اصدقائهما' العرب (إن لم يكن 'ودّهما' تجاه الكيان أكثر وأكبر) رغم ان هذا الود قد يتراجع احياناً لأسباب موضوعية كارتباطات الكيان القوية بالمصالح الغربية وتماهيه مع المواقف الغربية او انحيازه لها احياناً (بسبب مصالحه او تحالفاته او ولاءاته او بسبب الضغط الأمريكي عليه ونحو ذلك) مما يؤدي الى 'تعكر' علاقتهما به.

وأما الموقف الشعبي في هاتين الدولتين تجاه قضية فلسطين واحداث طوفان الأقصى فلم يكن شيئاً مذكوراً (إن كان شيئاً على الإطلاق) لطبيعة اهتمامات الشعب فيهما ونمط الثقافة (السياسية والعامة) السائدة فيهما ولاحتكار (او شبه احتكار) الدولة للعمل الحزبي والنشاط السياسي او ذي الطابع السياسي (خاصةً فيما يتعلق بالشؤون الخارجية) وغياب الثقافة السياسية المجتمعية (عكس ما هو في دول الغرب عموماً من وجود حركيين ونشطاء ومنظمات غير حكومية وما شابه ذلك مما هو معروف للجميع).

٩.٣.٢ مصر

لقد مثل الموقف المصري والدور الذي لعبته مصر ـ نظاماً وجيشاً وشعباً ـ نقطة الحضيض الأدنى الذي بلغه العرب (لا مصر فحسب) وكان ذلك فضيحة لها بكل المقاييس وعلى جميع الصعد والمستويات. انه عصارة العصارة للبؤس العربي (والمصري طبعاً) ونذالة النذالة في السقوط والانحطاط والذل والخيانة. فمصر هي المسؤول الأول (حتى قبل اسرائيل) عن حصار غزة وتجويعها، ومصر هي المسؤول عن التآمر مع الصهاينة والأمريكان ضد المقاومة الفلسطينية، ومصر هي التي منحت الضوء الأخضر للصهاينة في هجومهم على رفح (وغير رفح) متنازلة عن حقوقها الملزمة للعدو حسبما التزم به فيما يسمى بمعاهدة السلام، بل مصر (حسب معلومات شبه اكيدة) هي التي تحرض (مع دول عربية اخرى) الأمريكيين ليواصلوا دعمهم للكيان الصهيوني للقضاء على المقاومة الفلسطينية (منطلقة في ذلك فيما يبدو مما يسمى بعقدة الإخوان وإن كان الأرجح ان التزلف للصهاينة عامل آخر لايقل اهمية عن عقدة الإخوان).

ولا غرابة في كل ذلك ما دام الأمر راجعاً للنظام المصري (ممثلاً برأسه وبالطغمة العسكرية الساندة له) الذي هو نظام تافه عميل جيء به ليقوم بأدوار قذرة كهذه وعلى رأسها حصار غزة وتصفية المقاومة فيها ونصرة اسرائيل والدفاع عنها. وكلنا يتذكر ان من اول ما قام به النظام المصري الحالي بعد وصوله الى الحكم في انقلاب عام 2013 هو إحكام الحصار على غزة بتدمير الأنفاق التي كانت تمثل احد شرايين الحياة المهمة

للمدنيين وللمقاومة في القطاع. بل ان هذا النظام لم يتردد (لتحقيق هذا الغرض) في تدمير اجزاء واسعة من رفح المصرية وتهجير اهلها بل وقتل بعضهم (مختلقاً في ذلك معاذير وحجج مفضوحة كمحاربة الإرهاب وتفكيك خلايا الإخوان). ولم يكن هذا سوى اوراق الاعتماد الأولى التي قدمها هذا النظام العميل الذليل لأسياده الصهاينة والأمريكان ليوفروا له الدعم الدولي والغطاء الشرعي وليتغاضوا عن ـ بل ليغطوا على ـ مذابحه وجرائمه المنكرة بحق المدنيين من شعبه. ثم يبدو ان رأس النظام يفكر في توريث ابنائه كرسي الحكم وهو ما يستدعي إثبات الولاء لأسياده بالقيام بهذا الدور القذر النذل ضد غزة بمقاومتها ومدنييها. فضلاً عن كل ذلك ان الرشاوى التي يتلقاها رأس النظام ومن حوله (سواء ما كان منها رسمياً بصورة معونات للجيش المصري او للاقتصاد المصري او ما كان منها شخصياً يدفع مباشرة في الحسابات المصرفية لرموز النظام ورجالاته) لابد ان يكون لها اثر سحري لا يقاوم لدى اصحاب الضمائر العفنة يجعل من غزة وما فيها ومن فيها سلعة رخيصة يسهل بيعها وشراؤها في سوق النخاسة والفجور.

كما انه لا غرابة في كل ذلك ما دام الأمر راجعاً لما يسمى بالجيش المصري الذي هو ليس سوى جيش مرتزقة لا تهمهم سوى الرواتب والعلاوات والرتب والترقيات والصفقات التجارية المشروعة وغير المشروعة ووسائل الإثراء والنهب (وهو ما أجادوا فيه وأبلغوا خلال حكمهم الطويل لمصر). فقد كان هذا الجيش وما يزال اداة لقمع الشعب ونهب ثرواته وتعبيده لصالح حكامه الفراعنة واسياده الأجانب. ولا ينبغي ان ننسى هزائم هذا الجيش المخزية (بما في ذلك ما زعم له من انجازات في حرب تشرين من عام 1973 والتهويلات الفجة بشأنها) وأداءه المذل الذي تجلى في اروع صوره في هزيمة عام 1967 التي اظهرت مدى تفاهة هذا الجيش وانحلاله وترهل قيادته وجبنها وخورها (وربما خيانتها كذلك). فهذا الجيش المرتزق لا يحسن القتال ولا يملك الشجاعة الا في ميادين التحرير ورابعة وما شابهها من سوح القتال (لأنه لم يؤهّل الا على حروب الشوارع والأزقة والحارات والميادين)، ولا يستبسل ويبذل التضحيات الا في قتال المدنيين العزل من شعبه. بل ان همومه السامية واستعداداته القتالية وصلت حديثاً الى مستوى الاهتمام بـ ـ وربما التفرغ لـ ـ زراعة الطماطم والفجل والبصل وما شابهها مما يليق بجيش من المزارعين لا بجيش من المقاتلين.

ولكن الغرابة كل الغرابة (او هكذا يبدو) هي في موقف التخاذل والصمت للشعب المصري الذي فشل (باستثناء حفنة منه لا يحسب لها حساب) ان يفعل اي شيء لمساعدة اهل غزة (وهم اقرب الناس اليه بكل المعايير بل يكادون ان يكونوا جزءاً منه). وقد فُسّر هذا وبُرّر بتفسيرات ومعاذير شتى، فاعتذر بعضهم عن هذا بالقمع الذي يمارسه النظام والقبضة الأمنية الصارمة لأجهزته القمعية بينما فسر بعضهم هذا (واعتذر

عنه) بالتعب والإعياء الذي عاناه هذا الشعب في احداث ما يسمى بالربيع العربي وهو ما منعه من الانخراط في تجربة مماثلة قد تقود الى نتائج كارثية مماثلة. والواقع ان كلا هذين التفسيرين او التبريرين (وما شابههما) لا يسمن ولا يغني من جوع ولا يرفع المسؤولية عن هذا الشعب لأن الكارثة حين تكون بحجم كارثة غزة والجريمة بفظاعة جريمة غزة والتواطؤ والخيانة بحجم خيانة النظام المصري وتواطئه فان هذه االحجج والمعاذير والتبريرات لا يبقى لها محل من الإعراب لأن الفعل واجب اياً كانت النتائج والعواقب. وهذا يعني ان الشعب المصري فشل فشلاً ذريعاً في اجتياز هذا الاختبار التاريخي المصيري وسيبقى عار غزة عالقاً بهذا الشعب الى يوم الدين.

وأما تفسيري انا فهو بسيط جدّاً وهو ان الثقافة المصرية هي ثقافة انتهازية منافقة تقوم على المغالبة والتربّح والاستغلال والفهلوة وتقديس القادة والخواجات واصحاب النفوذ والتشبه بهم واتّباعهم بما يمثلونه من مثل فوقية منحطة، وهذا يجعل من مناصرة غزة (خاصة ان كان هذا يتطلب ثمناً باهظاً) امراً غير وارد في الثقافة المصرية ولدى العقلية المصرية (خاصة المعاصرة منها التي نشأت وترعرعت في ظل عصر 'الانفتاح' وتشبعت بقيمه ومثله الرأسمالية المنحطة). وانا لا انكر ان هناك اقلية مصرية شريفة ذات مبادئ وقيم عليا تسترخص في سبيلها الغالي والنفيس وترفض هذه المقاربة الانتهازية النفعية الا ان هذه الأقلية - للأسف - ضئيلة وغير مؤثرة كما ان كثيراً منها إما قضى نحبه في سجون النظام وغياهب معتقلاته وإما ينتظر في هذه السجون والمعتقلات وإما تشرد خارج البلاد (وقد بدّل بعضهم تبديلا بفعل المحن او الإغراءات او اليأس او غير ذلك).

ولقد ظهرت هذه الثقافة المصرية المنحطة بابشع اشكالها في الابتزاز الدنيء الذي مارسه المصريون (متمثلين في البعض طبعاً) على المعابر وسبل السفر والتنقل والترحال لمن انقطعت بهم السبل او ضاقت بهم سبل العيش او احتاجوا لعلاج خارج القطاع او للوصول الى احبتهم في القطاع (ونحو ذلك) حيث كانت تفرض عليهم (او على بعضهم على الأقل) اتاوات باهظة مستغلين حاجتهم ويأسهم وانقطاعهم بدل ان يكون ذلك مدعاة للتعاطف معهم ومدّ يد العون والمساعدة لهم في محنهم ورزاياهم هذه. والواقع ان الإنسانية قد بلغت في بعض الحالات مستوىً من الانحطاط والدناءة والشذوذ لم تبلغه من قبل وسيضاف هذا بكل تأكيد للرصيد المشرق لدولة مصر نظاماً وجيشاً وشعباً.

وهنا ينبغي ان نعرّج على دور الأزهر الذي اقل ما يقال فيه انه دور مخزٍ لايتناسب مع المسؤولية التاريخية المنوطة به والدور الذي ينتظر منه، إذ لم يقم الأزهر بأكثر من نشر بعض البيانات والتصريحات الشاجبة

والمطالِبة بفعل كذا وكذا وهو ما يفعله جميع المنافقين والمتواطئين من الجامعة العربية الى منظمة التعاون الإسلامي إلى المنظمات الدولية ... إلخ. وعلى كل حال لا ينبغي الاستغراب من هذا الموقف المخزي ما دام الأزهر ليس الا مؤسسة من مؤسسات النظام المصري وما دام شيوخه ليسوا سوى موظفين او مستخدمين لدى الدولة يتقاضون اجورهم منها ويتعيشون بمنحها وارزاقها مستأكلين بالدين وضاربين عرض الحائط بكل تعاليمه وقيمه وأوامره ونواهيه.

وخلاصة الخلاصة ان مصر لم تَظهر يوماً بهذه التفاهة والقزمية والذل والصغار كما ظهرت في طوفان الأقصى، وهو عكس ما كان ينبغي ان يكون إذ كان طوفان الأقصى فرصة ذهبية تاريخية لها لتقوم بدورها قائدة ورائدة للعالمين العربي والإسلامي وهو ما كان ينتظره الكثير ـ بل الجميع ـ منها. ولو قامت مصر بدورها المنتظر هذا لحلقت بمكانتها الى السماء ولاكتسبت احترام الجميع (وعلى رأسهم الأمريكيون والإسرائيليون الذين يحترمون اعداءهم ويحتقرون اتباعهم وخدمهم وعملاءهم) ولصارت دولة كبرى اقليمياً ودولياً. وكل هذا انما حدث بفعل تفاهة وسخف ونذالة قادتها وانحطاط وانحلال جيشها وانتهازية ونفاق شعبها ومأجورية مؤسساتها الدينية والثقافية وتبعيتها للحكام والأجانب. ولا ابالغ إذ اقول ان مصر هي اكبر الخاسرين من مجريات طوفان الأقصى فقد وصلت الى حضيض الحضيض وخسرت خسراناً مبيناً في الدنيا والآخرة، ولن تستعيد مكانتها واحترامها ـ ان استعادتهما ـ لعقود وقرون ستأتي لأنها مسكونةٌ بثقافة منحطة ومحكومةٌ بنخب فاسدة تُنتِج هذه الثقافة وتُنتَج بها (اي يُعاد إنتاجها بها).[٣٥]

١٠.٣.٢ الأردن

لم يكن الموقف الرسمي الأردني مختلفاً كثيراً في تخاذله وتواطئه عن الموقف المصري، فالنظامان ينتميان الى نفس مدرسة الخيانة والعمالة. بل ربما فاق النظام الأردني نظيره المصري في هذا الميدان من بعض الجهات

[٣٥] لطالما تَخيّلتُ غزة (او بالأحرى ما يكافئ غزة) مجاورة للمملكة المتحدة وتصورتها محاصرة من قبل الحكومة البريطانية وحاولت استشراف ما سيحصل في بريطانيا جراء ذلك. استطيع القول بثقة ـ مستنداً الى خبرتي الطويلة بالمجتمع البريطاني ومعرفتي بالديناميكيات التي تحكمه وتحركه ـ انه سينتفض وستخرج المظاهرات في الشوارع لا بمئات الآلاف بل بالملايين، بل وستدور حرب اهلية او حرب شوارع تسقط الحكومة وترسلها الى الجحيم (وربما يفقد الكثير من الناس حياتهم فيها شهداء على طريق نصرة غزة) وستهرع المنظمات الإنسانية والناشطون فيها الى ايصال المساعدات الى غزة رغماً عن انف الحكومة البريطانية وسيجازف الكثير من الناشطين والمتطوعين بحياتهم في سبيل ذلك (وربما يستشهد الكثير منهم في هذا الطريق كذلك). هذا هو الفرق بين الشعوب والقطعان!

والجوانب فهو اكثر اصالة وعراقة في التبعية والعمالة للغرب والعمل في خدمة الصهاينة إذ يعود هذا الى ايام تأسيسه الأولى على يد البريطانيين إثر تحالف جد الأسرة الهاشمية معهم في الحرب العالمية الأولى في حربهم الصليبية ضد الإسلام والمسلمين في مخالفة واضحة لكل المبادئ الدينية والقيم الأخلاقية. وواضح ان النظام الأردني يشكل منذ تأسيسه ركناً اساساً من اركان السياسة الغربية وقواعدها في المنطقة خدمةً للمصالح الغربية وضماناً لأمن الكيان الصهيوني.

نعم، ربما لم يَبدُ موقف النظام الأردني قبيحاً بدرجة قبح موقف النظام المصري وهذا يعود الى عدة عوامل. فمن هذه العوامل ان الأردن كان محظوظاً في كونه غير مجاور لغزة وبذا فان موقعه الجغرافي أعفاه من الاشتراك المباشر في تجويع غزة (كما حدث للنظام المصري) رغم انه لا ينبغي الشك ان النظام الأردني كان سيقوم بنفس ما قام به النظام المصري لو كان الأردن مجاوراً لغزة. ثم ان النظام الأردني اكثر خبرة وحنكة وذكاءاً من النظام المصري إذ لم يكبت الاحتجاجات الشعبية والمظاهرات والوقفات الاحتجاجية كما فعل النظام المصري مما اعطى انطباعاً ان الأردن داعم لغزة. وقد عزز هذا التصريحات شبه النارية لبعض المسؤولين الأردنيين ضد اسرائيل وحرب الإبادة ودعماً لغزة وصمودها معززين ذلك ببعض المسرحيات الهزيلة كانزال بعض المساعدات الإغاثية على غزة جوّاً (بالتنسيق مع الكيان الصهيوني طبعاً). فضلاً عن ذلك ان وجود نسبة كبيرة من الأردنيين من اصول فلسطينية ـ بما استتبعه ذلك من حراك واضح وتعاطف شعبي ظاهر ـ اعطى انطباعاً (زائفاً الى حدٍّ ما) ان موقف الأردن ـ قيادةً وشعباً ـ خير من موقف مصر.

ولكن الواقع ـ كما اشرنا آنفاً ـ ان الموقف الأردني لا يختلف كثيراً (إن اختلف) عن نظيره المصري (على الأقل على المستوى الرسمي). فقد فشل النظام الأردني (كما فشل غيره من المطبعين) في قطع العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الكيان الصهيوني (وهذا اضعف الإيمان). كما لم يتردد النظام الأردني وجيشه في التنسيق مع امريكا وإسرائيل ووضع كل امكاناته العسكرية والتقنية وقواعده ومطاراته في دعم حرب الإبادة على غزة. كما انه لم يتردد كذلك في فتح طرقه البرية ومطاراته (بالتنسيق والاشتراك مع الإمارات والسعودية) لكسر الحصار الذي فرضه اليمن على خطوط إمداد العدوّ البحرية. بل ان الأردن بنظامه وجيشه بلغ في الخيانة مبلغاً عظيماً حين شارك جهاراً ودون حياء او خجل في التصدي للمسيرات والصواريخ الإيرانية التي استهدفت الكيان، وهذا يعني انخراطاً مباشراً في القتال الى جانب اسرائيل ودعماً لها في حرب الإبادة على غزة. والخلاصة ان موقف القيادة الأردنية والجيش الأردني لم يكن اقل بؤساً من نظيره المصري وان بدا كذلك ـ احتمالاً ـ لأسباب تتعلق بالجغرافيا والإخراج.

والواقع ان هذا يصح الى حدّ ما على الموقف الشعبي إذا غضضنا النظر عن المظاهرات والاحتجاجات، إذ لم يبذل الأردنيون (او معظمهم) جهداً حقيقياً في دعم غزة إذ كان بإمكانهم ان يفعلوا الكثير مما لم يفعلوه. فمثلاً كان بإمكانهم القيام بحركة عصيان مدني لقطع طرق امداد العدو بالأردن. كما كان بإمكانهم إصدار تهديدات جادة ورادعة للتجار والمتعهدين الأردنيين المتعاملين مع الكيان الصهيوني لوقف إمداده بما يحتاجه من مؤن. بل كان بإمكانهم تهريب السلاح وتوفير دعم مادي فعال للمقاومة في الضفة الغربية. بل كان بإمكانهم كذلك (لو ارتقوا) ان يتعاونوا مع المقاومة الإسلامية العراقية التي عرضت عليهم تسليحهم وتدريبهم لقتال العدو وفتح جبهة اسناد اردنية او ـ على الأقل ـ تعزيز جبهة مقاومة الضفة الغربية.

لقد كنت اتمنى على الشعب الأردني ان يُظهر في قتال اليهود ودعم سنة غزة عشر معشار الحماس والجهد والفعل الذي اظهره في قتال الروافض والمجوس ودعم سنة العراق اثناء حرب السنة ضد الروافض والمجوس قبل نحو عشرين عاماً حين ارسل صناديده ومقاتليه (من امثال البطل المغوار ابو مصعب الزرقاوي) ليبلوا بلاءاً حسناً فيفجروا معابد الروافض والمجوس وأسواقهم وينتقموا من اعراضهم ومقدساتهم ويثخنوا فيهم القتل والجراح. كنت اتمنى ان يظهر في الأردن هذه الأيام بطل مغوار كأبي مصعب الزرقاوي وجنود كجنوده الصناديد ليذهبوا ويفعلوا باليهود ما فعله الزرقاوي وجنوده بالروافض والمجوس ولينصروا سنة غزة كما نصر الشهيد الزرقاوي وجنوده الميامين سنة العراق. ولكن كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.[٣٦]

١١.٣.٢ دول الخليج

لقد اتسمت مواقف دول الخليج عموماً ـ حكاماً وشعوباً ـ بالتخاذل والجبن والتقصير وهو امر لا ينبغي ان يثير الاستغراب والدهشة لعمالة انظمة هذه الدول المعروفة للغرب وجدب شعوبها ثقافياً وحضارياً وانغماسها في الترف والملذات والتفاهات التي تشغلها عن الاهتمام بقضايا 'الأمة' والتفاعل معها الا بمقدار ما يتناغم مع ثقافتها الهابطة ووعيها المزيف (كالانخراط في التناحر الطائفي وتأجيج النعرات المذهبية وإثارة الجدل السفسطي حول كل ما هو سخيف ومفرِّق وهدّام كما نشاهده مثلاً في فضائياتها 'الدينية'). بل ان انظمة الحكم في بعض هذه الدول ذهب بعيداً في التواطؤ ـ بل المشاركة ـ في حرب الإبادة ضد غزة بفتح المطارات

[٣٦] الطريف ان قائل هذا الشعر هو نفسه من مصاديق قوله هذا وهو ما دفعنا الى الاستشهاد به (دون غيره) مراراً وتكراراً في هذا الكتاب ليكون كذلك قولاً وفعلاً (او قولاً وقائلاً!).

والموانئ لأمريكا واسرائيل لتستخدمانها في جهدهما الحربي الإبادي وتوفير السبل والممرات البديلة لتجارة الكيان الصهيوني وخطوط امداده تعويضاً لما فقده من تجارة وخطوط امداد بفضل الحصار الذي يفرضه اليمن عليه. كما ان هذه المشاركة امتدّت لتشمل وضع امكاناتها التقنية العسكرية وغير العسكرية (من رادارات واجهزة رصد ونحوها) في خدمة امريكا واسرائيل للتصدي للمسيَّرات والصواريخ المستهدِفة للكيان الصهيوني (كما حدث مع مسيَّرات وصواريخ اليمن وإيران)، بل ان هذه المشاركة وصلت الى حدّ تصدّي الدفاعات الجوية لهذه الدول للمسيَّرات والصواريخ حماية لإسرائيل ودفاعاً عنها وهي مشاركة مباشرة في الجهد الحربي الصهيوني.[٣٧]

كما ان هناك دلائل قوية على ان بعض هذه الأنظمة لا يكف عن تحريض اسياده الأمريكيين ضد المقاومة الفلسطينية (وغير الفلسطينية) والعمل كـ 'لوبيات ضغط' على الإدارة الأمريكية لصالح اسرائيل، وهو جهد تفعله هذه الأنظمة دون طمع في أجر (ولا تريد جزاءاً ولا شكوراً) من اسرائيل او من غير اسرائيل بل طلباً للأجر والثواب من الله وطاعةً واحتساباً له عزّ وجلّ.[٣٨] وأما تواطؤ إعلام هذه الدول فحدّث عنه ولا حرج إذ يتجاوز إعلام بعض هذه الدول في الكذب والتلفيق والإرجاف والفتّ في عضد المقاومة وتشويه صورة قادتها والدعم للرواية الصهيونية ما يفعله الإعلام الاسرائيلي مرات ومرات، بل ان الإعلام الاسرائيلي يخجل من ـ ويتورع عن ـ فعل كثير مما تقوم به ابواق دعاية هذه الأنظمة وأجهزة الكذب والسقوط والتضليل فيها.

ثم ان بعضاً من انظمة هذه الدول والشعوب لم تكتف بممارسة حياتها العادية دون اكتراث لمذبحة الإبادة

---

[٣٧] ينبغي ان نذكّر في هذا الصدد بالدور الخياني المشابه الذي لعبه النظام الأردني وجيشه المرتزق في وضع امكاناته التقنية في خدمة امريكا وإسرائيل وتصدّي دفاعاته الجوية للمسيَّرات والصواريخ حمايةً لإسرائيل وهو ما جاهر به النظام الأردني نفسه ولم يتستّر عليه متحججاً بانه لا يسمح لأحد ان يجعل الأردن ساحة صراع. وهو بهذه الحجة انما يستغبي الناس لأن ما يجعل الأردن ساحة صراع انما هو التصدّي للمسيَّرات والصواريخ لا تركها لتمرّ وتصل الى اسرائيل. وعلى كل حال لاينبغي إضاعة الوقت في بيان عراقة النظام الأردني في العمالة وطول باعه في الخيانة فتاريخه ـ منذ قيامه ـ معروف لدى القاصي والداني (راجع § ١٠.٣.٢).

[٣٨] انا اشير بهذا الى ما يتردد من معلومات شبه مؤكدة في الإعلام الأمريكي والغربي (الذي أُتابعه بانتظام) من ان مسؤولين كباراً من بعض هذه الدول (ومصر كذلك وربما الأردن ايضاً) بمستوى سفراء ووزراء خارجية وحتى زعماء ما انفكّوا 'يضغطون' على الإدارة الأمريكية لا لتواصل دعمها للكيان الصهيوني في حرب الإبادة فحسب بل لتزيد هذا الدعم ليتمكن الكيان من استئصال المقاومة الفلسطينية في غزة وهو هدف تشترك فيه هذه الأنظمة مع اسرائيل وبحماسة لا تقل عن حماسة اسرائيل له. وهذا في الواقع لا يكشف مدى نذالة هذه الأنظمة فحسب بل مدى خطورتها على شعوب المنطقة فهي لا تقلّ خطراً ـ بل تزيد ـ عن اسرائيل. ولا يسعني هنا الا ان اوجه التهاني الحارة لشعوب المنطقة و 'الأمتين' العربية والإسلامية على هذه القيادات الفذّة التي تليق بحق لهذه الشعوب و 'الأمم' الفذّة (ووافق شنٌّ طبقة).

القائمة على قدم وساق وعلى مدار الساعة تقريباً، ولم تكتفِ كذلك بحفلات لهوها ومجونها وطربها وترفيهها المعتادة بل زادت عليها فنظمت من حفلات الخلاعة والمجون في ذروة المذبحة ما يندى له جبين اسفل السافلين ودعت لهذه الحفلات بعضاً من احط 'الفنانين' واشدّهم سقوطاً وانحطاطاً حتى بلغ الحد احياناً ان يأتوا بمن يسخر من الله ويستهزئ بمقدساته في تحدٍ واضح لهذه 'الأمة' واستخفاف صريح بمقدساتها ولإظهار مدى تفاهتها وضعفها نكايةً بها.

ولا ينبغي ان ننسى ان معظم هذه الدول عجزت ـ حكاماً وشعوباً ـ حتى عن تسيير مظاهرات او مسيرات او وقفات احتجاجية رمزية دعماً لغزة وشجباً لحرب الإبادة،[٣٩] بل ان رفع العلم الفلسطيني في بعض هذه الدول يعد جريمة يعاقب عليها بالحبس اتساقاً مع حقيقة ان هذه الأنظمة هي ليست سوى الوجه الآخر لإسرائيل وان علم فلسطين هو تهديد لها بقدر ما هو تهديد لإسرائيل. كما ينبغي ان نذكّر ان نظامي الإمارات العربية المتحدة والبحرين قد خالفا 'الإجماع' العربي (حسب علمنا) فأدانا عملية طوفان الأقصى واعتبراها عملاً إرهابياً.

لقد كنت اتمنى على دول الخليج وشعوبها (وعلى رأسها قطر والسعودية) التي هبت لنصرة 'الثورة السورية' وإنجاد المظلومين السوريين من اهل السنة والجماعة في حربهم ضد النصيرية والروافض والتي جندوا فيها عشرات الآلاف من المقاتلين وانفقوا عليها عشرات المليارات من اموالهم وجيّشوا في سبيلها كل اعلامهم وامكاناتهم المادية والمعنوية من اجل اسقاط 'النظام السوري'، كنت اتمنى عليهم ان يفعلوا عشر معشار ما فعلوه حينذاك الآن في نصرة الثورة الفلسطينية (ممثلة في احد تجلياتها ـ بل اهمها اطلاقاً ـ وهو طوفان الأقصى) وإنجاد المظلومين الغزيين من اهل السنة والجماعة في حربهم ضد اليهود والصليبيين. ولكن كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.

وهنا يحسن بنا ان نتوقف قليلاً عند مشكلة دول الخليج ومواقفها الشاذة تجاه قضايا العرب والمسلمين (وقضية حرب الإبادة بالخصوص) لنحاول التعرف على الجذور العميقة لهذه المشكلة، إذ ربما يستغرب

---

[٣٩] ينبغي ان نستثني شعب البحرين (المغلوب على امره والمعروف بوعيه القومي والديني) فهو يقوم بمظاهرات وفعاليات مناهضة لإسرائيل بشكل دوري ومنتظم. كما ينبغي ان نذكّر ببعض العمليات العسكرية التي قامت بها مؤخراً سرايا الأشتر البحرينية (بمساعدة فيما يبدو من المقاومة الإسلامية العراقية المرتبطة بالحشد الشعبي) ضد أهداف صهيونية داخل فلسطين المحتلة. كما ينبغي ان نشيد بالدعم الذي ابدته بعض شرائح المجتمع الكويتي لغزة والفعاليات المساندة لها في محنتها. كما كانت هناك مظاهرة او وقفة احتجاجية يتيمة (حسب علمنا) في قطر يبدو انها من تنظيم النظام القطري لرفع العتب وارضاء الشعب القطري المتعاطف بمجمله مع غزة.

البعض من مواقف دول الخليج (أنظمةً وشعوباً) ولكن يجدر بنا ان نحلل السمات الثقافية لشعوب هذه الدول والتي تنعكس طبعاً في سلوكها كما في انظمة حكمها.[٤٠] فلو نظرنا الى العامل الديني مثلاً لربما كان لنا ان ننتظر ان تكون هذه الدول والشعوب من بين الأكثر ـ إن لم تكن الأكثر إطلاقاً ـ دعماً للفلسطينيين وتعاطفاً معهم، فالمذهب السلفي الوهابي النكهة السائد في دول الخليج عموماً هو المذهب الأكثر قبولاً لدى الفلسطينيين خاصةً من هم يتبعون او يتعاطفون مع حركات الإسلام السياسي بمن فيهم حماس (بقيادتها وكوادرها وقواعدها وحواضنها الشعبية). فما الذي يجعل دول الخليج غير مكترثة بمحنة غزة (بل متحالفة مع امريكا واسرائيل في حرب الإبادة التي تشنّانها عليها)، وهو ما ينطبق الى حد كبير على شعوب هذه الدول كما على أنظمة حكمها.

ان من الخطأ الاعتقاد ان مشكلة دول الخليج هي ازمة حكام وانظمة حكم بل المشكلة اعمق من ذلك بكثير إذ هي ازمة ثقافة شعوب واعني 'الثقافة الأعرابية' التي شخصها القرآن الكريم وعالجها في العديد من آياته. يقول القرآن مثلاً: 'الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ'.[٤١] وأهم ما في هذا النصّ القرآني ـ في رأيي ـ هو 'وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ' إذ هو يهبط بالثقافة الأعرابية الى مستوى البهيمية إذ الثقافة الإنسانية جديرة بأن تعلم حدود ما انزل الله وتخالطه وتتفاعل معه. وهذا يتجلى واضحاً في اختلاط الثقافة الأعرابية بما انزل الله إذ تحولت الى وهابية سلفية وداعشية بربرية واشباههما من تيارات الجهل والتوحش والهمجية، وهي التيارات التي ولد الكثير منها وترعرع وتغذّى ـ مادياً ومعنوياً ـ من منابع الثقافة الأعرابية في شبه الجزيرة العربية ودول الخليج. فحين يتألق الأعرابي بعقله ويسمو بروحه و 'يجسد ما انزل الله' فانه ينتج افكاراً تكفيرية ومبادئ تدميرية وأفعالاً اجرامية تعبر عن اخس ما في الطبيعة البشرية وانذل خصائصها وسماتها.

---

[٤٠] 'دول الخليج' ينبغي ان تنصرف في سياق كهذا الى دول شبه الجزيرة العربية إذا استثنينا بعض الدول والمجتمعات المتحضرة تاريخياً (كاليمن المتميز طبعاً بتاريخه الحضاري العريق وانتمائه المذهبي) وهي بذا تختلف عن النسيج الثقافي والاجتماعي السائد حولها.

[٤١] الواقع ان الآيات القرآنية الكريمة في ذمّ الأعراب كثيرة (مثلاً: 'وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ...' او: 'وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ...' او: 'وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ...' او: 'سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ...' او: 'قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...'). وبالطبع لا يستطيع احد ان يتهم القرآن الكريم بالعنصرية او ما شابهها، وإنما يعبّر القرآن بذلك عن حقيقة ثقافة هذا النوع من الجماعات البشرية التي تنعكس حتماً في سلوكها ومواقفها (وهو ما يسهل لمسه والإحساس به دون حاجة الى تأمل او تمحيص).

١٢.٣.٢ العراق

فأما العراق الرسمي فما زال تحت تأثير الاحتلال الأمريكي وهو مقيد الإرادة ولا يمتلك حرية قرار كاملة في قضايا حساسة كقضية فلسطين (باستثناء التأييد اللساني والشكلي الذي تقدمه كل الدول العربية تقريباً) مع اعترافنا انه رغم ذلك يظل العراق اكثر استقلالية وحرية من معظم الدول العربية (على الأقل بسبب تنوع اطيافه الحزبية والسياسية). كما ان العراق لا يمتلك اي قدرات عسكرية يعتد بها (إذا استثنينا الحشد الشعبي الذي سنشير له) تؤهله او ترشحه لأداء دور مهم في نصرة فلسطين في الوقت الحاضر رغم انه يمتلك كل الإمكانيات التي تؤهله لأن يكون قوة اقليمية كبيرة في بضع سنين (خاصة ان اتبع نموذج المقاومة اللبنانية واستفاد من تجاربها وخبراتها وامكانياتها).

ولكن رغم ذلك ينبغي ان يسجل للعراق الرسمي تغاضي حكومته عن (بل تواطؤ بعض اطرافها مع) المقاومة الإسلامية العراقية المرتبطة فصائلياً (وجزئياً على الأقل) بالحشد الشعبي (الذي هو مؤسسة رسمية) والمدعومة من حزب الله اللبناني وايران وربما تقديمها دعماً خفياً لها وهو اقصى ما يمكن ان تقوم به هذه الحكومة في ظل الهيمنة الأمريكية (او على الأقل النفوذ الأمريكي) على المشهد العراقي الداخلي وكثرة الجواسيس والعملاء والمتعاونين مع الاحتلال الأمريكي من كل الأحزاب والطوائف والأعراق.

كما ينبغي ان ننوه بالحراك الشعبي العراقي المؤيد لفلسطين وهو حراك كبير نسبياً (خاصةً في الأسابيع الأولى من طوفان الأقصى حيث حاولت قوافل الدعم والتأييد ـ مثلاً ـ اجتياز الحدود والعبور الى الأردن للمساهمة في فتح جبهة دعم او اسناد لغزة فضلاً عن تنظيم مظاهرات حاشدة وحملات تبرع دعماً لغزة). وهذا في الواقع اقل القليل مما كان ينتظر من العراق الرسمي والشعبي ان يقدمه في دعم فلسطين قضيةً ومقاومةً وشعباً (خاصةً إذا لاحظنا ان شعب العراق هو تاريخياً من اكثر الشعوب العربية دعماً لفلسطين وتعاطفاً معها وهو دعم يسمو على كل الفروق والانقسامات الطائفية والمذهبية).[٤٢] ولكن الظروف التي عصفت بالعراق في العقود الأخيرة قد غيرت كل شيء فيه وهمّشته واقعدته عن لعب الدور المنتظر منه والمتناسب مع حجمه ومكانته واهميته في العالمين العربي والإسلامي والتي تعود في جذورها الى مركزه التاريخي المميز على مدى قرون عديدة كعاصمة للخلافة العربية الإسلامية واحد اهم مراكز اشعاعها الفكري والثقافي (إن لم يكن اهمها

---

[٤٢] يحلو للبعض ان يرجع الفضل في تأييد العراق للقضية الفلسطينية والتعاطف معها الى النظام البعثي البائد ولكن العكس هو الصحيح لأن لذلك النظام اسهامات مهمة واصيلة في اضعاف القضية الفلسطينية (سواء بقصد او بغباء ودون قصد) وايصالنا الى الحالة المأساوية التي نحن فيها (لا كعراقيين فحسب بل كعرب ومسلمين).

على الإطلاق).

ولكن ينتظر ان يكون للعراق دور مركزي في المستقبل لو طالت الحرب الصهيونية الصليبية على فلسطين واتسعت وامتدت إذ ينتظر ان يكون العراق اهم خزان ومصدر للدعم البشري والمادي لجبهات المقاومة (خاصة في لبنان وسوريا) بما يوفره من مقاتلين وتجهيزات وامدادات وخطوط تموين وما شابه ذلك. وهناك مؤشرات تدل على ان بوادر هذه الاستعدادات (نفسياً وعملياً) قد بدأت تتشكل وتظهر. وعلى كل حال، حتى لو انتهت ملحمة طوفان الأقصى دون توسع هذه الحرب وامتدادها فان العراق يظل محطّاً للأمل والتوقع بأن يلعب في المستقبل دوراً مركزياً في اي جهد او عملية او حرب تهدف الى تحرير فلسطين واستعادتها كاملة من نهرها الى بحرها.

هذا كله انما هو عن 'العراق العربي'. أما 'العراق الكردي' فوضعه مختلف تماماً رسمياً وشعبياً. فأما رسمياً فمعروف ان اهم القوى والتيارات النافذة والحاكمة في كردستان العراق لها علاقات استراتيجية حميمة لا مع امريكا والغرب فحسب بل مع اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية كذلك. ولا داعي لسرد ما هو معروف من العلاقة التاريخية بين الحركة القومية الكردية واسرائيل (والتي تمتد جذورها الى ايام الملا مصطفى البرزاني، بل حتى قبل قيام 'دولة اسرائيل')، كما لا داعي لسرد ما هو معروف من التعاون الأمني وغير الأمني بين اسرائيل وحكومة كردستان[٤٣] (او على الأقل اطراف في هذه الحكومة) يصل الى حد منح تسهيلات وقواعد عمل وتجسس لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية (فضلاً عن الغربية) في اراضي كردستان العراق والتعاون الوثيق معها (مثلاً في نشاطات امنية واستخبارية موجهة ضد ايران او ضد فصائل عراقية متحالفة مع ايران او حتى نشاطات تجسسية واستخبارية ضد امن الدولة العراقية ومؤسساتها الرسمية).

وهذا يعني ان افضل ما يُنتظر من كردستان العراق الرسمي والحزبي (على الأقل بأهم مكوناته وتياراته) هو ان لا يكون التعاون مع اسرائيل بعد طوفان الأقصى وثيقاً كما كان قبلها (بأمل التجميد او التخفيف لهذا التعاون من باب حسن الظن بالأكراد الذين يفترض ان يتعاطفوا مع اخوتهم الفلسطينيين السنة في محنتهم). والواقع انني لا أملك معلومات تفصيلية عن هذا الموضوع ولكن تقديري ان اسرائيل (وامريكا طبعاً) لو

[٤٣] من اشكال التعاون الأمني - مثلاً - التعاون في مجال التسليح والتدريب والاستخبار ومنح قواعد عمل وتسهيلات، بينما يتخذ التعاون غير الأمني غالباً شكل علاقات تجارية وتصدير نفط كردستان العراق الى اسرائيل (عبر تركيا وبأسعار تفضيلية وربما بوسائل تفضيلية كذلك من قبيل المقايضة). ويجدر هنا الإشارة الى ان كردستان العراق قد استُخدم (من قبل اسرائيل وبمساعدة دول عربية) كبوابة للتطبيع مع العراق (مذكّرين مثلاً بمؤتمر أربيل الداعي لتطبيع العراق مع إسرائيل والذي عقد عام 2021 برعاية ضمنية من حكومة كردستان رغم تنصلها من ذلك لاحقاً).

احتاجت الى اي جهد او مساعدة عسكرية او امنية (او من اي نوع آخر) دعماً للمجهود الحربي الصهيوني في مجريات ملحمة طوفان الأقصى وحرب الإبادة فلا اتوقع ان كردستان العراق الرسمي سيتردد في تقديم الدعم المطلوب (إن لم يكلفه ذلك ثمناً يدفّعه اياه اعداء اسرائيل المحيطون به والمجاورون له).

والخلاصة ان الموقف السياسي الرسمي الكردي لا يقل تصهيناً (إن لم يزد في بعض الجوانب) عن تصهين الموقف السياسي الرسمي للأنظمة العربية العميلة رغم ان كردستان الرسمي ربما لم يُضطر (من باب حسن الحظ بسبب بعده الجغرافي عن مسرح العمليات في غزة وعدم حاجة اسرائيل وامريكا اليه في الاشتراك والخوض في دماء الغزيين خلافاً لحال العملاء العرب) الى الانخراط في حرب الإبادة ويؤدي دوراً فيها.[٤٤]

واما شعبياً فمعروف ان الأكراد شعب ذو هموم قومية اساساً فقضيته الأولى والأخيرة هو اقامة الدولة الكردية باي ثمن ودون اعتبار لأي قضية اخرى، وهذا في الواقع هو احد الأسباب المهمة لتحالف الأكراد مع الصهاينة إذ يعتقدون ان هذا التحالف يساعدهم في تحقيق حلم الاستقلال بجلب الدعم الصهيوني والغربي لهم ولحلمهم هذا.[٤٥] وهم ـ فضلاً عن ذلك ـ شعب غير متدين في الغالب، بل حتى المتدين الكردي لا يتعامل عادةً مع الدين بالحرارة والحماس والتشدد الذي يتعامل به المتدين العربي او الإيراني مثلاً.[٤٦] ولهذا كانت استجابة الشارع الكردستاني العراقي لأحداث طوفان الأقصى ومجزرة الإبادة تتسم عموماً بعدم الاكتراث

---

[٤٤] ننوه هنا الى ان بعض الجداريات التي خلفها الجنود الصهاينة في احياء غزة المدمرة (كرسم علم كردستان) قد تشير الى مشاركة بعض المرتزقة الاكراد في حرب الإبادة وإن كان الأرجح في اعتقادي انها تعود لجنود يهود ينحدرون من كردستان (او ربما تكون حيلة من حيل اسرائيل لإحداث الفرقة بين المسلمين واستجلاب التعاطف والدعم الكردي).

[٤٥] الواقع ان هذا الاعتقاد قد يكون له ما يبرره (كما رأينا من دعم اسرائيلي وصهيوني صريح ومكشوف ودعم غربي ضمني ومبطن ـ غالباً ـ لمشروع انفصال كردستان العراق في استفتاء عام 2017) ولكن الاكراد يخاطرون ـ بتحالفهم هذا ـ بفقدان دعم اهم وهو دعم شعوب المنطقة وتعاطفها معهم فضلاً عن اثارة مخاوف دول الجوار ونخبها السياسية، وهو ما سيؤدي الى تشكيل 'حلف' قوي معادٍ لفكرة الدولة الكردية ومجهضٍ لمشروعها.

[٤٦] الواقع ان الأمر يتجاوز هذا لدى كثير من الأكراد (خاصةً النخب المثقفة) إذ يعتبرون انفسهم شعباً آرياً اوروبياً يعيش في الشرق، ولذا فانهم يشعرون بحنين وانتماء ثقافي وحضاري الى اوروبا والأوروبيين لا الى الشرق والشرقيين (او على الأقل اكثر مما يشعرون به نحو الشرق والشرقيين). وقد انعكس هذا الشعور (او هذه القناعة) في كثير من سياسات وتطلعات وتوجهات الكيان الكردي العراقي (وغير العراقي كالسوري) الذي حرص على بناء تحالفات وصداقات مع القوى والكيانات الغربية على حساب علاقاته وصداقاته مع مواطنيه وجيرانه من غير الكرد. فاكراد العراق مثلاً لا يبالون ـ بتحالفاتهم مع الأمريكان والأوروبيين والإسرائيليين ـ بإغضاب العرب العراقيين او عرب الجوار او الأتراك او الإيرانيين. وكذا الحال مع اكراد سوريا. والواقع ان هذه السياسة العمياء الحمقاء الرعناء كلفت الأكراد كثيراً وستكلفهم أكثر إذ جعلوا من انفسهم اسرائيل ثانية في المنطقة وهو ما لم ولن يقبل به احد (خاصةً بعد طوفان الأقصى) حتى من كان شديد التعاطف معهم ومع قضاياهم (بما فيها قضية الاستقلال وإقامة الدولة الكردية).

وكأن القضية الفلسطينية وحرب الإبادة لا تعني الأكراد (رغم ان الفلسطينيين والأكراد يشتركون في الهوية الدينية كسنّة شوافع في غالبيتهم، كما يتفقون طبعاً ـ كبشر ـ في تطلعهم الى اقامة دولتهم المستقلة وهو ما ينبغي ان يكون عاملاً آخر لتعاطف الأكراد مع الفلسطينيين، مضافاً الى ان الأكراد تعرضوا ـ كالفلسطينيين ـ للاضطهاد والإبادة وهو ما ينبغي ان يكون عاملاً ثالثاً للتعاطف والشعور المشترك).

نعم، هناك بعض التيارات والحركات الإسلامية او ذات التوجهات الإسلامية (وكذلك بعض الشخصيات الدينية) التي عبرت عن دعمها للغزيين في محنتهم وطالبت حكومة كردستان بالابتعاد عن اسرائيل واتخاذ موقف واضح في ادانة حرب الإبادة والوقوف الى جانب الفلسطينيين فيها. ولكن هذه الأصوات لا يبدو انها تعبر عن نبض الشارع الكردستاني بغالبيته (او ربما حتى بأقلية معتبرة منه).

١٣.٣.٢ سوريا

أما سوريا الرسمية فهي مشلولة ومقعدة بعد سني الحرب الأهلية الطاحنة التي لم تُبقِ شيئاً ولم تذر. نعم، ينبغي ان يسجل للموقف السوري الرسمي وقوفه الى جانب حركات المقاومة ومحور المقاومة (بل الانتماء لهذا المحور ولو شكلياً واسمياً) والسماح باستخدام الأراضي السورية منطلقاً للجهد المقاوم وقاعدة للعمل ضد الكيان الصهيوني واستهدافه. كما ينبغي ان يسجل للموقف السوري الرسمي الدعم التقني واللوجستي الكبير الذي قدمته وما زالت تقدمه لحركات المقاومة (خاصة اللبنانية) وهو ما كلف سوريا الرسمية والشعبية غالياً كما يعرف الجميع. كما ينبغي التذكير بأن سوريا كانت وما زالت مقراً وحاضناً لكل فصائل المقاومة الفلسطينية حيث يتواجد ويعمل الكثير من قيادات وكوادر وقواعد هذه الفصائل على الأراضي السورية ويمارسون نشاطاتهم بكل حرية ودون قيود تذكر.[٤٧] وكذا ينبغي ان نتذكر ان سوريا الرسمية رفضت عروضاً مغرية (قبل وبعد الأزمة السورية) للتخلي عن تحالفاتها مع حركات المقاومة ومحور المقاومة والانضمام الى محور الدول العربية 'المعتدلة' مقابل مكاسب سياسية واقتصادية هائلة.

صحيح ان نظام البعث السوري لم يكن رحيماً بشعبه ولم يكن حكيماً في تعامله مع الحراك السوري المناهض له الذي قاد منذ بداياته الى تمرد مسلح ضد الدولة، ولكن المعسكر المقابل له لم يكن احسن منه اطلاقاً. ويكفي ان نتذكر ان المعارضة السورية (المسلحة وغير المسلحة) لم يكن اداؤها احسن من اداء النظام (لا في

[٤٧] ينبغي ان نذكر هنا كذلك ان اللاجئين الفلسطينيين في سوريا يعيشون افضل الظروف التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون في الدول العربية حيث يتمتعون بحقوق مساوية تقريباً لحقوق المواطنين السوريين.

المجال العسكري ولا في المجال ’المدني‘). كما ان كل التهم التي وجهت للنظام السوري في هذا الصدد تنطبق على خصومه من سوريين وغير سوريين. فلم يكن النظام السوري وحده طائفياً بل الجميع كان كذلك إذ يكفي ان نتذكر ان الجميع ـ بمن فيهم الشعوب العربية ـ كان يدعم النظام البحريني الطائفي في سحقه العنيف لحراك هو الأكثر سلمية بين حراكات ’الربيع العربي‘. وكذا الحال في تهمة القمع والدموية وانتهاكات حقوق الإنسان وما شابه ذلك إذ معظم الأنظمة العربية هي كذلك وعلى رأسها الأنظمة التي تحمست لدعم ’الثورة السورية‘.[٤٨] كما ان النظام السوري لم يكن الوحيد في ’سحق ثورة شعبه‘ فالنظام البحريني (وغيره) فعلها وبتأييد عربي واسع رسمي وشعبي (بما يشمل كثيراً من الفلسطينيين بمن فيهم حماس). وكذا الحال في تهمة استهداف المدنيين وجرائم الحرب وما شابهها مما حدث خلال الحرب الأهلية السورية من فظائع فقد فعلها النظامان السعودي والإماراتي في اليمن (وبتأييد واسع رسمي وشعبي من معظم الدول والشعوب العربية في المراحل الأولى ـ على الأقل ـ من الحرب ضد اليمن) كما فعلها نظام البعث العراقي البائد الذي يفتخر به العرب والمسلمون (ومنهم الفلسطينيون وحماس بالتحديد) ويترحمون على مجرمي الحرب ومرتكبي الإبادة من قادته ومسؤوليه وانصاره.[٤٩] وكما قال السيد المسيح: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. وعلى كل حال، في تقييمنا للموقف السوري من طوفان الأقصى (والقضية الفلسطينية بنحو اعم) لا ينبغي ان نخلط الأوراق او نغمط احداً حقه او ننكر حسناته بجريرة سيئاته.

وأما سوريا الشعبية فقد كان رد فعلها على طوفان الأقصى وتفاعلاتها مع ملحمته ضعيفاً جدّاً (رغم اننا لا نشك في تعاطف السوريين بمختلف شرائحهم واتجاهاتهم وطوائفهم مع الفلسطينيين والغزيين بسبب القواسم المشتركة الكثيرة والكبيرة بين الشعبين) وهو امر مفهوم (بل ومبرر كذلك) لأن السوريين عانوا من حرب اهلية طاحنة تقارب في كثير من وقائعها ونتائجها الكارثية ما جرى ويجري في غزة، فما هم فيه (او كانوا فيه) لا يقل في كثير من تفاصيله بشاعةً عما جرى ويجري للغزيين من اهوال. كما ان الوضع الاقتصادي المتدهور والمحن والمصائب التي خلفتها الحرب الأهلية السورية (بذكرياتها وآثارها وندوبها النفسية الثقيلة) تجعل من شبه الترف لكثير من المواطنين السوريين الاهتمام باي قضية او مصيبة اخرى حتى لو كانت بحجم قضية

---

[٤٨] الواقع ان معظم الأنظمة العربية كانت ستفعل ما فعله النظام السوري (بل اسوأ مما فعله) لو انها واجهت احداثاً مشابهة لـ ’الثورة السورية‘. بل ان بعض هذه الأنظمة قد فعلها حتى دون ان يواجه احداثاً كهذه. وينبغي ان نتذكر كذلك ان هامش الحريات (كحرية التعبير والعبادة والمعتقد وما شابهها) في سوريا قبل الحراك السوري وبعده اكبر بكثير من هامش الحريات في كثير من الدول العربية (ومنها طبعاً بعض اهم الداعمين لـ ’الثورة السورية‘ كالسعودية وقطر).

[٤٩] بل وفعلها الأتراك ـ وهم اهم الداعمين لـ ’الثورة السورية‘ ـ ايضاً ضد مواطنيهم الأكراد.

فلسطين وبكارثية مصيبة غزة. وهذا في الواقع ينطبق على الغالبية العظمى من السوريين سواء من كان منهم في مناطق سيطرة الحكومة السورية او من كان منهم في المناطق الخارجة عن سيطرة الحكومة السورية (بل وربما ينطبق كذلك حتى على اللاجئين والمهاجرين والمغتربين السوريين في دول الجوار وحول العالم).

١٤.٣.٢ دول عربية أخرى

وهناك دول عربية اخرى سنتعرض فيما يلي بإيجاز لموقفها ودورها وأدائها في ملحمة طوفان الأقصى.

أما قطر[٥٠] فيسجل لها وجود تعاطف رسمي (وشعبي طبعاً لأسباب طائفية ودينية[٥١] معروفة بالإضافة طبعاً الى الأسباب الأخرى العامة) ورغبة حقيقية لديها في تخفيف مصائب الفلسطينيين وآلامهم ومعاناتهم ورفع الظلم عنهم رغم ان النظام الرسمي القطري يساير امريكا ويحاول لعب دور مزدوج ـ بل متعدد ـ منطلقاً من نظريته المعروفة للأمن باللعب على ومع جميع الأطراف وهي نظرية اثبتت نجاحها ونجاعتها عموماً وجنبت قطر ـ حتى الآن ـ من ان تكون لقمة سائغة لجيرانها من الإخوة الألدّاء الذين يودّون التهامها او جلب نظام حكم عميل لهم فيها على اقل تقدير.[٥٢] وعلى كل حال ينبغي ان يسجل لقطر دعمها الإعلامي الكبير والمهم للمقاومة الفلسطينية (بل ولمحور المقاومة الى حدٍّ ما خلال ملحمة طوفان الأقصى) وفضح جرائم العدو في غزة وغير غزة وهو ما جلب عليها نقمة ونعمة، كما انه جعل قطر في موقع فريد إذ جلب لها احتراماً ومنحها نفوذاً عربياً ودولياً لا يتناسب مع ضآلة حجمها.

وأما عُمان فلا ينتظر منها ـ بحكم وضعها الطائفي وتوازناتها ـ اي دور فعال ومفيد للقضية الفلسطينية (وهو ما لم تقم به طبعاً). ولكن بالمقابل لا يبدو انها منخرطة (بشكل اساسي على اقل تقدير) في التآمر على القضية الفلسطينية او تقديم دعم استثنائي لأمريكا واسرائيل في ملحمة طوفان الأقصى (كما فعل بعض جيرانها).

---

[٥٠] رغم ان قطر (وكذا عمان التي سنتعرض لها لاحقاً) هي دولة خليجية (يفترض اننا استعرضنا موقفها في § ١١.٣.٢) فقد افردناها هنا بالذكر بسبب تميزها واهمية موقفها ووضعها الخاص.

[٥١] نشير بهذا الى ان 'الإسلام الغزي' ـ كـ 'الإسلام القطري' ـ ذو طابع سلفي وهابي وهو ما يجعل بين الطرفين الفةً ومودةً استثنائيتين الى حد ما.

[٥٢] ينبغي ان نلاحظ ان استضافة قطر لقيادة حماس وقيامها بدور 'الوسيط الحميد' بين اسرائيل والمقاومة (مما قد يعتبر خدمة للمقاومة الى حد ما) ومِنحها المالية السخية لقطاع غزة (وهي ادوار وافعال حميدة من حيث المبدأ وتخدم فلسطين والمقاومة بشكل عام) تستخدم احياناً كأدوات واوراق ضغط لانتزاع تنازلات من المقاومة او لتعديل مواقفها (او ما شابه ذلك كمحاولة منعها من 'الارتماء في احضان ايران' والذهاب بعيداً في 'مقاومتها') وهي تأتي ـ لا شك ـ ضمن تفاهمات ضمنية (وربما صريحة) وتنسيق بين النظام القطري وبين الأمريكيين (وربما حتى الإسرائيليين احياناً وفي بعض القضايا).

وعلى كل حال، لاينبغي ان ينتظر من عمان احسن مما كان بعد ان فشل من هو اولى منها بنصرة غزة واسنادها بل تآمر عليها وطعنها في ظهرها.

وأما المغرب الرسمي فمعروف دوره وموقفه القديم الجديد في خدمة المخططات الغربية والانتماء الى المعسكر الغربي وإقامة علاقات حميمة مع الكيان الصهيوني حتى قبل التطبيع الرسمي.[٥٣] بل ان علاقاته تتجاوز المجال الاقتصادي والتجاري (والمدني عموماً) لتصل الى التعاون العسكري والأمني مع الكيان الصهيوني، وهو تعاون معلن لا يحاول اخفاءه اي من الطرفين. وعلى كل حال، دور اليهود المغاربة ـ وهم اقلية كبيرة[٥٤] ومؤثرة ـ في دعم الكيان الصهيوني وتشكيل السياسة الداخلية والخارجية للمغرب لتصب في مصلحة هذا الكيان وتخدمه (على حساب الفلسطينيين والعرب بل وحتى المغاربة) معروف ومسجل تاريخياً.

وأما المغرب الشعبي فقد شهد حراكاً كبيراً نسبياً في كثير من مدن المغرب لم ينفع ـ طبعاً ـ في 'إقناع' النظام المغربي بتغيير سياسته تجاه الكيان الصهيوني او تعديلها لأن هذه السياسة هي من الثوابت التي لاتُغير ولا تُبدل، بل ان هناك مؤشرات تدل على ان العلاقات الصهيونية المغربية قد تطورت وتوسعت بعد طوفان الأقصى (او على الأقل انها لم تتأثر بالطوفان). ويبدو ان المغرب هو احد المساهمين المهمين في تزويد الكيان الصهيوني باحتياجاته كسراً للحصار الذي فرضه اليمن عليه.

وأما تونس الرسمي فلم يختلف موقفه كثيراً عن مواقف الدول العربية الأخرى في الفشل والعجز عن فعل شيء مفيد (سوى التصريحات والكلام الفارغ طبعاً) دعماً لغزة وإن كان ينبغي ان يسجل له بعض المساهمات المتواضعة في المرافعات امام محكمة العدل الدولية. وعلى كل حال لا ينبغي ان يوضع كثير من العتب عليه بحكم حجمه وضعف امكاناته وهمومه الداخلية والمعيشية ووضعه السياسي غير المستقر نسبياً (بعد الإطاحة بحكم النهضة) مما قد يعرضه لهزات وازمات هو في غنىً عنها لو أغضب الصهاينة وداعميهم من العرب والعجم. وانا اعتقد ان موقف تونس الرسمي بنظامه الحالي هو احسن ما يتوقع منه في ظل اي نظام (بما فيه طبعاً نظام النهضة التي اثبتت ـ كغيرها من الحركات الإخوانية وأخواتها ـ ان قضايا الأمة الكبرى وعلى رأسها قضية فلسطين هي آخر ما يهمها لأن اختصاصها هو في تسعير الخلافات الطائفية وتحقيق مكاسب شخصية وحزبية

---

[٥٣] الواقع ان العلاقات المكشوفة بين النظام المغربي والصهاينة تعود على الأقل الى ثمانينات القرن الماضي وأما العلاقات غير المكشوفة فهي تعود الى ما قبل ذلك كثيراً بالتأكيد (وربما تعود الى ما قبل إقامة الكيان الصهيوني بسبب وجود اقلية يهودية مؤثرة في المغرب وهي ذات امتداد تاريخي عريق).

[٥٤] نلاحظ انه حتى اليهود المغاربة الذين هاجروا الى اسرائيل او دول اخرى ككندا حافظوا عموماً على ارتباطهم بالمغرب (بما يعنيه ذلك من تأثير على مواقف المغرب وسياسته تجاه اسرائيل) ولذا نحن نعدهم جزءاً من اليهود المغاربة.

والاستيلاء على الكراسي والاحتفاظ بها وما شابه ذلك). وينبغي ان يسجل لتونس الرسمي بنظامه الحالي رفضه للتطبيع (حتى الآن على الأقل) رغم المغريات التي عرضت عليه (وهي مغريات تتسم بجاذبية واهمية خاصة بلحاظ وضعه السياسي غير المستقر نسبياً). كما ينبغي ان يسجل له مواقفه الجيدة عموماً تجاه محور المقاومة ورفضه الانصياع للإملاءات الغربية في العديد من القضايا الداخلية والخارجية.

واما تونس الشعبي فقد كان من الدول العربية القليلة النشيطة نسبياً على الصعيد الشعبي في دعم فلسطين ورفض الإبادة، والفضل في ذلك يعود اساساً الى قوى اليسار وبعض القوى القومية ومنظمات المجتمع المدني وما شابهها وليس ـ بالطبع ـ الى النهضة او ما شاكلها من تيارات اسلامية لأن هذا لا يدخل في اختصاصات الإسلاميين واهتماماتهم (كما اشرنا آنفاً). وكنت اتمنى على النهضة وغيرها من الإسلاميين التونسيين ان يبدوا في قتال اليهود قليلاً من بأسهم وحماسهم الذي اظهروه في قتال المجوس والروافض والنصيرية (حين بعثوا بجحافل مجاهديهم ـ من انتحاريين وانغماسيين وغيرهم ـ الى العراق وسوريا ليقتلوا آلافاً مؤلفة من المجوس والروافض والنصيرية ـ بمن فيهم النساء والأطفال والشيوخ ـ ويدمروا معابدهم واسواقهم وبيوتهم وينتهكوا أعراضهم وما شابه ذلك من أعمال جهادية مجيدة). ولكن كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.

وأما الجزائر فقد كانت خيبةَ امل كبرى (بشقها الرسمي على الأقل). فالنظام الجزائري (الذي يفترض ان يكون وريث الثورة الجزائرية وحامل رايتها وكان ينبغي ـ بل ويُنتظر ـ ان يكون له دور كبير في ملحمة طوفان الأقصى ودعم المقاومة واستخدام امكاناته الكبيرة ـ في مجال الطاقة والاقتصاد مثلاً ـ للضغط لإيقاف العدوان وتخفيف آثاره) آثر السلامة وان يصطف في صفوف التافهين والمتخاذلين والانتهازيين. وقد اقتصرت اسهامات الجزائر (اضافة طبعاً الى الخطابات الرنانة في القمم والمحافل العربية وما شابهها من تصريحات وعنتريات لا تقدم ولا تؤخر) على بعض المنافحات او السجالات الكلامية في مجلس الأمن ومشاركات هامشية في الإجراءات والمرافعات القضائية امام محكمة العدل الدولية.[٥٥] بل ان الحكومة الجزائرية حظرت المسيرات والتجمعات المؤيدة لفلسطين (باستثناء مسيرة واحدة نظمتها هي بنفسها ـ 'لتضمن سلامتها' ـ بعد ضغوط شعبية وحزبية) واعتقلت بعض النشطاء والمشاركين في فعاليات كهذه.

وقد جاء هذا الحظر والسلوك الشاذ من الحكومة الجزائرية بسبب ما سمي 'فوبيا الحراك الشعبي' وهو 'متلازمة' تصيب الأنظمة التي تعاني من حراكات 'داخلية' وتخشى على نفسها من ان اي حراكات اخرى

[٥٥] لم تترافع الجزائر امام محكمة الجنايات الدولية بسبب (او بحجة) عدم مصادقتها على نظام روما (هكذا يقال!).

(وإن لم تكن 'داخلية' الهموم والاتجاهات) ستتمدد وتتحول الى حراكات 'داخلية'. وقد اعتَذَر النظام الجزائري (او اعتُذِر له وبالنيابة عنه) لتبرير هذا الحظر بحجج واهية كالصحة العامة والسلامة. وقد كان نتيجة ذلك ان اقتصر 'الحراك الشعبي' الجزائري على بعض النشاطات في 'الفضاءات المغلقة' (التي هي اشبه ما تكون بالفعاليات السرية التي خبرها الجزائريون واتقنوها ايام نضالهم ضد الاحتلال الفرنسي). وبحكم كون هذه الفعاليات (المزعومة) مغلقة وشبه سرية، لاتتوفر معلومات عن حجمها وسعتها ونوعها وماشابه ذلك، ولكن لا نتوقع ان يكون الجزائريون قد فاقوا في ادائهم واسهاماتهم نظراءهم واخوتهم من الشعوب العربية الأخرى التي تتلفع وتتحجج بقمع الأنظمة الحاكمة لتتستر على فشلها وعجزها عن تقديم اي اسهام حقيقي ومفيد مع ان هناك اشياء كثيرة (ليست بالضرورة من نوع المسيرات والوقفات والاحتجاجات) كان بإمكان هذه الشعوب ان تقدمها لفلسطين وغزة.

وأما موريتانيا فقد شهدت حراكاً شعبياً نشيطاً نسبياً دعماً لفلسطين ورفضاً لحرب الإبادة (ولم ينتظر احد - بالطبع - من موريتانيا الرسمية ان تفعل شيئاً ذا قيمة في نصرة غزة).

وأما الصومال فقد شهد حراكاً شعبياً محدوداً (متناسباً مع امكاناته وهمومه وحالته) دعماً لفلسطين ورفضاً لحرب الإبادة (ولم ينتظر احد - بالطبع - من الصومال الرسمي ان يفعل شيئاً ذا قيمة في نصرة غزة).

واما ليبيا فهي غارقة في همومها وانقساماتها الداخلية (وكوارثها كذلك) ولكن يسجل لها رغم ذلك حراك شعبي لا بأس به دعماً لفلسطين وغزة. واما ليبيا 'الرسمية' (إن كان هناك شيء كهذا) فاسهاماتها محدودة (إن كانت) ولا تتجاوز السقوف المعروفة لمتوسط الفعل العربي في هذا الخصوص (ملاحظين ان كلا طرفي 'الحكم' في ليبيا له علاقات وخطوط اتصال مع اسرائيل - فضلاً عن التحالفات مع امريكا والأنظمة العربية العميلة او ما يكافؤها - كما هو معرف للجميع).

واما السودان فهو غارق - 'حكومةً' وشعباً - في همومه وحروبه ونزاعاته الداخلية التي لا أول لها ولا آخر ولم ينتظر - ولا ينتظر - أحد منه شيئاً (مذكّرين بأن كلا طرفي النزاع في السودان له علاقات معروفة مع اسرائيل - فضلاً عن ارتباطاتها المشبوهة وغير المشبوهة بأمريكا والأنظمة العربية العميلة - وان السودان الرسمي هو من الدول المطبعة مع اسرائيل). ولكن رغم ذلك جرت بعض المظاهرات في السودان دعماً لغزة ورفضاً لحرب الإبادة وتنديداً بالتطبيع (وهو ما يسجل للسودان بلحاظ الظروف التعسة التي يمر بها حالياً).

واما جيبوتي وجزر القمر فلا احد ينتظر منهما شيئاً (مع كل التقدير لما قام به بعض الجيبوتيين من تظاهر دعماً لغزة وكذلك رفض جيبوتي ادانة اليمن لمهاجمته السفن المتعاملة مع الكيان الصهيوني).

١٥.٣.٢ تركيا

لقد كان الموقف الرسمي التركي من طوفان الأقصى فضيحة بكل ما لهذه الكلمة من معنى إذ لم يكتف المسؤولون الأتراك بالتزام الصمت ابتداءاً ـ ولفترة غير قصيرة ـ بل ان بعضهم بادر الى ادانة هذه العملية واصماً اياها بالإرهاب (رغم التراجع التدريجي الخجول فيما بعد) مضافاً الى ادانة تركيا 'استهداف المدنيين'. كما ان تركيا اعربت عن استعدادها للمشاركة في إدارة غزة بعد انتهاء الحرب (وهو ما يعني ضمناً الاشتراك في 'اقتسام تركة حماس بعد تصفيتها وتقطيع اوصالها' والقبول ضمناً كذلك بالإجهاز على حماس والقضاء عليها). ويبدو ان احد العوامل وراء هذا الموقف التركي هو التنافس مع 'المحور الإيراني' الذي يبدو انه اهم لدى الأتراك من مواقفهم والتزاماتهم المبدئية المزعومة التي طالما طبلوا وزمّروا لها وصدّعوا رؤوس العالمين بها.

والواقع ان القيادة التركية (المتمثلة اساساً برموز حزب العدالة والتنمية الحاكم) التي حرصت على ان تعيد لتركيا امجادها العثمانية الآفلة وان تضمن لها مكاناً متميزاً في التاريخ حاضراً ومستقبلاً (يضاف الى ماضيها 'المجيد التليد') قد سقطت سقوطاً مدوّياً ـ في اقسى اختبار جاد لمزاعمها وإن لم يكن اولها ـ بموقفها الخانع وترددها المعيب الذي كشف عن غياب الأصالة والالتزام تجاه قضايا الأمة الكبرى التي ادعت القيادة التركية الالتزام بها حيث آثرت المكاسب التجارية والاقتصادية التافهة والالتزامات الدولية المزعومة (ممثلة مثلاً في التزامها بالانتماء لحلف الناتو الذي هو محط استفهام في المقام الأول) على الانحياز للحق والعدل والوقوف الى جانب المظلومين من ابناء جلدتها الذين ادعت نصرتهم و حمايتهم حين كان الأمر يتعلق بالحروب الداخلية والنزاعات البينية والتناحر الطائفي (كما شهدناه مثلاً في الأزمة السورية).

وباختصار، ان تركيا عجزت (على الأقل) عن المساهمة باي فعل مفيد في دفع الظلم عن الغزيين ونصرتهم في محنتهم. فلقد عجزت عن قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني، كما عجزت عن قطع علاقاتها التجارية معه (الا بعد حين بعدما تبين تململ الناخب التركي من موقف قيادته المتخاذل). كذلك عجزت تركيا عن رفع دعاوى ضد الكيان الصهيوني امام المحاكم والمحافل الدولية او الالتحاق بدعاوى كهذه الا بعد فوات الأوان. والواقع ان قائمة العجز التركي طويلة ومفصلة لأن تركيا بحجمها وامكاناتها الهائلة (اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً وثقافياً و ... إلخ) كدولة اقليمية عظمى وثاني اكبر قوة في الناتو كان بإمكانها ـ لو ارادت ـ ان تحدث فارقاً جوهرياً في مسار الأحداث وانعطافة استراتيجية نتيجتها وضع حد مبكر لهذه المذبحة او على الأقل التقليل من آثارها المدمرة على الفلسطينيين ورفع الكلفة على الصهاينة المجرمين.

بل نستطيع القول (اكثر من ذلك) ان تركيا متواطئة في جريمة الإبادة الجماعية هذه، لا بصمتها وتخاذلها وميوعة مواقفها فحسب بل بتوفيرها الدعم المادي والتجاري والاقتصادي (بل وحتى العسكري عبر اتفاقات التعاون المشترك) للكيان الصهيوني (على الأقل خلال المراحل الأولى من حرب الإبادة التي هي اشد مراحل القتل والتدمير في هذه المجزرة حتى الآن). وقد ظل الرئيس التركي يردد قعقعاته وجعجعاته (التي وصلت في طرافتها وفراغها وزيفها التهديدَ مرةً بالتدخل العسكري لنصرة غزة وهو ما يعلم هو ـ قبل غيره ـ ان لا احد سيأخذه على محمل الجد) دون ان نشهد لها فعلاً او نرى لها طحيناً.

والطريف ان بعض قادة حماس قد نَصّب اردوغان قائداً للعالم الإسلامي (وهو اعتقاد او احساس لابد أَنْ شاركه فيه كثير من قادة حماس وكوادرها وقواعدها مضافاً طبعاً الى جمهور واسع من الغزيين الطيبين). وقد اظهرت ملحمة طوفان الأقصى بشكل فاقع ومجّ نوع هذه القيادة (وهو ما كانت قد اظهرته من قبل ـ ولكن بشكل مخفف الى حد ما ـ تجارب سابقة لحماس ولغير حماس مع تركيا كطرد بعض قادة حماس والإخوان من تركيا فضلاً عن دعوته الى الاجتماع بالرئيس السوري وانقلاب موقفه تماماً تجاه الرئيس المصري بعد كل ما حدث بينه وبينهما وما كان يصفهما به من اوصاف مقذعة) ومدى صلابتها وثباتها وإمكان الاعتماد عليها والوثوق بها وبمواقفها.[٥٦]

وأما الموقف الشعبي التركي فقد كان هناك تعاطف وحراك لا بأس به تأييداً لغزة ورفضاً لحرب الإبادة ولكن لم يترجم هذا الى فعل على الأرض الا قليلاً، إذ كان لدى الشعب التركي الكثير من الوسائل والسبل الفعالة

---

[٥٦] يذكّرني هذا بمواقف ’طريفة‘ اخرى لحماس ومن معها من الغزيين. فبينما كانوا يكيلون المدائح الباذخة ويرفرفون الأعلام التركية ويرفعون صور اردوغان من اجل مواقف وتصريحات تافهة من تركيا او من حزب العدالة والتنمية او من اردوغان، ظلوا يتعففون (او بالأحرى يترفعون او حتى يتطهرون) عن فعل مثل ذلك (او جزء منه) تجاه إيران وزعمائها (لأسباب طائفية واضحة بل معلنة) رغم الإسهامات الهائلة لإيران وقادتها (وحلفائها) في دعم حماس وما دفعته ايران (وحلفاؤها) من ثمن باهظ لذلك (من عقوبات غربية شاملة ـ بل حرب صهيونية غربية مسعورة ـ ضدها). بل وصل الحد ببعض الحمساويين (او بعض قواعدهم من الغزيين السلفيين على الأقل) الى ان يحرقوا صورة قاسم سليماني (الذي افنى عمره في نصرة فلسطين والغزيين ودَفَعَ حياته ثمناً لذلك) لدعمه لـ ’النظام السوري‘ ويصفوه بالمجرم القاتل. والطريف انه لولا هذا الدعم الذي قدمه هذا المجرم القاتل لتحولت سوريا الى قاعدة متقدمة للصهاينة (فضلاً عن الأمريكان واتباعهم وتوابعهم وعملائهم) ولصُفّيت القضية الفلسطينية بالكامل ولكان من المستحيل لطوفان الأقصى ان يقع. وقد شمل الحرق صور حسن ’نصر اللات‘ (الذي يخوض الآن اشرس حرب خبرتها اسرائيل في تاريخها نصرة ـ لا للّات ـ بل لغزة) والحوثي (الذي يفرض الآن اقسى حصار خبرته اسرائيل في تاريخها نصرة لغزة كذلك) وعلي خامنئي (الذي لا حاجة للتذكير به وبمواقفه من فلسطين وغزة والمقاومة وحماس). كما شملت لعناتهم الروافض الصفويين (الذين هبّوا ـ دون غيرهم ـ لنصرتهم في لبنان واليمن والعراق وسوريا وايران وما زالوا يفعلون ذلك بعد ان تخلى عنهم اهل السنة والجماعة وعلى رأسهم أتباع الباز وابنه ممن يقدسهم الغزيون).

(كحملات المقاطعة الجدية للصهاينة وداعميهم والعصيان المدني لإجبار الحكومة التركية على اتخاذ موقف جاد ضد حرب الإبادة وما شابه ذلك). بل كان بإمكانهم كذلك ان يمارسوا بعض الأساليب والتكتيكات 'القذرة' وغير القذرة (مما مارسوه في حربهم ضد النصيرية والروافض نصرة للمظلومين من سنة سوريا) نصرةً لسنة غزة وانتقاماً من الصهاينة.

لقد كنت اتمنى على تركيا ـ حكومة وشعباً ـ ان تبدي شيئاً من الحماس وتبذل جزءاً من الجهد وتسخّر قليلاً من الإمكانات مما جادت به (وما زالت تجود) في حربها على 'النظام السوري' نصرة لأهل السنة والجماعة من السوريين (او بالأحرى في خوضها في الفتن الطائفية)، كنت اتمنى ان جزءاً بسيطاً من ذلك الحماس والجهد والإمكانات يذهب الآن لنصرة سنة غزة والدفاع عنهم في حرب الإبادة التي يشنها عليهم اليهود والصليبيون. ولكن كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.

١٦.٣.٢ إيران

يعرف الجميع موقف ايران الثورة من فلسطين واسرائيل ودعمها للمقاومة الفلسطينية بمختلف فصائلها (خاصة حماس والجهاد الإسلامي) ولكل من يقاتل ضد المشروع الصهيوني الأمريكي ويتصدى له. وقد كانت ايران هي الدولة الوحيدة التي دعمت طوفان الأقصى وايّدته علناً بل وهنأت حماس والمقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني على ذلك.[٥٧] فقد هنأ مرشد الثورة والرئيس الإيراني (آنذاك) وكثير من المسؤولين الإيرانيين (وغير المسؤولين من شخصيات ايرانية بارزة) المقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني على هذا العمل الشجاع وكالوا لها المديح واعتبروا طوفان الأقصى انجازاً عظيماً وخطوة كبيرة على طريق النصر والتحرير الكامل لفلسطين وإزالة الكيان الصهيوني من الوجود. وكما يعرف الجميع فان ايران هي التي تقود (او بالأحرى تقف خلف) محور المقاومة (الذي تفرد بإسناد غزة عسكرياً) وتدعمه مادياً ومعنوياً.

وقد جرَّ هذا الموقف الإيراني (مع اسباب أخرى) النقمة على ايران لا من الصهاينة ورعاتهم الغربيين فحسب ولا من الغالبية العظمى من الأنظمة العربية (التابعة عموماً للغرب والسائرة في ركابه) كذلك بل حتى من قسم كبير من الشعوب العربية والإسلامية ايضاً (ربما نستطيع القول انه يشكل الغالبية العظمى من هذه الشعوب). فاما النقمة على ايران من الصهاينة والغربيين والأنظمة العربية فمفهومة تماماً و 'مبررة' كذلك. ولكن ما يبدو

[٥٧] ينبغي التذكير هنا كذلك بموقف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الحاكم في جنوب افريقيا الذي أشاد بما قام به مناضلو حماس واعتبره نتيجة لاستمرار الاحتلال.

غير مفهوم ولا مبرر هو نقمة شرائح واسعة من العرب (والمسلمين) بسبب هذا الموقف الإيراني وإن تمظهرت هذه النقمة وعُبِّر عنها بمظاهر وتبريرات اخرى. وأصلُ هذه النقمة (والكره عموماً لإيران لدى الشعوب العربية والإسلامية) وجذرُها ـ طبعاً ـ هو الكره الطائفي لإيران الشيعية من قبل الشعوب العربية والإسلامية السنية (غالباً) الذي يتمظهر في كرهٍ ورفضٍ لكل ما هو ايراني حتى لو كان فعلاً خيّراً كدعم فلسطين ومقاومتها لأن فعل الخير هذا يثير لدى العربي والمسلم السني (المقصّر عموماً) شعوراً بالحقارة والصغار امام الإيراني الشيعي الذي تغلب وتفوق عليه بفعل الخير.

وبالطبع يلجأ هذا المقصّر (بشعور وبلا شعور وبمساعدة خبراء الحرب النفسية من اجهزة اعلام صهيوني ومتصهين وما شابهها) الى حيل نفسية لإخراج الكره والنقمة بطريقة 'سليمة ومشروعة' والتعبير عنهما بشكل 'منطقي ومبرر'، وتُقترح لذلك وتُجترح علل ومبررات 'مقبولة ومعقولة' ليس من بينها طبعاً السبب الحقيقي لهذه النقمة وهو الشعور بالحقارة والصغار والتقصير. فالدعم الإيراني لقوى المقاومة (ومنها حماس السنية) مثلاً هو لرغبة ايران الصفوية في التمدد على حساب الإسلام السني ونشر التشيع، او رغبة الفرس المجوس والشعوبيين في السيطرة على العرب والثأر منهم والنكاية بهم لما فعلوه من تدمير امبراطوريتهم وفرض دينهم عليهم، او سعي ايران لكي تكون قوة اقليمية او دولية عظمى ذات نفوذ واذرع ضاربة وسيطرة وتأثير على القرار العربي، وما شابه ذلك. وتُستغل في هذا السبيل زلات لسان او تصريحات خرقاء او تحريفات لتصريحات كهذه (كتصريح العواصم الأربع) لإسناد هذا الفعل النفسي والفكري وعقلنته وتبريره.

والواقع ان هذه الحجج والتبريرات تلقى قبولاً حسناً لدى كثير (ربما يشكل الأغلبية الغالبة) من الشارع العربي والمسلم لا بسبب العمل الدؤوب والاحترافي الذي تقوم به اجهزة الإعلام الصهيوني والمتصهين فحسب بل بسبب هشاشة التركيبة العقلية والثقافية للمواطن العربي والمسلم. فهذا المواطن ينتمي الى 'أمم' افنت معظم عمرها وافضله في الحروب الداخلية والنزاعات البينية والتناحرات الطائفية وتَشكّل القسم الأعظم من ثقافتها ووعيها وبُني على سفاسف وترهات وغيبيات وخرافات وخزعبلات شَكّلت عقليتَها بطريقة مشوهة وطبعت تفكيرها بمزيج من اللاعقلانية والجهل المركب. ولذا فان حججاً كهذه لا تلقى قبولاً نفسياً فحسب (وهو ما يحتاجه هذا المواطن لتبرير نقمته اللامبررة وإراحة ضميره المتعب والتحلل من شعوره بالضعة والتقصير) بل قبولاً عقلياً وفكرياً كذلك.

وفي ضوء كل هذا نستطيع ان نفهم لوم ايران من اعدائها والعتب عليها من 'اصدقائها' (خاصةً في المراحل الأولى من طوفان الأقصى) بأسباب شتى وذرائع مختلفة لا من المغرضين والعملاء والخونة والمأجورين فحسب

بل حتى من كثير من 'المخلصين الصادقين' (وربما غالبيتهم). فايران تلام لدعمها المقاومة الفلسطينية في اعمالها المتهورة التي ادت الى تدمير غزة وخرابها (بل حتى لتحريك اذرعها في غزة لإثارة هذه الفتنة)،[٥٨] وايران تلام لتقصيرها في تقديم الدعم (او الدعم الكافي) لغزة، وايران تلام وتُلعن لأنها تقاتل اسرائيل وامريكا بالعرب (حتى آخر عربي كما يقال)، بل ايران تلام على الفعل وضده ونقيضه (كلوهما على الدعم واللادعم).

وبهذه المناسبة (او هذه الحجة) يحسن بنا ان نتطرق الى الالتزام الإيراني تجاه محور المقاومة وما اذا كانت ايران حقاً تقاتل اسرائيل وامريكا بالعرب (حتى آخر عربي). فايران ملتزمة ايديولوجياً بمشروعها الثوري الإسلامي (بغض النظر عن صحته وكماله وهو ما لا ندّعيه نحن لها بل ولا تدّعيه هي لنفسها). ولكن ليس من 'بنود' هذا المشروع الآيديولوجي ومقرراته (ولا من ادّعاءات ايران الصريحة المعلنة او الضمنية الخفية) انها ستذهب لتقاتل اسرائيل وامريكا (او غيرهما) نيابة عن العرب (او عن غير العرب)، بل كل ما يفرضه عليها هذا المشروع الآيديولوجي (وما التزمت به ايران فعلاً) هو الدفاع عن نفسها بنفسها في الأخطار والتهديدات الموجهة مباشرة لها وتمس سيادتها وسلامة ترابها الوطني (وهو بالضبط ما فعلته في ضربتها الأخيرة لإسرائيل) وتقديم الدعم والإسناد لكل من يقاتل قوى الاستعمار والاستكبار وعلى رأسهم من يتصدى للمشاريع الصهيونية والأمريكية من قوى التحرر والمقاومة والممانعة في المنطقة (كما هو الحال في العراق وسوريا ولبنان واليمن وفلسطين). وهذا يعني ان ايران لم تلتزم (بل ولا ينبغي ان تلتزم) بالقتال عن

[٥٨] من يعتقد ـ صادقاً ـ ان حماس تابعة لإيران وتأتمر بأوامرها (سواء في طوفان الأقصى ام فيما قبله ام فيما بعده) او انها في جيب الإيرانيين وانها ذراع من اذرعهم وما شابه ذلك فهو احمق جاهل، وهذا ما اثبتته تجارب 'الربيع العربي' والتجربة السورية بالخصوص. بل نستطيع القول (مؤيَّدين بالشواهد والأدلة الكثيرة) ان حماس تحافظ دائماً على اكبر مسافة ممكنة بينها وبين ايران (وهي مسافة عادة ما تكون اكثر مما تحتاجه حماس). بل نستطيع القول باطمئنان ان حماس تتمنى من اعمق اعماقها ان تتخلص من هذه العلاقة الثقيلة المرهقة المفروضة عليها (لغياب البديل عنها) وانها كانت تشتهي لو انها استطاعت الحصول على جزء من الدعم ـ الذي تحصل عليه الآن من ايران وحلفائها ـ من تركيا او من دولة عربية او اسلامية مقبولة (اي سنية) مقابل التخلص من علاقتها بإيران (وهذا ما يمكن ان نستشهد عليه مثلاً بمحاولة حماس خلال حكم الإخوان في مصر التملص من هذه العلاقة بسبب تصورها انها حصلت على البديل كما يمكننا ان نستشهد عليه كذلك بسلوكها خلال فترة علاقتها الحميمة بتركيا بتصورها ان تركيا توفر البديل المقبول ولو في بعض النواحي). وهذا لا يعود فقط الى التوجهات الطائفية (بل وحتى السلفية الوهابية المعادية للشيعة) لكثير من قادة حماس وكوادرها وقواعدها فحسب بل الى الكلفة التي تدفعها حماس من تأييد تخسره في قواعدها وحواضنها وانصارها من المجتمعات السنية بسبب هذه العلاقة 'الشاذة' مع ايران والشيعة. واود الإشارة هنا كذلك الى اعتقاد لا يقل حمقاً وجهلاً عن سابقه وهو ان 'تحالف' حماس مع ايران والشيعة هو الذي جرّ عليها عداء الأنظمة العربية إذ الصحيح هو العكس تماماً (اي ان عداء الأنظمة العربية هو الذي اضطرّ حماس لهذا التحالف المزعوم الذي هو ليس تحالفاً اطلاقاً بل هو زواج مصلحة وضرورة وكره وإكراه).

العرب بل ايران التزمت (وهو اقصى ما يُلزمها مشروعها الآيديولوجي ان تلتزم به) ان ’تقاتل‘ مع العرب بدعمهم وإسنادهم (بالسلاح والمال والتدريب والتموين وما شابه ذلك) وهو مافعلته وتفعله فعلاً. وهذا ليس صحيحاً ومبرراً آيديولوجياً وفكرياً فحسب بل هو مبرر عملياً وميدانياً كذلك لأن العرب لا ينقصهم الرجال او الشجاعة او ارادة القتال (اي ممن يريد القتال منهم من قوى المقاومة ـ طبعاً ـ وهم كثر بل اكثر مما يُحتاج اليه) وإنما ينقصهم (حين ينقصهم) الدعم والإسناد بسبب الحصار الذي تفرضه امريكا واتباعها وتوابعها وعملاؤها من العرب والعجم على قوى التحرر والمقاومة. وهذا (اي الدعم والإسناد) هو بالضبط ما قامت به ايران ولم تقصّر فيه. فأين القتال بالعرب حتى آخر عربي؟

وردّاً على من يطلب المزيد من الدعم من ايران (ومن محور المقاومة عموماً) اقول: ماذا قدمتم انتم ليحق لكم المطالبة بمزيد من الدعم؟ فحتى لو كان صحيحاً انه كان بإمكان إيران وحزب الله وانصار الله والحشد الشعبي ومن لفّ لفّهم ان يفعلوا المزيد، ولكن لماذا يطلب منهم ان يفعلوا كل شيء بينما مَن هم أولى منهم بذلك لا يفعل اي شيء بل ان بعضهم يفعل كل شيء في دعم الكيان الصهيوني ومده باسباب الحياة لتمكينه من مواصلة حرب الإبادة.

هذا كله فيما يخص الموقف الرسمي الإيراني عموماً. واما الموقف الشعبي الإيراني فهو معروف جيداً إذ يتعاطف معظم الإيرانيين مع الفلسطينيين في محنتهم وقد سيّروا مظاهرات ضخمة في كثير من مدنهم دعماً لفلسطين وغزة وجمعوا الكثير من التبرعات والإعانات (مضافاً طبعاً لما تقوم به حكومتهم نيابة عنهم ومن اموالهم هم ومضافاً كذلك الى ما يدفعونه طوعاً وكرهاً من عقوبات مُقعِدة ومُدمِّرة ثمناً لدعم ايران للقضية الفلسطينية). كما ان كثيراً من الإيرانيين (ربما بعشرات الآلاف ان لم يكن بمئات الآلاف او اكثر) مستعدون للتطوع للقتال في سبيل تحرير فلسطين لو اتيحت لهم الفرصة لذلك.

وفي رأيي ’المتواضع‘ ان الإيرانيين لو قعدوا متفرجين على ما يجري في غزة ولم يفعلوا شيئاً ولم يحركوا ساكناً نصرة لغزة (بل حتى لو تحالفوا مع اسرائيل ضد غزة) لما جاز ان يُلاموا على ذلك لأنهم كانوا (وما زالوا) ضحية عدوان العرب عليهم وتهجماتهم اللامبررة ضدهم. فقد ايد العرب بمعظمهم ـ حكوماتٍ وشعوباً بمن فيهم الغالبية العظمى من الفلسطينيين والغزيين ـ النظام البعثي البائد في عدوانه على ايران وما زال كثير من العرب (والفلسطينيين والغزيين) يمجّد ذلك النظام المجرم ويحنّ له ويفتخر به وبأفعاله الإجرامية (ضد الإيرانيين وغير الإيرانيين من عرب وعجم).

كما ان الإيرانيين والشيعة كانوا وما زالوا مرمىً لسهام الحقد الطائفي الذي يشارك في تسعيره لا الصهاينة

والأمريكان وعملاؤهم العرب من انظمة حكم واجهزة اعلام مأجور ومؤسسات دينية عفنة فحسب بل يشارك فيه قبل ذلك السواد الأعظم من الشعوب العربية (ومنهم طبعاً الفلسطينيون والغزيون) بثقافتهم الهابطة الفاسدة ووعيهم المزيف. وقد قوبلت اسهامات ايران والشيعة ومشاركاتهم وتضحياتهم في دعم قضايا العرب والمسلمين عموماً (وعلى رأسها قضية فلسطين) لا بالجحود فحسب بل بالتحريف والتأويل لتكون سبة ووبالاً عليهم بدل ان تترجم امتناناً ورصيداً لهم (كما لاحظنا توّاً من تأويل الدعم الإيراني برغبة التمدد او نشر التشيع او ما شابه ذلك وكما جوزيت ايران الثورة بهجوم العرب عليها). ويكفي ان نتذكر ان غزة (بشوارعها ومؤسساتها ومعالمها) مليئة باسماء كثير من رموز العداء والحقد ضد ايران والشيعة ولا يوجد اسم واحد - فيما اعلم - لرمز شيعي او ايراني يعبر عن لفتة ود وصداقة تجاه ايران او الشيعة او عرفان بالجميل لما قدمته ايران والشيعة لهم.

والخلاصة ان العدوان (فضلاً عن الجحود) الذي قوبل به الشيعة[٥٩] والإيرانيون من الدول والشعوب العربية يعفي الشيعة وايران (ومن معها من 'وكلاء واذرع') من اي مسؤولية تجاه قضايا 'الأمتين' العربية والإسلامية على الأقل من باب كف الشر ودفع الأذى عن النفس ما دامت اسهامات الشيعة والإيرانيين وتضحياتهم تجر عليهم الوبال والدمار (من قبل العرب قبل غيرهم)، فالدم الفلسطيني مثلاً ليس اغلى من الدم الإيراني او العراقي او السوري او اللبناني او اليمني. فكل ما يقوم به الشيعة وايران (ومن معها من 'وكلاء واذرع') انما هو من باب التطوع والبذل المستحب (او هكذا ينبغي - على الأقل - ان يُفهم ويُثمَّن).

١٧.٣.٢ اليمن

لم يكن احد يتوقع حين حدث طوفان الأقصى ان يكون لليمن دور فاعل (بل دور ايّ دور) في مجريات هذا الطوفان وتداعياته بسبب البعد الجغرافي لليمن وخضوعه للحصار ودماره شبه الكامل بعد سنوات طويلة من حرب الإبادة والتدمير التي شنها الأمريكيون عليه بأيدٍ عربية. فكان ما ينتظره المراقبون من اليمن ان يقتصر دوره على الدعم المعنوي والإعلامي والتظاهر الأسبوعي وما شاكل ذلك مما لا يسهم في اي دعم حقيقي للمجهود الحربي المقاوم لإسرائيل.

---

[٥٩] من الأمثلة على العدوان على الشيعة (ولو بسبب تهمة التشيع وشبهته) ما جرى على العراق وسوريا واليمن في العقدين الأخيرين من تدمير ممنهج شامل وقتل مئات الآلاف من الأبرياء ساهمت فيه الشعوب العربية بقدر (ان لم يكن اكثر من) ما ساهمت فيه الأنظمة العربية.

ولكن ـ للغرابة ـ سرعان ما اثبت اليمن خلال اسابيع قليلة انه ليس فاعلاً مهماً في مجريات الأحداث فحسب بل هو احد أهم الفاعلين إن لم يكن اهمهم على الإطلاق (بعد المقاومة الفلسطينية في غزة). وقد كان الفضل في ذلك ـ بعد إرادة القيادة اليمنية والشعب اليمني ـ الموقع الاستراتيجي لليمن المتحكم بمضيق باب المندب (بما يعنيه ذلك من سيطرة على خطوط الملاحة البحرية في البحر الأحمر وخليج عدن بل وحتى بحر العرب واجزاء من المحيط الهندي) مضافاً الى الدعم المهم ـ عسكرياً وتقنياً ـ الذي قدّمه حزب الله وإيران للقوات المسلحة اليمنية وهو الدعم الذي مكّن اليمن من تحويل إرادته الفولاذية وعزمه الصارم الى فعل قاصمٍ ومُدوٍّ في البحر والجو رغم ما يعانيه من حصار وتجويع وتدمير.

وأعتقد (ويشاركني في هذا كثير) ان اليمن ربما يكون الطرف الوحيد (قيادةً وشعباً) الذي قام بدوره كاملاً غير منقوص دون شبهة او شك فقد فعل كل ما يمكنه ان يفعله ـ بل وزاد عليه ـ وهو بذا قد أبرأ ذمته أمام الله والتاريخ كما أثبت انه يستحق ـ بكل جدارة ـ ان يكون قائداً للعالمين العربي والإسلامي.[٦٠] ولقد قزّم اليمن بمواقفه العملاقة هذه كل أدعياء القيادة والريادة من عرب وأتراك (ووو .... إلخ) ووضعهم في أماكنهم ومكاناتهم التي يستحقونها والتي يليقون بها وتليق بهم، كما أظهر الفارق بين الإسلام السياسي الحق (وهو الإسلام المقاوم الرافع لراية التحرر والانعتاق من الاستعمار والهيمنة الغربية) والإسلام السياسي المزيف الساعي الى المناصب والامتيازات والصفقات المشبوهة والتحالفات مع النظم العميلة ومداهنة الغرب والاحتماء بدوله ومؤسساته ووو ... إلخ.

والواقع ان اليمن لو اراد ان يتهرب من مسؤوليته الدينية والأخلاقية ـ طلباً للسلامة ـ بادعاء بعده الجغرافي وعجزه عن النصرة (خاصة مع الأخذ بنظر الاعتبار الدمار الذي عاناه بفعل الحرب الأمريكية العربية عليه وضعف موارده المادية) لما لامه أحد، بل لما انتبه احد الى تهربه من المسؤولية، بسبب بعده الجغرافي وضعف امكاناته وسوء حالته بفعل الدمار الذي لحق به جراء الحرب المفروضة عليه وعرضته للابتزاز من الولايات المتحدة والأنظمة العربية العميلة (كما هو حاصل فعلاً الآن من استهداف امريكا ـ بمعونة عملائها ـ النظام المالي اليمني لتجويع اليمنيين وتركيعهم ليتمكن الصهاينة من مواصلة حرب الإبادة). ولكن اليمن آثر المبادرة والتطوع بفعل ما قد يعرض وجوده للخطر، وهو موقف غاية في المبدئية والشجاعة والنبل.

والخلاصة ان اليمن قد اثلج صدور الفلسطينيين والداعمين لفلسطين (من عرب ومسلمين واحرار) فقد قام بكل مايجب عليه وزيادة وكان الطرف الوحيد المجمع على انه لايستحق اللوم والعتاب ولا تطاله شبهة

[٦٠] ما يبرر قيادة اليمن كذلك هو وسطية المذهب الزيدي بين الشيعة والسنة فهو مقبول منهما ومتقبِّل لهما (والحكمة يمانية!).

التقصير والتهاون، وهذا ينطبق على الشعب اليمني بقدر ما ينطبق على الحكومة اليمنية (اي حكومة انصار الله لا حكومة العملاء المأجورين او حكومة الفنادق كما توصف بحق). وكما هو معروف لدى الجميع فان اليمن 'يتنافس' مع لبنان على المركز الأول في دعم غزة، ولكن اعتقادي ان دور كل منهما مكمل للآخر وانهما يحظيان بنفس الأهمية ولذا استطيع القول ان كليهما يستحق المركز الأول.

١٨.٣.٢ لبنان

كعادتنا بلبنان، كان الانقسام و 'التطرف' في المواقف مع وضد فلسطين وطوفان الأقصى مميزاً للمشهد اللبناني السياسي والاجتماعي. فلبنان ـ الذي هو قاعدة المقاومة ضد المشاريع الصهيونية والغربية ومركزها الأول ـ بل عاصمتها ـ في العالمين العربي والإسلامي ـ كان اول من التحق بملحمة طوفان الأقصى في اليوم التالي لوقوع هذه العملية ليكون اول جبهة اسناد (بل وربما اهمها، عسكرياً على الأقل) لجبهة غزة. كما ساهم لبنان مساهمة مهمة وفاعلة في الحراك المناصر لفلسطين والرافض لحرب الإبادة حيث نظمت فيه الكثير من المظاهرات والوقفات الاحتجاجية والمؤتمرات والندوات والانشطة الفنية والثقافية وما شابهها من اشكال الدعم والمساندة المعنوية والإعلامية للقضية الفلسطينية وطوفان الأقصى.

ولكن لبنان في وجهه الآخر (والقبيح للأسف) كان ايضاً قاعدة للخيانة والتآمر ضد ملحمة طوفان الأقصى وحركات المقاومة المنخرطة فيها ومركزاً للإرجاف والتثبيط (وما شابه ذلك من جهد اعلامي وثقافي ومعنوي متصهين) حيث ارتفعت فيه اصوات فاقت احياناً في نشازها ما يصدر عن عتاة الصهاينة في اسرائيل وحول العالم. ولكن ينبغي ان يلاحظ ان طوفان الأقصى قد احدث تغييراً مهماً في بعض المواقف والتحالفات، فسمعنا مثلاً رسائل تضامن وتأييد من اوساط درزية كانت معادية لحزب الله، كما لاحظنا ان قسماً مهماً من الطائفة السنية يغير موقفه من حزب الله او يلطف نبرة العداء تجاهه (ما دام حزب الله منخرطاً في الدفاع عن سنة غزة ومساندة جبهتهم). كما ان بعض الشخصيات والحركات والأحزاب السياسية قد اعادت النظر في مواقفها من حزب الله فرأينا مثلاً بعض الشخصيات والجماعات الإسلامية السنية يجاهر بتأييده لحزب الله في جهده المساند لغزة، بل ان الحال قد وصل احياناً الى ما يشبه التعاون العسكري او التنسيق بين بعض هذه الجماعات وحزب الله. وبذا كان لطوفان الأقصى دور مبارك واثر حميد في تنقية الأجواء (جزئياً ونسبياً) ونبذ بعض الخلافات الطائفية والتجاذبات الحزبية والسياسية خاصةً ما كان منها مرتبطاً بالأزمة السورية وتداعياتها (وهو دور ينبغي ان يذكر فيشكر لهذا الطوفان).

وكالعادة، كانت الكنيسة المارونية (والشخصيات والأحزاب والكيانات المرتبطة بها والمعبرة عن صوتها وضميرها) في مركز القيادة والريادة ضد ملحمة طوفان الأقصى والجهد المقاوم المساند لجبهة غزة بحجة ان غزة لا تعني لبنان او بحجة انه لا فائدة من الجهد المقاوم المساند لغزة وما شابه ذلك من حجج ومعاذير متصهينة. بل لقد بلغت الوقاحة بالبعض الى الدعوة لترك اسرائيل 'المعتدى عليها' وشأنها لتفعل بغزة ما تشاء وتعاقبها العقاب الذي 'تستحقه' وتضع حداً 'لإرهاب حماس' واعتداءاتها اللامبررة ضد دولة آمنة مسالمة محمية بالقانون الدولي وشرعة الأمم المتحدة.

والواقع ان ملحمة طوفان الأقصى زادت إظهاراً ما كان معروفاً سابقاً عن الكنيسة المارونية (مدعومة بشرائح مهمة من الطائفة المارونية) من كونها مركزاً من مراكز الخيانة للأمة والتآمر عليها والتحالف مع اعدائها وهي بذلك تمثل ـ صراحةً وجهاراً ـ امتداداً للصليبية الغربية وقاعدة لها في المشرق العربي المسلم. ولا يخفى الدور الخياني الذي لعبته هذه الكنيسة (ومن معها من الأحزاب والكيانات اللبنانية) ابان الحرب الأهلية اللبنانية و تواطؤها ـ بل تحالفها ـ مع اسرائيل ووقوفها خلف العديد من المجازر والاستهدافات ضد الفلسطينيين واللبنانيين آنذاك. كما لا يخفى دورها المتواصل في عداء المقاومة والإرجاف ونشر الأكاذيب والعمل مع السفارات الأجنبية ضد القوى الوطنية اللبنانية واستقواؤها بالأجنبي (بما في ذلك بعض الأنظمة العربية العميلة)، بل وحتى العمل والتنسيق مع اجهزة استخبارات صهيونية وغربية ضد قوى المقاومة والقوى الوطنية.[٦١]

وبناءاً على ذلك، ينبغي ان يكون تفكيك هذه الكنيسة[٦٢] والتجمعات المرتبطة بها من اولى الأولويات في اي مشروع نهضوي تحرري سواء للبنان او للعالمين العربي والإسلامي. وواضح ان هذه الدعوة للتفكيك ليس لها علاقة اطلاقاً بالتضييق على حرية الدين او الاعتقاد او باستهداف الوجود المسيحي المشرقي او

[٦١] لقد بلغ المزاج الماروني احياناً حدّاً لا يصدق من التصهين والخيانة، فرأينا بعض الموارنة مثلاً لا يتردد في رفع العلم الصهيوني في مظاهرات ووقفات مؤيدة لحرب الإبادة. ورغم قبولي بأن هؤلاء الموارنة لا يعبرون عن رأي ومزاج الموارنة جميعاً (لأن كثيراً من الموارنة يلتزمون بالثوابت الوطنية بل ان بعضهم من اشد الداعمين للمقاومة) فان هذا يدل على مدى التسمم الذي حدث للمزاج الماروني بفضل الثقافة التي تحكم الكنيسة المارونية والجماعات الدائرة في فلكها وهي ثقافة متطرفة في عدوانيتها للقوى الوطنية وقوى المقاومة ومنبثقة من عداء عميق للعروبة والإسلام. ونصيحتي للموارنة ان يغيروا هذا المسار الخطر الذي يهدد مستقبلهم ووجودهم في الشرق فلن تكون امريكا (فضلاً عن فرنسا) قادرة على توفير الحماية لهم، بل ان ما سيوفر الحماية لهم انتماؤهم للعالمين العربي والإسلامي والالتزام بقضاياهما بل وتبني هذه القضايا كقضايا للأمة بغض النظر عن الانتماء الديني والطائفي. وأخشى ان تكون نهاية المارونية السياسية ـ بكنيستها الصليبية ـ كنهاية الكيان الصهيوني (اي التفكيك وربما التدمير) وان يخسر الموارنة ـ بسبب خيانة كنيستهم وكثير من نخبهم ـ وجودهم في المشرق كما فقده ـ وسيفقده ـ اليهود.

[٦٢] لا اعتقد ان الكنيسة المارونية قابلة للإصلاح لأنها فاسدة وصليبية ومعادية للعرب والإسلام والمسلمين الى النخاع، فهذه هويتها وطبيعتها بل جيناتها وحمضها النووي.

ما شابه ذلك لأن الكنيسة المارونية كانت وما زالت وستظل كياناً سياسياً بامتياز يتخذ من الدين مظلة وغطاءاً لنشاطاته الهدامة التي تستهدف العرب والمسلمين، وهي بذلك تشبه في طبيعتها ودورها الأدائي والتخريبي حركات التكفير والعنف 'الجهادي' وما شابهها من كيانات تستظل بالدين للكيد للأمة والتآمر عليها ومساعدة الأعداء في استهدافها وتدميرها.

وعلى كل حال، يعرف الجميع ان لبنان (مع اليمن) يقدم اكبر دعم ومساندة لجبهة غزة وهو بذا يمثل (مع اليمن) اهم جبهة اسناد لغزة، وقد تجلى هذا بشكل واضح (او اوضح) في الأشهر القليلة الأخيرة مع تنامي العمليات العسكرية للمقاومة اللبنانية كمّاً ونوعاً. بل ان التطورات الأخيرة تشير الى ان هاتين الجبهتين وإن كانتا جبهتي اسناد من حيث الهدف والغرض منهما الا انهما تحولتا ـ في حجمهما واهميتهما ونوعية اسهامهما ـ الى جبهتين اصيلتين لا تقلان اهمية وفاعلية وايلاماً للعدو عن جبهة غزة. وتُعقد الآمال على جبهتي لبنان واليمن (اللتين فوضتا امر التفاوض على إنهاء حرب الإبادة ـ بامتداداتها اللبنانية واليمنية ـ الى جبهة غزة) لإيصال العدو الصهيوني وداعميه الى الاقتناع بعبثية هذه الحرب ولاجدوائيتها في ايصاله الى اهدافه وهو ما يفترض ان يؤدي الى إجباره على انهائها بسبب ارتفاع كلفتها عليه (وربما عجزه عن مواصلتها خاصةً إن تخلّى عنه داعموه ورعاته).

١٩.٣.٢ دول افريقيا غير العربية

لقد تباينت المواقف الرسمية لدول افريقيا غير العربية من طوفان الأقصى فبعض هذه الدول كان مؤيداً صراحةً وعلناً لإسرائيل (ككينيا وتوغو ورواندا وغانا والكونغو الديمقراطية) بينما كان بعضها الآخر يميل بوضوح للموقف الفلسطيني (ممثلاً بدولة جنوب افريقيا التي نجدد الإشادة بموقفها في رفع دعوى الإبادة ضد اسرائيل امام محكمة العدل الدولية وهو ما بحثناه في § ٦.١.٢) في حين اكتفى فريق ثالث بالوسطية او التزام الحياد في الظاهر (كتنزانيا وأوغندا).

وعلى كل حال كان اداء افريقيا الرسمية سيئاً عموماً تجاه القضية الفلسطينية بلحاظ ما يُنتظر منها (بحكم ماضيها) من مواقف مناهضة للاستعمار ومؤيدة لحركات التحرر ومقارنة ـ مثلاً ـ باداء امريكا اللاتينية التي تربطها من الوشائج (الدينية والثقافية والعرقية والجغرافية) بفلسطين ما هو اقل بكثير مما تربط افريقيا بها (ملاحظين مثلاً ان كثيراً من دول افريقيا غير العربية هي دول اسلامية او تحتوي اقليات مسلمة كبيرة وهو ما ليس كذلك في دول امريكا اللاتينية).

ولهذا الخذلان الافريقي اسباب عديدة منها انقضاء حركة المدّ الثوري والتحرري التي اجتاحت القارة الافريقية في القرن الماضي وانصباب اهتمامات افريقيا في الوقت الراهن على الاقتصاد والتنمية واللحاق بالدول المتقدمة وما شابه ذلك. ومن اسباب ذلك العمل الدؤوب الذي قامت به اسرائيل (مسنودة بدعم قوي ـ بل وبضغوط ـ من امريكا والدول الغربية) للتمدد في افريقيا مستغلةً حوافز ومشجعات تقدمها للدول الافريقية كالتزويد بالسلاح وتوفير الخدمات الأمنية والتكنولوجيا المتقدمة والخبرات والاستثمارات والمشاريع المشتركة وما شابه ذلك. والعامل الثالث التطبيع العربي واتفاقات اوسلو (وما شابهها من خطوات مسيرة الانحدار العربي والفلسطيني) التي سمحت ضمناً (او بررت) للدول الافريقية التحلل من التزاماتها الأخلاقية والآيديولوجية تجاه القضية الفلسطينية (إذ لِمَ ينبغي على افريقيا ان تكون عربية او فلسطينية اكثر من العرب والفلسطينيين فتمتنع عن فعل ما يفعله العرب والفلسطينيون من التعامل مع اسرائيل كدولة طبيعية وشرعية).

وربما نستطيع القول ان مواقف الدول الأفريقية عموماً قد تحسنت في المراحل اللاحقة من ملحمة طوفان الأقصى (وهو ما عُبّر عنه مثلاً في مواقف المنظمات الاقليمية الأفريقية كتجميد الاتحاد الافريقي لقراره منح إسرائيل صفة مراقب في هذه المنظمة) بسبب هول الجرائم الإسرائيلية وبشاعتها وما احدثته من ضغوط سياسية واخلاقية على النخب السياسية الافريقية. ولكن يظل الموقف الافريقي عموماً دون المستوى المطلوب خاصةً إن تذكّرنا ما قلناه آنفاً من ان كثيراً من دول افريقيا غير العربية هي دول اسلامية او تحتوي اقليات مسلمة كبيرة.

واما المواقف الشعبية لدول افريقيا غير العربية فهي متفاوتة ولكن الغالب فيها هو عدم الاكتراث (او قلة الاكتراث في احسن الأحوال) لما يجري في فلسطين وغزة (مع ملاحظة ان عدداً من المظاهرات والفعاليات المناصرة لفلسطين والرافضة لحرب الإبادة قد حدثت في عدة دول افريقية ـ كدولة جنوب افريقيا وتشاد ونيجيريا والسنغال ـ خاصة في المراحل الأولى من ملحمة طوفان الأقصى). وهذا يعود في جزء منه الى انشغالات المواطنين الأفارقة بهموم المعيشة والأزمات الاقتصادية (وما شابهها من امور تجعل الاهتمام بالشؤون الخارجية كمذبحة غزة نوعاً من الترف) وكذلك الى غياب التقاليد والمناخات السياسية التي تسهل ظهور حراكات شعبية وتشجع عليها.

وعلى كل حال، ينبغي ان نتذكر ان افريقيا ليست في موقفها الرسمي ولا في موقفها الشعبي اسوأ من العالم العربي والإسلامي، فإذا خذل العرب والمسلمون اخوتهم في فلسطين فلماذا يُنتظر من الأفارقة ان ينصروهم.

بل نستطيع القول اكثر من ذلك وهو ان الموقف الافريقي رسمياً وشعبياً متقدم (عموماً وبنحو الإجمال) على مواقف الغالبية العظمى من الدول العربية إذ لم تسهم دولة افريقية واحدة ـ مثلاً ـ بما اسهمت به مصر او الاردن او الإمارات او السعودية في دعم الصهاينة وتمكينهم من حرب الإبادة وتجويع الفلسطينيين وتعذيبهم وإذلالهم. كما ان مدناً ومجتمعات افريقية عديدة شهدت حراكاً شعبياً متضامناً مع فلسطين لم تشهد مثله دول عربية عديدة (سواء ما كان منها بسبب القمع والمنع الرسمي او ما كان منها بسبب التخاذل وغيبوبة الضمير).

٢٠.٣.٢ دول امريكا اللاتينية

نستطيع القول ان أداء قارة امريكا اللاتينية تجاه القضية الفلسطينية وملحمة طوفان الأقصى على المستوى الرسمي هو الأفضل بين القارات والتكتلات السياسية ـ الجغرافية ـ الثقافية الكبرى في العالم. ويعود الفضل في ذلك الى اليسار الاشتراكي او الآيديولوجي (المنبثق غالباً من مجتمعات السكان الأصليين المستضعفين المتعاطفين مع امثالهم من المستضعفين)[٦٣] الذي شهد انتعاشاً في السنوات الأخيرة وهو ما ادى الى عودة اليسار الى الحكم في عدد لا بأس به من دول امريكا اللاتينية، مضافاً طبعاً الى حضور هذا اليسار تاريخياً في عدد من دول امريكا اللاتينية (ممثلة بكوبا ونيكاراغوا وحتى فنزويلا).[٦٤]

فبالإضافة الى مواقف هذه الدول الثلاث المعروفة بدعمها القوي للحق الفلسطيني وإدانتها للجرائم الإسرائيلية قامت بوليفيا وبليز بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل احتجاجاً على الجرائم الإسرائيلية بينما استدعت كل من كولومبيا وتشيلي وهندوراس والبرازيل سفراءها لدى إسرائيل لنفس السبب. وينبغي هنا التذكير بالمواقف المتميزة لكولومبيا (ورئيسها بالخصوص) التي اوقفت استيراد الأسلحة الإسرائيلية وبيع الفحم لإسرائيل رداً على جرائمها في غزة. كما ننوه كذلك بالتصريحات المهمة التي ادلى بها الرئيس البرازيلي في تعرية حرب الإبادة وتشبيهها بالمحرقة النازية وادانتها.[٦٥] كما ينبغي التذكير كذلك بالدعوى التي رفعتها نيكاراغوا ضد ألمانيا امام محكمة العدل الدولية متهمة اياها بتسهيل ارتكاب إبادة بحق الفلسطينيين وعدم وفائها بالتزاماتها

[٦٣] ينبغي الإشارة هنا الى شَبَه القضية الفلسطينية بقضايا السكان الأصليين الذين تعرضوا للإبادة والاستيلاء على أراضيهم وتطلعات هؤلاء السكان الى استرداد حقوقهم او جزء منها (كما هو حال الفلسطينيين).

[٦٤] ينبغي التنبيه الى الوضع الخاص لنيكاراغوا بين 'الدول اليسارية' بسبب التقلبات السياسية التي تحدث في هذه الدولة خلافاً لكوبا مثلاً (بل وحتى فنزويلا الى حد ما).

[٦٥] يجب ان نلاحظ التكلفة التي يدفعها الرئيس البرازيلي من رصيده السياسي وشعبيته ثمناً لهذه التصريحات والمواقف بسبب الحضور المؤثر للمسيحية الإنجيلية في الحياة السياسية في البرازيل. وكما هو معروف، فان الطاعون (او السرطان) الإنجيلي يستخدم الدين (وتستخدمه الصهيونية العالمية ذراعاً واداةً) لخدمة المصالح الصهيونية وحشد التأييد لإسرائيل. فهذه التصريحات

تجاه القانون الدولي بسبب الدعم الألماني لإسرائيل (مبررة ذلك بتقديم المانيا مساعدات عسكرية ومالية إلى إسرائيل وايقافها تمويل الأونروا).

والواقع ان مواقف دول امريكا اللاتينية تعكس استقلالية دول امريكا اللاتينية (غالبياً ونسبياً) عن الولايات المتحدة وضعف تأثير هيمنتها على قراراتها (خلافاً للحال ـ مثلاً ـ في الدول الغربية عموماً التي تسيطر الولايات المتحدة على قراراتها وتوجهاتها). كما تعكس هذه المواقف ضعف تأثير اللوبيات ومجموعات الضغط الصهيونية في كثير من هذه الدول (خلافاً ـ مثلاً ـ لتأثيرها الكبير في الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الغربية الأخرى).

لقد كنت اتمنى على العرب والمسلمين ان يرقوا في مواقفهم من فلسطين واسرائيل الى مستوى دول امريكا اللاتينية (بالإجمال) وهو مستوىً اقل من الحد الأدنى الذي ينتظر منهم ولكنهم للأسف لم يفعلوا ذلك ولن يفعلوه. والواقع انه لولا طاعون المسيحية الإنجيلية (الذي يجتاح العديد من دول امريكا اللاتينية ويعمل ذراعاً فعالاً للحركة الصهيونية) لكُنّا شهدنا من دول امريكا اللاتينية مواقف في دعم فلسطين ونصرة غزة اكثر واكبر وأفضل مما شهدناه منها فعلاً. ولكن على كل حال، لايسعنا الا شكر امريكا اللاتينية (ممثلة بيسارها السياسي خصوصاً)[٦٦] على مواقفها من فلسطين وإسرائيل. فرغم البعد الجغرافي والتباين اللغوي والديني والثقافي والتباعد في المصالح والتحالفات كانت مواقف كثير من دول امريكا اللاتينية انسانية بحق وامتياز وافضل بكثير من مواقف معظم الدول العربية، وهي بذا تستحق ان تذكر فتشكر وتسجل في التاريخ الإنساني كعلامات مضيئة لأمريكا اللاتينية وحركات اليسار وتياراته.

وأما على المستوى الشعبي، فقد كان الحراك الشعبي المؤيد لفلسطين والرافض لحرب الإبادة جيداً عموماً (آخذين بنظر الاعتبار الفواصل الجغرافية والفوارق الثقافية). فقد حدث الكثير من المظاهرات والوقفات الاحتجاجية والفعاليات المشابهة في الكثير من مدن امريكا اللاتينية والعديد من دولها (كالمكسيك وكولومبيا وتشيلي وبيرو والبرازيل والأرجنتين وفنزويلا وكوبا). وقد ساعد في ظهور هذا الحراك ـ بالإضافة طبعاً الى

لا تمثل شجاعة لفظية عديمة الكلفة من الرئيس البرازيلي بل مجازفة بوضعه السياسي (كوضع العراقيل والعقبات السياسية امامه خلال رئاسته) ومستقبله الشخصي (كإمكان تعرضه لملاحقات قضائية عقابية لاحقاً) ومستقبل تياره السياسي (الذي قد يعاقب انتخابياً في انتخابات قادمة).

[٦٦] ينبغي ان نسجل خيبة الأمل في اليسار المكسيكي على الصعيد الرسمي. فرغم الحراك الشعبي (النشيط نسبياً) المؤيد لفلسطين والمتعاطف مع غزة، اتسم الموقف الرسمي المكسيكي بالانتهازية وغياب الأصالة والانجرار وراء الولاءات الصهيونية والخضوع لضغوطها.

الحضور السياسي والحزبي لليسار ـ وجود جاليات واقليات عربية ومسلمة كبيرة الحجم نسبياً في كثير من دول امريكا اللاتينية مضافاً الى مناخ الحريات العام وغياب (او ضعف) التحيز لصالح اسرائيل (خلافاً للحال ـ مثلاً ـ في دول اوروبا الغربية).

٤.٢ مسؤولية الشعوب العربية والمسلمة

لقد تعرضنا في القسم السابق (عموماً وإجمالاً) الى مواقف الشعوب كما سنقدم المزيد عن هذه المواقف فيما سيأتي (راجع § ١.٣). أما في هذا القسم فسنبحث موضوعاً اساسياً ومهماً وهو المسؤولية التي تقع على عاتق الشعوب العربية والمسلمة. ونريد بذلك مسؤولية الشعوب العربية والمسلمة تجاه القضايا والأحداث التي تجري حول العالم خاصةً ما يرتبط منها بكوارث وجرائم اضطهاد او احتلال او عدوان تقع على شعوب وجماعات مسلمة (كما حدث مثلاً للبوسنة او افغانستان او العراق او لبنان وكما حدث ويحدث لفلسطين وغزة الآن).[٦٧]

وهدفنا الأساس من هذا البحث هو دحض المقولة التي عادةً ما تعزو التقصير والخلل في مواقف هذه الدول وشعوبها ازاء القضايا العادلة الى مواقف الحكام وتخاذلهم وعمالتهم وفسادهم وما شابه ذلك بينما تبرئ الشعوب وتصفها بالحيّة وتعلل التقصير والخلل بقمع الحكام وجور الأنظمة وغياب الحريات وما شابه ذلك من مقولات معروفة وكليشات مكررة. ورأينا في هذا واضح وهو ان المسؤولية الأولى والأخيرة تقع على عاتق الشعوب قبل الحكام، بل ان تقصير الحكام وتفريطهم في قضايا الأمة وخيانتهم لها انما هو بتقصير الشعوب وتفريطها وخيانتها، فينبغي ان نسائل الشعوب على هذا التقصير والتفريط عشر مرات قبل ان نسائل حكامها ونظمها مرة واحدة.

وتبريرنا لذلك ان النظام السياسي الحاكم في اي دولة انما هو مظهر من مظاهر الأمة وتجلٍّ من تجلياتها أيّاً كانت طريقة وصول هذا النظام السياسي الى الحكم (بالتوافق او بالقوة او بالعرف او بالشرع او ... إلخ). والسبب في ذلك ان هناك آليات فيزيائية ـ اجتماعية لا يستطيع اي نظام سياسي او حاكم من الوصول الى الحكم والتمسك به دون الخضوع لها واحترامها والقبول بها بل دون ان يمرّ عبرها ويتوسّل بها وصولاً وبقاءاً.

[٦٧] الواقع ان هذا الموضوع (وما أدلينا بشأنه من آراء) لا يختص بالشعوب العربية والمسلمة بل هو يعم جميع الشعوب والجماعات البشرية (وكذا آراؤنا)، وإنما خصّصناه بالشعوب العربية والمسلمة لأنها محطّ اهتمامنا الأول بسبب مسؤوليتها الاستثنائية (وهو ما سنتعرض له لاحقاً).

وبعبارة اخرى، ان من غير الممكن لنظام سياسي او حاكم لا تمظهر الأمة ولا تتجلّى فيه ان يصل الى الحكم ويبقى فيه.[٦٨]

وعن هذا المبدأ (الذي يمكن ان نسميه مبدأ تمظهر الأمة في نظامها السياسي) ينبثق منطقياً مبدأ آخر (يمكن ان نسميه مبدأ مسؤولية الأمة عن افعال نظامها السياسي) خلاصته ان الأمة مسؤولة بالكامل عن كل الأفعال التي تصدر عن نظامها السياسي خيراً كانت ام شرّاً، رضيت بذلك ام لم ترضَ. وهذا يعني انها تتحمل المسؤولية الأخلاقية والقانونية لما يفعله نظامها ما دام قائماً وترث هذه المسؤولية بعد سقوط هذا النظام واستبداله بنظام آخر. وهذان المبدآن ينطبقان على العرب والمسلمين وغيرهم سواء بسواء (وهو ما اشرنا له آنفاً).

وفي ضوء هذين المبدأين نستطيع القول دون تردد ان جرائم الصمت والتواطؤ مع الكيان الصهيوني الذي ترتكبه بعض (او معظم) الأنظمة العربية والمسلمة انما هي جرائم لشعوب هذه الدول قبل ان تكون جرائم لحكامها وانظمتها. فحصار غزة وتجويعها وذبحها هي ـ في المقام الأول ـ جرائم الشعوب العربية والمسلمة التي صمت وتواطأ حكامها الذين يحلو لبعض من يريد ان يتحلل من المسؤولية ان يصفهم بالجبن والخيانة والعمالة لتبرئة نفسه لأن هؤلاء 'الجبناء والخونة والعملاء' ما كان لهم ان يفعلوا ذلك لو لم تكن شعوبهم جبانة وخائنة ومتواطئة لا ينظر افرادها الا الى مصالحهم الآنية واكلهم وشربهم ولهوهم وطربهم وعبثهم دون اكتراث لمن يذبح ويجوّع من اخوانهم وإن ذرفوا على ذلك دموع التماسيح وظلوا يجأرون بالدعاء ليل نهار نصرةً لغزة واهلها ويتذرعون بقلة الحيلة وضيق ذات اليد وما شابه ذلك من ذرائع ومعاذير فارغة تافهة.

والخلاصة ان الحكام تمظهر للشعوب وانها مسؤولة عن افعالهم. بل حتى لو لم يكن الأمر كذلك، يجب ان نقبل ان على الشعوب ان تغير حكامها او تجبرهم على تغيير افعالهم حين يحيدون عن جادة الصواب ويرتكبون موبقاتٍ كبيرةً خاصةً إن كانت هذه الموبقات بضخامة جريمة التواطؤ والخيانة لإبادة غزة، إذ حين يصل الأمر الى هذا الحد يجب على الشعوب ان تفعل شيئاً مهما كانت الأثمان والتضحيات لأن الفساد الذي يحدث ببقاء الحكام او السكوت عن افعالهم حينئذٍ اشد كثيراً من الفساد الذي يحدث بمعارضة الحكام والتصدي لهم وهذا يبرر اتباع كل الوسائل ودفع كل الأثمان وتقديم كل التضحيات لتغيير الحكام او تغيير سلوكهم. ثم ان موبقات

---

[٦٨] مثلاً، اي نظام يحتاج من اجل بقائه الى الدعم الفعلي او الضمني (او السكوت على الأقل) من قبل قوى الأمن وموظفي الدولة (فضلاً عن الجيش والقوات المسلحة عموماً) وهؤلاء ومن معهم (من اقرباء واصدقاء ومن يتأثرون بهم) يشكلون شريحة مهمة من الشعب، وهي ان كانت اقلية فهي ينبغي ان تكون خاضعة لتأثير الأكثرية وضغوطها وإن كانت اكثرية فهي تمثل الشعب وتعبر عنه.

بضخامة جريمة التواطؤ والخيانة لإبادة غزة تمس القيم والمبادئ الأساسية وترتبط بوجود الأمة ومصيرها وهي قضايا كبرى يجب ان تُبذل في سبيلها التضحيات والأثمان مهما بهظت وغلت لأنها تعلو على حسابات الربح والخسارة.

وأودّ اخيراً ان أعقب على مسؤولية الشعوب العربية والإسلامية (بغض النظر عن قضية تمظهر الشعوب في حكامها ومسؤوليتها عن أفعالهم) بالقول ان الشعوب العربية والإسلامية تتحمل مسؤولية اكبر من الشعوب الأخرى إزاء ما يحدث في غزة (وإزاء ما يقع بالعرب والمسلمين عموماً) لأن الأقربين أولى بالمسؤولية كما هم أولى بالمعروف. والمحزن ان نجد (رغم ذلك) انّ مواقف كثير من الشعوب الأخرى (اي غير العربية او غير المسلمة) أفضل من مواقف معظم الشعوب العربية والمسلمة التي هي اولى بالمسؤولية، إذ لا اتردد بالقول ـ مثلاً ـ ان موقف الشعب الإيراني خير من موقف الشعب المصري او ان موقف الشعب البريطاني خير من موقف الشعب الإماراتي (ولديّ الكثير من الأمثلة الأخرى).

الفصل الثالث
الحراك الدولي الذي أثاره الطوفان

نستعرض في هذا الفصل الحراك الدولي المتمثل اساساً في المظاهرات والوقفات الاحتجاجية والفعاليات المشابهة التي حدثت ـ وما زالت تحدث ـ حول العالم (كجزء من تداعيات طوفان الأقصى وملحمته) لإدانة حرب الإبادة ودعم صمود غزة وإيصال صرختها الى العالم ولكسر حلقة الصمت والتعتيم والحجب التي حاولت مراكز القرار السياسي ومؤسسات الإعلام المتواطئ فرضها لتمكين الصهاينة من الاستفراد بغزة وذبحها بصمت وهدوء.

١.٣ الحراك الداعم لفلسطين

لقد كان الحراك الدولي الداعم لفلسطين فريداً ـ في كثير من اوجهه ـ وغير مسبوق. فهو كان حراكاً دولياً بحق وامتياز إذ امتد جغرافياً ليشمل كثيراً من دول العالم وجميع قاراته السبع دون استثناء.[٦٩] وهو كان حراكاً انسانياً ساهمت فيه الإنسانية بمعظم تنوعاتها الدينية والثقافية والعرقية والآيديولوجية ونحوها وهو ما يعكس انسانية القضية الفلسطينية وانسانية مأساة غزة. وهو قد امتد زمانياً اشهراً طويلة (حتى الآن) بزخم واندفاع وحيوية اتسمت بقدر معقول من الاستمرارية والثبات ـ رغم بعض التذبذبات الخاضعة لمجريات الأحداث وتطورات حرب الإبادة ـ وهو ما يصعب حصوله عادةً الا في ظروف استثنائية واحداث استثنائية. كما ان هذا الحراك اتسم بتنوع كبير من حيث اشكال التعبير عن التأييد والرفض.

وقد كان لهذا الحراك الدولي الداعم لفلسطين فوائد جمة للقضية الفلسطينية عموماً ولغزة خصوصاً، ويُتوقع ان تكون لآثاره وتداعياته فوائد كتلك (وربما اكثر وأكبر) في المستقبل المنظور والبعيد. بل كان لهذا الحراك فوائد آنية (ويتوقع ان تكون له فوائد مستقبلية) تتجاوز فلسطين وغزة لتتخذ بعداً دولياً وانسانياً شاملاً

---

[٦٩] هذا يشمل القارة القطبية الجنوبية التي شهدت وقفة احتجاجية رمزية ضد الإبادة (تضمنت كذلك رفع علم فلسطين ودعوة لوقف اطلاق النار).

حيث ساهم هذا الحراك في احياء حركات اليسار وقضايا التحرر والعدالة الاجتماعية وكثير من القضايا الخيرة المشابهة. وما هذا الحراك (بنتائجه وثمراته) الا واحد من بركات طوفان الأقصى الكثيرة إذ ذكّر الإنسانية بإنسانيتها وأعاد اليها شيئاً من القيم والمثل والمبادئ والأفكار التي تليق بها والتي ينبغي ان تعتنقها وتتمسك بها في هذا العالم المتوحش الصاخب الذي يضج ويزخر بكل ما هو ظالم ومنحط ولاأخلاقي.

وعلى كل حال، سنحاول في الأقسام الفرعية التالية ان نسلط الأضواء على بعض الجوانب المهمة لهذا الحراك مما قد ألمحنا اليه آنفاً.

١.١.٣ النطاق الجغرافي

فأوّل ما يلاحظ ان الحراك الداعم لفلسطين كان عموماً في الغرب وبعض الدول العربية والإسلامية وبعض دول أمريكا اللاتينية مع غياب تام او شبه تام في تجمعات سكانية كبرى كالهند والصين (اللتين تشكلان اكبر تجمعين بشريين وتمثلان اكثر من ثلث البشرية في الوقت الحاضر).[٧٠] والخلاصة اننا لو استثنينا بعض الدول العربية وبعض الدول الإسلامية المتاخمة لها (كايران وتركيا) وبعض الدول الإسلامية في جنوب شرق آسيا (ممثلة بماليزيا واندونيسيا) فان الحراك في آسيا كان ضئيلاً.[٧١] وكذا الحال في افريقيا التي كاد الحراك فيها يقتصر على بعض الدول العربية وبعض الدول المتاخمة لها والتي هي اما مسلمة او تضم تجمعات اسلامية كبيرة (غير ناسين طبعاً جنوب افريقيا وإسهاماتها القيمة). وربما كان الوضع في امريكا اللاتينية احسن عموماً (خاصةً بلحاظ البعد الجغرافي والتباين الثقافي) رغم ان الحراك فيها تركز غالباً في الدول ذات الأنظمة اليسارية او التي تحتوي جاليات مسلمة مهمة او حركات يسارية فاعلة. وهذا يعني باختصار ان اهم المراكز الجغرافية للحراك الدولي الداعم لفلسطين والمناهض لحرب الإبادة (اذا استثنينا بعض الدول العربية والإسلامية) كانت اساساً في دول المنظومة الغربية (ممثلةً اساساً بدول غرب اوروبا وامتداداتها في امريكا

[٧٠] لابد ان نستثني حراكاً جماهيرياً محدوداً في الهند قامت به الأقلية المسلمة واليسار وقد تعرض عموماً للقمع من الحكومة الهندوسية الفاشية التي لا تخفي (مع قواعدها الشعبية التي تشكل غالبية الشعب الهندي) عداءها للإسلام والمسلمين ولا مساندتها لإسرائيل والوقوف معها في حرب الإبادة. ويبدو ان الحراك كان اكبر في الجزء المحتل (هندياً) من كشمير. ونعتقد ان الحراك الهندي المسلم كان سيكون اكبر بكثير لولا القمع الذي تعرض له من قبل نظام الحكم الهندوسي الفاشي ومن معه.

[٧١] ينبغي ان نسجل هنا حراكاً ضعيفاً في اليابان وكوريا الجنوبية قامت به في الغالب جاليات مسلمة وافراد يتعاطفون معها قد يكون غالبهم من المتحولين الى الإسلام (وربما بعض المنظمات المهتمة بحقوق الإنسان)، وكذلك بعض النشاطات والفعاليات المحدودة في دول آسيوية متفرقة قام بأغلبها مسلمون وعرب من جاليات مغتربة.

الشمالية واوقيانوسيا).[٧٢]

وهذا التوزع الجغرافي يعود بالأساس الى طبيعة الحياة السياسية والأنماط الثقافية السائدة في الدول والبقع الجغرافية المعنية. فبعض الدول ـ كالصين مثلاً ـ ليس للشعب فيها حياة سياسية مستقلة عن الدولة واجهزتها، كما ان البعد الجغرافي والتباين الثقافي يجعل من الصعب حدوث اهتمام بـ ـ فضلاً عن تعاطف مع ـ قضية فلسطين او محنة غزة. كما ان بعض هذه الشعوب ـ كالهند مثلاً ـ تحوي تجمعات سكانية ضخمة معادية للإسلام والمسلمين وفيها حركات شعبية وشعبوية قوية تحارب الإسلام والمسلمين في بلادها فكيف ينتظر منها التعاطف مع فلسطين وغزة او القيام بحراك نصرة لهما.[٧٣] كما ان عوامل اخرى ـ كالتباين الثقافي والديني والبعد الجغرافي والاهتمام بهموم المعيشة وغياب الوعي والتقاليد السياسية المناسبة ـ تستطيع تفسير توزُّع وتنمُّط الحراك في دول وتكتلات جغرافية وثقافية وسكانية اخرى (كقارتي افريقيا وامريكا اللاتينية).

وهنا يجب ان نتوقف لنسجل فيما يلي بعض الملاحظات والنقاط المهمة:

١. نعيد التذكير بالحقيقة التي اشرنا اليها آنفاً من ان الحراك الدولي (خارج العالم العربي والإسلامي) قد تركز اساساً وغالباً في دول الغرب (ملاحظين كذلك ان هذا الحراك 'الغربي' يمثل اهم وأشد اشكال الحراك الداعم لفلسطين واكثرها تأثيراً في النطاق الدولي وعلى كل المستويات إعلامياً وسياسياً وطلابياً وما شاكل ذلك). وهذه حقيقة قد تُفسَّر (جزئياً) بان هذا الحراك هو اساساً حراك احتجاجي ضد دول الغرب التي

---

[٧٢] يلاحظ هنا الغياب التام او شبه التام للحراك الفلسطيني في دول شرق اوروبا (اذا استثنينا بعض الدول والتجمعات السكانية المسلمة وبعض النشاطات للجاليات المهاجرة) وذلك لسيطرة نظم وتيارات فاشية قوية فيها مؤيدة لإسرائيل (ومعادية للإسلام والمسلمين) تعكس المزاج الشعبي فيها عموماً. كما ان قرب عهد هذه الدول وشعوبها بالنمط الثقافي والاجتماعي والسياسي السوفييتي تجعل من الصعب تصور حراك مناصر لفلسطين وغزة. وهذا ايضاً ينطبق على روسيا (وكذلك الدول التي تدور في فلكها او التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي) لأن شعبها لا يتميز بالحيوية والثقافة والتقاليد التي تدفعه الى التظاهر دعماً لقضية 'ليس له فيها ناقة ولا جمل' مع ان نظامه السياسي قد اخذ على عاتقه 'دعم' هذه القضية 'وأبرأ' ذمته منها.

[٧٣] الواقع ان كثيراً من القوميين الهندوس لا يقلون حماساً في دعمهم لإسرائيل عن حماس اخوتهم المسيحيين الإنجيليين واشباههم من المسيحيين الصهاينة. ولا غرابة في ذلك فدواعش الهندوسية لا يختلفون الا في الشكل عن دواعش المسيحية إذ مضمون الحقد والنذالة والإجرام واحد لدى الجميع. ولقد اصبحت مسيرات الدعم والتأييد لإسرائيل حدثا معتاداً ومنتظما في الهند بفضل هذا الدعم الهندوسي، بينما ظل الحراك الفلسطيني (الذي في غالبيته حراك مسلم) محدوداً بفضل القمع الرسمي والشعبي له. كما تطوعت اعداد هائلة من الهندوس في الحملة المناصرة لإسرائيل على شبكة الانترنت باختلاق الأخبار الكاذبة وصناعة المحتوى المضلل ضد الفلسطينيين ومقاومتهم ونصرةً للإسرائيليين وجرائمهم. كما ان كثيراً من الهندوس اعربوا عن رغبتهم في التطوع للقتال مع اسرائيل ضدّ 'الإرهاب الإسلامي' الذي اعتبروه خطراً يهددهم جميعاً وان اسرائيل انما تقاتل نيابة عنهم جميعاً، وهذا ما جعل السفير الصهيوني في الهند يتبجح بقدرته على تشكيل جيش من المتطوعين الهنود يحارب الى جانب اسرائيل. وعلى كل حال، هذا ليس مستغرباً ما دامت ملة الكفر واحدة وهو ما يدعو الى ان تكون ملة الإسلام كذلك.

هي الداعم الأكبر لحرب الإبادة في غزة ومن هنا فان مكانه الطبيعي هو دول الغرب هذه. ولكن ينبغي ان لا ننسى ان هذا يدل كذلك ـ رغم صحة التبرير السابق ـ على مركزية الغرب الاستعماري حتى في هذا الشأن التحرري، وهو ما يشير الى ان الغرب يبقى في المدى المنظور مركزاً للعالم ومحوراً وموجهاً له حتى في شؤون كهذه وهي حقيقة لا ينبغي اغفالها او التقليل من شأنها رغم رغبتنا في التخلص من نفوذ الغرب الحضاري وتأثيره الثقافي. وباختصار انه لم تظهر حتى الآن اي كتلة بشرية او سياسية او ثقافية توفر البديل[٧٤] للعالم الغربي ونموذجه الثقافي والحضاري لا في مجالات العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد (وما شابهها من مجالات 'مادية' مما لا نزاع في تفوق الغرب فيه) ولا حتى في مجالات الثقافة والفكر والأنماط السلوكية (وما شابهها من مجالات 'معنوية') مما هو قادر على توفير البديل للغرب ونموذجه الثقافي والحضاري المهيمن على العالم. وهذا يعني ان مقولة أفول الغرب ـ رغم صحتها عموماً ـ لا تخلو من مبالغة (على الأقل في المدى المنظور ان سارت الأمور على وتيرتها المعهودة ولم تحدث مفاجآت كبرى مشابهة لانهيار الكتلة الشرقية وتفكك الاتحاد السوفييتي).

٢. وأما عن نوع المشاركين في الحراك الغربي فقد كان هناك تنوع لافت ـ من حيث العرق والدين واللون والانتماء الآيديولوجي ونحو ذلك ـ وهو ما يشير الى البعد الإنساني للقضية الفلسطينية ومأساة غزة. ولكن ينبغي ان نلاحظ كذلك ان الغالبية العظمى من المشاركين تنتمي الى جماعات مهاجرة (او من اصول مهاجرة خاصة من الدول الإسلامية) ونشطاء اليسار (ومن يتأثر بهم وبالفكر اليساري التحرري عموماً). ويلاحظ ظهور لافت للعنصر اليهودي في حركات الاحتجاج والفعاليات هذه وهو امر ينبغي ان يكون موضع ترحيب وتشجيع.[٧٥]

---

[٧٤] ما يقال من ان الصين تمثل البديل لا يخلو من مبالغة لأنها ربما يجوز ان تُعدّ بديلاً ناقصاً وفي بعض المجالات كالاقتصاد، ولكنها لا يجوز ان تُعدّ بديلاً شاملاً وكاملاً. فضلاً عن ذلك ان النموذج الصيني في كثير من تفاصيله لا يعدو ان يكون استنساخاً ومحاكاةً للنموذج الغربي وتقليداً له وسيراً في ركابه او بموازاته وهو بذا ليس بذلك الاستقلال والتميز والأصالة التي تؤهله ان يكون بديلاً. وفي رأيي ان اقصى ما تمثله الصين بنموذجها الراهن هو نقل مركز الثقل او القوة (او بعض مراكز الثقل والقوة او نواحٍ منها) للنموذج الحضاري الغربي من بقعة جغرافية (هي الدول الغربية) الى بقعة جغرافية اخرى (هي الصين). وباختصار، ان الصين بوضعها الراهن وتوجهاتها الحالية قد تكون منافساً للغرب في المجال الاقتصادي والتكنولوجي والعسكري (وما شابهها من وسائل القوة الناعمة والخشنة وتمظهراتها) ولكنها ليست بديلاً (ولا منافساً) حضارياً او ثقافياً للغرب.

[٧٥] من خلال تجربتي الشخصية في المشاركة بمظاهرات وفعاليات كهذه كانت تحدث في لندن خلال ما يقارب العشرين عاماً الماضية، فان مشاركة اليهود لم تكن بمثل هذا الشكل والاتساع الذي شهدتُه في مظاهرات طوفان الأقصى وما شابهها من فعاليات داعمة لفلسطين. وهذا يدل على مدى رغبة اوساط وشرائح وتيارات مهمة من اليهود (رغم انها ما زالت اقلية قليلة) بالنأي

٣. اما عن الحراك الشعبي في الدول العربية والإسلامية فقد ظهر بأروع اشكاله وأضخمها في اليمن (وهو إضافة مهمة اخرى لسجل اليمن المشرق ومشاركاته القيمة؛ راجع § ١٧.٣.٢) الذي حرص على تنظيم مظاهرات مليونية وشبه مليونية في صنعاء ومحافظات اخرى اسبوعياً منذ انطلاق ملحمة طوفان الأقصى، ولم يؤثر في حجم هذه المظاهرات وروعتها عوامل المناخ ـ من حر وبرد وما شابهها ـ ولا تذبذب مؤشرات الأحداث ومجريات المعركة والحالة السياسية داخل اليمن وخارجه والمناسبات الدينية (كشهر رمضان). وربما يأتي في المقام الثاني ـ من حيث حجم الحراك وروعته ـ الأردن الذي دأبت فيه القوى الإسلامية والعروبية واليسارية على تنظيم مظاهرات ووقفات احتجاجية امام السفارتين الصهيونية والأمريكية (وربما مواقع اخرى) وهو ما ينبغي ان يسجل للشعب الأردني وحركاته وناشطيه (رغم ما سجلناه ضده سابقاً؛ راجع § ١٠.٣.٢). كما حدث حراك مهم ـ وإن لم يكن مستداماً بزخمه واندفاعته وكان في معظمه متركزاً في الأسابيع الأولى التي تلت عملية طوفان الأقصى ـ في كل من لبنان والعراق وتونس والمغرب. كما ان الحراك في مصر والجزائر اقتصر على الأيام الأولى بعد عملية طوفان الأقصى (ويبدو ان هذه الفعاليات اليتيمة رُتب وأُعد لها من قبل الأجهزة الأمنية او بالتعاون معها بغرض السيطرة على هذه النشاطات نوعاً واتساعاً وبهدف رفع العتب او امتصاص الغضب الشعبي او التنفيس عن الاحتقان وما شابه ذلك). اما بقية الدول العربية عموماً فإما كان الحراك فيها ضئيلاً او تافهاً لا يذكر وإما انعدم وغاب تماماً (راجع ايضاً § ١٤.٣.٢). وأما الحراك في الدول الإسلامية فقد تصدرت ايران وتركيا في هذا المجال، بينما كان لباكستان وافغانستان حضور متواضع ومساهمة محدودة. كما حدث كذلك حراك لا بأس به في ماليزيا واندونيسيا وكان بعضه بتشجيع من السلطات الحكومية او برعاية مسؤولين رسميين في الدولة او الأحزاب الحاكمة (من ذوي الاتجاهات الإسلامية).

٤. نلاحظ الغياب التام او شبه التام لهذا الحراك في بعض الدول العربية والإسلامية وكأن شعوب هذه الدول تعيش في مجرة اخرى وهو ما يدعو للشفقة والرثاء على هذه الشعوب (قبل فلسطين وغزة). صحيح ان الأنظمة الحاكمة في معظم هذه الدول لاتسمح باي حراك من هذا القبيل وتعتبره تهديداً لها ولأمن حكامها (كما هو مصدر ازعاج لأسيادها وهو ما لاتريده)، ولكن من الصحيح ايضاً انه كان بإمكان هذه الشعوب (او بعضها على الأقل) ان يساهم في الحراك بأشكال أخرى (غير المظاهرات مثلاً) مما تقصر يد الأنظمة

بنفسها وبالديانة اليهودية عن اسرائيل والتبرؤ من جرائمها. والواقع ان هذا الحراك اليهودي المناهض لإسرائيل لو تطور واتسع فانه سيشكل تهديداً وجودياً آخر للكيان الصهيوني الذي يشكل الدعم اليهودي له عبر العالم واحداً من اهم ركائز وجوده وبقائه.

عن الوصول اليه كالمشاركة في حركات المقاطعة او المساهمة في الجهد الداعم لغزة وفلسطين على منصات التواصل الاجتماعي او التبرع ببعض المال او ما شاكل ذلك من انواع الدعم والإسناد المتاحة. ولكن الكثير من هذه الشعوب (او من افراد هذه الشعوب) آثر ان لا يفعل شيئاً مكتفياً (في احسن حالاته واعظم مساهماته) بذرف دموع التماسيح على غزة واهلها البؤساء. وينبغي ان يكون واضحاً انه حين تصل الفاجعة الى هذا المستوى الكارثي الذي بلغته مذبحة غزة فانه لا يبقى امام الشعوب الا ان تفعل شيئاً مهما كانت النتائج والأثمان المدفوعة فليست هذه الشعوب اشرف من شعب غزة كما انهم لن يصيبهم ـ بحراكهم ـ اكثر مما اصاب شعب غزة. ثم ان هذه الأنظمة لو شعرت ان شعوبها تغلي غيظاً ـ حقاً ـ وتتحفز لنصرة غزة لاضطرت الى السماح ببعض اشكال الحراك التي تنفس عن هذا الضغط والاحتقان وتقلل خطر الثورة والانفجار، ولكن هذه الانظمة تعلم جيداً ان شعوبها لا تقل نفاقاً عنها ـ لأنها بها قامت ومنها انبثقت ـ وهي ستكتفي بذرف دموع التماسيح كما اعتادت هي ـ اي الأنظمة ـ ان تفعل ذلك في مؤتمرات القمة وما شابهها من مسرحيات الزيف والنفاق. والخلاصة ان هذه الشعوب اثبتت انها لا تقل تقصيراً وتخاذلاً عن حكامها بل تزيد، وان الواقع ان انظمة حكمها انما هي العرض لا المرض فالمرض هي هذه الشعوب لاغير.

٢.١.٣ أشكال الحراك

لقد اتخذ الحراك الدولي الداعم لفلسطين والمُواكِب لملحمة طوفان الأقصى (تنديداً بالمجزرة ودعماً لمقاومة غزة وصمودها وتأييداً لحقوق الشعب الفلسطيني وعلى رأسها حقه في اقامة دولته على كامل فلسطين التاريخية) اشكالاً كثيرة وان كان الغالب عليها المظاهرات والوقفات الاحتجاجية. وقد كانت الكثافة العظمى لعقد هذه الفعاليات والنشاطات وتنظيمها هي في الأشهر الأولى من ملحمة طوفان الأقصى إذ انخفض تواترها عموماً فيما بعد بفضل 'تطبيع' الإبادة في الوعي الجمعي وما صاحب ذلك من انخفاض الاهتمام بهذه القضية او التكيف معها (او حتى تعب البعض او مللهم من المشاركة فيها) وإن كان حصول هذه الفعاليات وحجم المشاركة فيها خاضعين عموماً لتذبذبات تحكمها غالباً تذبذبات الأحداث التي تقع في غزة وهول المجازر التي ترتكب فيها. كما ينبغي ان نلاحظ ان انواعاً جديدة من الفعاليات والنشاطات (كمعسكرات طلاب الجامعات) قد ابتُكرت وأُدخلت الى الخدمة في مراحل لاحقة (اي بعد الأشهر الأولى) يمتاز بعضها باستدامة اكبر تضمن استمرار الزخم والاندفاعة وإن بقوة اقل وصوت أهدأ.

ونلخص فيما يلي اهم اشكال هذا الحراك الذي كان بحق شديد التنوّع وهو ما يدل على ديناميكية هذا

الحراك وعمقه واتساعه كما يدل على ألمعية من يقف خلفه من النشطاء والحركيين:[٧٦]

١. المظاهرات والمسيرات والوقفات الاحتجاجية. وقد تفاوتت هذه الفعاليات في حجمها بين بضع عشرات من الأفراد ومئات الألوف. كما تفاوتت هذه الفعاليات في اشكال التعبير وان تقاربت مضامينها وشعاراتها ومطالبها. ورغم ان معظم هذه الفعاليات قد مرت بهدوء وسلام ولقيت تعاطفاً معقولاً من وسطها الاجتماعي فان بعض هذه الفعاليات قد جوبه بالقمع والعنف واساليب الترهيب من اجهزة الشرطة والأمن، كما جابه بعضها افعالاً وتعبيرات عدائية (وصلت الى حد استخدام العنف احياناً) من جماعات فاشية يمينية وصهيونية ـ كان بعضها منظماً ومدعوماً ـ بهدف إخافة المشاركين وترهيبهم وصدهم عن المشاركة في فعاليات مقبلة. كما جابهت هذه الفعاليات كثيراً من حملات التضليل والتشويه الإعلامي والكذب المنظم واساليب الحرب النفسية (وهو ما حدث بشكل خاص في دول الغرب ومن قبل اجهزة اعلامها 'الحرة والنزيهة'). بل ان بعض الدول 'الديمقراطية' كفرنسا والمانيا منعت هذه المظاهرات والفعاليات او حاولت منعها في بعض المراحل. كما حاول سياسيون ورسميون يمينيون وصهاينة فعل نفس الشيء في دول اخرى (كبريطانيا). ولكن رغم كل الجهد الفاشي الصهيوني ضدها ورغم كل حملات التشويه والإرهاب والتخويف ورغم كل الضخ الإعلامي المعادي لها فقد نجحت هذه المظاهرات والفعاليات نجاحاً باهراً في ادائها وإخراجها، كما نجحت كذلك في التأثير ايجاباً على العقل الجمعي وتحشيد الرأي العام وتجييشه لصالح غزة وفلسطين ولفت الانتباه الى محنة غزة والقضية الفلسطينية. كما شكلت هذه المظاهرات والفعاليات مكاناً حاضناً (او منتدىً) لفعاليات ونشاطات مفيدة اخرى كجمع التبرعات (للفلسطينيين وللنشاطات المؤيدة لهم) والتوعية ببعض القضايا وتجنيد المتطوعين والنشطاء لخدمة القضية الفلسطينية وما شابه ذلك. والواقع ان بعض الحملات المعادية للحراك الفلسطيني ربما كان لها دور ايجابي في جلب التعاطف والتجييش لصالح هذه المظاهرات والفعاليات (كما لصالح غزة وفلسطين).
٢. المؤتمرات والندوات المتمحورة حول ملحمة طوفان الأقصى بهدف دعمها والتوعية بمذبحة غزة والتحريض على مرتكبيها وداعميها او بهدف تسليط الضوء على بعض الجوانب والشؤون المتصلة بهذه القضايا او بالقضية الفلسطينية عموماً. وقد اتخذت هذه الفعاليات اشكالاً مختلفة وتفاوتت في حجمها واهميتها ونوع المنظمين لها والمشاركين فيها، ولكنها كانت في الغالب من تنظيم ومشاركة المجتمعات والكيانات المسلمة

[٧٦] ينبغي ان نلاحظ ان التركيز فيما يلي ينصبّ غالباً على الحراكات خارج الدول العربية والإسلامية بسبب الظروف والمناخات 'الاستثنائية' لهذه الحراكات ولأهميتها الخاصة من حيث المضمون والدلالة.

المحلية والجماعات اليسارية التحررية والجماعات المناهضة للحروب والتسلح والمنظمات الخيرية والحقوقية والمنظمات المعنية بحقوق الإنسان والبيئة وما شابهها. كما ان بعضها كان ذا طابع مهني (من قبيل افراد ومجموعات تعمل في الحقل الطبي ومجال الصحة العامة او في بعض المجالات الأكاديمية والبحثية).

٣. الفعاليات والمعسكرات الطلابية لجلب الانتباه الى القضية الفلسطينية (ومذبحة الإبادة بالخصوص) وتسليط الضغط على المؤسسات الأكاديمية والبحثية المنخرطة في نشاطات مرتبطة بالكيان الصهيوني او داعمة له (خاصة ما يرتبط منها بتطوير وتصنيع الأسلحة والخدمات العسكرية والأمنية التي يستفيد منها الكيان في اجرامه) لتسحب استثماراتها من الكيان وتفك ارتباطاتها معه. وقد فُضّت بعض هذه الحركات والمعسكرات الطلابية بالعنف بعد استصدار مذكرات قضائية ضدها او بعد طلب مدراء هذه المؤسسات الأكاديمية من الشرطة تفريقها، بينما نجح بعضها في فرض مطالبه (ولو جزئياً) على المؤسسات المعنية والوصول الى تسويات معها. وكما اشرنا فقد تعرضت بعض هذه المعسكرات لعنف غير مبرر من الشرطة واجهزة الأمن، بل ان بعضها تعرض لاعتداءات من عصابات صهيونية وفاشية يمينية تحت غطاء (او على الأقل بتغاضٍ) من السلطات الرسمية. كما تعرضت هذه الفعاليات الطلابية لحملات التشويه والكذب المعهودة من قبل اجهزة الإعلام (الصهيوني والمتصهين) وبعض المسؤولين (من سياسيين ومسؤولين في المؤسسات الأكاديمية المعنية) وبعض الشخصيات العامة النافذة. وقد وصلت التحركات الطلابية في عهد ذروتها الى ان تتصدر عناوين الأخبار ومانشيتات الصحف، وقد ساهمت مساهمة ايجابية مهمة في لفت الانتباه الى محنة غزة وجرائم اسرائيل وتوعية الرأي العام وجلب التعاطف مع الغزيين والفلسطينيين عموماً، هذا بالإضافة طبعاً الى ما حققته هذه التحركات من نجاحات جزئية في تقليص النشاط الأكاديمي والبحثي والاستثماري المتعاون مع الكيان بما يعنيه ذلك من تشديد حركة المقاطعة وحرمان الكيان من معارف وخبرات واستثمارات مهمة (وما شابه ذلك). وما زال كثير من هذه النشاطات والمعسكرات الطلابية قائماً حتى كتابة هذه السطور ويؤمل منها ان تواصل مسيرتها في المدى المنظور وان تحقق المزيد من الإنجازات والنجاحات في المستقبل.

٤. اعمال العصيان المدني كقطع الطرق واعاقة حركة السير وتلطيخ جدران المباني الحكومية بالصبغ الأحمر واحتلال مؤسسات ومراكز عامة او مؤيدة للكيان الصهيوني وما شاكل ذلك (من قبيل تثبيت الملصقات المؤيدة لفلسطين والمعادية للكيان على الجدران وفي الأماكن العامة ورسم الجداريات المشابهة لذلك).

٥. الترويج لحملات المقاطعة ضد الشركات والمؤسسات المؤيدة للكيان الصهيوني (خاصة تلك التي اظهرت

تعاطفها معه في ’محنته‘ او ايدت الإبادة) او المساهِمة بدور مالي او اقتصادي او تجاري او ثقافي (او ما شابه ذلك) في دعم الكيان. وقد تصدرت شركات وبنوك كبرى قائمة الاستهداف بحركات المقاطعة (كما حدث لشركة كوكا كولا وبنك باركليز مثلاً) بسبب دعمها الاستثنائي لكيان الاحتلال وجرائمه. وقد اثمرت هذه الجهود في بعض الحالات (رغم ان مردودها بشكل عام كان محدوداً وغير مرضٍ) ولكن ربما يمكن التعويل على مردودها في المستقبل البعيد (او يُرجى ذلك).

٦. تنظيم حملات وفعاليات على منصات التواصل الاجتماعي. وقد ساهم فلسطينيون وعرب وغير عرب في هذا الجهد الدولي المساند لفلسطين والرافض للإبادة. والواقع ان شبكة الانترنت (ومنصات التواصل الاجتماعي بنحو خاص) قد تحولت الى ميدان حرب بين الفريق المؤيد لفلسطين والفريق المؤيد للكيان الصهيوني، وقد انخرط في هذا الجهد مؤثرون وصناع محتوىً كبار من الفريقين. بل ان هناك دلائل قوية على ان بعض اجهزة الاستخبارات الصهيونية (واجهزة مؤيدة لها تشمل بعض اجهزة الأنظمة العربية العميلة) قد اشترك في النشاط الداعم للصهاينة وتسويق مذبحة الإبادة. وقد كانت الغلبة في معظم الأحيان للمعسكر المناصر لفلسطين رغم الإمكانات المادية والبشرية الهائلة التي رُصدت لدعم الصهاينة ورغم التحيز الواضح الذي اظهرته شركات التكنولوجيا الكبرى ومعظم منصات التواصل الاجتماعي لصالح المعسكر الصهيوني وضد المعسكر الفلسطيني.

٧. تنظيم حملات بريد الكتروني تستهدف برلمانيين (فعليين او مرشحين) او سياسيين او شركات او مؤسسات ثقافية (او ... إلخ) بهدف توعيتها بالقضية الفلسطينية وحرب الإبادة واستجلاب تأييدها ونصرتها لفلسطين او تحذيرها من عواقب مشاركتها الفعلية او المحتملة في اي دعم للكيان الصهيوني او تأييد له.

٨. تنظيم زيارات لبرلمانات او برلمانيين او شخصيات عامة مؤثرة بهدف الضغط عليهم والتأثير في رأيهم لدعم فلسطين ورفض حرب الإبادة او لإظهار الدعم لهم والتضامن معهم في مواقفهم المساندة لفلسطين والرافضة لحرب الإبادة. وقد نظمت ايضاً في بعض الحالات وقفات (احتجاجية او مسانِدة) امام بيوت او مقرات بعض المسؤولين او السياسيين او الدبلوماسيين او الشخصيات العامة لنفس الأغراض او لأغراض مشابهة.

٩. تنظيم وقفات احتجاجية او مسانِدة امام سفارات بعض الدول شجباً لمواقفها المؤيدة لإسرائيل والمعادية للحراك الفلسطيني او تأييداً ودعماً لمواقفها المؤيدة لفلسطين والرافضة لحرب الإبادة. كما نظمت احياناً وقفات احتجاجية امام مراكز شرطة ونحوها تنديداً بتحيّزها ضد الحراك الفلسطيني او باستخدامها العنف

المفرط او الاعتقال التعسفي (او ما شابه ذلك) ضد نشطاء الحراك الفلسطيني او المتظاهرين السلميين (او ما شابه ذلك).

١٠. تنظيم حملات لجمع التواقيع (يدوياً او الكترونياً) بهدف الضغط والتأثير في مواقف الحكومات والمؤسسات والشركات ونحوها.

١١. تنظيم حملات لجمع التبرعات في الأماكن العامة (كالمساجد والمظاهرات والوقفات والمؤتمرات والندوات) او على الانترنت لدعم نضال الشعب الفلسطيني ومساندته في صموده امام الاحتلال وتصديه له او لتوفير التمويل للنشاطات المحلية المساندة للقضية الفلسطينية.

١٢. تنظيم موائد او حفلات او نشاطات فنية وثقافية (وما شابه ذلك من عروض سينمائية ومسرحيات وحفلات موسيقية ومعارض رسم مثلاً) إما لجمع التبرعات (مباشرةً او بما يُجمَع من ريعها) وإما لحشد الدعم والتأييد للقضية الفلسطينية ونضال الشعب الفلسطيني وإما للتوعية بقضايا متصلة بالقضية الفلسطينية (كالتوعية باحداث النكبة والتطهير العرقي والتنكيل الممنهج الذي يتعرض له الفلسطينيون في مدنهم وقراهم وفي السجون والمعتقلات الصهيونية).

١٣. تنظيم اسواق ومعارض للترويج للمنتجات الفلسطينية (كالتمر والفولكلور والأزياء الفلسطينية) نشراً للثقافة الفلسطينية وتثبيتاً للهوية الفلسطينية (والفولكلور والحرف المعبرة عنها) ودعماً مالياً للمزارعين والعمال والحرفيين الفلسطينيين.

١٤. انتاج أغانٍ واناشيد ومقطوعات موسيقية (وما شابهها من منتجات سمعية) دعماً لفلسطين ورفضاً لحرب الإبادة. كما تشمل هذه الفعاليات انتاج وثائقيات وافلام ومنتجات بصرية لأغراض مشابهة.

١٥. حمل شعارات ورموز وشارات او ارتداء ازياء (كالكوفية) لإظهار التضامن مع الفلسطينيين وجلب الانتباه الى حرب الإبادة ونشر الوعي بالقضية الفلسطينية.

١٦. توزيع منشورات او وضع ملصقات او جداريات لدعم فلسطين وإدانة اسرائيل والتوعية بحرب الإبادة (وما شابه ذلك).

١٧. اصدار كتب ونشر مقالات بهدف التوعية والتعريف والتحشيد وما شابه ذلك.

٣.١.٣ فوائد وآثار الحراك

لقد كان للحراك الدولي الداعم لفلسطين فوائد جمة للقضية الفلسطينية وهو ما ينبغي ان يعدّ من فوائد

وإنجازات طوفان الأقصى. بل ان فوائد طوفان الأقصى التي تحققت عبر هذا الحراك قد امتدت لتشمل قضايا انسانية اوسع واكبر من القضية الفلسطينية كقضايا التحرر من الاستعمار والعدالة الاجتماعية والحقوق المدنية وما شابه ذلك. والحقيقة ان ملحمة طوفان الأقصى ـ بما اثارته من حراك دولي ـ اصبحت منصة ورافعة لكثير من القضايا الخيرة والشريفة وهو ما يضاعف مردود طوفان الأقصى وغلته بما يبرر الخسائر والتضحيات التي تقدمها غزة وجبهات الإسناد رغم فداحة هذه الخسائر والتضحيات وجسامتها. ونلخص فيما يلي من نقاط بعضاً من الفوائد والإيجابيات التي انتجها الحراك الذي اثاره طوفان الأقصى:

١. جلب الانتباه الى القضية الفلسطينية بل احياؤها (او الأحرى 'المساهمة في احيائها' لأن فضل الإحياء الأول يعود الى عملية طوفان الأقصى وملحمته) بعد ان كانت على سرير الموت او تكاد (او هكذا بدا) بفضل الجهد الأمريكي ـ المدعوم عربياً والمخطط له صهيونياً ـ لتصفية هذه القضية وإهالة التراب عليها لتتحول الى مسألة نزاعات وتسويات محلية على بعض البقع الجغرافية الصغيرة المقطعة الأوصال من فلسطين التاريخية التي يصار الى معالجتها امنياً او مدنياً ـ لا سياسياً ـ ضمن حدود الدولة الصهيونية الواحدة الموحدة من البحر الى النهر. وقد ظهرت النذالة الأمريكية بأجلى صورها فيما يسمى بـ 'صفقة القرن' التي اراد بها الأمريكيون قتل كل التطلعات المشروعة للشعب الفلسطيني الى دولة مستقلة (بل دويلة شبه مستقلة على جزء بسيط من اراضيه المسلوبة). والواقع ان 'صفقة القرن' ليست شيئاً جديداً بل هي مخطط صهيوني امريكي قديم تم دبلجته واخراجه على مراحل ليظهر بصورته الفاقعة و 'الأخيرة' في 'صفقة القرن'، والا فان رغبة اسرائيل وعزمها على الاحتفاظ بكل فلسطين التاريخية كان معروفاً ومصرحاً به لا من قبل غلاة المستوطنين ورموز التطرف الصهيوني فحسب بل من قبل اوساط ودوائر وشخصيات رسمية واكاديمية واعلامية (و ... إلخ) 'محترمة ومعتدلة' وتمثل توجهات التيار الرئيسي ('الوسطي' او 'المعتدل') المسيطر على 'الدولة' الصهيونية والراسم لتوجهاتها وسياساتها. وقد ظل العرب والفلسطينيون 'المعتدلون' يتعامون عن هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس ويلهثون خلف ما يسمى بحل الدولتين او المبادرة العربية للسلام وما شابه ذلك من اكاذيب يعلم معظمهم ـ ان لم يكن كلهم ـ انها مستحيلة التحقيق لأن اسرائيل ـ وخلفها امريكا ـ لن ترضى بها. وعلى كل حال، لقد اعاد طوفان الأقصى ـ عبر هذا الحراك الدولي الذي سبّبه ـ القضية الفلسطينية الى الواجهة فلم تعد قضية منسية بل صارت قضية الإنسانية الأولى حول العالم، وهذا ما ينبغي ان يدعو للتفاؤل بمستقبل هذه القضية وانها ستنتصر في النهاية بزوال الاحتلال عن كامل ارض فلسطين، لا بفضل جهود ابنائها ومن يساندهم من اخوتهم العرب والمسلمين فحسب بل

كذلك بجهود اصدقائها حول العالم (وفي جنوب افريقيا وكولومبيا ونيكاراغوا ـ مثلاً ـ خير دليل على ذلك).

٢. ارعاب الصهاينة وحماتهم وداعميهم إذ كان الحراك الدولي باشكاله العديدة وتعبيراته المختلفة (خاصة في المظاهرات الحاشدة) جزءاً مهماً من الحرب النفسية ضد الكيان الصهيوني وحواضنه الاجتماعية وداعميه من نخب سياسية واحزاب وتيارات فاشية وصهيونية، فسبَّب لهم من المعاناة والألم ما يستحقونه بسبب مواقفهم اللاأخلاقية وهو جزء من العقاب الذي يستحقونه بسبب اشتراكهم في جريمة الإبادة. وأسهل طريقة لتصور الخوف والألم الذي يشعر به المعسكر الصهيوني إزاء هذا الحراك (وهذه المظاهرات بالخصوص) هو تصور الشعور بالوحشة والخوف الذي سينتاب المعسكر الفلسطيني (خاصة اذا كانت قدرة هذا المعسكر على التحشيد تافهة وبحجم قدرة المعسكر الصهيوني الذي غالباً ما يعجز ـ رغم امكاناته وجهوده الكبيرة ـ ان يجمع في مظاهراته وتجمعاته اكثر من بضع عشرات) لو انهم واجهوا حراكاً صهيونياً فاشياً بشكل مظاهرة قوامها نصف مليون مثلاً (كما حدث في بعض مظاهرات لندن المؤيدة لفلسطين). ولذا هذا النهج في الحراك والتعبير هو احد انجع السبل والوسائل واسهلها لإيلام الصهاينة وداعميهم ومعاقبتهم لا على الآلام التي يلحقونها باهل غزة فحسب بل على الآلام التي يسببونها لأصحاب القلوب الرقيقة والضمائر الإنسانية الذين تتقطع قلوبهم لما يرونه ويشهدونه من مجازر صهيونية بشعة تقشعر لها الأبدان. فبالمشاركة في هذه المظاهرات والفعاليات يكون المعسكر الفلسطيني محقّقاً ومنفّذاً ـ بالفعل والعمل ـ مضمون الآية الكريمة 'إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ'. فالآلام النفسية التي يوقعها المعسكر الصهيوني بنا بارتكاب المجازر ودعمها والدفاع عنها سنرد عليها بآلام نفسية نوقعها بهم بالمشاركة في المظاهرات واشكال الحراك الأخرى التي تغيظهم وترعبهم وتشعرهم بالوحشة والخوف. وخير دليل على مدى الرعب والألم والوحشة التي تسببها هذه المظاهرات والفعاليات للمعسكر الصهيوني هو ردود الأفعال الهستيرية التي يبديها كثير من الصهاينة والفاشيين ـ افراداً وأحزاباً ومجتمعات ووسائل اعلام وما شابهها ـ ازاء هذه المظاهرات والفعاليات والأساليب القذرة التي يتبعونها ضد هذه المظاهرات والفعاليات (من مضايقات فردية وبوليسية وحرب اعلامية ونفسية ونحوها من الأساليب الساقطة المنحرفة) وسعيهم الدؤوب للتضييق عليها والحد منها بل وحظرها في النهاية تماماً (وهو ما ربما سيحدث في بعض الدول 'الديمقراطية' كما حدث ويحدث في عدد من الدول العربية).

٣. التأثير على الأحزاب المحلية والسياسيين المحليين والضغط عليهم لتغيير مواقفهم الداعمة للكيان الصهيوني او المتواطئة معه بالصمت عن مذبحة الإبادة او تزويقها وتبريرها. .فكثير من الأحزاب والسياسيين في

الدول الغربية يقرؤون توجهات الراي العام ويحاولون مواكبتها ومسايرتها لتحقيق مكاسب حزبية وانتخابية. وواضح ان هذا الحراك وارتداداته يسهم في تشكيل الرأي العام (وعكسه كذلك) وبذا يكون مؤثراً على مواقف الأحزاب والسياسيين تجاه اسرائيل والقضية الفلسطينية. وقد كانت فلسطين حاضرة بقوة ـ نسبياً ـ في الانتخابات التشريعية التي جرت مؤخراً في بعض الدول الأوروبية (كبريطانيا وفرنسا) وقد حقق المعسكر الفلسطيني بعض المكاسب بفوز بعض المرشحين الداعمين للقضية الفلسطينية رغم ان المكاسب حتى الآن ضئيلة عموماً والتأثير الفلسطيني محدود.[٧٧] وكذا الحال في الانتخابات الرئاسية الأمريكية القادمة التي تشكل فلسطين (وغزة بالخصوص) احدى قضاياها الانتخابية رغم ان قضية فلسطين لا يتوقع ان تحقق اي مكاسب لأن كلا المرشحين (اي الديمقراطي والجمهوري اياً كانا) داعمان قويان لإسرائيل بل يتنافسان في دعمها حباً بها وكرهاً للعرب والمسلمين وإرضاءاً للناخب اليهودي والإنجيلي والمتصهين الذي له ثقل انتخابي كبير في الولايات المتحدة التي شعبها هو الأكثر صهيونية في العالم والتزاماً بأمن اسرائيل وتفوقها (اذا استثنينا اسرائيل)، بل ان التصهين جزء اصيل من الثقافة الأمريكية ويكاد يصل الى مستوى الالتزام الديني والوجد الصوفي لا في اوساط اليهود والإنجيليين فحسب (وهو كذلك حرفياً بينهم) بل حتى في الأوساط 'الليبرالية' العلمانية 'المتنورة'.[٧٨] ولكن مزيداً من الحشد والتنظيم والإعداد والتمويل في المستقبل ربما ينجح في جعل القضية الفلسطينية قضية انتخابية رئيسية في الدول الغربية (كما هو الحال مع اسرائيل التي هي قضية انتخابية رئيسية في الولايات المتحدة مثلاً رغم ان الفرق كبير والهوة واسعة ولا يتوقع ردمها في المستقبل القريب على الأقل)، ولو حدث هذا فينبغي ان ينسب الفضل في جزء كبير منه لهذا الحراك الدولي الذي اسهم في تثقيف الناس وتعريفهم بالقضية الفلسطينية وايقاظ ضمائرهم النائمة وجلاء قلوبهم الصدئة فساهم بجعل قضية فلسطين قضية انتخابية وسياسية اساسية تهم الأحزاب والسياسيين الذين سيخطبون ود الناخب والمواطن المتعاطف مع فلسطين والمنابذ لإسرائيل.

٤. ايجاد وتنمية مناخ شعبي داعم للقضية الفلسطينية ومتعاطف معها بما يجرّه ذلك من تجنيد للكثير من الناس

---

[٧٧] هذا يعود في جزء منه الى صعود التيارات اليمينية الفاشية كما يعود كذلك الى اهتمام الناخب في المقام الأول بهموم المعيشة والقضايا الداخلية التي تهمه مباشرةً وتؤثر في حياته اليومية. كما ان تغيير هذا النمط الانتخابي يحتاج قدراً من الوقت والجهد ليقلع الناخب عن عاداته الانتخابية بالتصويت التلقائي للأحزاب التقليدية. كما يشكل ضعف الخبرة والموارد والتنسيق لدى المعسكر الفلسطيني عاملاً آخر يؤمل معالجته في المستقبل.

[٧٨] هذا يدل على مدى الضحالة الأخلاقية والثقافية والمعرفية للشعب الأمريكي ومدى سخف المجتمع الإنساني ـ بل الإنسانية بحد ذاتها ـ الذي يتصدره ويحدد خياراته المصيرية في معظم مناحي الحياة شعب بهذه الدرجة من الضحالة والسخف والجهل والتفاهة والتحيز والتعصب. فتباً وسحقاً وبعداً لهذا الكائن البشري الذي 'خير ما فيه' هو هذا الشعب.

للعمل من اجل القضية الفلسطينية والانخراط في دعمها واسنادها كنشطاء ومؤثرين. وهذا يصدق بشكل خاص على فئتي الأطفال والشباب الذين سيكونون في مراكز القيادة والتوجيه في مجتمعاتهم ودولهم في المستقبل القريب (اي الجيل القادم ومن يليه).[٧٩] فلو نجح الحراك في التأثير على جزء مهم منهم (وهو ما يبدو حاصلاً او ممكناً على الأقل) فان طبقة مهمة في مجتمعاتهم ـ من الأجيال القادمة ـ ستناصر القضية الفلسطينية وتؤيدها بل ان بعضهم سينخرط ـ دون شك ـ في نشاطات وفعاليات داعمة للقضية الفلسطينية ومفيدة لها وسيكون لهؤلاء دور مهم في دعم القضية الفلسطينية خاصة من كان منهم في مراكز قيادة وقرار مهمة. والخلاصة ان هذا الحراك ـ لو استدام وأُحسنت إدارته ـ سيسهم في تجنيد فاعلين ومؤثرين وحركيين ونشطاء وجنود كثر في هذا الجيل والأجيال القادمة سيعملون في خدمة القضية الفلسطينية ونصرة الحق الفلسطيني ومحاربة الكيان الصهيوني.

٥. هناك فوائد جانبية كثيرة أخرى للحراك الدولي كتوفير سياقات ومناسبات لجمع التبرعات لصالح الفلسطينيين عموماً وضحايا غزة خصوصاً وبيئات لتبادل الأفكار والمقترحات وتوزيع المنشورات والدوريات وما شابه ذلك من انشطة وفعاليات يمكن اعتبارها جزءاً من الحراك او ناتجاً ثانوياً عنه، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق فلا نعيد.

٦. لقد كان للحراك الدولي ـ كما اشرنا قبلاً ـ فوائد ومردودات ايجابية أخرى تتجاوز غزة وفلسطين والقضية الفلسطينية وهي ذات ابعاد دولية وانسانية واسعة وممتدة ـ مكانياً وزمانياً ـ كإحياء حركات اليسار وقضايا التحرر والعدالة الاجتماعية وجلب الانتباه الى مآسٍ انسانية معاصرة كمأساة الكونغو والسودان. كما كان الحراك عاملاً مساعداً ومناسبة للتذكير بجرائم ابادة تاريخية (كإبادة السكان الأصليين في امريكا واستراليا وجرائم الإبادة الألمانية في افريقيا واوروبا) وما شاكلها من جرائم قتل وتطهير عرقي نفذها في الغالب المستعمرون الغربيون ضد شعوب وجماعات بريئة مسكينة (كما يفعله اليوم الصهاينة بأهل غزة). وباختصار، لقد عمل الحراك ووفّر بيئة مناسبة لشحذ انسانية البشرية وصقلها عبر استحضار كثير من المظالم والمآسي الكبرى التي مرت وتمر بها البشرية والتذكير بها والدعوة الى تحفيز ومراكمة قوى الخير والقيم الإنسانية النبيلة وآيديولوجيات العدالة والتحرر ومقارعة الاستعمار والتسلط والاستغلال ونصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم. وبذا تكون ملحمة طوفان الأقصى ـ عبر الحراك الدولي الذي ولّدته ـ قد اسهمت

---

[٧٩] الواقع اننا نرجو ان يزول هذا الكيان المسخ قبل ان يصل الدور الى الجيل القادم ومن يليه، ولكن يحسن بنا ان نفكر ونعمل بنفس طويل.

اسهاماً مهماً ورائعاً في رفع الإنسانية والتحليق بها الى افاق العدالة والتحرر والقيم الخيّرة والمشاعر الإنسانية والعواطف النبيلة.

٢.٣ الحراك الصهيوني الفاشي

وقد حدث حراك صهيوني فاشي ـ داعمٌ لإسرائيل ومعادٍ لفلسطين ـ كان في الغالب ردّاً على الحراك الداعم لفلسطين وتحدياً له، وقد تركز هذا الحراك في معظمه في بعض الدول الغربية. والواقع انه كان هناك في الأسابيع الأولى التي تلت عملية طوفان الأقصى حراك حقيقي مؤيد لإسرائيل (اتخذ غالباً شكل مظاهرات ووقفات تعاطف) في كثير من الدول الأوروبية والغربية وبعض دول امريكا اللاتينية كان مبعثه التعاطف مع اسرائيل في 'محنتها' في السابع من تشرين الأول وساهم في حدوثه ما بُذل من جهد اعلامي وحملات تضليل وتحشيد صهيوني (مع رعاية رسمية او شبه رسمية في بعض الدول حيث شجعت الحكومات والأحزاب الحاكمة ـ وحتى بعض احزاب المعارضة ـ على هذا الحراك لإظهار الدعم والتعاطف مع اسرائيل وإدانة 'المجزرة الإرهابية' التي ارتُكبت ضدّها في السابع من تشرين الأول). ولكن هذا الحراك انحسر سريعاً وتقلصت اعداد المشاركين فيه خاصةً بعد ان بدأت تظهر بعض الحقائق عما جرى في عملية طوفان الأقصى مما لا يتفق ـ بل يتناقض ـ مع الرواية الصهيونية الكاذبة وبعد ان تبين ان اسرائيل عازمة على إبادة غزة وليس تدمير حماس فحسب كما تدّعي.

وقد اتسم الحراك الصهيوني الفاشي عموماً بضآلة الحجم (إذا استثنينا بعض الفعاليات في الأيام الأولى كما اشرنا لذلك توّاً) إذ لا يشارك فيه عادةً سوى العشرات (وقد يبلغ المئات احياناً كما قد يقتصر على بضعة افراد احياناً أخرى)، كما ان هناك دلائل على ان بعض 'النشطاء' والمشاركين والمنظمين لفعاليات هذا الحراك هم من المأجورين والأشقياء الذين يقومون بهذه الفعاليات مقابل أجر مدفوع وليس تطوعاً وحباً بإسرائيل او 'قربة لوجه الله تعالى'. وقد اتخذ هذا الحراك في الغالب شكل[٨٠] وقفات مؤيدة لإسرائيل ومعادية للحراك الفلسطيني تنظم في اماكن مقابلة او مجاورة لفعاليات 'فلسطينية' جارية او على طريق سيرها (وربما يندمج الفريقان في مجموعة واحدة حين لا يتجاوز عدد الصهاينة والفاشيين بضعة افراد). وتتسم فعاليات الحراك الصهيوني الفاشي بأنها استفزازية ـ وقد تصل الى حد العدوانية ـ وهي غالباً ما تركز على التذكير

[٨٠] الوصف التالي يستند في الغالب الى ما جرى ويجري في فعاليات الحراك في لندن. وربما حدث في بعض الدول الغربية ما يشابه ذلك من بعض الجهات.

بـ 'الرهائن' لدى حماس وبـ 'الفظائع التي ارتكبتها حماس' مع رفع شعارات وترديد هتافات تصف حماس بالإرهاب (وهو وصف يمتد احياناً ليشمل حتى المشاركين في الحراك الفلسطيني او على الأقل وصفهم بدعم الإرهاب). والشكل المفضل لمهاجمة (او بالأحرى تسقيط) المعسكر الفلسطيني المقابل من قبل هؤلاء الصهاينة والفاشيين اليمينيين هو اتهام المعسكر الفلسطيني بدعم الإرهاب ومعاداة 'السامية' حيث يرددون شعارات ويرفعون لافتات تحمل هذا المضمون او تومئ اليه. وعادةً ما تحدث مناوشات كلامية وتبادل للتهم والشتائم بين الفريقين قد تتحول احياناً الى تدافع او اشتباكات.

٣.٣ الحملات والمضايقات ضد الحراك الفلسطيني

وقد حدثت حملات ومضايقات منظمة ضد الحراك الفلسطيني في معظم دول الغرب، ولم يكن يقف وراء هذه الحملات والمضايقات الصهاينةُ واللوبيات الداعمة لهم واليمين الفاشي فحسب بل حتى بعض الحكومات واحزاب المعارضة (او على الأقل شخصيات في هذه الحكومات والأحزاب). وقد اتخذت هذه الحملات والمضايقات اشكالاً كثيرة نذكر منها ما يلي:

١. حظر ارتداء وحمل الرموز المؤيدة لفلسطين (كالكوفية وشارات علم فلسطين) في الدوائر الحكومية والشركات والمدارس والجامعات والملاعب (ونحوها من المؤسسات التي تملك ـ او تدّعي امتلاك ـ حق فرض هذا الحظر وعلى الأفراد الذين لها سلطة عليهم كموظفيها ومستخدميها). وهذا السلوك معاكس تماماً للسلوك تجاه اوكرانيا التي تُرفع اعلامها على كثير من المباني الحكومية في كثير من الدول الغربية ويُشجَّع الجمهور على حمل شاراتها ورموزها (كما يفعل ذلك بعض الرسميين والشخصيات العامة في هذه الدول).[٨١]

٢. التحريض على الحراك الفلسطيني ومحاولة منعه بحجة دعم الإرهاب او ترويج الكراهية او معاداة 'السامية'. وقد حرص كثير من السياسيين واجهزة الإعلام على ترديد هذه الاتهامات وتمنيق الحجج لدعمها وتأييدها واختلاق المبررات الواهية والمعاذير في سبيل ذلك كادعاء ان متظاهراً (من بين مئات الألوف من

[٨١] رغم هذا السلوك المتناقض (والمناقض لكل المبادئ المزعومة للديمقراطيات الغربية) من كبت وقمع للتظاهر الفلسطيني وتشجيع وتحفيز على التظاهر الأوكراني، نجد (على سبيل المثال) التظاهر الفلسطيني شائعاً في لندن بينما التظاهر الأوكراني معدوماً او شبه معدوم. وكما قيل: ما كان لله ينمو ويزيد وما كان لغير لله يفنى ويبيد، او كما تقول الآية الكريمة 'فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ'.

المتظاهرين) ردد هتافاً معادياً لليهود او رفع لافتة تحمل شعاراً يدعو للعنف او يتضمن محتوىً عنصرياً وما شابه ذلك من سخافات وفبركات وتضخيمات وتهويلات.

٣. تشويه صورة الحراك الفلسطيني اعلامياً او التغطية عليه والتقليل من شأنه لحجبه عن القارئ والمستمع والمشاهد وتسخيفه. فمن اشكال التشويه واساليبه الصاق التهم بالحراك الفلسطيني مما اشرنا الى بعض امثلته في النقطة السابقة. وأما التغطية عليه والتقليل من شأنه فتتمثل في تجاهله تماماً في التغطية الإعلامية او اعطائه اهمية هامشية وتافهة (كخبر صغير وجانبي في آخر نشرة إخبارية طويلة مثلاً) لكي لا ينتبه له القارئ والمستمع والمشاهد او لتكوين انطباع لديهم بأن الحراك تافه وغير مهم. كما قد يتضمن ذلك تلاعباً بالأرقام (كتقليل ارقام المشاركين في المظاهرات) او عرضاً مشوّهاً وغير متوازن للأحداث والحقائق بما يخدم الصهاينة وداعميهم من اعداء الحراك الفلسطيني.

٤. الاعتداء اللفظي او البدني على من يُظهر تعاطفاً مع فلسطين (بارتداء كوفية او حمل شارة علم فلسطين مثلاً) او إظهار التذمر او التأفف او الضجر او الاحتقار حين المرور بجانب فعاليات الحراك الفلسطيني او الاحتكاك بها لتهبيط معنويات المشاركين فيها وإشعارهم بالحقارة والصغار. وغالباً ما يحدث في هذه الحالات سباب متبادل (قد يقود الى اشتباك بدني إن لم يكن حصل ذلك بالفعل منذ البدء) قد يستدعي تدخل الشرطة او بعض الحاضرين لفك الاشتباك (اللفظي او البدني) وإنهاء التخاصم.

٥. اصدار (او محاولة اصدار) تشريعات تجرّم بعض النشاطات المؤيدة لفلسطين والمعادية لإسرائيل (كرفع العلم الفلسطيني او التظاهر دعماً لفلسطين او حرق العلم الصهيوني) او ترديد بعض الشعارات (كشعار ستتحرر فلسطين من النهر الى البحر).

٦. مضايقة الناشطين من قبل الشرطة واستهدافهم بإجراءات قمعية من قبيل الاعتقالات التعسفية (او لأسباب تافهة) او حظر المشاركة في النشاطات والفعاليات المؤيدة لفلسطين او حظر السفر الى بعض البلدان وما شابه ذلك.

ويجدر اخيراً ان نذكر ان المانيا كانت الدولة الرائدة والسباقة في مجال الحملات والمضايقات ضد الحراك الفلسطيني حيث ذهبت الحكومة الألمانية وأجهزة 'الغستابو' فيها بعيداً في الإجراءات التعسفية القمعية ضد الحراك الفلسطيني، ولا عجب في ذلك إذ المانيا دولة نازية ـ بحق وامتياز ـ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً كما ان الاختراق الصهيوني لحكومتها واحزابها ومؤسساتها (الرسمية وغير الرسمية) ومجتمعها يصل الى حد السيطرة التامة على القرار الألماني والتوجهات الألمانية. ويعزز كل هذا عداء شديد ضد الإسلام والمسلمين يجتاح

المجتمعات الغربية (وعلى رأسها المانيا التي لها قصب السبق في هذا الميدان بحكم ثقافتها العنصرية النازية).

وكذا الحال مع فرنسا (وبالخصوص اجهزة الأمن والشرطة والجهات الرسمية الفرنسية) التي لم تقلّ (بل زادت احياناً) في فاشيّتها وعنفها ضد الحراك الفلسطيني عن نظيرتها الألمانية وهو امر مفهوم في دولة تسيطر عليها المافيات الصهيونية (في السياسة والإعلام والاقتصاد و ... إلخ) وتجتاحها هستيريا التطرف اليميني والجنون الفاشي والعداء المفرط للإسلام والمسلمين. ولقد اظهرت الانتخابات (الأوروبية والتشريعية) الأخيرة في فرنسا حقيقة ان فرنسا تتجه باطراد وثبات نحو ان تكون احدى اهم قلاع الفاشية والعداء للإسلام والمسلمين لا في اوروبا فحسب بل وفي العالم ايضاً.

٤.٣ تكتيكات الصهاينة والفاشيين ضد الحراك الفلسطيني

لقد اتبع الصهاينة والفاشيون اساليب وتكتيكات عديدة لمحاربة الحراك الفلسطيني وتشويه سمعته وتثبيط الناس عن المشاركة فيه وايجاد الذرائع للدعوة الى حظره والتضييق عليه تمهيداً لاتخاذ اجراءات واصدار تشريعات لحظره. فمن هذه الأساليب والتكتيكات تصوير الحراك كداعم للإرهاب واتهامه بالتطرف الديني او السياسي[٨٢] وبمعاداة اليهود (او ما يسمى بمعاداة السامية) وما شابهها من تهم واحكام منفِّرة عن الحراك و 'مبرِّرة' للتضييق عليه وحظره. كما اقتُرحت ذرائع ومعاذير أخرى ('غير مباشرة' او 'أكثر براءة') لا تقل سخفاً ولا دناءةً عن تلك كادعاء ان تكاليف تأمين هذه المظاهرات (اي ما يترتب على الشرطة ان تتخذه من اجراءات لحماية المتظاهرين) تثقل ميزانية الدولة، وان هذه المظاهرات والفعاليات تشوّه المدن ونمط الحياة المدنية، كما انها تُنفِّر بعض المجتمعات المحلية (كاليهود) والسواح الأجانب من القدوم الى مواقع هذه المظاهرات (وهي غالباً ما تجري وسط المدن) وتحدّ من حريتهم في التنقل والحركة وتقلل من شعورهم بالأمن والاطمئنان لخوفهم مثلاً من التحرش بهم او الاعتداء عليهم من قبل المتظاهرين.

ولكن يبدو لي ان اهم هذه التكتيكات (او على الأقل واحداً من اهمها) هو اتهام الحراك بالانتقائية والانطلاق

---

[٨٢] ظلت كثير من ابواق الإعلام الصهيوني والفاشي تحرص دائماً على ربط الحراك الفلسطيني بالحركات والجماعات الإسلامية والحركات والأحزاب اليسارية 'المتطرفة' واتهامها بانها هي التي تحركه وتقف وراءه بل وادعاء ان كثيراً من المشاركين هم من المنتمين الى ـ او المتعاطفين مع ـ هذه الحركات والجماعات والأحزاب. والواقع ان التنوع الكبير في خلفيات وتوجّهات المنظمين والمشاركين (والأعداد الهائلة من المشاركين في بعض هذه الفعاليات) تفنّد بوضوح هذه المزاعم والاتهامات الصهيونية الفاشية وتنسفها من اساسها (رغم اعترافنا بالإسهامات القيمة للمجتمعات المسلمة المحلية وحركات اليسار وتياراته في هذا الحراك).

من دوافع واعتبارات ليست انسانية (مثلاً دينية او عرقية او سياسية او ثقافية) بتبني قضية فلسطين وغزة واغفال قضايا اخرى (ادُّعي انها) لا تقل مأساوية عن قضية فلسطين وغزة كمأساتي الكونغو والسودان.[٨٣] وقد بدا هذا الاتهام مقنعاً للكثير وسبَّب انفضاض البعض (ربما من الأفارقة او ممن هم من اصول افريقية بشكل خاص) عن الحراك الفلسطيني او الامتناع عن المشاركة فيه. بل ان هذا الطرح قد اعطى انطباعاً وايحاءاً لدى البعض (ممن خُدِعوا بهذا الطرح) ان الحراك الفلسطيني حراك عنصري لا ينظر لحياة الأفارقة ومعاناتهم نظرته لحياة الفلسطينيين ومعاناتهم. كما سبّب هذا الطرح شعوراً لدى النشطاء والمشاركين في الحراك الفلسطيني بالحاجة الى التذكير بمأساتي الكونغو والسودان بانتظام والحرص على كونهما حاضرتين بشكل من الأشكال في فعاليات الحراك الفلسطيني (مثلاً في الخطابات والشعارات واللافتات او برفع علم هاتين الدولتين).

والواقع ان هذا الأسلوب ليس سوى حيلة انطلت على كثير من السذج وغير السذج (ومن المنفضّين وغير المنفضّين) لأن هناك فروقاً عديدة ومهمة بين قضية فلسطين وغزة وقضية الكونغو والسودان تجعل القضيتين مختلفتين وإن كانتا متشابهتين ظاهراً. وسنحاول فيما يلي استعراض بعض هذه الفروق بإيجاز.

فالفرق الأول ان الحراك الفلسطيني في جزء كبير من حيثياته ومبرراته هو للتنديد بدعم الدول الغربية لإسرائيل في حرب الإبادة (بل المشاركة الفعلية لبعض هذه الدول في حرب الإبادة) وممارسة الضغوط على حكومات هذه الدول لإيقاف هذا الدعم. وواضح ان الدعم الغربي لحرب الإبادة في غزة مُعلَنٌ وبيّن بينما لا يوجد دليل واضح على دعم (او اشتراك او تدخل) غربي كهذا في قضية الكونغو والسودان. وباختصار، المظاهرات والاحتجاجات (وما شابهها من فعاليات الحراك الفلسطيني) انما هي اساساً وفي المقام الأول ضدّ هذا الدعم الثابت والواضح في قضية فلسطين وغزة وغير الثابت (او غير الواضح) في قضية الكونغو والسودان.

والفرق الثاني هو العامل الزمني (بسبب طول تاريخ القضية الفلسطينية) وحجم الظلم الذي لحق بالفلسطينيين والوان العذاب والآلام والدمار التي لحقت بهم (خاصة في غزة وفي حرب الإبادة الجارية فيها) مما لم يلحق بغيرهم كالكونغوليين والسودانيين. وهذا بالتأكيد يعني ان الحاجة والضرورة لنصرة القضية الفلسطينية وحلها

---

[٨٣] لم يكن هذا التكتيك حاضراً في الإعلام المقروء والمسموع والمشاهَد فحسب (حيث يستخدم بعض الإعلاميين والمحللين والنشطاء الصهاينة هذا الطرح حجة ضد الحراك الفلسطيني)، بل بدا لي هذا التكتيك حاضراً احياناً حتى في فعاليات الحراك الفلسطيني على الأرض (كالمظاهرات الداعمة لفلسطين) حيث يثير بعض 'النشطاء' هذا الطرح باسلوب خفي وغير مباشر. ولا استبعد ان يكون هذا الجهد مخطَّطاً له وليس عفوياً بأن يكون بعض 'النشطاء' قد جُنِّد لفعل ذلك كجزء من الجهد الصهيوني المنظَّم والمموَّل.

ورفع الظلم عن الفلسطينيين أشدّ الحاحاً من الحاجة تجاه اي قضية اخرى كقضية الكونغو والسودان.

والفرق الثالث هو ان قضية فلسطين هي قضية احتلال اجنبي واستعمار خلافاً لقضية الكونغو والسودان التي هي اساساً قضية حرب اهلية (وإن كان للتدخلات الأجنبية أثر فيها دون شك). ومما يترتب على ذلك (على سبيل المثال لا الحصر) انه ليس من الواضح (فيما يخص قضية الكونغو والسودان) لمن وضدّ مَنْ ينبغي ان تتوجه المظاهرات والاحتجاجات وما شابهها من فعاليات (مما اشرنا له سابقاً) وما الهدف من هذه النشاطات والفعاليات. وهذا بخلاف القضية الفلسطينية وحرب الإبادة الجارية في غزة فهي للاحتجاج ضدّ اسرائيل وداعميها وتأييداً للفلسطينيين وضحايا مذبحة غزة وبهدف وقف الدعم المذكور وجلب التعاطف والعون للفلسطينيين وضحايا مذبحة غزة.

٥.٣ الصعود الفاشي

ويحسن ان لا نغادر هذا الفصل دون القاء نظرة سريعة على ظاهرة المدّ الفاشي وصعود تيارات اليمين المتطرف التي نشهدها حالياً إذ اننا في الحقيقة نعيش في العصر الذهبي للفاشية. والواقع ان تنامي التطرف اليميني والحراك الفاشي هو ظاهرة دولية لا تقتصر على دول الغرب. وموجة المدّ الفاشي المعاصرة تفوق في حجمها واتساعها (وربما قوة اندفاعها) ما شهدناه من هذا المدّ في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي. وهذا يعود في جزء منه الى تحسن وسائل التواصل وتبادل الأفكار حول العالم بفضل التقدم التقني الهائل في وسائل الاتصال والإعلام وظهور الانترنت. وعالمية هذا الحراك الفاشي تعود في جزء منها كذلك الى عالمية المشاكل التي تفرز الأفكار والنزعات الفاشية وتشجع على ظهورها وقبولها (من قبيل الاكتظاظ السكاني والهجرة ونحوهما). كما ينبغي ان نلاحظ ان غياب آيديولوجيات بديلة منافسة للفكر الفاشي ومحجِّمة له ساعد في هذا الصعود الكبير للفاشية السياسية والثقافية. فلقد كان ازدهار الفكر اليساري (والشيوعي خاصة) في القرن الماضي عاملاً محدِّداً ومحجِّماً للمد الفاشي وعنصر توازن له (بل وعامل تدمير له كما حدث لاحقاً بهزيمة النازية في الحرب العالمية الثانية على يد الشيوعية بفضل الجهد السوفييتي اولاً) وهو ما لم يعد قائماً بانهيار الاتحاد السوفييتي (والانظمة الشيوعية والاشتراكية عموماً) وانحسار الفكر اليساري والماركسي حول العالم.

وعلى كل حال، ما يهمنا اساساً هو آثار المدّ الفاشي (في الغرب خصوصاً) وانعكاساته على العرب والمسلمين. ومن الواضح ان لهذا المدّ آثاراً سلبية ضارة على العرب والمسلمين (خاصة من هم في ديار الغربة والهجرة) لأن الفكر الفاشي بعمومه فكر عنصري عدواني إقصائي معادٍ للعرب والمسلمين. كما انه يسعى الى تهجير العرب

والمسلمين ’المغتربين‘ وإعادتهم الى مواطن آبائهم واسلافهم، وهو ما له اثر سلبي مباشر على حياة الملايين من هؤلاء ’المغتربين‘.

ولكن المدّ الفاشي وصعود احزاب اليمين المتطرف الى سدة الحكم في دول اوروبا ربّما يكون ضارة نافعة، فرغم انه سيكون مضراً على المدى القريب للكيانات والجماعات المسلمة في الغرب فانه ينبغي ان يكون حافزاً لتحقيق الفصل والانفصام بين الشرق والغرب وهو ما سيسرع عجلة الانعتاق من التبعية للغرب واللهاث وراء حضارته المزعومة. مضافاً الى ذلك ان الهجرة العكسية (او الراجعة) سترفد المجتمعات العربية والمسلمة بعنصر بشري غني بالمعرفة والخبرة والمال لأن المغتربين عموماً يمثلون نخبة متعلمة ومدربة وغنية نسبياً.

وهذا ياتي منسجماً مع دعوتنا الى القطيعة التامة مع الغرب (او ما يسمى بالحضارة الغربية) وبناء شرق مستقل تماماً (جغرافياً وسياسياً وثقافياً ومعرفياً وتجارياً وزراعياً وصناعياً و ... إلخ) عن الغرب بكل ما فيه ومن فيه (راجع مثلاً § ٣.٩). وهذا سيوقف حركة الزحف الغربي نحو الشرق والنزيف الأخلاقي والحضاري والتآكل الذي نشهده في كل مظاهر وصور الثقافة العربية والإسلامية (الأفكار والعادات والمعتقدات والقيم واللغة والأزياء والأدب والفن و ... إلخ) لصالح هذا الغزو الغربي. فهذه القطيعة هي التي ستحفظ مناعة الشرق وأصالته ودينه ولغته وكل ما يحدّده ويعرّف هويته.

وفي هذا السياق ينبغي ان نتذكّر ان لطوفان الأقصى وتداعياته مساهمة ايجابية كبيرة في هذا الاتجاه إذ عمّق الشرخ بين الشرق العربي المسلم والغرب الصليبي المتصهين وفتح عيون الغافلين على مدى همجية الغرب وانحطاطه الخلقي وعنصريته وحقده على الشرق وأوضح مدى تباين هاتين ’الحضارتين‘ وتباعدهما إذ هما خصمان ـ بل عدوّان لدودان ـ لا يجتمعان ولا يلتقيان ولا يتمازجان ولا يتعايشان ولذا ينبغي الفصل بينهما وفكّ ارتباطهما الذي لم يجلب الا الظلم والاستغلال والغزو والمذابح وما شابهها من المآسي والويلات التي تجرع الشرق معظمها خاصةً في القرون الأخيرة.

والخلاصة ان طوفان الأقصى أظهر بجلاء ان الشرق والغرب مختلفان بل متناقضان ولا يمتزجان وان كل ما يقال عن وحدة البشرية ووحدانية الحضارة الإنسانية وحوار الحضارات وما شابه ذلك انما هو هراء في هراء فالشرق شرق والغرب غرب وهما لم يجتمعا ولا ينبغي ان يجتمعا إذ كانا وما زالا دوماً على طرفي نقيض. وحتى حينما بدا انهما يقتربان لم يكن هذا في الواقع الا بابتلاع احدهما للآخر وسحقه وامتصاصه ومسخ هويته والتصغير من وجوده وتحويله تابعاً ذليلاً ومستجدياً حقيراً، فلم تكن العلاقة بين الشرق والغرب يوماً قائمةً على اساس التكافؤ والندية والاحترام المتبادل والقيم المشتركة والعواطف الإنسانية النبيلة وما شاكل ذلك

بل كانت دوماً علاقة صراع وتناحر ورغبة في الهيمنة والابتلاع.[٨٤]

وينبغي اخيراً ان نسلط الضوء قليلاً على انتهازية اليمين الفاشي في موقفه من القضية الفلسطينية ودعمه لإسرائيل (خاصةً في حرب الإبادة التي تشنها على غزة). فقد ابدى اليمين الفاشي (بالإجماع) حماساً غير مسبوق في دعم اسرائيل في حرب الإبادة على غزة. وهذا الموقف يتسم بقدر كبير من النفاق والانتهازية والازدواجية (فضلاً عن النذالة والسحق على القيم الإنسانية التي لا يكلف هذا اليمين الفاشي نفسه حتى ادعاء احترامها او الالتزام بها) لأن اليمين الفاشي ـ بمعظمه ـ معروف بعدائه التاريخي والغريزي لليهود لأنه ليس الا تمظهراً (او بالأحرى تناسخاً) للنازية الألمانية الهتلرية التي عداء اليهود ـ بل إبادتهم ـ جزء من آيديولوجيتها. فلماذا يتحمس هذا اليمين الفاشي لإسرائيل 'اليهودية'؟

الواقع ان هناك اسباباً عديدة لهذا التحمس المنقطع النظير (ليس من بينها طبعاً حبّ اليهود ـ في الأعم الغالب ـ وربما لا يكون من بينها كذلك حبّ إسرائيل). فأحد الأسباب ان كراهية اليمين الفاشي للإسلام والمسلمين لا تقلّ (إن لم تزِد) عن كراهيته لليهود، وهو بذا لا يمكن إلا ان يتعاطف مع اسرائيل حين يراها تقوم بهذا العمل 'الرائع' من ذبح المسلمين وتقطيع اوصالهم وتدمير بيوتهم على رؤوسهم ودفنهم احياءاً تحت انقاضها وانتهاك اعراضهم وتدمير مساجدهم ومدارسهم وجامعاتهم ومستشفياتهم وتدنيس مقدساتهم وتيتيم اطفالهم وترميل نسائهم وتعذيبهم في السجون والمعتقلات وماشابه ذلك من الأفعال التي تثلج صدور الفاشيين وتشبع شهواتهم السادية ورغباتهم المريضة.

وباختصار، ان اليمين الفاشي يشعر بالسعادة المطلقة برؤية الدمار الذي يلحق بالمسلمين على يد اليهود (وهو عين ما يريده ويسعى اليه). بل ان بعض الفاشيين يرى ذلك من قبيل ضرب عصفورين بحجر إذ يرى المسلمين واليهود يتقاتلون فيدمر بعضهم بعضاً فلا يسعهم (اي هذا البعض من الفاشيين) الا ان يحسوا بالفرح والغبطة (بل بالجذل والاهتياج) لرؤية اعدائهم يتقاتلون فيما بينهم فيفني بعضهم بعضاً. كما ان بعض

---

[٨٤] ما يبرر ويعزّز دعوتنا الى القطيعة مع الغرب كذلك هو ما نحس به جميعاً من عقدة النقص المزمنة التي يعانيها الشرق امام الغرب، وهي عقدة قديمة ليست ناشئة بفعل التقدم العلمي والتقني الذي شهده الغرب خلال القرون الأخيرة والذي ادّى الى سيادته وهيمنته على العالم. فإعجاب الشرق بالغرب وتصاغره امامه وتقليده له (كتعبير عن عقدة النقص المشار اليها) ترجع الى عصور ماضية. فالتغريب في حقبة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية باستنساخ وتبني الفلسفة الاغريقية (بل مجمل 'العلوم والمعارف' وحتى الترهات الاغريقية) مع تكييفات شكلية ومظهرية لها احياناً لتنسجم ظاهراً مع الثقافة العربية الإسلامية ولا تتصادم صراحة مع الدين الإسلامي ليس سوى مشروع ـ كمشروع التغريب المعاصر ـ يعبر عن عقدة النقص والتصاغر هذه. وهذه العقدة ـ كما قلنا ـ تجعل اي علاقة للشرق مع الغرب تنقلب لصالح الغرب وسرعان ما تتحول هذه العلاقة الى علاقة تبعية وتقليد.

الفاشيين يسره رؤية اسرائيل مهيمنة على العرب والمسلمين (وهم العدو الأقوى والأخطر) وتقوم بدورها بتفتيتهم وقتلهم وإشغالهم بالحروب والنزاعات الداخلية والخارجية وهو عين ما يريده اليمين الفاشي المعبّأ بالحقد الصليبي.

وينبغي ان نتذكر هنا ان هذا اليمين الفاشي هو الوريث الشرعي والطبيعي للصليبية الغربية التي يعرف الجميع (من التاريخ البعيد ومن الماضي القريب) مدى إجرامها وحقدها وبربريتها التي تركت بصماتها المؤلمة لا في الشرق العربي والمسلم فحسب بل في كل انحاء العالم عبر الحملات الاستعمارية التي كان احد اهدافها (إجمالاً وليس بالضرورة تفصيلاً) التنصير تحت شعار التبشير. وقد دفع الكثير من الشعوب اثماناً باهظة ـ بل ابيد بعضها ـ ليقبل هذه 'البشارة' ويحصل على 'الخلاص' المزعوم.

ولكن ينبغي ان نتذكر كذلك ان الفاشيين ليسوا سواءاً إذ ان بعضهم (كالمسيحيين الإنجيليين في الغالب) يحمل افكاراً ومعتقدات دينية 'يهودية' او صهيونية الطابع وهو يريد ـ ويفرح لـ ـ رؤية اسرائيل 'اليهودية' منتصرة على العرب والمسلمين ومُذِلّةً لهم وممزّقة لشملهم ومستعبِدة لهم.

كما ينبغي ان لا ننسى ان هناك تحالفاً صهيونياً صليبياً (أو فاشياً لأن الصليبية والفاشية صنوان بل تعبيران عن حقيقة واحدة) لخدمة مصالح وتوجهات سياسية وجيوستراتيجية لها هدفها اقتسام السيطرة على العالم لأن كلا الآيديولوجيتين (اي الصهيونية اليهودية والفاشية الصليبية) تسعيان الى السيطرة على العالم عبر الاحتفاظ بكل عناصر القوة في ايديها واستغلال الضعفاء والمستضعفين من شعوب الأرض. وينبغي ان ننبه هنا الى ان هذا التحالف لا يعني حبها لبعضها (إذ هو عموماً زواج مصلحة لا زواج حب).

كما ينبغي في هذا السياق تذكُّر التفاهمات الضمنية (وربما الصريحة) حتى بين النازيين (الممثلين للصليبية الفاشية) والصهاينة قبل (بل وخلال) المذبحة اليهودية (اي المحرقة النازية او ما يسمى الهلوكوست) على بعض القضايا المهمة كتوطين اليهود في فلسطين وهو ما يخدم مصلحة الطرفين. ولا نحتاج الى كثير من الخيال لنرى المانيا النازية داعمة لإسرائيل (كما تفعل أمريكا اليوم بل وكما تفعل المانيا 'النازية' اليوم كذلك) لو ان الأحداث قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية اتخذت منحىً آخر بالتخلص من اليهود ترحيلاً الى فلسطين (لا قتلاً لهم في معسكرات الاعتقال الألمانية) وهو ما كان يريده النازيون ويسعون له في الأساس لأن التخلص من اليهود دون تلطيخ ايدي الألمان بدمائهم كان في البداية (على الأقل) هو الحل المفضل لدى معظم النازيين. ولكن تعذر هذا الحل (بسبب تضارب المصالح الأنكلوسكسونية مع المصالح النازية وكون فلسطين آنذاك تحت الانتداب البريطاني) قاد الى النتائج المفجعة والكارثية (على اليهود والألمان سواسية).

والخلاصة ان النازية الألمانية والتحالف الأنكلوسكسوني رغم انهما يمثلان رؤيتين ومنهجين مختلفين في المقاربات والأساليب والمصالح التفصيلية الا انهما كليهما يعبران بالتساوي والتطابق عن عقلية الغرب الصليبي وروحيته ورؤيته للعالم وللشعوب الأخرى. وهذا ينبغي ان يفسِّر جزئياً الإعجاب (الدفين احياناً والمعلن احياناً اخرى) الذي تشعر به النخب السياسية والثقافية الغربية المسيحية (التي تمثل المعسكر الأنكلوسكسوني المنتصر في الحرب العالمية الثانية ومن يتبعه من الغربيين من دول ثانوية ودويلات تابعة ومن التحق بهم مؤخراً من دول ودويلات شرق اوروبا) تجاه الدكتاتور النازي ادولف هتلر لأنه يعبر عن روحها و 'عنفوانها' وبطشها وعزتها وكل قيمها الأخلاقية المنحطة إذ هو احد آبائها الروحيين وقادتها التاريخيين وإن ارتكب - بسبب الحماس الزائد و 'التطرف احياناً' - بعض 'الزلات والهفوات' مما يمكن اغتفاره له. ونستطيع ان نلمس هذا في المعاملة اللينة التي تلقاها الألمان بعد الحرب العالمية الثانية رغم جرائمهم البشعة التي راح ضحيتها عشرات الملايين وما حدث فيها من قتل وتعذيب وتدمير لم تعرفه الإنسانية في تأريخها (إذا ما استثنينا ما يحدث الآن في غزة من حرب الإبادة وإن كان على مقياس اصغر لضآلة حجم غزة جغرافياً وسكانياً). كما نلمس ذلك أيضاً في التصريحات 'المنفلتة' و 'زلات اللسان' التي تصدر عن بعض النخب والشخصيات الغربية (خاصةً من رموز التيارات والأحزاب اليمينية 'المتطرفة') من إعجاب بهتلر او دفاع عنه او تزويق لجرائمه او حنين للعهد النازي وما شابه ذلك.

٦.٣ الحراك اليساري

لقد كان لليسار حضور فاعل وكبير في الحراك الدولي المؤيد لفلسطين والرافض لحرب الإبادة، بل كان اليسار احد المحركات الرئيسة لهذا الحراك وصنّاعه خاصةً في الدول الغربية ودول امريكا اللاتينية (راجع § ٢٠.٣.٢). وهذا ينبغي ان يُسجَّل لليسار وما يمثله من فكر انساني بغض النظر عن الاتفاق والاختلاف معه في افكاره وتوجهاته ومتبنياته السياسية والاجتماعية والفلسفية. وتأتي قيمة اسهامات اليسار (او القيمة المضافة لإسهاماته) من كون منطلقاته انسانية بحتة لا تختلط فيها اعتبارات محدودة وولاءات ضيقة (راجع § ٧.٣). وهذا يعبّر عن قوة الفكر اليساري كفكر انساني عابر للحواجز والحدود سواء قبلناه - بلوازمه الفلسفية والعقائدية المحققة او المزعومة - ام لم نقبله.

ولكن، كما أسهمت حركات اليسار في رفع القضية الفلسطينية وإعلاء شأنها ونشر الوعي بها فقد اسهمت القضية الفلسطينية بالمقابل في رفع حركات اليسار وإنعاشها ومنحها منصةً إضافية للترويج لأفكارها وتوجهاتها

ونشاطاتها الحزبية والسياسية. وقد يحلو للبعض ان يعتبر ذلك انتهازية من اليسار واستغلالاً للقضية الفلسطينية كمنصة ورافعة لقضاياه وافكاره وتوجّهاته. ولكن يكفي في الرد على ذلك ان هذه القضايا والأفكار والتوجّهات هي في عمومها انسانية الطابع وهذا هو ما جعل اليسار يصطف خلف القضية الفلسطينية حين تخلى الكثيرون (ممن يفترض انهم اولى باليسار منها كمعظم التيارات الإسلامية فضلاً عن عموم العرب والمسلمين) عنها. وهذا يعني ان اليسار يستغل قضية انسانية (هي قضية فلسطين وغزة) في خدمة قضايا انسانية أخرى (على رأسها قضية العدالة الاجتماعية) لاتقل انسانية ونبلاً عن قضية فلسطين وغزة. وخلاصة القول ان اي 'استغلال' للقضية الفلسطينية في قضية انسانية أخرى هو استغلال في محله وأخلاقي بالكامل بل هو خدمة غير مباشرة للقضية الفلسطينية.

ولقد كنت اتمنى (سواء قبلنا بمقولة استغلال اليسار للقضية الفلسطينية وملحمة طوفان الأقصى ام لم نقبل) ان الإسلاميين (في معظمهم) كانوا قد استغلوا القضية الفلسطينية وملحمة طوفان الأقصى وانتفعوا بها كما استغلها اليسار وانتفع بها.[٨٥] ولكن ـ للأسف ـ معظم التيارات الإسلامية لا تعنيها القضايا الإنسانية إطلاقاً بل لا تعنيها حتى القضايا التي تزعم هذه التيارات تبنيها والدفاع عنها (كقضايا العرب والمسلمين) لأن قضاياها الحقيقية هي نشر الوعي بالخرافات والترهات او الجهاد ضد المسلمين وغيرهم من الأبرياء او البحث عن الكراسي والمناصب والأموال والنساء او تحقيق رغبات مشغّليها وأهدافهم (وقس على ذلك الكثير من القضايا المشابهة).

٧.٣ القيمة الإنسانية للحراك الدولي

لقد اظهرت ملحمة طوفان الأقصى ان الانتماء الإنساني هو الأكبر والأنبل بين كل الانتماءات الأخرى (كاللغوية والثقافية والدينية والعرقية والجغرافية وغيرها). وهذا يَظهر ـ مثلاً لا حصراً ـ في وقوف اليسار السياسي الاشتراكي والماركسي (بنحو لا يتناسب مع حجمه وتمثيله في الشارع السياسي) خلف كثير من الحراكات الشعبية الدولية وخلف كثير من المواقف الرسمية المؤيدة لفلسطين كما تجلى ذلك ـ مثلاً ـ في مواقف دول

[٨٥] الواقع ان من السهل اقتراح عشرات الأفكار والمشاريع التي كان بإمكان الإسلاميين من خلالها ان يوظفوا القضية الفلسطينية وملحمة طوفان الأقصى في خدمة قضاياهم واهدافهم الحقيقية والمزعومة (بل والمشروعة وغير المشروعة). ولكن لا ينبغي تضييع الوقت والجهد في مواضيع لا فائدة فيها إذ لا امل في الإسلاميين لأنهم احد امراض هذه الأمة وعللها المزمنة. وعلى كل حال سنبحث موضوع الإسلاميين بشيءٍ من التفصيل في فصل قادم (راجع § ٥).

قارة امريكا اللاتينية عموماً (راجع § ٢٠.٣.٢ و § ٦.٣). كما يظهر كذلك في الموقف الاستثنائي لدولة جنوب افريقيا في دعم القضية الفلسطينية بسبب الرابطة الإنسانية البحتة.

فبينما خذلت الغالبية العظمى من العرب والمسلمين اخوتهم الفلسطينيين خذلاناً فاضحاً هب لنصرتهم كثير من اخوتهم في الإنسانية في الدول الغربية ودول امريكا اللاتينية وبعض دول افريقيا وآسيا بدوافع انسانية خالصة. والواقع ان اسهامات غير العرب وغير المسلمين في الحراك الدولي المناصر لفلسطين والرافض للإبادة ينبغي ان تُمنح قيمة مضاعفة إذ لا فضل (او لا كثير فضل) حين ينتفض العربي والمسلم ـ مثلاً ـ انتصاراً لغزة ودفاعاً عنها، ولكن الفضل كل الفضل حين ينتفض الأفريقي او الأمريكي اللاتيني او الأوروبي الذي لا تجمعه بغزة رابطة لغة او دين او ثقافة او دم (او ما شابهها من روابط محدودة) انتصاراً للإنسانية والحق والضمير.

وهذا يقودنا الى نتيجة بسيطة وواضحة وهي ضرورة تنمية القيم الإنسانية المشتركة ورفعها فوق كل القيم والاعتبارات الأخرى المحدودة والضيقة (او التي هي اقل اتساعاً وشمولاً من القيم الإنسانية). إن عالماً ضيقاً يعجّ بالتنوع والاختلاف العرقي واللغوي والثقافي (ونحو ذلك) وتتنازعه افكار وديانات وتوجهات متباينة (بل متصارعة في كثير من الأحيان) سيظل يغلي بالصراعات ويتمزق بالحروب ويضج بالمآسي والآلام ما لم يوضع اساس للتفاهم والعيش المشترك وهو الاحتكام الى القيم الإنسانية المشتركة بما تعنيه من احترام للآخر والتزام بالعدالة والمساواة والتسامح وما شابه ذلك.

ولكن ـ للأسف ـ يبدو ان الإنسانية في هذه المرحلة التاريخية[٨٦] (التي وصفناها سابقاً بالعصر الذهبي للفاشية) هي ابعد ما تكون عن ذلك وهذا ما اظهرته مأساة غزة التي سُحقت فيها كل القيم والأعراف والمعايير الإنسانية واظهرت اننا نعيش في عالم تحكمه الذئاب. ويبدو ان سبيل الخروج الوحيد من هذا الوضع الشاذ ليس سوى حرب طاحنة ساحقة ماحقة تأكل الأخضر واليابس ولا تُبقي شيئاً منها ولا تذر. فحرب كهذه قد تقود البشرية (إن بقي منها باقية) الى الاستفادة من تجاربها ببناء عالم انساني جديد يحكمه البشر لا الذئاب. فحتى نصل الى عالم كهذا (إن وصلنا اليه) قد يحلو لنا (او لبعضنا على الأقل) ان نحلم بالمُخلِّص الذي يقود الإنسانية الى برّ الأمان ويخرجها من الظلمات الى النور. ولكن الأَحكم (من منظور عربي ومسلم) ان نستعد للحرب القادمة بتكديس كل عناصر القوة والبطش والتدمير إما لردع العدو المتوحش من ان يرتكب بحقنا مجازر كمجزرة غزة (وكمجازر كثيرة أخرى ارتُكبت بحقّنا في الماضي البعيد والقريب) او لتدميره ومحوه من الوجود تماماً وإن قاد ذلك الى تدميرنا كذلك. ففي عالم الذئاب (الذي فضحه طوفان الأقصى بنحو غير

[٨٦] الواقع ان هذا يصدق على كل المراحل التاريخية التي مرت بها البشرية حتى الآن.

مسبوق) إما ان تأكل أو تؤكل (أو 'عليّ وعلى أعدائي').

الفصل الرابع
الإعلام وطوفان الأقصى

نقدم في هذا الفصل نبذة موجزة عن سلوك الإعلام الدولي والعربي بشقيه التقليدي والبديل من طوفان الأقصى ـ عمليةً وملحمةً ـ الذي كان في معظمه تعبيراً عن صراع وحرب تخاض بالأقلام والصور والأفلام (وما شابهها من اساليب التأثير السمعي والبصري وأدوات الحرب النفسية) أكثر مما هو سلوك إعلامي احترافي خاضع للقيم المزعومة لهذه المهنة وللقيم الأخلاقية والإنسانية بشكل أعم. ولا نبالغ إذ ندّعي انه قلّما انتُهك شرف هذه المهنة وتقاليدها (فضلاً عن القيم الأخلاقية والإنسانية العامة) في التغطية الإعلامية لحدث من الأحداث الكبرى مثلما جرى في التغطية الإعلامية لطوفان الأقصى. وقد أبلى معظم الإعلام الغربي وجزء مهم من الإعلام العربي بلاءاً حسناً في هذه الحرب القذرة التي لا تقل في قذارتها (ولا حتى في إجرامها ومسؤولية مقترفيها) عن حرب الإبادة الجارية على ارض غزة.

وبالمقابل، كان للإعلام المقاوم والمساند للحق الفلسطيني والرافض لحرب الإبادة (خاصةً البديل منه) دور كبير ومشرّف في هذه المعركة الإعلامية حيث ساهم في فضح حرب الإبادة وتعرية الجرائم المروعة التي تُرتكَب فيها على مدار الساعة (وهو ما حرص الغربيون عموماً وعملاؤهم العرب على التستر عليه وكتمانه) وحشد التعاطف الدولي مما كان له دور اساس في احداث الحراك الدولي المؤيد لفلسطين والرافض للإبادة (وهو ما بحثناه في الفصل السابق؛ راجع § ٣).

١.٤ الإعلام الغربي

لم يكن غريباً على الإعلام الغربي ما التزم به من تحيز واضح ضد المقاومة وانحياز تام لإسرائيل خاصةً في الأشهر الأولى من ملحمة طوفان الأقصى، فهذا الإعلام يسيطر عليه بشكل شبه تام الصهاينة والمتصهينون واليمين الفاشي ومن شاكلهم من اصحاب الأفكار والتوجهات المعادية عموماً للعرب والمسلمين. وهو على كل

حال إعلام ’غربي‘ بما يعنيه ذلك من تحيز للنظرة الغربية والمصالح الغربية والمخططات الغربية و ’الحضارة‘ الغربية وكل ما هو غربي فلا ينتظر منه احسن مما كان ولا يتوقع منه ان يكون منصفاً في موقفه ونظرته تجاه الشرق وقضاياه.

والواقع ان هذا الأداء السيء للإعلام الغربي في تغطيته لملحمة طوفان الأقصى لا يضارعه في البؤس والتفاهة الا أداؤه في تغطية الحرب الروسية الأطلسية في اوكرانيا والتي كانت وما زالت فضيحة للإعلام الغربي ومن يسيطر عليه، فقد استخدمت في هذه التغطية كل اساليب الكذب والتضليل وحجب الحقائق والتغطية اللامتوازنة ونحو ذلك من تكتيكات الدعاية الرخيصة والتهريج المكشوف. بل ان الهبوط والسقوط الذي ميز الإعلام الغربي في تغطيته للحرب الروسية الأطلسية ربما فاق في بعض الحالات والأحيان الهبوط والسقوط في تغطيته لملحمة طوفان الأقصى.

وقد اتُبعت واختُبرت في تغطية الإعلام الغربي لملحمة طوفان الأقصى كل اساليب التضليل والخداع والتحيز المعروفة (من قبيل استخدام لغة متحيزة او تغطية غير متوازنة او اظهار نصف الحقيقة او التمييز بين الضيوف والمتحاورين وقتاً وعدداً او مقاطعة المتحدثين عند نقاط حرجة او التزييف والاختلاق الجزئي او الكلي او استخدام الصراخ والتنمر على طرف مقابل خفض جناح الذل من الرحمة والمسكنة لطرف آخر او ... إلخ).

ومن اطرف أساليب الدعاية الرخيصة والمفضوحة التي اتبعتها كثير من القنوات الغربية في الأيام الأولى من ملحمة طوفان الأقصى البدء بسؤال الضيف او المُحاور الممثل لوجهة النظر الفلسطينية (او المفترض ان يكون كذلك) عما إذا كان يدين ما قامت به حماس في السابع من اكتوبر، وكأن ماقامت به حماس في السابع من اكتوبر قد جاء من فراغ متناسين كذلك ان يسألوا الضيف او المُحاور الممثل لوجهة النظر الصهيونية عما إذا كان يدين ما قامت به اسرائيل من آلاف المجازر والجرائم البشعة طوال فترة وجودها المشؤوم (بل متناسين كذلك جرائم الإبادة التي كانت تقوم بها اسرائيل اثناء اجراء تلك المقابلات والحوارات).

والحقيقة ان الإعلام الغربي في معظمه ليس سوى اداة للدعاية الرخيصة ووسيلة لغسل ادمغة الشعوب الغربية وتلقينها الأفكار وتلقيمها ’المعلومات‘ التي يجب ان تعتنقها و ’تعلمها‘ وهو بذا لا يصح وسمه بـ ’الإعلام‘ (المشتق من العلم) لأنه ليس سوى اداة للدعاية والتضليل والجهل (والتجهيل) المركب. ورحم الله غوبلز وزير الدعاية النازية إذ لم يكن إلا تلميذاً غرّاً ـ في اساليب الدجل والتضليل والكذب الرخيص ـ لفحول الدجل وجهابذته في الإعلام الغربي المعاصر، بل ربما كان غوبلز اشرفهم واصدقهم واشدهم التزاماً بأخلاقيات المهنة

وأكثرهم احتراماً لأصولها وقواعدها. ورحم الله كذلك من يصفه الغربيون بـ ’علي المضحك‘ (Comical Ali) الذي طالما سخر منه إعلاميو الغرب فقد كان يوفر ـ ببراءته الطفولية في الكذب الساذج ـ شيئاً من الدعابة والترفيه وخفة الظل مما لا يحس به القارئ والسامع والمشاهد لهذا الإعلام الغربي السمج والمقزّز والثقيل على النفس.

ولكن لا ينبغي ان ننسى في المقابل بعض الأصوات والقنوات الإعلامية الغربية الشريفة والمنصفة (ولو الى حد ما) رغم ان بعضها لم يكن قادراً على التخلص تماماً من النظرة الغربية الى الأمور والطريقة الغربية في التفكير والتحليل. ولكن للأسف لم يكن لهذه الأصوات والقنوات صوت مسموع او تأثير مهم وسط الضجيج الهادر والصخب المُصِمّ لأجهزة الدعاية والتضليل المتفوقة عدداً وعدةً وتمويلاً بل وقابليةً من القارئ والمستمع والمشاهد الغربي لقبول ما تأتي به وتلقيه على مسامعه وتضعه امام اعينه لأن هذا القارئ والمستمع والمشاهد غربي بطبعه وغريزته وملقَّن سلفاً مبادئ الحقيقة واصول المعرفة على الطريقة الغربية.

وخلاصة الخلاصة ان الإعلام الغربي فشل في معظمه (بل كله مع بعض الاستثناءات القليلة) في اختبار طوفان الأقصى فلم يكن إعلاماً بل كان دعايةً وتهريجاً وتواطؤاً وإسناداً لحرب الإبادة، وقد كانت الحقيقة ـ كما الشرف المهني والقيم الأخلاقية ـ من ضحايا هذا الإعلام التي ينبغي ان تُضاف الى ضحاياه من الغزيين الذين لولا هذا الإعلام (ومن على شاكلته من المتواطئين) لما تمكن الصهاينة من ذبحهم وإبادتهم.

٢.٤ الإعلام العربي

لم يكن الإعلام العربي في موقفه من طوفان الأقصى وتغطيته لها متجانساً كتجانس الإعلام الغربي، ولا غرابة في ذلك فأمة الكفر واحدة بينما امة العرب والإسلام عديدة ومتفرقة إذ فيها المسلم والليبرالي والصهيوني و ... إلخ. ونستطيع القول ـ بقدر من التعميم والتبسيط ـ ان الإعلام العربي قد انقسم الى ثلاثة اقسام رئيسة:

١. داعم مطلق للمقاومة الفلسطينية كالإعلام المرتبط بمحور المقاومة (كإعلام حزب الله وأنصار الله ومن لف لفهما ودار في فلكهما) والإعلام القطري.
٢. داعم مطلق لإسرائيل (رغم تبنيه في الغالب تكتيكات لفظية وفذلكات كلامية مفضوحة غالباً لإخفاء حقيقة ولائه وانتمائه) كالإعلام الأعرابي المرتبط ببعض أنظمة الخليج وشبه الجزيرة العربية وبعض الإعلام اللبناني.
٣. إعلام ’محايد‘ او هكذا يريد ان يصوّر نفسه كالإعلام المرتبط ببعض أنظمة الخليج وبعض فصائل الإعلام

المصري وجزء من الإعلام العربي المستقر في الغرب. ويبدو لي ان هذا الإعلام ’المحايد‘ ينقسم الى قسمين رئيسيين: قسم يتظاهر بالحياد ويستعمله وسيلة لتمرير جرعة من التصهين الى عقل المواطن العربي وقلبه مقدّراً ان هذا المواطن في الغالب لا يتحمل جرعة كبيرة من التصهين المفضوح بل سيرفضها مباشرةً ولذا من الحكمة ان يحقن هذا المواطن بجرعة مخففة من التصهين (وعلى كل حال ما لا يدرك كله لا يترك كله ولا يكلف الله نفساً الا وسعها ولا يترك الميسور بالمعسور). وأما القسم الآخر فهو يعتقد حقاً بـ ’الحياد‘ (او هكذا يظن) ويلتزم به ايماناً منه بالقيم ’الليبرالية‘ وتقاليد المهنة وشرفها. والواقع انه حينما تكون المعركة بين الحق والباطل بهذا الوضوح الذي نشهده في ملحمة طوفان الأقصى فلا مجال للحياد لأن ’المحايد‘ انما ينتمي الى معسكر الباطل ويتموضع معه إذ لا حياد بين الحق الصريح والباطل الصريح ولا منطقة وسطى بينهما. ثم ان القيم ’الليبرالية‘ الحقة والتقاليد المهنية الأصيلة لا تتعارض ولا ينبغي ان تتعارض مع الانحياز للحق الذي هو ليس سوى الالتزام بالحقيقة والصدق وتسمية الأشياء باسمائها (كتسمية الإبادة إبادة والجريمة جريمة والقتل قتلاً لا تسميتها حرباً وفعلاً وموتاً مثلاً). والواقع ان هذا الحياد المزعوم هو ما يخالف القيم والشرف لأنه يشوه الحقيقة ويلبّس عليها باستخدام اوصاف وتعابير واساليب عرض تشوه الحقيقة وتغطي عليها وتخلطها بما ليس منها. وما قد لمناه على الإعلام الغربي انما هو انحيازه للباطل بما يعنيه ذلك من كذب وافتراء وتشويه للحقيقة مما يليق بـ ’الباطل‘ ومن يصطف معه.

وعلى كل حال، لقد فشل الإعلام العربي التقليدي ـ في معظمه ومجمله او على الأقل في قسم كبير منه ـ في اداء دوره المنتظر الذي يليق به في هذه المعركة الفاصلة للعرب والمسلمين ضد الغرب الصليبي الصهيوني الذي يريد سحقهم واستعبادهم لا في فلسطين فحسب بل في كل مكان. فأما الإعلام الداعم لإسرائيل فواضح فشله بل خيانته وتواطؤه ومشاركته في حرب الإبادة ودعم المجهود الحربي الصهيوني، ولذا لا مجال للومه او العتب عليه لأنه ينتمي الى معسكر الأعداء ويصطف معهم وحاله في ذلك حال الإعلام الإسرائيلي (بل اسوأ). وأما الإعلام المحايد فهو ـ كما قلنا ـ ليس محايداً حقاً، لا بقسمه الأول ولا بقسمه الثاني وانما هو منتمٍ ـ مباشرة او غير مباشرة ـ الى معسكر الأعداء ومصطف معهم. ولا يَغفر له موقفَه هذا (اي بقسمه الثاني) التزامُه بالقيم ’الليبرالية‘ وتقاليد المهنة وشرفها حتى لو كانت هذه القيم والتقاليد تقتضي حقاً التزام هذا ’الحياد‘ المزعوم لأن هذه المعركة معركة مصير ووجود وبقاء، ولذا تفقد هذه القيم والتقاليد المزعومة قيمتها الأخلاقية امام قيم اكبر منها بكثير وهي قيم الولاء للأمة والجماعة والالتزام بقضاياها الكبرى في مواجهة التهديد الوجودي الخارجي وحرب الإبادة والتطهير.

ولا يسعنا اخيراً الا ان نقف بدهشة وذهول امام الحماس الذي اظهره بعض الإعلام العربي المتصهين (خاصة الإعلام الأعرابي الخليجي وامتداداته الخبيثة في بعض الدول الأخرى) والجهد الاستثنائي الذي بذله هذا الإعلام في دعم الرواية الصهيونية ومحاولة تلطيخ سمعة المقاومة وقادتها والتغطية على جرائم الكيان الصهيوني وتبريرها والتهوين من انجازات محور المقاومة او تشويهها (كتصوير الحصار البحري اليمني للكيان الصهيوني كعمليات قرصنة). والواقع ان كثيراً من وسائل الإعلام الإسرائيلي فاقت كثيراً في انصافها وموضوعيتها ـ رغم تحيزها الواضح والمفهوم ـ بعضاً من قنوات الإعلام الأعرابي. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى تفاهة وسخف وغباء العقلية الأعرابية والثقافة الأعرابية ومدى الانحطاط العقلي والأخلاقي الذي بلغه بعض العرب.

٣.٤ أساليب الإعلام الصهيوني والمتصهين في تشويه طوفان الأقصى

لقد أسرف الصهاينة ـ بشهيتهم اللامحدودة للكذب والتزييف وافتقارهم التام للحياء ـ في اختلاق وترويج الأكاذيب والفبركات عن عملية طوفان الأقصى وما جرى خلالها وبعدها لشيطنة المقاومة وتبرير افعالهم الإجرامية. وقد ساعدهم في هذا الاختلاق والترويج ابواق الغرب ـ بمسؤوليه الرسميين واعلامييه ـ الذي كان محتاجاً (خاصةً في المراحل الأولى من ملحمة طوفان الأقصى) الى حجج ومعاذير لتبرير حرب الإبادة والدعم المطلق الذي يقدمه الغرب للإجرام الصهيوني فيها. وكان من ابرز هذه الأكاذيب والفبركات واشدها نفعاً للصهاينة في جلب التعاطف لهم وحشد الدعم والتأييد لحربهم الإبادية (رغم وضوح زيفها واختلاقها) قصة ذبح الرضع واغتصاب النساء.

والواقع ان هذه القصة (التي بان زيفها لاحقاً باعتراف من اختلقها فضلاً عن تقارير استقصائية عديدة أثبتت افتقارها للدليل) واضحة البطلان بالتحليل المنطقي المجرد لأن بعض هذه الفظائع المدعاة يصعب ـ بل يستحيل منطقياً ـ وقوعها إذ لم يكن لدى مقاتلي المقاومة الوقت الكافي ولا الاستعداد النفسي لارتكاب عمليات الاغتصاب المزعومة فهم كانوا ذاهبين الى موت شبه محقق في عملية خاطفة وواسعة لم تستغرق سوى ساعات قليلة. فضلاً عن ذلك، يصعب تصديق ان مقاتلي حماس نجحوا في العثور على العدد المدَّعى

من الرضع لذبحهم (بل يوحي بهذا الاختلاق عشرية هذا العدد المزعوم).[٨٧] ثم ان الذبح لو كان وسيلة القتل المفضلة لدى حماس فلِمَ تخصّ الرضّع بهذا الفعل ولا تمارسه مع غير الرضّع (كما مارسته بشكل منهجي داعش مثلاً) مع ان الدواعي لذبح غير الرضع ينبغي ان تكون اشد واقوى. فواضح ان هذا الاختيار الانتقائي من 'قتل للرضع' و 'اغتصاب للنساء' انما هو بغرض إثارة العواطف وشحن النفوس ضد المقاومة (بل وضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين كذلك لاقتران صورتهم في الخيال الغربي وعقله الجمعي بالذبح والاغتصاب وما شابهها من الأعمال البربرية التي هي اليق بالغرب وشعوبه كما تشهد بذلك وقائع التاريخ ـ البعيد والقريب ـ والحاضر كذلك).

وأما الاستهداف المزعوم لـ 'المدنيين' في الحفل الموسيقي فقد تبين لاحقاً (كما اعترف بذلك بعض الصهاينة انفسهم) انه كان من افعال الجيش الصهيوني المتخبط الذي فقد صوابه وقدرته على السيطرة والتمييز فاستهدف الحفل الموسيقي إما بظن انهم من مقاتلي حماس او بظن انهم يضمون بعضاً من هؤلاء المقاتلين (حيث تبرر اخلاقيات الجيش الصهيوني المنحطة وقواعد اشتباكه الدموية استهداف الإسرائيليين الأسرى او المختلطين برجال المقاومة للقضاء على رجال المقاومة وإن ادى ذلك لقتل الإسرائيليين كذلك).[٨٨]

وعلى كل حال، رغم ظهور كذب وزيف هذه الفبركات وكثير غيرها (بتحقيقات وتحريات لاحقة بل وحتى باعتراف من اختلقها وفبركها) فقد ظل الغرب ـ بمسؤوليه واعلامييه ـ يردد هذه الأكاذيب المفضوحة خاصة حين يحتاجها لتبرير دعمه لحرب الإبادة والجرائم المروعة التي ترتكب فيها. وقد بلغت الوقاحة ببعض الإعلاميين والمسؤولين الغربيين درجة لا تصدّق إذ اصروا على ترديد اكاذيب تبرأ منها حتى صانعوها ومختلِقوها.[٨٩]

٤.٤ أساليب الإعلام الصهيوني والمتصهين في الدفاع عن الإبادة

لقد لجأ الإعلام الصهيوني والمتصهين (خاصة ابواق الإعلام التابعة لأعراب الخليج وشبه الجزيرة العربية) الى

---

[٨٧] تدّعي الكذبة الإسرائيلية ان حماس قد ذبحت اربعين رضيعاً (وفي 'رواية' أخرى طفلاً)، ويبدو لي ان رواية الأربعين طفلاً هي نسخة معدّلة ومحسّنة لرواية الأربعين رضيعاً الأصلية لكي تبدو اكثر معقولية.

[٨٨] أكّدت تقارير صحفية إسرائيلية ان اسرائيل فعّلت يوم السابع من تشرين الأوّل بروتوكول هانيبال (او توجيه هانيبعل) الذي يخوّل الجيش الإسرائيلي قتل الآسر والمأسور (او الخاطف والمخطوف).

[٨٩] على رأس هؤلاء الكذّابين رئيس امريكا الخرف ومجرم الحرب الأول جو بايدن الذي لا يخجل من ترديد هذه الأكاذيب.

تكتيكات واساليب خبيثة ـ وإن كانت مفضوحة في الغالب ـ في الدفاع عن حرب الإبادة في غزة وتخفيف وقعها والتقليل من فظاعتها وحجب وقائعها وصورها وشيطنة المقاومة وتحميلها ـ مباشرة او غير مباشرة ـ وزر الجرائم التي يرتكبها الصهاينة. ومن هذه التكتيكات والأساليب ما يلي:

١. لوم المقاومة الفلسطينية (وحماس بالخصوص) وتحميلها المسؤولية عن بدء الحرب (ومن ثَمّ عن جميع مجرياتها وتبعاتها بما فيها جرائم الإبادة القائمة على قدم وساق وعلى مدار الساعة) وكأن طوفان الأقصى جاء من العدم ولم يكن رداً على سلسلة طويلة من الاعتداءات والجرائم الصهيونية وتدنيس المقدسات الإسلامية وحملات الاستيطان الممنهج المدعوم بالعنف الدموي ضد المدنيين الفلسطينيين بغرض تهجيرهم واغتصاب ارضهم وممتلكاتهم. بل هذا في الواقع يغفل اهم عنصر في المشهد وهو ان اسرائيل قوة احتلال ولذا فالعمل ضدها مبرَّر ولو حدث ابتداءاً (وهو ما ليس كذلك). كما انه يغفل جرائم الإبادة والتطهير التي ارتكبتها اسرائيل ـ مدعومةً من الغرب ـ منذ قيامها. ولم يقتصر لوم المقاومة الفلسطينية وتحميلها المسؤولية على داعمي اسرائيل الغربيين ودول نائية بعيدة عن الشأن الفلسطيني بل جاء من شخصيات واجهزة اعلام ودول فلسطينية وعربية ومسلمة. ولم يتردد الكثير من هؤلاء في وصف عملية طوفان الأقصى بالإرهاب وإدانتها والقاء اللوم في تبعاتها على المقاومة الفلسطينية.

٢. تصوير حرب الإبادة واستهداف المدنيين كدفاع مشروع عن النفس، وهذا ما يدأب على ترديده لا الإعلام الصهيوني والمتصهين فحسب بل هو يعبر عن الموقف الرسمي للدول التي تدعم الإبادة بقيادة المنظومة الغربية. والواقع ان هذا 'الحق المشروع في الدفاع عن النفس' تعترف به كثير من المنظمات الدولية المستظلة بما يسمى بشرعة الأمم المتحدة والقانون الدولي وان اختلفت ـ او تظاهرت بالاختلاف ـ مع اسرائيل والمنظومة الغربية الداعمة لها في حجم ونوع الرد الذي يكفله هذا 'الحق المشروع في الدفاع عن النفس' وكأن الخلاف خلاف تقني وحول بعض التفاصيل الهامشية (كعدد المدنيين الفلسطينيين الذين يجوز ذبحهم في معركة الدفاع المشروع عن النفس هذه). بل ان هذا 'الحق المشروع في الدفاع عن النفس' تعترف به كثير من الدول التي يفترض انها رفضت الإبادة وأدانتها وان اختلفت مع اسرائيل وداعميها تقنياً كما تقدم. بل ان من هذه الدول دول عربية عبرت عن هذا الموقف تلميحاً او تصريحاً (وان اختلفت تقنياً كذلك).

٣. لوم حماس وتحميلها المسؤولية لـ 'رفضها' وقف اطلاق النار او ادعاء مماطلتها في الذهاب الى صفقة لوقف الحرب، مع ان الكيان الصهيوني هو الذي يرفض وقف الحرب ويتهرب من الذهاب الى صفقة لإنهاء النزاع وهو ما يجاهر به الكثير من مسؤولي الكيان ورموزه ويرددونه كل يوم تقريباً. وقد تفنن الغربيون

عموماً ـ والأمريكيون خصوصاً ـ في هذا النوع من الكذب المفضوح والتلفيق الرخيص، بل صاروا يتبرعون باختلاق الأكاذيب لصالح اسرائيل وضد حماس. فبينما يجاهر قادة الكيان برفضهم وقف الحرب والذهاب الى صفقة نسمع ـ مثلاً ـ رئيس الولايات المتحدة او وزير خارجيته يطالب حماس بالجنوح الى السلم والذهاب الى صفقة (كانت حماس قد رحبت بها ـ بل قبلت بها لاحقاً مع إدخال بعض التعديلات عليها ـ بينما رفضتها اسرائيل).[٩٠]

٤. تبرير الإبادة بوجود الأسرى (او 'المخطوفين') لدى حماس وتحميل حماس المسؤولية عن الإبادة الجارية لأن حماس ـ بزعمهم ـ تستطيع إنهاء الحرب بتسليم الأسرى. وواضح مدى سخف هذا التبرير فاسرائيل اوضحت مراراً وتكراراً انها ماضية في حرب الإبادة حتى لو استعادت اسراها (بصفقة او بالقوة) بل حتى لو اطلقت حماس هؤلاء الأسرى مجاناً ودون مقابل لأن هدف اسرائيل المعلن هو تصفية حماس وهو ما لن يتحقق الا بإبادة غزة وجعلها مكاناً لا يصلح للعيش بما يستدعيه ذلك من إفراغ غزة (بتهجير سكانها او معظمهم مع التخلص من اكبر عدد ممكن منهم بالقتل والإبادة).

٥. التقليل من حجم الخسائر المدنية والتشكيك في الأرقام التي تعلنها وزارة الصحة في غزة وهي ارقام موثقة بالأسماء والسجلات، بل ان الأرقام التي تعلنها وزارة الصحة ليست سوى جزء من الخسائر الحقيقية التي لا تشمل مثلاً المفقودين والمدفونين تحت الأنقاض. وقد كان على رأس المشككين في حجم الخسائر المدنية رئيس الولايات المتحدة نفسه الذي لا شك في علمه ـ بواسطة اجهزة مخابراته التي ترصد كل شاردة وواردة خاصة في غزة التي تشارك فيها امريكا بجهد استخباري وعسكري مباشر دعماً للكيان ـ بصحة الأرقام والمعلومات التي تصدرها السلطات الرسمية في غزة وانها تعكس الواقع، وهذا يدل على مدى النذالة والتجرد من القيم الإنسانية التي بلغها الغرب وقادته. ثم ان نفس التشكيك يستلزم دلالة غير مباشرة على القبول الضمني لحد معين من الذبح والإبادة لأن المجزرة هي من الشدة والاتساع ما يجعل صحة حتى عشر معشار ما يصدر عن وزارة الصحة في غزة (وهو امر لا يستطيع التشكيك فيه احد) إبادة مروعة، فما الغرض من هذا التشكيك وما دلالته الضمنية؟ إنه دليل آخر على استهتار الغرب وقادته بالحياة البشرية والبؤس الإنساني حين يتعلق الأمر بشعوب اخرى 'دونية' يصنفها الغرب 'عالماً ثالثاً' في درجة الإنسانية.

---

[٩٠] الطريف في موضوع هذه الصفقة التي قدمها بايدن كمقترح اسرائيلي ان بايدن نفسه قد طلب من الإسرائيليين الموافقة عليها. ولا ندري ان كان هذا علامة اخرى من علامات خرف بايدن وهلوساته ام انه علامة على ان مقترح هذه الصفقة ليس سوى لعبة او مسرحية اسرائيلية امريكية تهدف لمواصلة الحرب مع تحميل حماس مسؤولية ذلك.

فبينما يقيم الغرب الدنيا ولا يقعدها حين يتعرض احد مواطنيه الى خدش في حادث 'ارهابي' مزعوم نراه يتعامل مع المسألة بعقلية حسابية باردة ـ فيحط من قيمتها الإنسانية ويحولها الى مسألة ارقام واحصاءات ـ حين يتعلق الأمر بالفلسطينيين وامثالهم من 'الحيوانات البشرية'.[٩١] ويأتي في هذا السياق ايضاً ما صرح به رئيس وزراء الكيان من كذبة كبرى تنم عن هذا الاستخفاف بقيمة الحياة البشرية الفلسطينية حين ادعى ـ دفاعاً عن المذبحة ـ ان نسبة الخسائر المدنية الى خسائر حماس هي واحد لواحد وكأن هذه النسبة مقبولة رغم انها تعني ذبح ما لايقل عن عشرين الفاً من الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم من المدنيين العزل وجرح وتعويق عشرات آلاف الآخرين من امثالهم.

٦. لوم المقاومة ـ في بعض الحالات ـ على الخسائر المدنية كما حدث في مجزرة مستشفى المعمداني حيث ادعى الصهاينة (في كذبة مفضوحة ولكن مدعومة من ابواقهم وحلفائهم وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي) ان تدمير المستشفى حدث بصاروخ اطلقته سرايا القدس وقد ارتد الصاروخ وانحرف عن هدفه فدمر المستشفى. وقد ظل الصهاينة وداعموهم يرددون هذه الكذبة المفضوحة دون حياء رغم التحقيقات اللاحقة التي فضحت هذه الكذبة بل رغم الاعتراف الصهيوني السابق بمسؤولية الكيان عن هذه العملية ومحاولة تبريرها بوسائل واكاذيب اخرى ورغم ان المستشفى كانت موضوعاً لتهديداتٍ صريحة سابقة وطلباتٍ لإخلائها. وهنا نكرّر ما قلناه في النقطة السابقة من نذالة الغرب وقادته ـ وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي ـ ومدى تجردهم من القيم الإنسانية فهم لا يتورعون عن الكذب المفضوح وانكار حقائق صريحة للتغطية على جرائمهم وجرائم حلفائهم واتباعهم بينما يتخذون موقفاً مناقضاً تماماً فيرفعون الشبهات والشكوك والاختلاقات الى مستوى

---

[٩١] يحضرني في هذا الصدد ما كتبه الأمير هاري (حفيد ملكة بريطانيا السابقة اليزابيث الثانية) في مذكراته عن شعوره تجاه ضحاياه من 'طالبان' باعتبارهم قطع شطرنج وهو ما يدل على مدى العنصرية والاستهتار بالقيمة الإنسانية لدى العقلية الغربية النموذجية خاصة حينما يكون الضحية مسلماً. وينبغي ان نلاحظ ان 'قطع الشطرنج' اسوأ حالاً من 'الحيوانات البشرية' وهو ما قد يشير الى ان غالانت اكثر انسانية من الأمير هاري. والواقع ان من شبه المؤكد ان بعض ضحايا الأمير هاري ـ على الأقل ـ لاعلاقة لهم بطالبان وانما هم مدنيون مساكين ساقهم حظهم العاثر للوقوع في مدى رماية الأمير هاري وامثاله من القتلة المجرمين الذين يتسلون باصطياد 'الحيوانات البشرية' او تحقيق انتصارات شطرنجية. وحتى لو كان جميع ضحايا هاري من طالبان وكانوا يستحقون القتل فان اعتبارهم قطع شطرنج يدل على مدى تحجر العاطفة الإنسانية لدى الشخصية الغربية النموذجية ومدى دونية نظرتها للآخر ـ خاصة الضعيف المسلم ـ ومدى استهتارها بالقيم الإنسانية النبيلة. وينبغي ان أُذكّر هنا كذلك بالتصريح المشهور للصهيونية المقبورة مادلين اولبرايت (التي كانت وزيرة خارجية الليبرالي التحرري المدافع عن حقوق الإنسان بِل كلينتون) التي اعتبرت موت نصف مليون طفل عراقي (في حرب التجويع التي شنتها الولايات المتحدة ضد شعب العراق) ثمناً مستحقاً (اي مقبولاً ومبرراً).

الحقائق الصريحة حين يتعلق الأمر بروسيا او الصين او ايران او غيرها من الدول التي لاتسير في ركابهم (كما حدث مثلاً من اختلاق وتهويل لما تعرض له بعض المعارضين في هذه الدول) فضلاً عن اكاذيبهم واختلاقاتهم بحق المقاومة وحرب الإبادة (ككذبة ذبح الرضع واغتصاب النساء وكذبة صاروخ سرايا القدس الذي دمّر مستشفى المعمداني).

٧. إنكار ان الصهاينة يستهدفون المدنيين والبنى التحتية المدنية، بل الادعاء - بكل صلافة ووقاحة - ان اسرائيل تفعل كل ما بوسعها لتجنب الحاق الأذى بالمدنيين والأهداف المدنية.[٩٢] ويأتي في صدارة هؤلاء المنكرين المسؤولون والناطقون الرسميون الأمريكيون الذين ما فتؤوا يرددون هذه الأكاذيب دون خجل ولا حياء او ينفون - في احسن احوالهم - وجود دليل على استهداف الجيش الصهيوني للمدنيين والبنى التحتية المدنية. وقد شاركهم في هذا الكذب الوقح مسؤولون واعلاميون وشخصيات عامة في بريطانيا والمانيا ودول اوروبية وغربية اخرى. وقد كانت مقاربة الغرب لما تفعله روسيا في اوكرانيا مختلفة تماماً إذ لا يتردد الغربيون في تصريحاتهم الرسمية واعلامهم في اتهام روسيا جزماً باستهداف المدنيين والبنى التحتية المدنية حتى حين تستهدف روسيا اهدافاً عسكرية او اهدافاً تسهم في المجهود الحربي الأطلسي خاصة حينما تكون مثل هذه الأهداف قريبة من منشآت مدنية مما يتسبب في وقوع بعض الأضرار الجانبية. وفي هذا السياق ينبغي لفت الانتباه الى مدى صلف الصهاينة واستخفافهم بعقول الناس وعدم خجلهم من الكذب المفضوح بادعاء ان الجيش الصهيوني هو الجيش الأكثر اخلاقية في العالم وانه يفعل كل ما بوسعه لتجنب ايذاء المدنيين والإضرار بهم وبممتلكاتهم.

٨. الادعاء (تبريراً لتجويع القطاع وخنقه وحرمانه من سبل الحياة) ان المساعدات الإغاثية من طعام ودواء ووقود وما شابه ذلك تذهب الى حماس التي تسرقها وتصادرها وتمنع وصولها للمدنيين وتستعملها لدعم المجهود الحربي للمقاومة. وقد برع في هذا النوع من الكذب 'الأذكياء' من غلاة المستوطنين الصهاينة (وبضمنهم رئيس وزرائهم) الذين يتعرضون - برعاية الجيش الصهيوني ومساعدته - لقوافل الإغاثة لمنعها من الوصول الى المدنيين في غزة بقطع الطرق واستهداف الشاحنات وتخويف السائقين واتلاف المساعدات

---

[٩٢] هذا يخالف صراحةً ما عبر عنه الكثير من الصهاينة (من مسؤوليين كبار واعلاميين وحاخامات وافراد عاديين و ... إلخ) جهاراً نهاراً من رغبتهم في رؤية القطاع مدمراً بالكامل وقتل جميع اهله دون تمييز إذ حمّلوا مسؤولية طوفان الأقصى على جميع سكان غزة (حتى الأطفال الرضّع الذين هم 'إرهابيون' بالقوة وفي المستقبل) وطالبوا بالانتقام من القطاع بكامله وبكافة مكوناته. وقد ترددت دعوات الإبادة الشاملة هذه كذلك في امريكا من رجال كونغرس وشخصيات مرموقة في الحزب الجمهوري وشخصيات مرموقة في الكنائس الإنجيلية وكثير من امثالهم من المجرمين وأبواق الترويج للإجرام السادي المنظم.

وما شابه ذلك من تكتيكات لتبرير افعالهم الدنيئة. واما الأغبياء منهم ـ وهم الأكثر صراحةً وصدقاً ـ فلا يترددون في الإعلان عن نيتهم تجويع المدنيين الغزيين بهدف قتلهم او تهجيرهم.

٩. ترديد الأكاذيب (تبريراً لاستهداف المدنيين والبنية التحتية للقطاع) عن استخدام المستشفيات والمدارس والمساجد ونحوها من المراكز المدنية كمقرات لحماس او مراكز قيادة وتحكم لها او قواعد لإطلاق الصواريخ واستهداف الجيش الصهيوني او اخفاء انفاق ومستودعات وما شابه ذلك من اكاذيب مفضوحة لتبرير الإبادة وتسويقها. وقد دمرت الكثير من المستشفيات والمنشآت والبنى التحتية المدنية ـ فضلاً عن البيوت والتجمعات السكنية ـ بهذه الذرائع والأكاذيب المفضوحة. ولم يتردد الغربيون ـ كالعادة ـ في ترديد هذه الأكاذيب وتسويقها وكان للأمريكيين ـ بعد الصهاينة ـ حصة الأسد من هذه الأكاذيب ترديداً ودعماً. ويأتي في هذا السياق ما دأب عليه الإعلام الغربي ـ تبعاً للصهاينة ودعماً لهم ـ من ترديد كذبة ان حماس تمترس بالمدنيين لتبرير استهداف اسرائيل للأهداف المدنية. والواقع ان معظم الأهداف التي استهدفتها اسرائيل لا ارتباط لها بحماس لا منظمةً ولا افراداً، بل حتى الأهداف المدنية المرتبطة ببعض افراد حماس (كبيوتهم او بيوت اقاربهم) لا يجوز استهدافها حسب القانون الإنساني لأنها اهداف مدنية. ولو جاز استهدافها لجاز استهداف المدن الغربية بالأعمال 'الإرهابية' بنفس الحجة، او لجاز على الأقل استهداف عوائل واقارب العسكريين الأمريكيين والغربيين خاصةً من شارك منهم في حروب اجنبية او ارتكب جرائم حرب (كما حدث في العراق وافغانستان). والواقع ان اسرائيل تضع لنفسها ـ وللغرب بدعمه لها ـ سابقة خطيرة قد تكلف اسرائيل والغرب ثمناً باهظاً في المستقبل، فمن يدري ما ستكون عليه موازين القوى في المستقبل القريب والبعيد إذ قد تميل (بل يُتوقع ان تميل) هذه الموازين ضد اسرائيل والغرب ولصالح اعدائهم مما يجعل ارتكاب مجازر ابادة ضد الإسرائيليين والمدنيين الغربيين مبرَّراً بنفس حجة 'التمترس' الإسرائيلية التي قبلها الغرب وسوَّقها.

١٠. استهداف الصحفيين ومنعهم من الدخول الى القطاع والوصول اليه وفرض الرقابة عليهم وعلى تقاريرهم وحظر وسائل الإعلام التي لا تروج للرواية الصهيونية من العمل في فلسطين المحتلة بهدف التعتيم على جرائم الإبادة ومنع اخبارها من الوصول الى القارئ والمستمع والمشاهد.[٩٣] وقد قُتل من الصحفيين والمراسلين (وطواقمهم) خلال فترة وجيزة من ملحمة طوفان الأقصى وفي بقعة جغرافية ضيقة (هي غزة) ما

---

[٩٣] رغم ان هذا جهد عسكري صهيوني وليس تكتيكاً اعلامياً الا انه ينبغي ان يعد جزءاً من الجهد الإعلامي الصهيوني للدفاع عن الإبادة بتقليل بشاعتها عبر خنق الصوت وحجب الصورة.

لم يقتل منهم خلال سنوات طويلة وفي نزاعات عديدة حول العالم. ولم يبخل الغرب ومؤسساته الإعلامية والحقوقية بالتغاضي والصمت عن هذه الأفعال الإجرامية او التعبير (في احسن الأحوال) بصوت خفيض عن شجبها، إذ لم تحظ هذه الجرائم المنظمة ضد الصحفيين بالاهتمام الكافي لدى المؤسسات الإعلامية والحقوقية الغربية، ولو وقع مثل هذا او جزء منه في صراع آخر (كالصراع الروسي الأطلسي في اوكرانيا) لأقام الغرب الدنيا ولم يقعدها ـ تغطيةً وإدانةً لهذه الجرائم ـ ولهُوِّلت وضُخمت وأُخذت الى المحاكم والمنظمات الدولية المعنية واتُخذت اجراءات وعقوبات رادعة وكُرِم من تضرر من هذه الأعمال الإجرامية و ... إلخ. ولكن حين يتعلق الأمر بالشأن الفلسطيني ويكون المجرم صهيونياً فان الغرب يفقد حماسته لقيمه المزعومة والتزاماته المفترضة بالقانون الدولي لأن ولاءه لإسرائيل فوق كل ولاء ودعمه لها لا تحدده قيم او التزامات او قوانين محلية او دولية فإسرائيل هي القيمة المطلقة التي لا يعلو عليها شيء.

١١. حجب الرواية الحقة والصورة الصادقة عن الوصول الى القارئ والمستمع والمشاهد. ولقد كان لوسائل الدعاية الغربية النصيب الأكبر من هذا التكتيك المشين واللاأخلاقي بتغطيتها اللامتوازنة حيث تحجب صور المجازر والإبادة وتغفل تغطية احداثها ووقائعها او تقلل من شانها بينما تحاول بكل السبل والوسائل إسماع الرواية الصهيونية والترويج لها او الاهتمام بأحداث تافهة ووقائع سخيفة خدمةً لهذا الهدف. والواقع ان من يتابع بعض محطات الإعلام الغربي وقنواته ودورياته وشبكاته (وهُنّ كثر) لا يكاد يشعر بوجود اي شيء يدور في غزة وكأن ما يجري هناك انما هو في مجرة اخرى او كأن غزة ما وُجدت قط.

١٢. قطع الانترنت عن القطاع لإعاقة الجهد الإعلامي (الموازي والبديل للإعلام التقليدي) الهادف لنشر الحقيقة وفضح جرائم الإبادة. وقد تكررت حوادث القطع هذه، كما استطاعت اسرائيل ـ بنفوذها الواسع والدعم الغربي اللامحدود لها ـ منع توفير وسائل اتصال وخدمات انترنت بديلة.

١٣. الاستخدام المنظم والواسع لشبكة الانترنت ـ ووسائل التواصل الاجتماعي ومنصاته بنحو خاص ـ لترويج الرواية الصهيونية الكاذبة مع محاربة المحتوى المعادي للإبادة والفاضح لجرائمها. فقد حرصت بعض منصات التواصل الاجتماعي على التضييق على المحتوى الفلسطيني الفاضح للإبادة بينما كانت تروج وتشجع الإعلام المضاد الداعم للإبادة والمضلل والمزيِّف لوقائعها. كما قامت اسرائيل ـ ضمن جهد منظم لتبرير الإبادة وتسويقها ـ بحملة اعلامية الكترونية واسعة على شبكة الانترنت انفقت عليها عشرات الملايين (وربما مئات الملايين) لتشويه صورة حماس (كجعلها مساوية لداعش) وترويج الأكاذيب عما حدث في عملية طوفان الأقصى (كـ 'ذبح الرضع' و 'اغتصاب النساء' مما اشرنا له آنفاً). وقد ساعدها في ذلك وتواطأ معها كبريات شركات

الانترنت والتكنولوجيا الرقمية (مثلاً بقبول اعلانات الدعاية الصهيونية ومنع نظيرتها الفلسطينية او بحجب المحتوى الفلسطيني او تحديد ظهوره وانتشاره مع فعل العكس تماماً مع المحتوى الصهيوني). وقد كان هذا شكلاً آخر من اشكال التواطؤ ـ بل الاشتراك ـ الغربي في جريمة الإبادة والتستر عليها والدفاع عنها وتبريرها.

٥.٤ أساليب الإعلام الصهيوني والمتصهين في إدارة معركة المعنويات

لقد اعتمد الإعلام الصهيوني والمتصهين تكتيكات وأساليب معروفة وقديمة في معظمها لرفع معنويات المعسكر الصهيوني وتهبيط معنويات المقاومة الفلسطينية ومحور المقاومة والبيئات الحاضنة لها كجزء من الحرب الإعلامية والنفسية الموازية لحرب السلاح والميدان. ومن هذه التكتيكات والأساليب ما يلي:

١. التقليل من خسائر الصهاينة ـ كمّاً وكيفاً ـ او انكارها تماماً لتصوير الصهاينة بمظهر المنتصر الذي يكسب المعركة. وهناك دلائل ومؤشرات ـ بل ادلة قاطعة احياناً ـ تؤكد ان الخسائر الصهيونية في العديد والعدة اكبر بكثير (ربما بعدة اضعاف) مما يعترف به العدو وان العدو لا يعترف الا بأقل القليل مما يضطر للاعتراف به للحفاظ على شيء من مصداقيته، إذ هو يخفي خسائره التي يمكن اخفاؤها كما انه لا يدرج في قائمة خسائره البشرية 'شهداءه' من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة ـ كالمرتزقة الأجانب والدروز وعرب النقب ـ الا في حالات استثنائية. وعلى كل حال هذا ليس غريباً على هذا الكيان المسخ القائم على العنصرية والكذب.
٢. التضخيم من الإنجازات العسكرية المزعومة التي يحققها الصهاينة في الميدان لتصوير الصهاينة بمظهر المنتصر كذلك. ويدخل في هذا الإطار تصوير العمليات ضد المدنيين كعمليات ضد المقاومة وتصوير قتل المدنيين وتدمير البنى التحتية المدنية كتصفية لقوات المقاومة وكتائبها ومقراتها ومنشآتها. وقد دأب الإعلام الصهيوني والمتصهين على الكذب الممنهج بادعاء ان الأهداف المدنية هي اهداف عسكرية للمقاومة وان الضحايا المدنيين هم مقاتلو حماس.
٣. التهوين من انجازات المقاومة ومحور المقاومة عموماً والتقليل من كفاءة ونوعية وفاعلية الضربات التي يتلقاها الكيان الصهيوني كما حدث في التهوين من فاعلية الضربة الإيرانية وآثارها على هذا الكيان. كما ان العدو

الصهيوني وداعميه من الأمريكيين والبريطانيين يتكتمون ـ ما استطاعوا ـ على الضربات التي يوجهها اليمن والمقاومة العراقية الى اهداف بحرية وبرية تابعة للعدو او متعاملة معه، كما يحاولون التقليل من شأنها وتهوين آثارها وخسائرها حين يضطرون للاعتراف بوقوعها. ويمارس الكيان نفس هذه التكتيكات ـ وتكتيكات مشابهة ـ تجاه العمليات التي يقوم بها حزب الله داخل فلسطين المحتلة والجولان السوري المحتل إذ يخفي ما امكن اخفاؤه من عمليات وخسائر ويهوّن من شأن ما لايمكن اخفاؤه، ولا يعترف ـ عموماً ـ الا بأقل القليل من الخسائر البشرية والمادية مما يضطر الى الاعتراف به للحفاظ على شيء من مصداقيته.

٤. التهويل من قدرات اسرائيل ومحاولة نشر الذعر والرعب لدى حواضن المقاومة من قدراتها العسكرية المدمرة وردود افعالها القاصمة. ورغم ان الكيان الصهيوني يمتلك ـ دون ادنى شك وبفضل الدعم الغربي اللامحدود له ـ قدرات تدميرية هائلة فان هناك حدوداً وقيوداً على قدرته على استعمالها ووضعها موضع الفعل والتنفيذ وذلك يعود جزئياً الى حسابات الربح والخسارة (مثلاً في مسألة الرأي العام الدولي وما قد يترتب عليه من تغير مواقف بعض الدول وآثاره السلبية على صورة اسرائيل).[٩٤] كما يعود (بنحو اهم وفي مواقع وجبهات معينة) الى الردع الذي فرضته حركات المقاومة ومحور المقاومة وهو ما يتجلى بوضوح في جبهة الإسناد اللبنانية حيث فرض حزب الله معادلة ردع منعت اسرائيل (حتى الآن على الأقل) من استخدام فائض قوتها وقدراتها التدميرية كما تشاء. فرغم الأوجاع والآلام الشديدة والخسائر الفادحة التي يُلحقها حزب الله بالكيان الصهيوني فقد ظل هذا الكيان منضبطاً حتى الآن في ردود افعاله فلم يُعِد لبنان الى العصر الحجري ـ كما وعد من قبل ـ لأنه يعلم انه سيُعاد كذلك الى العصر الحجري. والواقع ان هذا ينبغي ان يُعدّ سابقة خطيرة لإسرائيل وإشارة مهمة الى اختلال موازين القوى لغير صالحها لأن هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها اسرائيل مردوعة وعاجزة عن استخدام فائض قوتها وجبروتها، وهو يدل على منحى الهبوط والتراجع الذي تشهده اسرائيل بنحو مطرد في العقود الأخيرة. فبعد ان كانت اسرائيل تزبد وترعد وتعربد وتدمر كما تشاء ولأتفه الأسباب نراها اليوم منضبطة وصابرة ومحتسبة امام الإذلال اليومي الذي تتعرض له على يد مقاتلي حزب الله وهو ما لم يكن يتصوره احد حتى عهد قريب.

---

[٩٤] الواقع ان اهتمام اسرائيل بصورتها وسمعتها لدى الرأي العام الدولي كان هاماً لها في الماضي حين كان قادة اسرائيل و 'شعبها' يمتلكون قدراً من الحكمة والعقلانية. اما اليوم فقد فقد هذا الاهتمام كثيراً من اهميته بسبب التطرف اليميني المفرط الذي يسيطر على المجتمع الصهيوني والحكومة الصهيونية وصعود قيادات هوجاء رعناء جاهلة متعصبة مدعومة بقواعد شعبية واسعة لا تقل عنها هوجاً ورعونة وجهلاً وتعصباً. وينبغي ان يكون هذا مصدر سعادة لنا لأنه سيدمر اسرائيل من الداخل والخارج ويأخذها الى مصيرها المحتوم في مزبلة التاريخ.

ويجدر اخيراً التذكير بقضية مهمة تتعلق بإدارة معركة المعنويات وهي ان اسرائيل (وهي 'النموذج الديمقراطي' الفذ والوحيد في 'الشرق الأوسط' بما يعنيه ذلك من 'شفافية واحترام للحريات') يفرض الرقيب العسكري فيها رقابة صارمة على كل ما يُنشَر ويُبَثّ وهي رقابة تتقبلها معظم مؤسسات وشركات الإعلام المحلي والأجنبي بكل رحابة صدر ودون تذمر (كالذي تظهره بعضها حين تمارس عليها رقابة كهذه ـ بل اقل من هذه ـ داخل بعض الدول 'المتخلفة' والمغضوب عليها) بل تتعاون مع الرقيب العسكري في فرضها وتطبيقها. فضلاً عن ذلك فان كثيراً من وسائل الإعلام المحلي والأجنبي تمارس رقابة ذاتية تطوعية على نفسها وتفرض رقابة كهذه على مراسليها والعاملين فيها خدمةً لأمن اسرائيل المقدس الذي هو فوق حرية الإعلام والقيم الديمقراطية واسلوب الحياة الديمقراطية (بل وفوق كل شيء) لأن هذه القيم و 'المقدسات' واجبة الاحترام والتطبيق فقط في الدول 'الملعونة الآبقة المارقة' لكي تكون وسيلة للتجسس عليها والتلاعب بأمنها وترويج الشائعات المغرضة والأكاذيب ضد حكامها وحكوماتها وما شابه ذلك.

٦.٤ أساليب الإعلام الصهيوني والمتصهين ضد المقاومة

لقد تعددت وتنوعت اساليب الإعلام الصهيوني والمتصهين ضد حركات المقاومة ومحور المقاومة وتشويه صورتها والتشكيك فيها وفي ولاءاتها وانجازاتها ودورها. والواقع ان حصة الأسد في هذا الجهد الإعلامي الصهيوني كانت من نصيب الإعلام المتصهين العربي (خاصةً في دول الأعراب ولبنان). وهذا الأمر ينبغي ان يكون منطقياً ومفهوماً لأن الإعلام ضد المقاومة يتوجه ـ منطقياً ـ بالدرجة الأولى الى حركات المقاومة وحواضنها الشعبية ومن ثَمّ ينبغي ان يكون التهريج بطبول محلية والخطاب بلسان عربي مبين (اي لسان حركات المقاومة وحواضنها الشعبية). وقد اتخذ الإعلام الصهيوني والمتصهين ضد حركات المقاومة ومحور المقاومة اشكالاً عدة اهمها مايلي:

١. تخوين حركات المقاومة والتشكيك في وطنيتها وولائها وانتمائها بتصويرها حركات عميلة لإيران. فهذه الحركات ـ حسب هذا الخطاب ـ تعمل بأوامر ايران وتوجيهاتها وتخدم مصالحها واهدافها وتسعى الى مد نفوذها وسيطرتها في المنطقة. ويعاد في هذا السياق تكرار مقولة السيطرة على العواصم العربية الأربع التي يُزعَم ان احد الإيرانيين قد نطق بها يوماً ما. ويبدو لي ـ من متابعتي الشخصية ـ ان هذه المقولة ربما تكون اشهر المقولات واكثرها تداولاً وترديداً في السنوات الأخيرة فقد رددتها ابواق الدعاية الصهيونية والمتصهينة (وكثير من الجهلة والببغاوات التابعة لهم) عشرات آلاف المرات (على الأقل) إذ هي حاضرة

ومسموعة ـ بمناسبة وغير مناسبة ـ في المناظرات الإذاعية والحوارات التلفزيونية، وهي مكتوبة ومقروءة في الصحف والمجلات والكتب، وهي تكاد ان تكون نظرية تدرّس وتبحث وتحلل في الجامعات والمراكز البحثية والأكاديميات العسكرية، وان تكون عقيدة قتال تتبناها الجيوش النظامية وحركات التحرر العربي و ... إلخ. وهذا لا يدل فقط على مدى الجهد الذي يبذله الصهاينة وعملاؤهم وببغاواتهم ضد حركات المقاومة ومحور المقاومة بل يدل كذلك على مدى السخف والتفاهة والانحطاط العقلي والأخلاقي الذي بلغه بعض 'المحللين الاستراتيجيين' العرب (وهم كثر، خاصةً في دول الأعراب ولبنان). والطريف ـ بل الغريب ـ انه لم يتنبه (او لم يُرِد ان يتنبه) احد ممن يستخدم هذه المقولة الشهيرة ويرددها الى التذكير بسيطرة امريكا (بل وحتى اسرائيل، عبر امريكا على الأقل) المحقَّقة والفعلية على كثير من العواصم العربية (بل معظمها) خاصة العواصم التي تنطلق منها هذه التحليلات المشبوهة وتتردد فيها هذه المقولات الببغاوية. فنحن هنا امام سيطرة ايرانية مزعومة على اربع عواصم عربية مقابل سيطرة امريكية محقَّقة وثابتة بالدليل القاطع على معظم العواصم العربية. فكان الأجدر ـ والحال هذه ـ بالشرفاء من هؤلاء (إن كان فيهم شريف) من دعاة التحرر والانعتاق من نير العبودية للفرس ان يبدأوا بالتذكير بـ ـ والتنبيه الى ـ السيطرة الأمريكية عليهم وعلى حكامهم وعواصمهم ويدعوا الى التحرر والانعتاق من العبودية لهم وللصهاينة، ثم يحقّ لهم بعد ذلك ان يُثنّوا بالدعوة الى التحرر والانعتاق من النير الفارسي.

٢. استخدام مصطلحات وتعابير ومفاهيم مشوِّهة ومضلِّلة هدفها تشويه صورة المقاومة وتلطيخ سمعتها في وعي ولاوعي القارئ والمستمع والمشاهد. ومن اشهر الأمثلة واوضحها في هذا الصدد وصف حركات المقاومة بالمليشيات (او ميليشيات ايران) للإيحاء بأنها عصابات غير منضبطة خارجة عن القانون. وكذا الحال مع وصف حركات المقاومة باذرع ايران او وكلاء ايران او ادوات ايران وما شابه ذلك للإيحاء (بل للاتهام الصريح) بعمالة هذه الحركات ولاوطنيتها وكونها مجرد ادوات رخيصة مفعول بها لا تملك ارادة الفعل واتخاذ القرار لنفسها. وكما قلنا في النقطة السابقة، فان هذه الاوصاف المقذعة والسخيفة غالباً ما تصدر عن اعلاميين ورسميين ومحللين في دول هي الأكثر تبعية وعمالة وذيلية للولايات المتحدة والدوائر الصهيونية. وربما يكون ذلك سبباً لتصديق بعض هؤلاء بما ينطقون به من اوصاف لأنهم يظنون ان كل الناس مثلهم في التبعية والعمالة والذيلية والخسة. وياتي في هذا السياق كذلك اساليب الشتم والتسقيط الرخيص التي يلجأ اليها بعض التافهين الساقطين من الإعلاميين المتصهينين بتحوير بعض الألفاظ والعبارات للسخرية من حركات المقاومة ومحور المقاومة فيشار مثلاً الى المقاومة بـ 'المقاولة' ويوصف محور المقاومة والممانعة بـ

’محور المقاولة والمماتعة‘.

٣. بث الأكاذيب والأراجيف ضد حركات المقاومة وشخصياتها ورموزها ومحور المقاومة. والأمثلة على ذلك كثيرة (بل لا تعد ولاتحصى) نذكر منها كنموذج ما دأبت على ترديده بعض الفضائيات الأعرابية من قصص مختلقة عن الفساد المالي لبعض قادة المقاومة وعوائلهم وابنائهم وبناتهم وما يعيشون فيه من بذخ وما يعقدونه من صفقات ويعملونه من مشاريع شخصية يوظفون فيها المال العام لأغراضهم الخاصة، وان قادة المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة يعيشون ويتنقلون خارجها طلباً للراحة والرفاهية والأمان ـ بل ويبعثون بعوائلهم وابنائهم الى اماكن آمنة خارج القطاع لنفس الأغراض ـ بينما يعرّضون المساكين من الناس داخل القطاع الى غضب اسرائيل وبطشها وجبروتها بارتكاب اعمال طائشة متهورة غير محسوبة العواقب والنتائج. وقد انفضحت بعض هذه الأكاذيب الرخيصة مؤخراً حين استشهد الكثير من أبناء وافراد عوائل هؤلاء القادة داخل القطاع (باستهدافات اسرائيلية بقصد الانتقام والتشفي) ممن كان يُظَن او يُفترَض ـ حسب الرواية الأعرابية ـ انهم يعيشون خارج القطاع. ولم تكلّف هذه القنوات الأعرابية نفسها عناء الاعتذار (الشكلي طبعاً) عن تقاريرها المضللة وقصصها التي انفضح كذبها واختلاقها.

٤. التيئيس من المقاومة والفعل المقاوم وانها عديمة الجدوى بل هي تقود الى الهلاك والخسران ولا تجلب الا القتل والخراب. ويدخل في هذا الباب وصف اعمال المقاومة (وطوفان الأقصى بنحو خاص) بالتهور والجنون والفعل اليائس الذي لا فائدة فيه ولا يجلب على المقاومين وحواضنهم الاجتماعية الا الفناء والدمار. بل ان بعضهم قد جعل هذا من باب القاء النفس الى التهلكة وهو بذا قد افتى ـ نيابة عن اسرائيل وخدمة لها ـ بحرمة المقاومة والتصدي للاحتلال وهو عين ما تريده اسرائيل. وهذا ’الإسلام الصهيوني‘ له امثلة وسوابق كثيرة نذكر منها ما أفتى به احد كبار شيوخ الوهابية من ان على الفلسطينيين أن يغادروا بلادهم ويخرجوا إلى بلاد أخرى، وان كل من بقي في فلسطين منهم فهو كافر. والواقع ان هذه الفتوى تشبه ان تكون فتوى لحاخام متطرف منها لشيخ مسلم بل احد ’كبار علماء الإسلام‘ بنظر عشرات او مئات الملايين من المسلمين. ولا يسعني هنا الا ان اقول: تبّاً وسحقاً لأمة تقدس شيوخاً ـ بل حاخامات ـ كهذا. وعلى كل حال، لا غرابة في هذا فالسلفية الوهابية واليهودية الصهيونية صنوان واختان بل هما ليستا سوى وجهين لنفس العملة وهي عملة الكيد للإسلام والمسلمين وتفتيتهم وقتلهم واستعبادهم. والدوائر الاستعمارية التي تدعم اليهودية الصهيونية هي نفس الدوائر التي تدعم السلفية الوهابية وتروّج لها وتحمي أنظمة الحكم الأعرابية التي تحتضنها وتسوّقها.

٥. وصف حركات المقاومة بالإرهابية واعتبار اعمال المقاومة ضد اسرائيل إرهاباً. والغريب ان مثل هذه الأوصاف والتصنيفات تصدر احياناً من مسؤولين رسميين وإعلاميين عرب ـ بل وفلسطينيين كذلك ـ وهو ما يعكس مدى الانحطاط والخيانة التي بلغها البعض. وواضح ان البعض يفعل هذا بأجر مدفوع وبتسخير من مؤسسات واجهزة غربية وصهيونية، بينما يفعل البعض الآخر هذا تزلفاً لأسياده الغربيين والصهاينة او طلباً للرفعة والحظوة لديهم (كأن يمنح جائزة دولية او يرشح لها او يحظى باهتمام اعلامي واستضافة على بعض الفضائيات وما شابه ذلك من متاع الدنيا القليل التافه). وهناك فريق ثالث يفعل هذا طلباً للشهرة وجلب الانتباه من باب 'خالف تعرف'.

٦. استخدام التحريض الطائفي والمذهبي لتسقيط المقاومة في اعين حواضنها وتقليص الدعم الشعبي لها. ويدخل في هذا الباب وصف حماس مثلاً بالرافضية والشيعية والتشكيك في انتمائها السني والتزامها به. وهذا النوع من التحريض الطائفي عادة ما يأخذ شكلاً عدائياً هجومياً مباشراً كما في اتهام حماس بالتشيع سبباً لها وقدحاً فيها. ولكنه يتخذ احياناً شكلاً ودياً ايجابياً (من باب دس السم بالعسل) وهو قد يكون الشكل الأخطر و 'الأذكى'. ويحضرني في هذا المجال ما وجدتُه على الانترنت قبل بضع سنين في موقع يتحدث بلسانٍ 'شيعي' عن حركة الجهاد الإسلامي باعتبارهم 'اخوة من الشيعة المهتدين الى مذهب الحق' ويثني عليهم على هذا الأساس ثناءاً عطراً بهدف تنفير المتصفح السني الغرّ الذي يبتلع هذا العسل المسموم فيتولد لديه اعتقاد ان حركة الجهاد الإسلامي هي حركة من المتشيعين وهو ما يثير سخطه على حركة الجهاد وكرهه لها. ولا شك ان مواقع كهذا تستخدم اساليب كهذه (اي اساليب التقمص الزائف والتمثيل المضلل وما شابهها) هي في غالبها عمل استخباري منهجي وجهد منظم تقف خلفه اجهزة استخبارات صهيونية واجنبية (بل وعربية متصهينة خاصة اجهزة دول الأعراب) ومجندون عرب يعملون في خدمتهم وتشارك فيه جيوش الكترونية وتقنيات نفسية وسيبرانية وتنفق عليه اموال طائلة، وكل هذا انما هو بهدف تسقيط المقاومة وفض حاضنتها الشعبية عنها.

٧. استخدام الدين والفتاوى في الحرب ضد المقاومة من قبيل تحريم الانتماء لحركات المقاومة وتحريم الدعاء للمقاومة بالنصر وتحريم الترحم على شهداء المقاومة وتسويق 'الصلح' مع اسرائيل وتطبيع العلاقات معها على انه 'صلح حديبية جديد' او انه من باب 'لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ'. وقد أبدع في هذا المجال شيوخ السلفية الوهابية وقد فعلوا ذلك اما تنطعاً وجهلاً (حيث إيمانهم بالسلفية الوهابية هو ابلغ دليل على مبلغهم من

العقل والعلم) وإما تكسباً ومتاجرة بالدين (حيث تبعيتهم لحكامهم الفاسدين الفجار هو ابلغ دليل على مبلغهم من الأمانة والصدق والدين).

٨. التقليل من انجازات حركات المقاومة ومحور المقاومة والتهوين من شانها. ويدخل في هذا الباب الإنكار الوقح (من بعض المتصهينين العرب) لفائدة ما يقوم به اليمن ولبنان في اسناد غزة (وهو ما بان سخفه بعد ان ضج الصهاينة وداعموهم جزعاً مما تقوم به جبهات الإسناد من دعم فعال وما يتكبده الكيان من دمار وخسائر هائلة بسبب هذا الدعم). وكان يكفي هؤلاء المتصهينين ـ إن كانوا حقاً يعتقدون بما يقولون ـ أن يسألوا اسيادهم في الكيان او يستمعوا الى إعلام الكيان وما يقال فيه عن هذا الدعم وآثاره المدمرة. كما يدخل في هذا الباب التقليل من اثر الضربة الإيرانية للكيان حيث تظافرت اجهزة الإعلام الغربي والعربي المتصهين على اعتبار الضربة فاشلة ولم تحقق اهدافها وان ما لا يقل عن 99 بالمائة من الصواريخ والمسيرات الإيرانية قد اعترض واسقط رغم ان عمليات حسابية بسيطة تدل على كذب ذلك (مضافاً الى ذلك ان هناك دلائل اخرى تشير الى تحقيق الضربة جزءاً مهماً من اهدافها المباشرة ـ وهي اصابة المنشآت المستهدفة ـ وجزءاً اهم واكبر من اهدافها غير المباشرة كإرعاب الكيان وردعه وتكبيده خسائر مادية متمثلة مثلاً في الكمية الهائلة من العتاد الغالي التي استخدمها ـ ومن معه ـ في عمليات الاعتراض وهو ما سنستعرضه في § ٧.٩). ويدخل في هذا الباب كذلك استخدام وسائل السخرية الفجة والغبية في الحديث عن افعال وانجازات حركات ومحور المقاومة (كسخرية بعض السخفاء المأجورين من معركة 'فقء العيون' ووصفها بمعركة ذات العمود او ذات العواميد والتي تبين لاحقاً انها لم تكبد العدو خسائر في المعدات ـ بمئات وربما بآلاف الملايين ـ فحسب بل اعمت العدو واصمّته وافقدته قدرات استخبارية حيوية مما مكّن المقاومة من تحقيق انجازات هائلة لاحقاً كتمكين مسيراتها من التسلل الى عمق الكيان لجمع المعلومات الاستخبارية الحيوية ـ كما فعل هدهد حزب الله ـ وتدمير اهداف حيوية فيه).

٩. التضخيم من انجازات العدو بل افتعالها كادعاء الإعلام الصهيوني والمتصهين تدمير اسرائيل شبكة رادار ايرانية مهمة رداً على الضربة الإيرانية. ومن هذا الباب ايضاً مبالغة الإعلام الصهيوني والمتصهين في الإنجازات الصهيونية العسكرية ضد حركات المقاومة في غزة (مثلاً بادعاء تدمير معظم كتائب القسام وقتل عشرات الآلاف منهم).

٧.٤ أداء الإعلام المقاوم

كان اداء الإعلام المقاوم جيداً ـ بل متميزاً ـ عموماً خاصة إعلام حزب الله إذ تتوفر له امكانات فنية وتقنية وفرص تسجيل وتصوير وإنتاج لا تتوفر للمقاومة في غزة المحاصرة الخاضعة للقصف الممنهج والرقابة الجوية على مدار الساعة. وقد كان لتصوير ونشر وقائع العمليات التي ينفذها حزب الله وأنصار الله ـ بالإضافة طبعاً للعمليات التي تنفذها حركات المقاومة في قطاع غزة وبعض العمليات في الضفة ـ اثر مهم في رفع معنويات معسكر المقاومة وإضعاف معنويات معسكر العدو، كما كان لهذا اثر في إجبار العدو على الاعتراف ببعض خسائره والتقليل من شأن انتصاراته المزعومة. والخلاصة ان اعلام المقاومة قد ابلى بلاءاً حسناً في هذه المعركة وكان جزءاً مهماً منها (رغم موارده المتواضعة نسبياً مقارنة بموارد الإعلام المضاد).

كما ينبغي ان ننوه هنا بالدور المشرف الذي قام به الإعلام المساند للمقاومة والملتزم بقضيتها (بمن في ذلك مجموعة من المحللين السياسيين والعسكريين الذين التزموا بقضية المقاومة دون ان يفرطوا بالتزامهم بالصدق والنزاهة والموضوعية ونحوها من القيم الأخلاقية والمهنية) وهو دور ينبغي ان يذكر فيشكر. كما انه دور لا يقل اهمية عن دور المقاومة المسلحة في هذه المعركة المصيرية، فمقاومة القلم والكلمة والصورة لا تقل قيمة او اهمية عن مقاومة البندقية والمدفع والرصاصة.

٨.٤ أداء الإعلام المعادي

اما الإعلام المعادي (واعني به هنا اعلام الجيش الصهيوني واجهزة الدعاية المرتبطة به مباشرة او غير مباشرة) فقد كان سيئاً للغاية، إذ غابت عنه الصورة الموثّقة لانتصاراته المزعومة خلافاً لما كان يفعله اعلام المقاومة.[٩٥] وهذا قد يفسر جزئياً بطبيعة الحرب اللامتناظرة التي يخوضها جيش العدو ضد حركات المقاومة لافتقار المقاومة لأهداف كبيرة ومرئية وظاهرة الدلالة عسكرياً (كالدبابات والمدرعات والمقرات الرسمية).

نعم، يستثنى من ذلك بعض أنفاق المقاومة الفلسطينية في غزة التي كشفها وصورها العدو واستخدمها في

[٩٥] حديثنا هنا يدور اساساً حول عمليات الجيش الصهيوني في غزة، اما عملياته في لبنان فقد كان الجيش الصهيوني ينشر تسجيلات مرئية وافلاماً لاستهدافاته الجوية لأهداف يزعم انها لحزب الله رغم ان كثيراً منها لم يكن كذلك كما ان معظم هذه الأفلام يفتقر للدلالة التوثيقية. نعم، التزام حزب الله بالاعتراف بخسائره ـ مع التغطية الإعلامية الحرة لما يقع في لبنان خلافاً للرقابة العسكرية على ما يقع في الكيان ـ منح هذه التسجيلات والأفلام شيئاً من المصداقية والقيمة التوثيقية.

حملته الدعائية للترويج لانتصاراته المزعومة. والواقع ان كثيراً من هذه الأنفاق لم يكن ذا قيمة عسكرية إذ كان بعضها مصمماً اساساً او خصيصاً لغرض الاستخدام في عمليات سابقة قد نُفذت وانتهت (كبعض الأنفاق المصممة خصيصاً للاستخدام في عملية طوفان الأقصى) كما ان بعضها الآخر كان هامشياً ومتواضعاً حجماً وقيمة.

وعلى كل حال، لم تكن الأنفاق التي اكتشفها العدو سوى جزء بسيط ـ بل تافه ـ من شبكة الأنفاق الضخمة التي تمتلكها المقاومة وتستخدمها بفعالية بالغة لإدارة المعركة وتكبيد العدو خسائر فادحة (وهو ما تشهد به وقائع الميدان حتى لو اقتصرت خسائر العدو على ما يعترف هو به وهو ليس الا جزءاً من خسائره). وكل الدلائل تشير الى ان الجزء الأكبر والأهم (كمقرات القيادة والسيطرة الرئيسية ومراكز تصنيع وتخزين السلاح والإمدادات) من شبكة الأنفاق هذه مازال سليماً وتحت سيطرة المقاومة وهي تستخدمه بشكل دائم وفعال في عملياتها العسكرية والجهد الداعم لها. بل ان هذا ما يؤكده كثير من التصريحات والتسريبات الاستخبارية والتحليلات الإعلامية. مضافاً لذلك ان عمل المقاومة في تجديد نفسها وترميم ما تهدم من بنيانها والتعويض عن خسائرها جارٍ على قدم وساق وبموازاة اعمال المقاومة الميدانية وهذا يعني ان ما يفقد من انفاق يعوض ببناء انفاق اخرى.

وعوداً على ما بدأناه، ينبغي الإشارة كذلك الى فشل الإعلام المعادي فشلاً ذريعاً في انتاج وتسويق بعض المسرحيات الهزيلة التي صنعها لدعم اكاذيبه وادعاءاته (كادعاء ان حماس تستخدم المستشفيات مقرات للقيادة والسيطرة وتخزين الأسلحة وما شابه ذلك من اكاذيب مفضوحة) فقد ظهرت هذه المسرحيات مصطنعة وبائسة وتفتقر الى المصداقية والقيمة التوثيقية. بل ان بعضها قد شكك فيه حتى إعلاميون ومحللون صهاينة ومؤسسات اعلامية داعمة عموماً للكيان الصهيوني ومتواطئة معه.

ويحسن اخيراً ان نتوسّع قليلاً (من باب الاستطراد) فيما ذكرناه آنفاً من ان ما يُفقد من أنفاق تعوضه المقاومة ببناء انفاق اخرى فهذا في الواقع يصدق لا على الانفاق فقط بل يصدق كذلك على كل موارد المقاومة وإمكاناتها وقدراتها، اي ان عمليات تصنيع الأسلحة وتجنيد المقاتلين وتدريبهم وما شابه ذلك تجري على قدم وساق وبموازاة اعمال القتال والاشتباك الميداني. وهذا يعني ببساطة ان المقاومة تجدد نفسها دوماً وهي بذا تضمن استدامتها وديمومتها وتُفرغ هدف 'تدمير حماس' من محتواه (او على الأقل تجعله اكثر صعوبة وأقل واقعية).

والطريف ان كثيراً من الناس كانوا يقلقون في بداية ملحمة طوفان الأقصى على المقاومة الفلسطينية في غزة

من حيث امكانية نفاد مخزونها من السلاح والعتاد والمؤن بسبب الحصار والتضييق عليها وعلى غزة عموماً مع تدفق الإمدادات والدعم اللامحدود الذي تقدمه امريكا ومن معها لإسرائيل، وهذا يعني ان من الحتمي (كما بدا حينذاك) ان الحرب لو استمرت فترة طويلة نسبياً فان المقاومة ستجد نفسها يوماً ما دون اسلحة واعتدة ومؤن تقاتل بها وهو ما يعني هزيمة المقاومة وانتصار إسرائيل.

ولكن الأحداث والتطورات الأخيرة (والتي تؤكّد ان اسرائيل تعاني نقصاً في القادة والجنود والدبابات والذخائر والتجهيزات الأخرى بينما اداء المقاومة الميداني يدل لا على استدامة لما كان بل على تحسن في هذا الأداء عما كان عليه في الأيام الأولى من طوفان الأقصى) 'تدعو للقلق على اسرائيل' التي يبدو ان مخزوناتها ومواردها (التي لا يكف الغرب عن امدادها بها) توشك ان 'تنفد' بينما امدادات المقاومة وامكاناتها باقية وتتجدّد.

وعلى كل حال، فان طبيعة الحرب اللامتناظرة يجعل من فكرة هزيمة حماس (عسكرياً وميدانياً على الأقل) فكرة غير واقعية بل فكرة خرقاء إذ يكفي للمقاومة كي لا تهزم ان تبقى كامنة وإن لم تمارس اي نشاط عسكري بل حتى لو استنفدت كل مخزوناتها من السلاح والعتاد والمؤن ولم تعد قادرة فعلاً على القتال. والخلاصة، ان مجرد بقاء المقاومة كامنةً في انفاقها (وفي غير انفاقها) يجعل من فكرة هزيمتها دون معنى ويجردها من اي مضمون وقيمة واقعية.

٩.٤ دور الإعلام البديل

لقد كانت شبكة الانترنت ومنصات التواصل الاجتماعي مسرحاً لـ 'طوفان' آخر أبلى فيه الإعلام البديل بلاءاً حسناً وحقق فيه انجازات وانتصارات مهمة رغم التحيز الواضح الذي اظهرته معظم منصات التواصل الاجتماعي وشركات التكنولوجيا الكبرى المسيطر عليها صهيونياً ـ بشكل مباشر او غير مباشر ـ لدعم الرواية الصهيونية وإسكات الرواية الفلسطينية وحجبها والحد من انتشارها وتخفيف وقعها واثرها. بل ورغم الإمكانات المادية والبشرية الهائلة (من اموال طائلة وجيوش الكترونية مدربة وتكتيكات سبرانية ودعم استخباري وعملاء وخونة عرب وغير عرب و ... إلخ) التي رصدها العدو وداعموه في حرب الرأي والصورة وهي إمكانات لم يكن حتى جزء يسير منها متوفراً لمعسكر المقاومة في معظم الحالات والأحيان.

والواقع ان دور الإعلام البديل لم يكن اقل اهمية ونفعاً من دور الإعلام المقاوم والإعلام الداعم للمقاومة، بل ربما زاد عليه في بعض المجالات والأحيان. فقد تكفل الإعلام البديل بتسجيل وتوثيق الجرائم الصهيونية

بشكل تفصيلي وعلى نطاق واسع ساهم مساهمة اساسية في فضح جرائم حرب الإبادة والتأثير على الرأي العام الدولي تعاطفاً مع الفلسطينيين ونبذاً وشجباً للصهاينة وداعميهم. ولولا الإعلام البديل لما ظهرت كثير من الجرائم البشعة ـ بشكلها التفصيلي المصور الذي تقشعر له الأبدان ـ بل ربما لم يسمع بها احد لأن قدرات الإعلام التقليدي وحضوره (على فرض وجوده ورغبته في نقل الحقيقة) محدودة.

وقد اتسمت الحملة الصهيونية في ميادين الإعلام البديل بالغباء والفشل عموماً ـ كنظيرتها في الإعلام التقليدي ـ رغم تحقيقها بعض النجاحات التي لاتتناسب ـ طبعاً ـ مع الإمكانات المرصودة لها والجهود المبذولة في تسويقها. فقد اتبعت هذه الحملة مثلاً اسلوب الكذب المفضوح احياناً (كمحاولة دعم وتوثيق كذبة ان تدمير مستشفى المعمداني كان بصاروخ اطلقته الجهاد الإسلامي فارتدّ خطأً) مما فتّ في مصداقيتها وأضعف من تأثيرها. كما اتبعت احياناً اخرى اساليب فاقعة صاخبة وساذجة تفتقر للإقناع والقدرة على التأثير.[٩٦]

ولكن اهم عناصر الضعف والوهن والفشل في الحملة الصهيونية هو الافتقار للمادة القابلة للدعاية والتسويق، فبينما يأتي الإعلام المقاوم البديل كل يوم بمئات التوثيقات المصورة تفصيلياً لمجازر تقع على مدار الساعة، يقابله الإعلام الصهيوني البديل بمزاعم عن ذبح رضيع او اغتصاب امرأة او تعذيب حماس لـ 'المختطفين' وما شابه ذلك من مزاعم وترهات تفتقر للمصداقية والتوثيق. وهذا في الواقع انما يعكس القصور الذاتي للباطل والزيف امام الحق والحقيقة وهو ما لا يستطيع اي اعلام باطل ـ بديل او غير بديل ـ تجاوزه مهما اوتي من قوة ومهما امتلك من امكانيات.

وخلاصة القول انه ينبغي الإشادة بالدور المشرّف والحيوي للإعلام البديل في فضح حرب الإبادة ودعم المقاومة ونشر الرواية الحقة والصورة الصادقة. وهذا الدور لم يكن فلسطينياً ولا عربياً فحسب بل كان جهداً دولياً شارك فيه الكثير من احرار العالم وشرفائه من قوى التحرر واليسار ومناهضة الاستعمار وجماعات الخضر وأنصار البيئة ودعاة نزع السلاح او الحد من التسلح ودعاة حقوق الإنسان والشخصيات العامة وصناع المحتوى والمؤثرين وغيرهم كثير ممن يصعب عدّهم وحصرهم. بل شارك فيه ايضاً كثير من احرار اليهود وشرفائهم ممن يناصرون الحق الفلسطيني ويعادون الصهيونية ويتبرأون منها، وهو دور ينبغي ان يذكر

---

[٩٦] يحضرني في هذا المجال الإعلان المدفوع الثمن الذي ظل الصهاينة يسوّقونه على الانترنت في الأشهر الأولى من ملحمة طوفان الأقصى حيث تذهب الى موقع عن الصحة او علوم الأرض ـ مثلاً ـ لينطّ في وجهك هذا الإعلان القبيح الصاخب الذي يصف حماس بانها داعش ويدّعي ـ بطريقة صاخبة وفاقعة ومقززة ـ انها تذبح الرضع وتغتصب النساء. ويبقى هذا الإعلان ينط في وجهك ـ كالحشرات القذرة ـ كلما اغلقته وهو ما يثير مزيداً من الاشمئزاز والضيق (او على الأقل يقلل اي تعاطف يجلبه هذا الإعلان الأحمق من متصفح صفيق احمق).

فيشكر.

١٠.٤ مسؤولية الإعلاميين المتواطئين والصامتين

وأخيراً، نود ان ننوه بالدور الإجرامي الذي اداه كثير من الإعلاميين المتواطئين (سواء في الإعلام التقليدي او الإعلام البديل) في كافة ارجاء العالم (وخاصة في بعض الدول العربية والغربية) حيث ساهموا بشكل فعال في حرب الإبادة بتزييف الوقائع وتبرير الجرائم الصهيونية والدفاع عنها وتشويه صورة المقاومة ومحاولة تحشيد الرأي العام لصالح اسرائيل وضد المقاومة. بل اود ان أُلحقَ بهؤلاء المتواطئين حتى من سكت عن اظهار الحق وفضح الباطل فكان شيطاناً اخرس إذ لا حياد في هذه الحرب التي يتواجه فيها الباطل الصريح مع الحق الصريح.

فكل هؤلاء (اي من تواطأ بالفعل والمشاركة ومن سكت ولم ينطق بالحق) لهم دور في حرب الإبادة هذه لا يقل عن دور القتلة والمجرمين (ممن ارتكبوا جرائم الإبادة في الميدان) ودور من امدّهم بوسائل القتل والتدمير ومكنّهم من فعل ذلك بتقديم أيّ شكل من اشكال الدعم (كالمالي والاقتصادي والسياسي والدبلوماسي وما شابه ذلك). ونحن بذا ندعو ان يعامل كل الإعلاميين الذين تواطؤوا مع الصهاينة او سكتوا ووقفوا على 'الحياد' لا كمجرمي حرب 'فخريين' تلاحقهم لعنة الله والتاريخ فحسب بل كمجرمي حرب حقيقيين (على قدم المساواة مع من ارتكب جرائم الإبادة من الصهاينة) وان يعاقبوا اشد العقوبات في اي محاسبة قادمة وان يدفعوا الثمن كاملاً (اي الثمن الفيزيائي والمادي لا المعنوي والأخلاقي فقط) لجرائمهم البشعة بدعمهم وتأييدهم لحرب الإبادة بالقول والفعل او بالصمت والسكوت.[٩٧]

[٩٧] واضح ان دعوتنا هذه تنطبق على كل من دعم حرب الإبادة وأيدها بالقول والفعل او بالصمت والسكوت سواء كان اعلامياً ام لم يكن، وانما خصصنا الإعلاميين بالذكر لأن هذا الفصل من الكتاب هو حول الإعلاميين ولأهمية الدور الذي يؤدونه وعموم تأثيره. وفي رأينا ان حجم العقوبة (للإعلاميين وغيرهم) ينبغي ان يتناسب مع حجم الدور المؤدّى والتأثير الحادث، فمن لعب دوراً كبيراً وأحدث تأثيراً مهماً تكون عقوبته اشد من عقوبة من لعب دوراً صغيراً وأحدث تأثيراً تافهاً.

الفصل الخامس
الإسلاميون وطوفان الأقصى

نقدم في هذا الفصل استعراضاً سريعاً لمواقف الحركات الإسلامية (والتيارات الإسلامية بشكل أعم) تجاه طوفان الأقصى وما فعلته لنصرة غزة في محنتها. وكما سنرى، فقد فشلت معظم هذه الحركات فشلاً ذريعاً في اختبار طوفان الأقصى وهو ما لاينبغي الاستغراب منه في ضوء ماضي هذه الحركات والتجارب التي مرت بها من قبل.[٩٨] نعم، ظهرت تجربة حركات المقاومة الإسلامية كتجربة فريدة وفذّة في التصدي للمشاريع الصهيونية الأمريكية والذود عن حياض الإسلام وأهله (سواء في جبهة غزة او في جبهات الدعم والإسناد لها) وهو ما يجعلها استثناءاً وخروجاً عن القاعدة.

والواقع ان ملحمة طوفان الأقصى قد عرّت معظم الإسلاميين وكشفت عوراتهم فظهروا امام الناس كما خلقهم الله دون كساء ولا رداء ولا نقوش ولا رتوش. ولم تكن هذه التجربة الأولى التي يخذلنا فيها الإسلاميون (او بالأحرى يخذلون فيها انفسهم) فقد كان تأريخهم (البعيد والقريب) في معظمه حافلاً بالخذلان بسبب المفارقة بين الشعار والواقع او بسبب تبني مشاريع مفرّقة وهدّامة من اساسها او بسبب 'البراغماتية' المفرطة او الانتهازية وما شابهها (او بغير ذلك من الأسباب التي بعضها أشد وأخطر).[٩٩]

وقبل ان ندخل في تفاصيل بحثنا يحسن بنا ان نمهد له بمقدمة عن 'الإسلاميين' بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، فهم حسب تعريفنا (الذي يتجاوز التعريف الشائع الذي عادة ما يعني نشطاء الإسلام السياسي ودعاته وحركييه في العصر الحديث ممن يتخذ من الاحزاب والتنظيمات وسيلة للعمل) الفئة من المسلمين التي تتخذ من الإسلام مركزاً لحياتها وبؤرة لاهتماماتها وهي بذا تختلف عن فئة المسلمين المتدينين إذ ليس كل المسلمين

---

[٩٨] هذا الرأي السيء في الإسلاميين ليس نتاجاً لتجربة طوفان الأقصى (ولا حتى تجربة 'الربيع العربي') فحسب وإن كانت هاتان التجربتان تعزّزان هذا الرأي وتوثّقانه.

[٩٩] إن قبلنا 'البراغماتية' من حيث المبدأ فينبغي ان نقبلها حين تكون في خدمة المبادئ والأهداف الكبرى فحسب (اي من باب تقديم الأهم على المهم ونحو ذلك) لا حين تُسخّر فيها المبادئ (او يُضحّى بها) لخدمة الأهداف والمصالح الشخصية والفئوية والحزبية والطائفية (وما شابه ذلك).

المتدينين إسلاميين (وربما ليس كل الإسلاميين متدينين على الأقل بالمعنى الحرفي والمتشدد).[١٠٠]

وهذا في الواقع يجعل تعريفنا صالحاً للانطباق لا على 'الإسلاميين' المعاصرين (اي من نشطوا في الأعوام المائة الأخيرة او نحو ذلك واتخذوا من الأحزاب والحركات والمنظمات وسيلة للعمل) بل على 'الإسلاميين' التاريخيين كذلك (رغم ان هذا ليس محط اهتمامنا في هذا الكتاب). كما ان تعريفنا يمتد ليشمل اصنافاً من 'الإسلاميين' ممن لا يحملون مشروعاً سياسياً محدداً (وإن كانت لمعتقداتهم ومتبنياتهم عادةً مداليل وتبعات ولوازم سياسية). فالسلفيون المتزمتون ـ مثلاً ـ إسلاميون سواء كانت متبنياتهم وطروحاتهم ذات مضامين سياسية (مباشرة او غير مباشرة وصريحة او ضمنية) ام لم تكن.

والواقع ان الإسلاميين (حسب تعريفنا العام الذي قدمناه) اصناف شتى وانواع كثيرة لا مجال لسردها تفصيلاً والخوض في تشعباتها، كما انها لا تهمنا (من حيث هي) في بحثنا في هذا الكتاب الذي هو عن طوفان الأقصى (وإن كنّا سنتعرض لبعضها في الأقسام التالية من حيث العلاقة بهذا الطوفان). ولكن يجب ان نفرّق بين نوعين اساسيين من الإسلاميين: النوع الفردي النزعة الذي يرى في الإسلام (او يتعامل معه على اساس كونه) مشروعاً للفرد (اي لتربيته ورسم طريقة حياته)، والنوع الجمعي النزعة الذي يرى في الإسلام (او يتعامل معه على اساس كونه) مشروعاً للجماعة (اي لرسم هويتها وتحديد معالمها). والواقع ان هاتين النزعتين انما تمثلان نوعين من 'الإسلامية' (او 'الإسلاموية' ولكن لا بالمعنى الشائع لهذه الكلمة) اكثر من تمثيلها لنوعين من الإسلاميين كبشر.

وعلى كل حال، لا داعي للانجرار وراء هذه التفاصيل (المشتِّتة للانتباه) إذ غرضنا هو ان نقول ان ما يهمنا هنا هو الصنف الثاني من الإسلاميين (اي اصحاب التوجهات والنزعات الجمعية). وهذا لا يعني ان النوع الأول بمنأى عن النقد والتقييم وتحميل المسؤولية (مما سنتعرض له في هذا الفصل وربما في غيره احياناً) ولكنه يعني ان النوع الأول ـ بما هو كذلك ـ انما يناله من النقد والتقييم وتحميل المسؤولية ما ينال غير الإسلاميين من البشر (وهو ما ليس موضوعاً لهذا الفصل). وهذا في الواقع يعفينا من (ويبرؤنا كذلك من تهمة) التعرض للناس في خياراتهم الخاصة وطريقة حياتهم المفضلة وما يعتقدونه من معتقدات وما يعتنقونه من افكار إذ هي عموماً محترمة عندنا ما دامت تحترم الآخر ولا تعتدي على حقوقه.[١٠١] فلا مشكلة لدينا اطلاقاً مع السلفي

[١٠٠] هذا يعني ان العلاقة بين 'الإسلاميين' و 'المتدينين المسلمين' هي إما علاقة العموم والخصوص مطلقاً او من وجه.

[١٠١] الواقع ان كل هذا مبرر بنظريتنا للمعرفة (اي المذهب التعريفي الذي عرضناه في كتابنا 'نقد الأسس المنطقية للاستقراء ونظرية المعرفة' الذي يحسن بالقارئ ان يرجع اليه ان كان مهتماً بهذا الموضوع).

الملتزمت ـ مثلاً ـ ما دام دائراً في مشروعه الفردي النزعة لأن هذا شأن شخصي وإن اختلفنا معه في الخيارات والتفضيلات ونحو ذلك. بل هذا في الحقيقة يمتد الى الأديان والمعتقدات الأخرى التي لا مشكلة لنا إطلاقاً مع أيٍّ منها ما دامت دائرة في النطاق الفردي ومنصبة عليه ومتمركزة حوله.

وأما عن بحثنا في هذا الفصل فسنستعرض في الأقسام الأربعة التالية مواقف اربعة أصناف رئيسية من الإسلاميين تجاه طوفان الأقصى بينما نفرد القسم الخامس من هذا الفصل لمحور المقاومة الذي هو تحالف من حركات المقاومة (التي هي الصنف الرابع من الإسلاميين في بحثنا هذا). اما القسم السادس والأخير من هذا الفصل فنلخص فيه رؤيتنا الإجمالية للإسلاميين.

١.٥ الجماعات السلفية

كما اسلفنا في مقدمة هذا الفصل، ما يهمنا من الجماعات السلفية تلك الجماعات ذات النزعة الجمعية (لا النزعة الفردية). وحين تتزاوج السلفية ـ بنظرتها الضيقة وتزمتها الفكري والسلوكي ـ مع النزعة الجمعية تتحول تلقائياً الى طائفية مفرِّقة هدّامة تنخر الأمة من داخلها فتفتتها وتمزّقها وتنشر فيها الانقسامات والصراعات والضغائن والأحقاد وبذا تكون (اي هذه الجماعات) خير عون لأعداء الأمة على أوليائها. وهذا في الواقع يجعل هذه الجماعات (كما الأفكار التي تتبناها هذه الجماعات) عرضة للاستغلال من قبل اعداء الأمة وتوظيفها لضرب الإسلام والمسلمين من الداخل. وخير من يمثل هذا النوع من الجماعات السلفية تلك الجماعات والتيارات التي تتبنى فكر ابن تيمية وابن عبد الوهاب (اللذين هما إسلاميان تأريخيان ينتميان الى هذا الخط بل هما من ابرز روّاده ومؤسسيه).

وعلى كل حال، ما يعنينا بالدرجة الأولى من 'الجماعات السلفية' (وهو ما عنونّا به هذا القسم) هو الجماعات الملتزمة بالفكر الوهابي القائم على اساس التكفير ونشر الكراهية والفرقة الطائفية وإثارة الفتن والنزاعات بين المسلمين والتشجيع على الاحتراب والتناحر. فهذه الجماعات متخصصة في حرب المسلمين وتفتيتهم ولذا خير ما يتوقع منها هو التزام الصمت (او التحدث بصوت خفيض لا بصوتها المزمجر الذي عهدناه منها في النزاعات الداخلية) امام جرائم الإبادة في غزة، وهو ما فعله بعضها، بينما ذهب البعض الآخر الى أبعد من ذلك بإدانة طوفان الأقصى وما نتج عنه من فعل مقاوم متذرعاً بحجج فقهية متنطعة كإلقاء النفس في التهلكة او بادعاء ارتباط حركات المقاومة بايران وعملها لخدمة الروافض والمجوس وما شابه ذلك من حجج مشبوهة وسخافات معروفة عن هذه الجماعات.

والواقع ان ارتباط كثير من هذه الجماعات (ورموزها وقياداتها وناشطيها) بانظمة الحكم العميلة في الخليج وشبه الجزيرة العربية ـ بل ارتباط بعضها بأجهزة المخابرات الصهيونية والغربية ـ يمنطق تصرفات هذه الجماعات ويضعها في اطارها الطبيعي وسياقها المناسب، فلم يصدر من هذه الجماعات ما يدعو للغرابة والعجب، بل العجب ـ كل العجب ـ ينبغي ان يكون لو ان هذه الجماعات فعلت غير ما فعلت والتزمت بمواقف مشرفة إسلامياً وإنسانياً.

لقد كنت اتمنى على السلفيين من اتباع هذه الجماعات (وعلى شيوخهم ورموزهم واصنامهم) ان يفعلوا في نصرة اخوتهم الغزيين السنة ضد اليهود بعض ما فعلوه في نصرة اخوتهم السوريين او العراقيين السنة ضد المجوس والروافض والنصيرية والمبتدعة فيصدروا فتاوى التكفير والتحريض والتحشيد والتجنيد ويجمعوا التبرعات ويحرقوا الأعلام والصور (كما احرقوا علم ايران في مصر وصورة سليماني ونصر 'اللات' في غزة) ويحشدوا الأمة ويجيشوها ويعبؤوها بالحقد ضد اليهود (وعملاء اليهود وأنصارهم من العرب والعجم) كما فعلوا ذلك ضد المجوس والروافض والنصيرية والمبتدعة. ولكن كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.

٢.٥ حركات الإسلام السياسي

ونعني بحركات الإسلام السياسي أساساً الحركات الإخوانية (اي المتفرعة عن تنظيم الإخوان المسلمين والملتزمة بفكره او الدائرة في هذا الفلك) وما شابهها من التنظيمات الإسلامية التي ترفع شعارات الأسلمة من قبيل 'الإسلام هو الحل' و 'الحكم لله' و 'القرآن دستورنا' وتلتزم (او تدّعي انها تلتزم) بالدعوة الى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن وتنبذ العنف وتدينه (ظاهرياً على الأقل) وتسعى الى الوصول الى الحكم عبر الوسائل السلمية (بل حتى الديمقراطية عبر صناديق الاقتراع).

والواقع ان طوفان الأقصى ـ بتداعياته وتفاعلاته ـ كان فضيحة كبرى لهذه الحركات تضاف الى سلسلة فضائحها حين كانت (وبعضها ما زالت) في الحكم في تركيا ومصر والسودان والمغرب وليبيا وتونس (خاصة خلال ما يسمى بالربيع العربي). فقد كانت مواقفها من طوفان الأقصى باهتةً عموماً في احسن الأحوال ولم تبد اي نشاط او حراك يتناسب مع حجم الحدث وهول الكارثة ومقدار الإمكانات المتاحة لها (كما لا يتناسب طبعاً مع فعاليتها المفرطة ونشاطها الهائل في النزاعات البينية والخلافات الداخلية كما حدث خلال 'الربيع

العربي' والتجربة السورية بالخصوص).[١٠٢]

والخلاصة ان هذه الحركات قد اثبتت مرة تلو مرة ـ مكاناً وزماناً وفعلاً ـ انها تفتقر للأصالة والمبدئية وانها لا تعدو ان تكون (في احسن احوالها) حركات وصولية ذرائعية لا تلتزم باطارها الآيديولوجي المعلن ولا بالتزاماتها الأخلاقية تجاه قضايا الأمة وعلى رأسها القضية الفلسطينية. فقد اقامت بعض هذه الحركات ـ حين وصلت للحكم ـ علاقات مع الكيان الصهيوني او احتفظت بها او رفضت تجريم التطبيع، كما انها دخلت في لعبات سياسية قذرة مع امريكا والغرب (بل حتى مع اطراف صهيونية تجاهر بعدائها للإسلام والمسلمين) من اجل مصالح شخصية وحزبية. ولذا لا ينبغي الاستغراب من مواقفها الباهتة وصوتها الخفيض تجاه طوفان الأقصى وتداعياته ومفاعيله بعد ان كان لها مواقفُ غاية في الحدة والتطرف وصراخٌ يصمّ الآذان ابان فترة التناحر الطائفي في العقدين الأولين من هذا القرن.

والواقع ان الإخوان المسلمين ـ بحركاتهم وفصائلهم ـ لم يجرؤوا على نجدة 'إخوانهم' في غزة (ولم يكلفوا انفسهم عناء فعل ذلك) إذا استثنينا بعض الأصوات الخفيضة هنا وهناك. ولقد كان ـ وما زال ـ بإمكان الإخوان المسلمين ان يفعلوا اكثر كثيراً مما فعلوا (إن فعلوا). لقد كان بإمكانهم مثلاً تحشيد الرأي العام العربي والمسلم وتحريك الشارع لنصرة اهل غزة (وهم سنة كالسنة الذين كان الإخوان 'ينصرونهم' خلال حروب 'الربيع العربي') وممارسة الضغط على الحكام لكي يدعموا غزة او ليكفوا عن التواطؤ مع الأمريكيين والصهاينة في حرب الإبادة. كما كان ـ وما زال ـ بإمكان الإخوان المسلمين ان ينظموا حملات واسعة لجمع التبرعات والإعانات لأهل غزة ومقاومتها (فضلاً عن تسخير الإمكانات المالية والمادية الكبيرة التي يملكونها لنفس الغرض).

لقد كنت اتمنى على الإخوان المسلمين ان يبذلوا شيئاً من الجهد الهائل الذي بذلوه في حربهم الطائفية ضد الشيعة خلال 'الربيع العربي' وان يُظهروا شيئاً من الحماس الذي أظهروه آنذاك. كما كنت اتمنى ان يكون خطاب الإخوان المسلمين ضد اليهود مشابهاً في شدته وعدوانيته لخطابهم ضد الشيعة في تلك الحرب الطائفية الضروس التي شنوها ضد الشيعة.

---

[١٠٢] ربما يعدّ البعضُ الأردن (وبعض بلدان المغرب العربي الى حد ما) استثناءاً لذلك ولكننا نتحفظ على هذا الاستثناء لكثافة الوجود الفلسطيني في الأردن مثلاً مع ان كل الأنشطة التي تقف وراءها ـ زعماً ـ حركات الإسلام السياسي (وهي لا تتجاوز تنظيم بعض المظاهرات والوقفات الاحتجاجية) في هذه الدول كان بالإمكان مضاعفتها كماً وفعل المزيد منها نوعاً. والخلاصة ان تقصير هذه الحركات وتخاذلها وفشلها في بذل جهد كاف لتحريك الشارع مثلاً لاينبغي ـ حسب رأينا ـ ان يكون موضعاً للنزاع والجدال. بل ان خور هذه الحركات وتخاذلها في نصرة غزة ينبغي ان يفهم في سياق تواطئها (وربما تنسيقها) مع انظمة الحكم وربما يدخل ضمن قواعد اللعب والاعتبارات المصلحية والتفاهمات مع هذه الأنظمة.

لقد كنت اتمنى على الإخوان المسلمين ان يكونوا قد تحلّوا في سلوكهم تجاه الشيعة (في ’الحرب الأهلية‘ خلال ’الربيع العربي‘) بـ ’الليبرالية‘ و ’التسامح الديني‘ وتجنب التعميمات وتحويل النزاع نزاعاً دينياً بما يتحلون به الآن من هذه الصفات في سلوكهم تجاه اليهود. كما كنت اتمنى على الإخوان المسلمين ان يحرّضوا على امريكا والغرب والأنظمة العربية المتواطئة معها في حرب الإبادة كما كانوا يحرّضون على ايران وسوريا وحزب الله وان يستخدموا نفس اللغة العدوانية الهابطة التي كانوا يستخدمونها آنذاك. ولكن كما يقول الشاعر: كلاب للأجانب هم ولكن، على ابناء جلدتهم أسود.

لقد كنت اتمنى كذلك على حماس (الإخوانية طبعاً) ان تتخذ من المواقف وتصدر من التصريحات النارية العدوانية ضد الأنظمة العربية العميلة المتواطئة في حرب الإبادة ما كانت تتخذه من مواقف وتصدره من تصريحات ضد نظام الحكم في سوريا (بل حتى ضد ايران وحزب الله اللذين كانا يُهاجَمان بشراسة من بعض قيادات حماس وكثير من كوادرها وقواعدها).[١٠٣] كما كنت اتمنى على حماس ان تُقلِّد قادة اليمن او ايران او حزب الله قيادة العالم الإسلامي بفضل تصديهم للمشروع الصهيوني الغربي ودعمهم لقضايا الإسلام والمسلمين (كما ظهر في ملحمة طوفان الأقصى) كما قلدت من قبل القيادة التركية قيادة العالم الإسلامي بفضل ’دعمها ومساندتها لقضايا المسلمين‘ (اي السنة) خلال الحروب الأهلية ابان ’الربيع العربي‘.

كل هذا وغيره الكثير الكثير إنما يدل على إفلاس حركات الإسلام السياسي الإخوانية (بما فيها حماس كحركة اخوانية لا كحركة مقاومة) ومن لفَّ لفَّها وسار على نهجها وتلفع بعباءتها. بل ينبغي ان يكون هذا (وغيره الكثير مما جرى من قبل) مدعاة لنا لوضع علامات استفهام جادة حول طبيعة افكار هذه الجماعات وحقيقة اهدافها وتوجهاتها وما إذا كانت اسلامية حقاً ام شكلاً وصورة وادعاءاً. بل قد نذهب بعيداً قليلاً لنضع علامات استفهام جادة حول ولاءات وارتباطات هذه الجماعات وما إذا كان بعضها ـ على الأقل ـ مرتبطاً بأجهزة مخابرات غربية وعربية عاملة في خدمة المشروع الصهيوني الأمريكي، وما إذا كان دور هذه الجماعات مكملاً ومتمماً لدور الجماعات السلفية (انظر § ١.٥) والحركات ’الجهادية‘ (انظر § ٣.٥) في تفتيت الأمة وإشغالها بحروب داخلية ونزاعات بينية خدمةً للمشروع الصهيوني الأمريكي.

---

[١٠٣] الواقع ان هذا ليس هو الإخفاق الوحيد لحماس إذ هي أخفقت كذلك في إدانة النظام السعودي في حربه الإبادية ضد اليمن وهو موقف لا يتسق مع حماسها في تصريحاتها ضد نظام الحكم في سوريا ومن يدعمه. وعلى كل حال، هذا الموقف الطائفي ليس غريباً عن حماس الإخوانية كما ان حماس لم تكن الوحيدة في ذلك لأن معظم ’العالم السني‘ تعاطف مع النظام السعودي في عدوانه على اليمن في بداية ذلك العدوان وإن تغير الأمر فيما بعد.

٣.٥ الحركات ’الجهادية‘

لقد كانت فضيحة الحركات ’الجهادية‘ (كالقاعدة وداعش ومن لفّ لفّها وسار على دربها) بطوفان الأقصى اقبح واصرح حتى من فضيحة اخواتها من حركات الإسلام السياسي (راجع § ٢.٥) بل وربما اقبح حتى من اخواتها من الجماعات السلفية (راجع § ١.٥).[١٠٤] فهذه الحركات اما التزمت الصمت (او كادت) تجاه طوفان الأقصى وتداعياته او ادانت هذا الحراك صراحةً او ضمناً باعتباره حراكاً شيعياً رافضياً يدين بالولاء لإيران ويتحرك وفق املاءاتها ورغباتها. بل ان بعض هذه الحركات ’الجهادية‘ استمر في جهاده على الطريقة الوهابية الخارجية بتفجير المساجد واستهداف المواكب والاسواق والتجمعات المدنية على اساس طائفي كما تمليه الشريعة الوهابية (بدل ان توجه جهادها ضد اليهود والنصارى واشباههم ممن يرتكب حرب الإبادة ضد الغزيين من اهل السنة والجماعة او يعين عليها).

والواقع انه كان بإمكان هذه الحركات ان تفعل الكثير نصرةً لغزة وفلسطين وانتقاماً من اسرائيل وداعميها من العرب والعجم. ولا داعي للدخول في تفاصيل ما يمكن فعله مما هو معروف من سجلها الطويل الحافل بالأعمال ’الجهادية‘ المجيدة. ولكن ـ كما قلنا قبلاً ـ هذه الجماعات متخصصة في جهاد المسلمين والأبرياء من غير المسلمين ولذا لا يجوز لها ان تتعدى اختصاصها هذا بجهاد اعداء الإسلام والمسلمين. وهناك دلائل ومؤشرات كثيرة (بل أدلة قاطعة احياناً) على ان كثيراً من هذه الجماعات ليست سوى اذرع ضاربة لأجهزة الاستخبارات الغربية والصهيونية وأجهزة استخبارات الأنظمة العربية العميلة (العاملة بتنسيق مع الغرب والصهاينة) التي توظفها وتستخدمها في عملياتها الميدانية وخططها الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين. ولذا لا ينبغي لنا الا ان نثني على هذه الحركات ’الجهادية‘ التي قامت بالدور المنوط بها خير قيام فلم تقصّر ولم تقصر بل كانت كما أرادت وكما أُريد لها ومنها.

٤.٥ حركات المقاومة

ونعني بـ ’حركات المقاومة‘ فصائل المقاومة الفلسطينية ذات التوجهات الإسلامية (ممثلة بشكل اساس في

[١٠٤] نلاحظ ان الحركات ’الجهادية‘ غالباً ما تمثّل التجسيد العملي والميداني (او ’الجناح العسكري‘) للجماعات السلفية وافكارها العدوانية الطائفية. والواقع ان هناك تداخلاً بين هذين النوعين من الحركات الإسلامية (بل وبين الحركات الإسلامية عموماً) ولكننا فصلنا بينها للتوضيح والتفصيل وتجنب التعميمات وخلط الحابل بالنابل وأخذ ’البريء‘ بالمذنب. وواضح ان الحركات ’الجهادية‘ تتبنى على الصعيد النظري عموماً نفس الآيديولوجية الوهابية التي تتبناها الجماعات السلفية.

حركتي حماس والجهاد الإسلامي) وحزب الله اللبناني وجماعة انصار الله اليمنية (بما في ذلك تشكيلاتها ضمن الجيش اليمني التابع للحكومة اليمنية في صنعاء) وفصائل المقاومة العراقية (الممثلة في غالبها بتشكيلات فصائلية ضمن الحشد الشعبي العراقي). وهذه الحركات هي في الحقيقة الذراع الضارب والفاعل لمحور المقاومة الذي يتلقى اسناداً ودعماً عسكرياً وتقنياً ولوجستياً من ايران وسوريا ومن بعض الأطراف المؤلفة للحكومة العراقية (بما يشمل الأحزاب والحركات المرتبطة بها).

ولقد اظهر طوفان الأقصى ان حركات المقاومة هذه هي الحركات الإسلامية حقاً لأنها إسلامية بالقول والفعل إذ هي تدافع عن الإسلام والمسلمين ضدّ اعدائهم الحقيقيين من صهاينة وصليبيين، وليست هي كالحركات الإسلامية المزيفة (مما تعرضنا له آنفاً) التي تتلفع بالإسلام وتستخدمه ثوباً وشعاراً لتحقيق مآرب شخصية وحزبية ومكتسبات سياسية بل ان بعضها ليس سوى أدوات وأصابع وأذرع لأجهزة الاستخبارات الصهيونية والغربية والعربية العميلة.

كما أظهر طوفان الأقصى مدى صلابة وبسالة حركات المقاومة هذه وانها هي الجيوش الحقة للعرب والمسلمين لا كجيوش الأنظمة العربية التي هي ليست سوى جيوش مرتزقة دورها قمع الشعوب والتنمر على الضعفاء من شعوبها وشعوب الجوار وارتكاب المجازر بحق المدنيين وخدمة الأجانب بل وحتى الدفاع عن اسرائيل مباشرة جهاراً نهاراً (كما حدث في دفاع الجيشين الأردني والسعودي عن الكيان الصهيوني ضد الضربة الإيرانية او في دفاع الجيشين السعودي والمصري عن الكيان الصهيوني ضد الصواريخ والمسيرات اليمنية). فهذه الجيوش المزعومة اثبتت ـ في مواقع كثيرة عبر تاريخها الطويل ـ جبنها وتخاذلها وعجزها وخواءها وافتقارها لعقيدة القتال بل فساد عقيدة قتالها التي غالباً ما تجعل الصديق عدواً والعدو صديقاً إذ تتحالف ـ مثلاً ـ مع امريكا واسرائيل ضد ايران واليمن وحركات المقاومة.

والخلاصة ان حركات المقاومة الإسلامية هي الاستثناء الوحيد من بين الإسلاميين التي اجتازت اختبار طوفان الأقصى (بل اجتازته بتفوق وامتياز). وهذا يعني ـ فيما يعني ـ ان على الأمة ان تستثمر في حركات المقاومة هذه، كما ان عليها ان تطهّر نفسها من الأشكال الأخرى للإسلاميين الذين هم ليسوا سوى سرطان في جسم هذه الأمة لا يقل ضرراً وخبثاً وخطراً عن السرطان الإسرائيلي او سرطان الأنظمة العميلة (خاصة الأعرابية منها في دول الخليج وشبه الجزيرة العربية) التي زرعها الغرب الصليبي الصهيوني في جسم هذه الأمة لإضعافها وتمزيقها وتدميرها من الداخل.

٥.٥ محور المقاومة

لقد وضع طوفان الأقصى حدّاً لتندّر الصهاينة والمتصهينين (ومن تأثّر بهم من الإمّعات والببغاوات وأنصاف المتعلمين من العرب والأعراب ومن على شاكلتهم) الذين كانوا يسخرون من هذا المحور ويعدّونه ضرباً من الوهم و 'البلف' ويصفونه بأوصاف مقذعة (كمحور المقاولة والمماتعة) نكايةً به، وهو ما جعل كثيراً من الناس يخجلون (وما زال كثير منهم كذلك) من النطق بـ 'محور المقاومة' جدّاً واعتقاداً فيتحدثون ـ بدلاً عن ذلك ـ عن 'ما يسمى بمحور المقاومة' تجنباً للسخرية والإحراج. فقد جاء فعل محور المقاومة (خاصةً في اليمن ولبنان) ليدحر كل هذه السفاهات والسخافات الصهيونية والمتصهينة والجاهلة ويردّها على من جاء بها.

ونصيحتي للعرب والأعراب الذين مازالوا يشككون في مصداقية محور المقاومة ان يسألوا اسيادهم ومشغليهم من الصهاينة والغربيين (بل وحتى الأنظمة العربية العميلة) عن حقيقة محور المقاومة ومصداقيته. بل هم لا يحتاجون حتى عناء السؤال إذ ما عليهم الا ان يستمعوا الى سيدهم نتنياهو الذي ما انفك يوماً من الأيام عن الحديث عن المحور الإيراني (الذي هو الاسم العبري لمحور المقاومة وهو الاسم الذي يستخدمه كذلك بعض الناطقين بالعبرية من العرب والأعراب) واخطاره على اسرائيل والغرب (بل والمنطقة والعالم ايضاً بزعمه).

وقد شهدت تكتيكات 'العقلاء والأذكياء' من المتصهينين تجاه محور المقاومة تغييراً وتعديلاً بعد طوفان الأقصى ليتكيفوا ويكيّفوا خطابهم مع الظروف الجديدة والمتغيرات الطارئة، فبعد ان كانت تكتيكاتهم السابقة تملي عليهم إنكار وجود هذا المحور (صراحة او ضمناً) والتهوين من شأنه صاروا بعد طوفان الأقصى يطلبون منه المزيد والمزيد متهمين اياه بالتقصير ومشكّكين في مصداقيته هذه المرة لا من حيث القدرة على الفعل والواقعية على الأرض بل من حيث الإرادة للفعل وحجم الفعل المطلوب.

ورغم ان مقدار انخراط بعض اطراف محور المقاومة (اي حزب الله تحديداً وربما ايران كذلك)[١٠٥] في ملحمة طوفان الأقصى كانت (وما زالت لدى البعض) موضع بحث وأخذ ورد[١٠٦] فان التطورات الأخيرة

---

[١٠٥] لقد تناولنا موضوع ايران (وما التزمت به وما يتوقع منها وما يطلب منها) في § ١٦.٣.٢ فلا نعيد.

[١٠٦] لا يخفى على احد الدعوات التي صدرت من بعض قيادات وكوادر وقواعد حماس في المراحل الأولى من ملحمة طوفان الأقصى الى حزب الله ان يفعل المزيد في جبهة الإسناد اللبنانية، وهي دعوات شاركهم فيها كثير من المخلصين حرصاً وحباً لا بغزة واهلها ومقاومتها فحسب بل بلبنان واهله ومقاومته كذلك حيث اعتقدوا ان هذه هي الفرصة التاريخية لتوجيه ضربة قاضية ـ او على الأقل مقعدة ـ للكيان الصهيوني ومنعه لا من الاستفراد بغزة ومواصلة حربه عليها فحسب بل من شن حرب مدمرة على لبنان كان يخطط لها منذ سنين. وعلى كل حال، لا يسعنا الا التعبير عن احترامنا لجميع الآراء التي صدرت بهذا الخصوص ما دامت صادرة من المخلصين والشرفاء لا من المتصهينين والخونة والعملاء.

توحي بأن مقدار مشاركة محور المقاومة (وحزب الله تحديداً) في هذه الحرب وحجم انخراطه فيها كان قراراً حكيماً ومدروساً وانه الأفضل من حيث النتائج وحسابات المعركة بل وربما هو الأقل من حيث الخسائر والتضحيات (حتى في غزة) والأحسن من حيث الانتصارات والإنجازات (حتى في محور غزة).

فمثلاً لو حدثت حرب شاملة منذ الأيام الأولى (خاصةً إن كان ذلك بمبادرة من حزب الله) لأطلق الغرب يد اسرائيل اكثر مما اطلقها حتى الآن (بل لاشترك فيها مباشرة اكثر مما اشترك به حتى الآن) ولدُمرت غزة اكثر مما دمرت حتى الآن فضلاً عن تدمير لبنان وسوريا (وربما دول اخرى). مضافاً الى ذلك، لم تكن اسرائيل لتنفضح كما انفضحت حيث ارتَكبت جرائمها (حتى الآن) ضد عدو 'ضعيف' هو غزة مسنوداً 'بدعم محدود' من جبهات الإسناد، وهذا الانفضاح لم يكن ليحدث لو ان جرائم اسرائيل ارتُكبت في حرب شاملة قد تكون (او تُصوّر على كونها) حرباً وجودية يباح لإسرائيل فيها ما لا يباح لها في حرب 'عادية' بحجم الحرب التي خاضتها حتى الآن (وهو ما قد لا يكلفها من الخسائر في معركة الرأي والصورة ما تكبدته فعلاً حتى الآن).

وعلى كل حال، هناك الكثير مما هو وراء الكواليس وفي الغرف المظلمة مما لا نعلم به وهذا ينبغي ان يكون داعياً لنا الى الثقة بمحور وقوى المقاومة (خاصة حزب الله) وحسن الظن بها. وحسن الظن هذا مبرّر بما تطوعت ان تفعله قوى محور المقاومة دون ان تضطرّ اليه وعلى رأس ذلك اقتراح وتبني مبدأ وحدة الساحات الذي هو مبدأ تطوعي اقترحته قوى محور المقاومة ابتداءاً دون ان تكون مضطرة اليه. وأياً كان الحال والمآل، لا يحق للقاعدين والمتقاعسين (فضلاً عن الخونة والعملاء والمتواطئين) ان يتحدثوا في هذا الأمر او يحددوا ما يجب (او ما كان يجب) على محور المقاومة ان يفعله وان لا يفعله ومقدار الدعم الواجب عليه تقديمه ونوعه. فيكفي محور المقاومة فخراً وشرفاً انه الوحيد الذي هبّ لنصرة غزة مع انه ليس هو اولى بفعل ذلك ولا اقرب. بل الأمر يبدو اكثر وضوحاً وجلاءاً حين نلاحظ ان معظم من هو اولى واقرب لم يكتفِ بالسكوت والقعود والنكوص بل تواطأ مع الأعداء وقاتل معهم ضد غزة ودعمهم بكل اشكال الدعم التي اتيحت له.

٦.٥ خاتمة

تعاني الأمتان العربية والإسلامية من ثلاثة سرطانات رئيسية لا مستقبل لهاتين الأمتين دون استئصالها:

- السرطان الصهيوني (متمثلاً بـ 'دولة اسرائيل').
- سرطان الأنظمة العميلة (وعلى رأسها الأنظمة الأعرابية ودولها الشاذة في الخليج الفارسي ـ العربي وشبه

الجزيرة العربية).

- سرطان الإسلاميين (باستثناء المقاومين منهم).

الفصل السادس
الدين وطوفان الأقصى

نقدم في هذا الفصل عرضاً موجزاً لأفعال وانفعالات الفكر الديني (بمؤسساته الكهنوتية وانعكاساته الثقافية والاجتماعية المتجسدة في كتله البشرية) تجاه طوفان الأقصى وارتداداته ونتائجه. وكما سنرى، فان جميع الأديان تقريباً قد أخفقت في اختبار طوفان الأقصى بل فشلت فشلاً ذريعاً، إذ بينما وفّر بعض هذه الأديان الأرضية الروحية والأخلاقية والآيديولوجية والتهيئة النفسية لجرائم الإبادة في غزة، نجد بعضها الآخر يتواطأ او يلتزم الصمت او يقف على الحياد او يعبر عن مواقف باهتة، كما نجد بعضها يخفق في نجدة غزة بشحذ عزائم أتباعه وتوحيد صفوفهم وحشد طاقاتهم نصرة لغزة ودفاعاً عن مظلوميها.

وقبل الدخول في هذه التفاصيل يحسن بنا ان نتوقف قليلاً لنتحدث عن نوع المسؤولية التي يتحملها الدين عما 'يقع منه' ومن اتباعه. ورأيُنا في هذا المجال ان للدين ـ كأي آيديولوجية اخرى ـ نوعين من المسؤولية: مسؤولية نظرية (او مباشرة) متعلقة بطبيعة تعاليمه ونوع الأفعال التي يحثّ عليها ويربي اتباعه على الالتزام بها، ومسؤولية عملية (او غير مباشرة) متعلقة بطبيعة الأفعال التي تصدر عن اتباعه كجماعة دينية حتى لو كانت هذه الأفعال لم تصدر عن اتباعه التزاماً بتعاليمه وامتثالاً لها بل (احياناً) حتى لو كانت هذه الأفعال قد صدرت عن اتباعه مخالفةً لتعاليمه وإرشاداته.

فأما المسؤولية النظرية (او المباشرة) للدين فهي لا ينبغي لأحد الشك او التشكيك فيها لأن الدين حين يأمر بفعل ما او يستحسنه (او ينهى عنه او يكرّهه) فهو أحد 'الفاعلين' بل هو مصدر الفعل. فإن كان الفعل خيّراً (حسب الفطرة السليمة والقيم الإنسانية الأساسية التي يمكن تلخيصها بحسن العدل وقبح الظلم)[١٠٧]

[١٠٧] طبعاً هذا يبتني على ان كل شيء (حتى الدين) ينبغي ان يخضع لهذه القيم الأساسية وينصاع لها ويتماشى معها وهو ما نلتزم به (وهو حسب علمنا ما يقبله جمهور المسلمين وغالبيتهم من الملل والنحل التي لا تتصف بالتطرف والشذوذ). بل نستطيع الاستدلال عليه بالكتاب والسنة الثابتة: مثلاً 'إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... ' او 'إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ' او 'فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا' او 'إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق'.

استحق الدين المدح والثناء، وإن كان الفعل شرّيراً استحق الدين القدح والذمّ.

وأما المسؤولية العملية (او غير المباشرة) للدين فهي قد يُشكّ او يشكّك فيها إذ ما ذنب الدين في فعل لم يحرّض ابناءه على ارتكابه ولم يحثّهم عليه حتى وإن كانوا ارتكبوه كجماعةٍ دينية (بل حتى لو ارتكبوه مدفوعين بحماسةٍ دينية) فضلاً عما ارتكبوه (كجماعةٍ دينية) خلافاً لتعاليم دينهم. ولكن في رأينا لا ينبغي ان يُشكّ او يشكّك في هذه المسؤولية لأن الدين في الجماعات الدينية هو روح الجماعة ومصدر الهامها وهو حاديها وقائدها ومرشدها لا بنصوصه الصريحة فحسب بل بروحه ومضامينه التي بين السطور التي لا تُقرأ جهراً وتصريحاً ومنطوقاً بل تُتشرّب 'همساً' وإيحاءاً ومفهوماً. بل نقول اكثر من ذلك (وهو ما يبرر امكانية تحميلنا الدين المسؤولية احياناً عما اقترفه اتباعه مخالفين لتعاليمه) ان الدين كما يُنسب له الفضل حين يُحسن ابناؤه الفعل ينبغي ان 'يُنسب له الفضل' حين يسيء ابناؤه الفعل لعجزه (على الأقل) عن تربيتهم وفشله في ردعهم، فأقل ما يُذمّ به دين كهذا هو انه عاجز وفاشل ولا فائدة فيه لبني البشر.

وعلى كل حال، لا ينبغي ان نطيل في هذا الموضوع ونتفلسف فيه كثيراً إذ يكفينا ان نقول ان النصّ الديني عادةً ما يكون ملفوفاً بالغموض والإبهام وخاضعاً للتفسير والتأويل والتمطيط، ولذا غالباً ما نرى الخلاف محتدماً - لا بين الطارئين والأجانب عن الدين او بين العوام من اتباعه بل بين الخبراء والجهابذة من علمائه واحباره وكهنته - حول مقاصد الدين وغاياته وكنه تعاليمه. وهذا يدعونا الى تبني مقياس عملي تطبيقي (ربما بموازاة المقياس النظري او المقاييس المفهومية) نستطيع به الحكم على الدين، وهذا المقياس العملي التطبيقي (او احد اهم المقاييس العملية التطبيقية) هو ما يفعله اتباع هذا الدين - كجماعة دينية - في العالم الخارجي وما يجسدونه على ارض الواقع. فلو كان دين ما مثلاً يتغنى بالحب والسلام والخير والعدل (او هكذا يبدو) بينما يرتكب ابناؤه حروب الإبادة والتطهير العرقي وما شابه ذلك فينبغي ان نحمله مسؤولية افعال اتباعه (او على الأقل مسؤولية اخفاقه في تربيتهم ليكونوا محبين مسالمين خيرين عادلين).

بل يحق لنا (بفضل الغموض الديني والإبهام الملازم للنص المقدس) ان نذهب الى ابعد من ذلك فنفسر 'الحب والسلام والخير والعدل' عند هذا الدين بـ 'حروب الإبادة والتطهير العرقي وما شابه ذلك' لأن هذا هو مقتضى التفسير الموضوعي للنص الديني. فالدين هو (قبل كل شيء وبعد كل شيء) ليس سوى فاعل فيزيائي ذي آثار على الأرض متمثلة بما يصدر من اتباعه (او هو على الأقل احد هذه الفواعل الفيزيائية) وهذه الآثار هي التي ينبغي ان تحدد طبيعته وكنهه وهويته الحقيقية (لا الفروض النظرية والادعاءات الشعارية وما شابهها من كلام يتحمل التأويل والتعديل).

وباختصار نقول: ان فعل الدين على الأرض (بما يصدر من اتباعه كجماعة دينية) اهم بكثير من 'الشعارات' التي يرفعها الدين والمقولات النظرية التي يتبناها (مفترضين ان هذه الشعارات والمقولات النظرية مفهومة ومتفق عليها ولا تخضع لتأويلات النص المقدس وتعرجاته). فدين يبدو شريراً بمقولاته وشعاراته بينما اتباعه يملأون الأرض خيراً وقسطاً وعدلاً هو دين خيّر ورحمة للبشر. وبالمقابل، دين يتشدق بشعارات الحب والسلام والخير بينما اتباعه يملأون الأرض شراً وفساداً وظلماً هو دين شرير ولعنة على البشر. وهذا هو في الواقع جوهر المقياس العملي الذي نتبناه في تحميل الدين النوع الثاني من المسؤولية (اي المسؤولية العملية او غير المباشرة).

١.٦ اليهودية

لا ينبغي ان نشك او نشكك في إلقاء اللوم والمسؤولية النظرية والعملية على اليهودية (كدين وفكر، وكإطار وروح تتقمصها الجماعة اليهودية في افعالها) فيما يجري في غزة، فهي بنظرتها 'الكونية' الاستعلائية المتغطرسة وتعاليمها المليئة بالحقد والتحريض (كما يشهد بذلك كثير من النصوص التوراتية والتلمودية فضلاً عن الأدب والفولكلور العبراني) تجعل من الصعب على اليهودي النموذجي ان يسلك سلوكاً قويماً ويحترم الآخر ويعامله ككفء وندّ. بل ان كثيراً من النصوص المقدّسة والإرشادات الدينية اليهودية تحرّض مباشرة على العنف والإجرام بل الإبادة والتطهير (ونحو ذلك من الأفعال الشريرة) ضد غير اليهود وهو ما يحمّل اليهودية (كدين وكفكر) مسؤولية مباشرة على المستوى النظري فضلاً عن المسؤولية العملية التي تتحملها نتيجة ما يرتكبه اتباعها مدفوعين بهذه التعاليم نصاً وروحاً.

ويكفي لنتعرف على العقلية اليهودية والقيم التي تحكم السلوك اليهودي (الذي ترسمه اليهودية نظرياً وتجسده بفعل اتباعها عملياً) ان نقرأ التوراة لنرى كيف يفكر اليهودي النموذجي وكيف ينظر للآخرين وكيف يتصرف معهم ويعاملهم كيهودي نموذجي. فالتوراة مليئة بالأفكار العنصرية والإبادية وأشكال الجرائم البشعة المبرَّرة نظرياً وأخلاقياً بل المحرَّض والمحثوث عليها دينياً.[١٠٨] ولهذا فان كثيراً من اشكال السلوك الشاذ للجنود

[١٠٨] هذا ينبغي ان يفسر لنا الحملات اليهودية (والمسيحية الصهيونية) الشرسة ضد الإسلام (والقرآن بالخصوص) ومحاولة تشويهه وتصويره كدين عنف وقتل وإجرام لأن هذا في الواقع ليس سوى ضربة استباقية في محاولة لإخفاء (او على الأقل لمعادلة ومناظرة) الوجه البشع للفكر التوراتي الذي تتجلى فيه الهمجية اليهودية بأبشع صورها. فهم حين يتهمون الإسلام بهذه النقائص انما يحاولون صرف الأنظار وتشتيت الانتباه عن اليهودية التي هي اولى بهذه التهم والنقائص (او على الأقل يحاولون معادلة الإسلام باليهودية في التحلي بهذه النقائص لتخفيف المسؤولية عن اليهودية).

الإسرائيليين وافعالهم الإجرامية في غزة انما هي مستوحاة من نصوصهم المقدسة وتعاليمها الشاذّة وهي ليست الا تطبيقاً لهذه النصوص والتعاليم.

والخلاصة انه لا ينبغي الشك في المسؤولية النظرية والعملية لليهودية عن جرائم الإبادة الجارية في غزة فهي توفر الفكر النظري والأساس الأخلاقي والغطاء الروحي لارتكاب هذه الجرائم والفظائع، كما انها ترتكب هذه الجرائم والفظائع على الأرض بأيدي ابنائها واتباعها الذين يتصرفون في غزة كجماعة دينية تحكمهم عموماً الروح والدوافع والأطر اليهودية. ومن يتابع تصريحات وتعليمات الحاخامات اليهود (النافذين في المجتمع الصهيوني والموجهين والملهمين لأفراده عموماً ولجيشه خصوصاً) قبل وخلال ملحمة طوفان الأقصى لا يبقى لديه ادنى شك ان ما يرتكب في غزة من جرائم ابادة انما هو فعل يهودي بامتياز تتحمل اليهودية كامل المسؤولية عنه نظرياً وعملياً. فلولا مخزون الحقد التوراتي التلمودي الهائل الذي يضخه هؤلاء الحاخامات في مجتمعهم وجيشهم (فضلاً عن الغطاء النظري والأخلاقي الذي يوفرونه بالاستعانة بنصوصهم المقدسة) ما كانت جرائم الإبادة المروعة في غزة تحدث بكل هذه الأريحية وراحة الضمير التي نشهدها.[١٠٩]

٢.٦ المسيحية

لا شك ان المسيحية تتحمل جزءاً من المسؤولية النظرية والعملية عما يجري في غزة. إذ لا أقل من ان المسيحية بتبنيها التوراة (او العهد القديم) كنص مقدس انما تشارك اليهودية في هاتين المسؤوليتين (كما اوضحنا ذلك في § ١.٦). ولكن تجنباً للخوض في نزاعات فلسفية لا طائل منها (او بالأحرى هذا ما قد يُدّعى) دعنا ننزل الى ارض الواقع (او بالأحرى نقترب منه اكثر) فنتحدث عن مواقف الكنائس المسيحية ـ في غالبها ومجملها ـ من طوفان الأقصى وخلال ملحمته فهذه المواقف لا شك انها تعكس (الى حدٍّ ما على الأقل) الفكر النظري والتطبيق العملي للمسيحية وبذا هي تلخص لنا مسؤولية المسيحية نظرياً وعملياً عما يجري في غزة.

والواقع ان مواقف الكنائس المسيحية عموماً تجاه طوفان الأقصى وتداعياته إن لم تكن مخزيةً فهي تكاد تكون كذلك. فهي تفاوتت بين الدعم الصريح او الضمني لإسرائيل، وبين السكوت والصمت والتزام الحياد،

---

[١٠٩] الواقع ان النصوص اليهودية المقدسة المليئة بافكار الحقد والكراهية والعنصرية والإبادة لا تمثل الدافع والمحرك لأفعال الإجرام الصهيوني فحسب بل هي تعبّر عن (وتساهم في صوغ) شخصية عُصابية مريضة نفسياً ومختلة عقلياً، وهذا ما يؤكده سلوك الجيش الصهيوني في غزة (وغير غزة قبل وخلال طوفان الأقصى) ومنه ما اشرنا اليه أعلاه من أريحية وراحة ضمير في ارتكاب افعال الإجرام (مما لا يمكن ان يصدر من شخصية سوية نفسياً وعقلياً).

وبين اطلاق دعوات عامة ومواقف باهتة لا تكتفي بتجنب إدانة اسرائيل مباشرةً وصراحةً بل وقد لا تكلف نفسها ان تدعو الى ايقاف القتل والتدمير وما شابه ذلك مما هو اقل حتى من الحد الأدنى المطلوب.[١١٠] والواقع ان هذا التقصير شمل جميع الكنائس الرئيسية (وعلى رأسها الكاثوليكية والأرثوذكسية) وهو تقصير لا يقتصر على مذبحة غزة بل هو تاريخي ويشمل القضية الفلسطينية التي لم تتخذ الكنائس المسيحية بمجملها موقفاً اخلاقياً واضحاً منها بما يليق بالمبادئ والتعاليم والقيم المسيحية المزعومة والشعارات التي ترفعها الكنائس عموماً.

ولمواقف الكنائس المسيحية هذه اسباب كثيرة اهمها ما يلي:

١. العامل الآيديولوجي (وهو ما اشرنا له آنفاً وسنبحثه اكثر فيما يأتي) إذ المسيحية انما ولدت من رحم اليهودية (ولذا نرى التوراة ـ او العهد القديم ـ نصاً مسيحياً مقدساً كذلك) وهذا ما يجعل المسيحي النموذجي (على الأقل من بعض الأصناف والأطياف) متعاطفاً مع اليهودي حين يكون في قبال المسلم (الذي هو وثني او كالوثني بنظر المسيحي).

٢. الاعتبارات المصلحية والفساد الكهنوتي (راجع مثلاً § ٥.٦) التي أملت على كثير من الكنائس ان تقف الى جانب الباطل ضد الحق حفاظاً على مصالحها وامتيازاتها المادية (وهو موقف ـ للإنصاف ـ لا ينبغي ان تلام عليه هذه الكنائس وكهنتها كثيراً ما دام في 'كهنوت' المسلمين و'كهنتهم' من هو مثلهم بل اسوأ منهم).

٣. العنصرية ضد العرب والمسلمين والكراهية لهم وهو ما يجعل التعاطف مع غزة غير ذي معنى ما دام الإسرائيليون يقومون في غزة بعين ما يشتهي هؤلاء العنصريون الكارهون ان يروه (بغض النظر عن موقف هؤلاء العنصريين الكارهين تجاه اسرائيل وما إذا كانوا معها او ضدها).

٤. الخضوع للضغوط والابتزازات والخوف من اللوبيات وجماعات الضغط المتنفذة. إذ بات معروفاً للجميع ان كثيراً من الكنائس الأوروبية تعرضت (وما زالت تتعرض) للابتزاز والاختراق والتحجيم بعد الحرب العالمية الثانية بسبب ما حدث لليهود خلالها على يد النازيين (او بالأحرى بسبب انتصار 'المعسكر اليهودي' في هذه الحرب) فصارت لا تجرؤ ـ امام عقدة الذنب المزعومة او بزعمها ـ ان تقف في وجه اسرائيل والجماعات الصهيونية والمتصهينة (من ساسة وجماعات ضغط ووسائل اعلام ولوبيات و ... إلخ) وتدين

---

[١١٠] ربما نستثني من ذلك بعض المواقف القليلة والضعيفة التي صدرت عن الفاتيكان وبعض الكهنة المسيحيين الغربيين مما لا يرقى الى مستوى وحجم جرائم الإبادة الصهيونية.

جرائمها المنكرة وأفعالها الدموية الهمجية خوفاً من انتقامها وردود افعالها وتعرضها للابتزاز بنبش ملفات وقضايا قديمة ضدها. بل ان الكثير من الكنائس (برموزها وكهنتها) صارت عرضة للابتزاز باسباب اخرى اكثر حداثة ومعاصرة كالفساد المالي والجنسي المتفشي في هذه الكنائس والاستغلال الجنسي وغير الجنسي للأطفال والقاصرين والفئات المجتمعية الضعيفة والمهمشة وما شاكلها من قضايا ونقاط ضعف قابلة للاستغلال والتوظيف ضدّها في اي نزاع مع اسرائيل وداعميها. فحتى لو افترضنا ان لهذه الكنائس (ومن فيها) دوافع حقيقية وجادة لنصرة الحق الفلسطيني ورفض حرب الإبادة فان نقاط ضعفها هذه وكونها عرضة للانتقام (بالتشهير او رفع دعاوى قضائية ضدّها وما شابه ذلك) يدفعها الى التزام الصمت (بل وربما حتى الانحياز الى الباطل ضد الحق) شراءاً لصمت مبتزّيها.

وربما كانت الكنائس الشرقية (بحكم مساكنتها للمسلمين ومجاملتها لهم) افضل من الكنائس الغربية في مواقفها عموماً.[١١١] ولكن ينبغي ان نذكّر بالمواقف المخزية لبعض الكنائس الشرقية، فقد اصطفت الكنيسة المارونية المتصهينة (او كادت ان تصطف) مع الصهاينة وداعميهم في ملحمة طوفان الأقصى وهو لا يستغرب من هذه الكنيسة المعروفة بالخيانة والعمالة (وهو ما تعرضنا له سابقاً في § ١٨.٣.٢).

هذا كله فيما يتعلق بالمسيحية وكنائسها عموماً (او التي تمثل التيارات الرئيسية في المسيحية). ولكن للمسيحية اشكال محددة متعاطفة مع اسرائيل متمثلة بشكل اساس في المسيحية الصهيونية (التي سنبحثها في القسم التالي؛ راجع § ١.٢.٦) وهو ما يعني ان المسيحية (وكنائسها) بهذه الأشكال تتحمل مسؤولية إضافية لدعمها المطلق لإسرائيل وتأييد جرائم الإبادة والتطهير التي ترتكبها في غزة (بل الحث والتشجيع عليها) لاستنادها الى عوامل آيديولوجية هي من صلب معتقدات ومتبنيات هذه الكنائس.

١.٢.٦ المسيحية الصهيونية

كما بات معروفاً للجميع فان معظم الكنائس الإنجيلية (ومعها كثير من الكنائس البروتستانتية الأخرى) تصطفّ بقوة الى جانب اسرائيل وتدعمها دعماً مطلقاً، بل ان هذه الكنائس كثيراً ما تتفوق في يهوديتها وصهيونيتها حتى على اليهود انفسهم. فهذه الكنائس تمنح من الدعم لإسرائيل وجرائمها المنكرة ما لا تمنحه كثير من الأوساط والنخب اليهودية إذ هي بضحالتها الآيديولوجية وتعصبها المفرط وديماغوجيتها الهابطة لا تتورع

[١١١] الواقع ان مواقف الكنائس الشرقية تفاوتت بين جيدة عموماً (ككنائس فلسطين والعراق)، ومتوسطة (كالكنيسة القبطية المصرية)، وسيئة (كالكنيسة المارونية).

عن دعوة اسرائيل الى ارتكاب ابشع جرائم الإبادة فضلاً عن الدفاع عما ارتكب منها وتبريره دون خوف او استحياء.

والواقع ان ابشع الدعوات لإبادة غزة وتدميرها (بما في ذلك الدعوة الى حرقها بالأسلحة النووية) إنما صدرت عن رجال دين إنجيليين او من ساسة وشخصيات ينتمون الى هذا الفكر الإنجيلي ويلتزمون به.[١١٢] وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى قابلية الدين ـ بمخزونه 'الروحي' الذي لا ينضب وارتباطه بالمطلق ـ الى التحول الى سلاح دمار شامل (بل ربما أخطر سلاح دمار شامل على الإطلاق)، كما يدل على مدى قدرة الدين على النزول بالإنسان الى مستويات من البهيمية والتوحش والنذالة والجهل يصعب تصورها والتصديق بها.

ولقد انتشرت الكنائس الإنجيلية كالطاعون في امريكا وصارت عنصراً فاعلاً في الحياة الدينية والثقافية والسياسية وهي ذات نفوذ وتأثير وتمويل ضخم لا تتردد في استخدامه لا في الداخل الأمريكي فحسب بل حول العالم وحيثما وجدت موطئ قدم لها. وتكرّس كثير من هذه الكنائس موارد مادية ومجهودات معنوية وتبليغية ضخمة لحرب الإسلام والمسلمين ونشر الكراهية ضدهم وكأن هذا هو رسالة المسيح الأولى والأخيرة.[١١٣] ويوجه بعض هذه الكنائس جهوده التنصيرية بشكل خاص نحو المسلمين ـ أفراداً وجماعات ـ لا بهدف حرفهم عن الإسلام وضمهم الى المجتمعات النصرانية فحسب (وهو هدف تافه وثانوي لأن اعداد المرتدين عن الإسلام ضئيلة جدّاً وهم غالباً ما يكونون من الأراذل والمنبوذين) بل بهدف آخر أكبر وأهم وهو نشر البلبلة والفرقة بين المسلمين وخلق اعداء لهم من بينهم (بالإضافة الى محاولة خلق قاعدة تنصيرية داخل المسلمين يأملون من خلالها تنصير عدد اكبر من المجتمعات المسلمة بما يحدث تغييراً ديموغرافياً).

وكما اشرنا آنفاً، فان هذه الكنائس تدين عموماً بالولاء المطلق للكيان الصهيوني ولا تتردد في الدفاع عن جرائم الكيان وتبرير اعتداءاته وانتهاكاته وتوفير الدعاية السياسية له وهي تتخذ من نشاطاتها الدينية وسيلة

---

[١١٢] الواقع ان المسيحيين الإنجيليين هم اعدى اعداء الإسلام والمسلمين من الجماعات الدينية وانشطها في هذا المجال. كما ان لهم ارتباطات سياسية وعقائدية مشبوهة. ولذا ينبغي محاربتهم والتصدي لفكرهم الهدّام دولياً وحظر كنائسهم ونشاطاتهم في البلدان الإسلامية. وفي رأيي ان المسيحيين الانجيليين ليسوا سوى دواعش المسيحية (بل هم في الحقيقة أخطر وأحطّ من الدواعش).

[١١٣] لديّ خبرة شخصية مباشرة مع بعض افراد هذه الكنائس في لندن فهم معبّأون بحقد استثنائي ضد الإسلام والمسلمين، وهذا الحقد يمثّل جزءاً اساسياً من تأهيلهم وتربيتهم وتثقيفهم الديني، وهمهم الأول والأخير هو القضاء على الإسلام والمسلمين حول العالم (إمّا بتنصيرهم وإمّا بالقضاء عليهم فيزيائياً). ولئن كانت اسرائيل تريد محو الوجود العربي والمسلم من فلسطين فان كثيراً من هذه الكنائس الإنجيلية تريد محو الوجود العربي والمسلم من على وجه الأرض، وهي لن تتردد في استخدام العنف المطلق (بما في ذلك استخدام اسلحة الدمار الشامل) لتحقيق هذا الهدف ان استطاعت الى ذلك سبيلاً.

لذلك. كما انها تشكل جماعات ضغط فاعلة مُسانِدة لإسرائيل في امريكا وبعض الدول الأخرى (عبر نشاطاتها ونشطائها واموالها وأدوات ضغطها المتنوعة). كما انها توفر ـ بقواعدها الشعبية ـ كتلاً انتخابية مهمة تؤدي دوراً فاعلاً في اللعبة السياسية الانتخابية المحلية حيث توظّف القوة الانتخابية للصوت المسيحي الإنجيلي (والمسيحي الصهيوني بشكل اعم) في خدمة اسرائيل والصهيونية العالمية. والواقع ان الكنائس الإنجيلية (ومن على شاكلتها من كنائس المسيحية الصهيونية) هي احدى اهم الأذرع لتمدد الاخطبوط الصهيوني حول العالم.

٢.٢.٦ دين المحبة والسلام

وهنا يجدر بنا ان نتوقف قليلاً[١١٤] لنتحدث عن الدين المسيحي الذي يوصف عادةً بأنه دين المحبة والسلام بينما تاريخه يشهد انه الدين الأكثر دمويةً والأشد عنفاً لأنه المسؤول بشكل مباشر او غير مباشر (او على الأقل اتباعه مسؤولون) عن معظم اعمال العنف التي ارتكبتها الإنسانية في الألفيتين الأخيرتين (بل وفي التاريخ البشري اطلاقاً). ولا يهمني في هذا الصدد ما في الإنجيل والنصوص الدينية الكنسية والأدب المسيحي من مقولات جميلة عن الحب والسلام (ملاحظاً كذلك ان هناك نصوصاً وادبيات مخالفة تماماً لنصوص الحب والسلام) بل ما يهمني هو التطبيق الأرضي لهذه النصوص والفعل الميداني لأتباعها خاصة رجال الدين المسيحي الذين حرّض كثير منهم على جرائم ابادة بشعة بل انخرطوا فيها وكانوا وراءها تنظيراً وفعلاً. كما ان كثيراً من الجماعات والفرق الدينية المسيحية تتبنى فكر الكراهية ضد الآخرين (خاصةً المسلمين) والتحريض ضدهم وتبرير اضطهادهم وقتلهم وإبادتهم لأنهم ـ وفق المنظور المسيحي ـ جهنميون واتباع الشيطان (راجع مثلاً § ١.٢.٦). ويكفي ان نتذكر ان الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في اوروبا (بما في ذلك المحرقة النازية) كانت اما بتحريض مباشر من الكنيسة او رجالات مرتبطين بها ومتغذّين بفكرها وإما بفعل ثقافة الكراهية والحقد والإقصاء المستندة الى الفكر المسيحي والديانة المسيحية (وقد ارتُكبت المحرقة بأيدٍ مسيحية).

ان قراءة سريعة لتاريخ القرون الأخيرة تظهر بوضوح ان كبرى جرائم الإبادة والقتل والغالبية العظمى منها ارتكبت بأيادٍ مسيحية وغالباً بمبررات ودوافع دينية مسيحية. ويدخل في هذا النطاق امثلة معروفة لا خلاف فيها كجرائم الإبادة للسكان الأصليين في الأمريكيتين واستراليا وجرائم الاستعباد والقتل المنظّم لعشرات

[١١٤] الواقع ان هذه الوقفة الوجيزة هي محاولة للغوص اعمق في جذور المشكلة بعد ان لامسناها من جوانب عديدة تجزيئية ومظهرية وموضعية لنصل (كما سنرى) الى نتيجة مفادها ان المشكلة ذات جذور اعمق إذ هي تنبثق من التكوين الفكري للمسيحية وكنائسها وكهنتها واتباعها.

ملايين الأفارقة في تجارة الرقيق التي كانت تمارس على نطاق هائل وجرائم الحربين العالميتين (ومنها جريمة المحرقة اليهودية) وجرائم الإبادة في المستعمرات الأوروبية (كجرائم الإبادة التي ارتكبها الألمان والبلجيكيون في مستعمراتهم في أفريقيا) وجرائم استخدام السلاح النووي ضد المدنيين وجرائم امريكا التي لا تعد ولا تحصى منذ نشات حتى اليوم (كجرائمها في فيتنام وافغانستان والعراق وفي دعم جرائم الكيان الصهيوني منذ نشوئه حتى اليوم) وغيرها وغيرها من جرائم المسيحيين التي يصعب عدّها وحصرها في حقبة المدّ الاستعماري (وقبلها جرائم الصليبيين لا بحق المسلمين فحسب بل بحق ابناء ملتهم كذلك).

فكل هذه (وغيرها) تشهد على الدين الذي هو حقاً دين العنف والقتل والإبادة والتدمير (الذي ليس هو الإسلام بالتأكيد كما يتهمه الصليبيون والصهاينة) إذ لا عبرة بالنظريات والشعارات بل العبرة بالعمل والتطبيق. وهناك جرائم قتل وتطهير وإبادة ارتكبتها اديان اخرى ترفع شعار المحبة والسلام والتسامح بحق المسلمين وغير المسلمين وهي تؤكد ان دين العنف والقتل والإبادة والتدمير ليس هو الإسلام بل الإسلام هو الدين الأكثر سماحة والأرحب صدراً والأكثر قبولاً للتعددية والعيش المشترك (وهو ما شهدناه بوضوح في معظم فترات الخلافة الإسلامية بمختلف انواعها ومذاهبها).[١١٥]

والخلاصة ان المسيحية والمسيحيين هم آخر من يحق لهم التحدث عن الحب والسلام واتهام الآخرين بالعنف والكراهية لأن ايديهم (اي المسيحية والمسيحيين) ملطخة بدماء العشرات (وربما المئات) من الملايين من الأبرياء الذين قتلهم دين المحبة والسلام هذا بدم بارد ودون تأنيب ضمير بل بشعور بالفخر والاعتزاز والقيام بالواجب. وينبغي ان ننوه اخيراً الى ان الإجرام الذي سجلناه ضد المسيحية والمسيحيين يكاد يكون راجعاً بالكامل الى الكنائس اللاشرقية ملاحظين ان المسيحية والمسيحيين في الشرق العربي والمسلم بريئون عموماً من الجرائم التي سجلناها ضد المسيحية والمسيحيين.

٣.٦ الإسلام

واضح اننا حين نتحدث عن مسؤولية الإسلام في هذا الخصوص فانها عموماً من نوع مختلف عن مسؤولية

[١١٥] نلاحظ ان كثيراً من الفظائع التي ارتكبت في البلاد العربية والإسلامية (مثلاً ما حدث في العقدين الأولين من هذا القرن) كانت غالباً بتدخل وتحريض اجنبي وقد الهبتها وسعرتها جهات وحركات وتيارات ذات ارتباطات اجنبية مشبوهة (على رأسها الحركات الوهابية 'الجهادية'). وعلى كل حال، كل 'ضحايا الإسلام' المحققين والمزعومين ليسوا سوى نزر يسير مقارنةً بضحايا اديان 'المحبة والسلام'.

الأديان الأخرى لأن الإسلام (بأتباعه وأبنائه) هو الضحية فيما يجري في غزة، ولذا فان مسؤوليته تدور في المقام الأول حول مدى نجاحه او فشله في الدفاع عن ابنائه وحمايتهم وصدّ العدوان عنهم.

ونجد انفسنا مضطرين هنا للفصل بين 'إسلامين': الإسلام السني والإسلام الشيعي لاختلاف موقفيهما (عملياً وعلى الأرض) إزاء ما يجري في غزة، فبينما هبّ الإسلام الشيعي بحماس ونشاط لنصرة غزة عجز الإسلام السني (وهو الأَولى بنصرة السنة من اهل غزة والأقرب اليهم) عن تحشيد طاقاته وإمكاناته لفعل ذلك. ونستطيع القول للأسف: معظم من نصر غزة (من المسلمين) كان شيعياً ومعظم من خذلها كان سنياً. ولسنا هنا بصدد ان ننكأ الجراح ونثير الأحقاد والنزاعات الطائفية والمذهبية ولكننا نريد ان نفهم ما يجري حولنا ونحلله بنحو موضوعي ونستخلص منه الدروس والعبر لنتعرف على نقاط قوتنا وضعفنا ونستفيد منها في حاضرنا ومستقبلنا.

١.٣.٦ الإسلام السني

ينبغي ان نسجل هنا فشل الإسلام السني في شحذ عزائم اتباعه وتحشيدهم وتجنيدهم للدفاع عن اخوانهم في غزة. ولا ينبغي ان نشكك في مسؤولية الإسلام السني عن هذا الإخفاق القاتل، فلو كان الإسلام السني (نظرياً وعملياً) قادراً على شحذ العزائم والتحشيد والتجنيد بما يرقى الى مستوى المسؤولية لما حدثت مذبحة غزة (او على الأقل لم تكن لتحدث بهذه البشاعة). بل نستطيع تحميل الإسلام السني (ولو جزئياً) مسؤولية ما اقترفه كثير من ابنائه واتباعه من اعمال الخيانة والتواطؤ مع الصهاينة والصليبيين وإعانتهم في حرب الإبادة (فضلاً عن الصمت والسكوت والتقاعس والتبطل) وذلك لعجز هذا الإسلام واخفاقه عن تربية ابنائه بنحو قويم يقضي بأن لا يحدث هذا.

وقد لاحظنا ـ للأسف ـ في مواضع عديدة من هذا الكتاب ان الإسلام السني لا يفتقر الى الحماسة والبأس والعنفوان حين يتعلق الأمر بالحروب الطائفية والنزاعات الداخلية والصراعات البينية (كما اثبتت ذلك الحرب الأهلية العراقية وما تلاها من حروب اهلية خلال 'الربيع العربي'). صحيح ان للعامل الخارجي يداً في ذلك (اي في هذه الحروب كما في التقصير بحق غزة) ولكن القصور الذاتي والعامل الداخلي هو ما يجعل العامل الخارجي فاعلاً ومؤثراً. وعلى كل حال، مجرد القابلية للاستغلال والتوظيف الخارجي يمثل نقطة ضعف للإسلام السني ويحمّله جزءاً من المسؤولية عما يجري في غزة (وعما جرى في غيرها قبل ذلك).

واما سبب فشل الإسلام السني هذا فهو ـ برأينا ـ يعود الى النماذج والمثل العليا للإسلام السني (متمثلة

اساساً في شخصياته ورموزه ورجالاته) التي تُلخص وتُجسد نظامه القيمي والأخلاقي. فالنظام القيمي والأخلاقي (قبل المعتقدات الميتافيزيقية والسفسطات الكلامية والتقعرات الفقهية والتنطعات المذهبية) هو الذي يحدد السلوك العملي على الأرض في شؤون كهذه ويرسمه ويوجهه. وهذا النظام القيمي والأخلاقي مستوحىً في معظمه من الرموز والشخصيات والأبطال التاريخيين. وتتعدى ـ عادةً ـ قيمةُ هذا الاستيحاء وتأثيره في تربية اتباعه قيمةَ النصوص والتعاليم النظرية وتأثيرها. فالقدوة (حسنةً كانت ام سيئة) تعطي المثال والنموذج (الذي يحتذيه الأتباع) بشكل مبسط وعفوي وغريزي وفي المراحل الأولى من تكوينهم الفكري والأخلاقي مما قد يعجز عن إعطائه النص المجرد والتعاليم النظرية الجافة.

ولا يقال ان حركات المقاومة الفلسطينية (ومن فجّر طوفان الأقصى) هي حركات سنية لأنها انما تدافع عن نفسها وشعبها 'ولا فضل لها في ذلك على احد'. فنحن هنا نتحدث اساساً عمن نَصَرَ'هم' ومن لم ينصر'هم' (ومن خَذَلَ'هم' ومن لم يخذل'هم') رغم اعترافنا لهم بالفضل في تفجير طوفان الأقصى واداء واجبهم على افضل وجه خلال الملحمة التي رافقت واعقبت هذا الطوفان.

٢.٣.٦ الإسلام الشيعي

ينبغي ان نلاحظ اوّلاً ان كل جبهات الإسناد التي هبت لدعم غزة هي 'جبهات شيعية'، كما ان تعاطف المجتمعات الشيعية مع غزة يفوق في المتوسط نظيره في المجتمعات السنية المناظِرة لها خاصةً إن لاحظنا ان اهل غزة هم من اهل السنة والجماعة (وكثير منهم ـ بتوجهاتهم الوهابية ـ لا تربطهم علاقة حميمة بالشيعة). وهذا ينبغي ان يسجّل للإسلام الشيعي الذي نجح عموماً في اختبار طوفان الأقصى (كما نجح قبلاً في مواقفه تجاه القضية الفلسطينية حيث نلاحظ ـ مثلاً ـ ان اشد المعارضين للاعتراف بالكيان الصهيوني والتطبيع معه هم دول وتنظيمات وشعوب وشخصيات شيعية).

ويجب ان نسجل هنا ان هذا الإسناد والتعاطف الشيعي الاستثنائي مع القضية الفلسطينية وطوفان الأقصى ليس صدفةً او افتعالاً فالفكر الشيعي يتضمن ـ منذ نشأته ـ عناصر أصيلة من فكر التحرر والثورة والعدالة الاجتماعية ونصرة المظلوم (وما شابهها) ممثَّلةً ومجسّدةً في شخصيات ورموز نموذجية لدى المذهب الشيعي (كعلي بن ابي طالب والحسين بن علي وزيد بن علي)، وهذه العناصر تجعل من نصرة غزة والتعاطف معها امراً طبيعياً (بل 'غريزياً') من اتباع الإسلام الشيعي.[١١٦] وهذا (كما قلنا سابقاً في § ١.٣.٦) هو

[١١٦] يحسن هنا الإشارة الى النجاح الاستثنائي للفكر اليساري لدى الأوساط الشيعية في العراق (حتى المتدينة والعلمائية منها)

ما يحدد ـ بالدرجة الأولى ـ سلوك الأتباع ويوجه مسارهم عبر النظام القيمي والأخلاقي المتجسّد عملياً في هذه الشخصيات التاريخية والرموز والقدوات الحسنة التي 'يتقمصها' هؤلاء الأتباع في سلوكهم ومواقفهم.

٣.٣.٦ المؤسسات الدينية

لقد فشلت معظم المؤسسات الدينية الإسلامية (سنيةً وشيعيةً كالأزهر والنجف والحجاز) والتجمعات والهيئات العلمائية والتبليغية في اداء واجبها تجاه غزة فقد ظل معظمها صامتاً او خفيض الصوت (إن لم يكن متواطئاً او معذِّراً او ...) وكان تقصيرها شاملاً تقريباً. وهذا ينبغي ان يعدّ من الإخفاقات العملية للإسلام (بمعظم مذاهبه وطوائفه) حيث عجزت مؤسساته عن الالتزام بتعاليمه وإرشاداته ولم تقم بدورها المطلوب. وإذا كنا نلوم الكنائس والكهنة المسيحيين ونحمّل المسيحية مسؤوليةً عن ذلك (كما فعلنا في § ٢.٦) فنحن اولى بلوم المؤسسات الدينية الإسلامية وشخصياتها ورموزها ودعاتها ومؤسساتها التبليغية والدعوية (وما شابه ذلك).

لقد كان المرجوّ ان تقوم هذه المؤسسات (وشخصياتها و ...) بواجبها في نصرة غزة (بتحشيد الطاقات والجهود والإمكانات المادية والمعنوية والوقوف بوجه الخونة والعملاء وما شابه ذلك) وان تكون بمستوى المسؤولية الملقاة على عاتقها، ولكنها للأسف قصرت ـ في معظمها ـ عن الارتقاء الى مستوى المسؤولية الإنسانية والتاريخية والدينية. وقد تعددت الأسباب لذلك (والنتيجة واحدة)، فقد كان الخوف والجبن أحد عوامل هذا التخاذل والتقاعس لدى البعض (حيث آثر السلامة والوقوف على التل)، بينما كان العمل في خدمة الدولة المتواطئة وكونه جزءاً منها سبباً للتخاذل (او حتى التواطؤ) لدى بعض آخر، في حين كانت المطامع والمغانم والإغراءات المادية سبباً لبعض ثالث في التخلي عن مسؤوليته والضرب بها عرض الحائط.[١١٧]

ابان العقود الوسطى من القرن الماضي بسبب تلك العناصر المشار اليها أعلاه من فكر التحرر والثورة والعدالة الاجتماعية ونصرة المظلوم التي ساهمت في جعل الفكر اليساري مستساغاً بل محبوباً لدى كثير من عامة الشيعة ونخبهم رغم علمانيته بل رغم ما زُعِم او رُوِّج له من إلحاده وخروجه عن الدين (بغض النظر عما اذا كان هذا صحيحاً وصادقاً ام لا فليس هذا هو بيت القصيد في كلامنا هنا).

[١١٧] هناك طبعاً اسباب اخرى، فمثلاً بعض المؤسسات والشخصيات الدينية لا ترى 'الانخراط في السياسة' لائقاً بها وبالدين (وهو واضح البطلان خاصة في موضوع غزة)، بينما بعض آخر ليس سوى طابور خامس يعمل صراحة في خدمة الأجنبي ولذا هو ينتمي الى معسكر العدو ولا ينبغي ان يعد من المؤسسات والشخصيات الدينية التي نتحدث عنها هنا.

٤.٣.٦ التقارب السني الشيعي

من اعظم بركات طوفان الأقصى التقارب السني الشيعي الذي ظهر جلياً في الأشهر الأخيرة حيث وحّدت مآسي غزة جمهور المسلمين الأعظم من الجانبين وأنْستهم بعض خلافاتهم ونزاعاتهم التي لا اول لها ولا آخر. ورغم ان أَمام المسلمين مسيرةً طويلة (بفرض انهم سيستمرون على هذا التقارب ولا يخربه الأعداء المغرضون وطابورهم الخامس فضلاً عن الحمقى والجهلة من الإسلاميين وغير الإسلاميين وهم ـ للأسف ـ لا عد لهم ولا حصر) قبل ان يصح الحديث عنهم كأمة واحدة، فان ما حدث او أُنجز حتى الآن قد يبشّر ببعض الخير القادم.

والواقع ان احد علائم هذا الخير وبشائره وإرهاصاته القيادة والريادة التي اظهرها اليمن (باعتداله الديني ووسطيته بين الشيعة والسنة) في ملحمة طوفان الأقصى، وهو ما يرشّح اليمن تلقائياً لا لقيادة العرب والمسلمين في صراعهم ضد الصليبية والصهيونية فحسب بل لقيادتهم في هذا التقارب المذهبي الذي لا يمكن ان يدوم (فضلاً عن ان ينمو ويتعاظم) دون نبذ الغلو الشيعي والتطرف السني واستبدالهما (على الأقل في الفضاء العام) برؤية عقلانية قائمة على الالتزام بالمشتركات والقواسم الكبرى وتناسي واغفال الصغائر والترهات.

ولاينبغي لأحد من المكونات (او الأقليات) الدينية المشرقية الأخرى ان يتخوف من تقارب المسلمين ووحدتهم لأن شرقاً مسلماً مستقرّاً (بفضل التقارب والوحدة) تحكمه رؤية دينية معتدلة تنبذ الغلو والتطرف سيكون مكاناً آمناً (او على الأقل اكثر امناً) لعيش الجميع بمن فيهم هذه المكونات (او الأقليات). وعلى كل حال، ينبغي ان تُعامَل هذه المكونات في شرق كهذا باعتبارها جزءاً من الأمة الإسلامية بمعناها الواسع وليست كيانات ملحقة بها او طارئة عليها (او جماعات مستضعفة تعيش في كنف الأمة الإسلامية وتحظى بحمايتها ورعايتها الأبوية).[١١٨]

٤.٦ الأديان الأخرى

وأما الأديان الأخرى (غير المذكورة سابقاً) فلم نسمع لها صوتاً في هذا المقام مع ان بعضها يدّعي لنفسه

[١١٨] ربما تكون 'صحيفة المدينة' (او 'وثيقة المدينة') نموذجاً اولياً لهذه الرؤية يمكن الاحتذاء به والبناء عليه. والواقع انه حتى اليهود (لا اسرائيل) يمكن ان يكون لهم مكان آمن في الشرق (رغم ما حدث) لو تداركوا ما حدث (ولهذا الكلام تتمة وبقية).

منهجاً انسانياً وقيماً اخلاقية تسمو فوق كل الفوارق وتتجاوز كل الحدود. لقد كنا ننتظر (نظرياً لا فعلياً) من بعض الأديان الأخرى 'المحبة للسلام والعدل والخير' والموصوفة بـ 'الإنسانية' موقفاً انسانياً من حرب الإبادة يتناسب مع مواقفها المعلنة وادعاءاتها العريضة. ولكن ـ للأسف ـ حبل النفاق والكذب طويل في الأديان عموماً حيث تدخل وتتدخل وتتداخل المصالح والتحالفات والحزازات والاحقاد لتحيلها الى متاجر للبيع والشراء وتحقيق الأرباح والمكتسبات والتنفيس عن الأحقاد والضغائن. بل ان بعض هذه الأديان قد استأنس بمذابح غزة لحقده (برموزه وقادته واتباعه) على الإسلام والمسلمين وكراهيته لهم لا يقلان عن حقد الصهاينة والصليبيين وكراهيتهم.[١١٩]

والخلاصة، ان عدم اكتراث الأديان الأخرى (في الحدّ الأدنى) بمؤسساتها الكهنوتية واتباعها بما يجري في غزة يدل بوضوح على ان تلك الأديان ليست ديانات انسانية كما تدعي (او يدّعي بعضها) بل هي طائفية وعنصرية وفئوية وما شابه ذلك، بل ان بعضها ديانات حقد وكراهية وإجرام (خاصةً في علاقتها بالمسلمين ممن يعيشون في جوارها او كنفها). وعلى كل حال، إذا كانت الديانة التوحيدية الأولى ترتكب مذبحة غزة والديانة التوحيدية الثانية تتواطأ معها وتدعمها في ذلك والديانة التوحيدية الثالثة تعجز وتتقاعس (بمعظمها) عن إغاثة غزة (التي تنتمي اليها) ونصرتها فماذا ننتظر من ديانات وثنية او شبه وثنية بعيدة كل البعد جغرافياً وثقافياً عن غزة وما فيها ومن فيها. وكل هذا ينبغي ان يبرر حكمنا الذي اصدرناه في مطلع هذا الفصل من ان جميع الأديان تقريباً قد أخفقت في اختبار طوفان الأقصى بل فشلت فشلاً ذريعاً.

٥.٦ الدين والكهنوت

رغم ان معظم الأديان (خاصة الأديان التوحيدية الكبرى) هي في جذورها ونشأتها افكار تحررية ثورية اقل ما يُنتظَر منها الاصطفاف الى جانب القضية الفلسطينية (وغزة بالخصوص) ودعمها لفظاً وقولاً ان لم يكن فعلاً وعملاً، فانه لا ينبغي لنا الاستغراب من هذه المواقف 'الأديانية' المخجلة عموماً (والتي استعرضناها في الأقسام السابقة من هذا الفصل)، فالكيانات الكهنوتية في جميع الأديان تقريباً تقتل روح الأديان وجوهرها لتحتفظ بالمظاهر والقشور والطقوس. فبعد ان كان رسل الديانات الكبرى في غالبهم ثواراً يحملون راية التحرر والمقاومة والعدالة الاجتماعية ومقارعة الظلم والتسلط (ونحو ذلك من قيم ومبادئ خيّرة) تحولت

---

[١١٩] راجع مثلاً حاشية ٧٣ في صفحة ٩٩.

رسالاتهم وتعاليمهم على يد الكهنة ورجال الدين الى رموز وطقوس وخرافات واحلام وترهات هدفها التجهيل والاستعباد والاستغلال وكل ما هو مخالف لما ارادوه وجاؤوا به.

ثم ان الفساد آفة قديمة ومزمنة في المؤسسات الكهنوتية حيث الكهنة بشر من دم ولحم وغرائز وشهوات وهم في معظمهم عرضة للإغراء والإغواء والتهاوي امام سطوة المال والجنس والسلطة وكل اشكال المتع والملذات المشروعة وغير المشروعة. هذا فضلاً عن رغبتهم (كبقية بني البشر) في حفظ النفس والعرض والمال والتمتع بالأمن وتجنب المخاطر والصعاب. ومن يقرأ تاريخ الكهنوت والكهنة يجده حافلاً بأشكال الفساد والخروج لا عن روح الدين ومضامينه ومغازيه وفحاواه فحسب بل عن نصوصه الصريحة وقواعده البينة. وعموماً، لاتجد أجرأ على انتهاك الدين والسحق على مقدساته ـ فضلاً عن مضامينه ومغازيه ـ من الكهنة ورجال الدين (الا من عصم الله وهم قليل).

وعلى كل حال، حتى لو استبعدنا عنصر الفساد هذا يبقى ـ كما قلنا ـ ان الكهنة ورجال الدين (كبقية بني البشر) يميلون للأمن والدعة وتجنب المخاطر والصعاب التي عادةً ما تجلبها عليهم المواقف المبدئية المخالفة لرغبات ذوي السلطة والسطوة والنفوذ. لكن هذا لا يصلح عذراً لمن اختار هذا الطريق بجعل نفسه حاملاً للرسالات (السماوية او الأرضية) وحامياً لها ومبلّغاً لتعاليمها. فخير لهؤلاء الذين فشلوا في اداء رسالاتهم المزعومة واداء واجبهم المفترض ان يخلعوا لباس الدين ويجدوا لأنفسهم مهنة اخرى شريفة بدل التعيش على الكذب والدجل والنفاق وخداع الجهلة والحمقى والمغفلين ممن يصدّق بهم ويتبعهم.

الفصل السابع
اليهود وطوفان الأقصى

نقدم في هذا الفصل عرضاً تحليلياً موجزاً عن اليهود وعلاقتهم بالشرق المسلم بنحو الخصوص في ضوء احداث وتطورات ومآلات طوفان الأقصى وملحمته الجارية.

١.٧ النظرية اليهودية للهوية والأمن

لليهود نظريتان اساسيتان تمثلان محور وجودهم وبقائهم، إحداهما تخص الحفاظ على وجودهم المعنوي والثقافي (نستطيع تسميتها 'نظرية الهوية') والثانية تخص الحفاظ على وجودهم المادي والفيزيائي (نستطيع تسميتها 'نظرية الأمن').[١٢٠] والواقع ان هاتين النظريتين في حقيقتهما ليستا سوى نظرية واحدة هي نظرية الحفاظ على الوجود اليهودي ممثلاً في الهوية (ببعده المعنوي) وممثلاً في الوجود الفيزيائي (ببعده المادّي). وكلا النظريتين تستندان الى حقيقة يعيها اليهود جيداً الى حد الهوس والذعر وهي انهم جماعة ضئيلة قليلة العدد تعيش وسط او ضمن جماعات اكبر منها بكثير، ولذا عليهم (للحفاظ على وجودهم وبقائهم كيهود وتجنب الذوبان والإبادة) ان يأخذوا دائماً بنظر الاعتبار هذه الحقيقة المرّة والمقلقة ويعملوا على استيعابها والتكيف مع معطياتها والعمل وفق متطلباتها.

وقد كانت المقاربة العملية ـ المستندة الى نظرية الهوية ـ لليهود عبر التاريخ (او على الأقل التاريخ الحديث نسبياً) والمنطلقة من ادراكهم ـ المشار اليه آنفاً ـ انهم جماعة ضئيلة تعيش وسط جماعات اكبر منها بكثير هو الحفاظ على هويتهم بالتركيز المفرط على خصائصهم الدينية واللغوية وازيائهم وفولكلورهم وقصات شعرهم والجهر بانتمائهم والتزاوج الداخلي بينهم (وماشاكل ذلك مما يبقيهم متميزين عن غيرهم ويحفظ لهم هويتهم بتجنيبهم الذوبان في محيطهم الطاغي الذي لا يريدون الانتماء اليه او التماهي والاندماج فيه). ولهذا نجد من السهل

[١٢٠] من الواضح ان 'نظرية' هنا تتسم بالمجازية وهي تعبير عن فهم او التزام او ماشابه ذلك.

جدّاً التعرف على معظم اليهود من مظهرهم الخارجي وسلوكهم وملامحهم الخَلْقية وما شابه ذلك وهو ما لا يتسنى عادةً مع جماعات اخرى موازية كالمسلمين والمسيحيين.

وأما مقاربتهم العملية ـ المستندة الى نظرية الأمن ـ فقد كانت بالعمل بجد ونشاط على امتلاك ومراكمة كل عناصر القوة الناعمة من مال ومعرفة وخبرة وعلاقات وما الى ذلك، ولذا نرى ـ مثلاً ـ ان اليهود هم اغنى الجماعات البشرية (نسبة لعدد افرادها وربما مطلقاً) وافضلها تعليماً إذ هم يمتلكون الكثير من المصارف والشركات وما شاكلها كما يتقلدون الكثير من المواقع الأكاديمية ولهم تاريخ حافل بالمفكرين والعلماء وما الى ذلك مما هو معروف لدى الجميع. وهم يتعاضدون فيما بينهم ويعين بعضهم بعضاً في ذلك ـ ليس من باب التراحم والمودة فحسب ـ بل من باب الشعور بأن هذا إسهام مهم في أمن الجماعة حسب نظرية الأمن. والواقع ان هذا هو احد اهم اسرار نجاح اليهود في امتلاك ومراكمة عناصر القوة الناعمة (وهو ـ في حد ذاته ـ مما ينبغي ان يغبطوا وينالوا الإعجاب عليه لا ان يلاموا او يُذمّوا عليه).

ولا ينبغي لأحد ان يشكك في حق اليهود في فعل كل ذلك، فهم ـ كغيرهم من الجماعات البشرية ـ لهم الحق المطلق في العمل لحيازة عناصر القوة وادواتها (بالوسائل المشروعة طبعاً) والاستمتاع بفوائدها وعوائدها على الفرد والجماعة. بل ينبغي ـ كما اشرنا ـ ان يحظى اليهود بالإعجاب والإكبار على هذه الإنجازات الرائعة وان يُغبَطوا عليها وعلى ما هم عليه من تعاون وتكاتف وتراحم وعمل من أجل رفعة ورفاهية كل افراد الجماعة. وهذا في الواقع من القيم النبيلة والصفات الحميدة (التي ينبغي الثناء بها على اليهود) وهو ما تفقده جماعات بشرية اخرى كالعرب ـ مثلاً ـ الذين لا يكلّون ولا يملّون من الكيد لبعضهم البعض والغدر بإخوانهم حسداً ومكايدةً.

ولكن، مع امتلاك ومراكمة قدر هائل من عناصر القوة يكون من الطبيعي التفكير في السيطرة (الخفية وغير المباشرة عادةً) على الجماعات التي يعيشون بينها (والتي هي اكبر منهم حجماً) او استغلالها او اتباع سبل ملتوية معها او الاعتداء على حقوقها (بل حتى إثارة حفيظتها احياناً حسداً منها لليهود لمجرد تفوقهم ورفعتهم لا بسبب اعوجاجهم وانحرافهم)، وهذا ما يقود عادةً الى صدام يؤدي الى اضطهاد (او حتى إبادة) اليهود في مجتمعاتهم (وهو ما حدث لليهود مراراً وتكراراً عبر تاريخهم الطويل).

وقد جاءت فكرة الدولة الصهيونية (بولادة الحركة الصهيونية) تتويجاً لنظرية الأمن هذه (وأخذاً في الاعتبار لنتائجها الكارثية تاريخياً مما اشرنا اليه آنفاً) كإضافة جديدة ومهمة لعناصر القوة المُراكَمة، وهذه الإضافة هي حاجتهم الى دولة تحميهم لا في داخلها فحسب بل حتى خارج حدودها. وقد اثبتت هذه النظرية الأمنية الجديدة

(او بالأحرى المطوَّرة عن النظرية الأمنية القديمة) نجاحها في مراحلها الأولى فهي (اي الدولة الصهيونية) قد حمت جزءاً كبيراً من الجماعة اليهودية ووفرت لهم ملجأً (على حساب الفلسطينيين طبعاً) داخل حدودها، كما كانت عامل ضغط وترهيب حول العالم لكل من يفكر في اضطهاد اليهود او الاعتداء عليهم او حتى التقليل من شأنهم وعدم الاعتراف (او عدم القبول) بتفوقهم و 'حقوقهم' الاستثنائية كحق تسجيل تاريخهم حسب وجهة نظرهم واعتبار اي وجهة نظر اخرى تعدياً عليهم (كما في موضوع المحرقة النازية لليهود وبعض التفاصيل المرتبطة بها كعدد ضحايا هذه المحرقة).

ودولة تقوم على هذه النظرية المعبرة عن عقيدة التفوق وغريزة التسلط والسيطرة والمنبثقة من الثقافة اليهودية ذات الجذور البدوية القبلية (مما سنتعرض له لاحقاً) وهي متسلحة بكل وسائل القوة والبطش ومدعومة دعماً غير محدود من اهم القوى الدولية ستلجأ بشكل طبيعي (بل غريزي) الى العنف المفرط ضد من ينافسها على الأرض (وهم الفلسطينيون) وضد جيرانها (وهم بقية العرب) خاصةً ان كان هؤلاء المنافسون والجيران من الضعفاء والمستضعفين الذين لا يملكون شيئاً من عناصر القوة وادواتها او لا يحسنون استخدامها والتصرف فيها (كما هو حال العرب والفلسطينيين).

ولكن نظرية الأمن المعدَّلة هذه ـ التي بدت ناجحة عموماً في بداية تطبيقها بإقامة دولة اسرائيل ـ يُتوقَّع منطقياً ان تكون لها نتائج كارثية مدمرة على الوجود اليهودي حول العالم في المستقبل البعيد (وربما القريب كذلك) لنفس الأسباب التي جعلت نظرية الأمن القديمة كارثية ومدمرة على اليهود إذ جرّت عليهم الكثير من المآسي والويلات في خواتيمها وإن نجحت في بداياتها. بل ان نظرية الأمن الجديدة ـ بما انجزته من افعال دموية ومجازر مروّعة ـ قد اوجدت اسباباً جديدة تجعلها اكثر كارثية ودماراً على اليهود من نظرية الأمن القديمة.

والواقع ان نظرية الأمن المعدَّلة قد اتضح فشلها (او على الأقل بدأت تظهر معالم وعلامات فشلها) في العقود الأخيرة، وقد تُوّج هذا الفشل في ملحمة طوفان الأقصى التي اثبتت ان هذه النظرية ليست خرقاء فحسب (لأنها فشلت في حماية اليهود بل جعلتهم هدفاً للأعداء المساكنين والمجاورين لهم) بل هي خطرة جدّاً لأنها لم تكتفِ بتحريض العرب والمسلمين ضد اليهود (ممثَّلين بإسرائيل) بل حرّضت كذلك كثيراً من شعوب العالم ودوله ضدّهم (وإن كان معبَّراً عنه غالباً وظاهراً بشكل عداء لإسرائيل). وهي ـ لا شك ـ ستجر على اليهود نتائج كارثية لو لم يَصحُ اليهود (او بالأحرى الصهاينة منهم وهم الأغلبية الساحقة حتى الآن) من خبلهم ورعونتهم ليشاهدوا المستقبل المظلم الذي ينتظرهم لو استمروا في هذه الحماقات الكارثية ويتداركوا نتائجها وآثارها.

واختياري ـ لو كنتُ يهودياً ـ ان انبذ كلا النظريتين (اي نظرية الهوية ونظرية الأمن) وأستبدلها بمنحىً آخر ورؤية اذكى من هاتين النظريتين الفاسدتين.

فاما نظرية الهوية فان التميز المفرط (في الهيئة والشكل وما شابه ذلك) عن المجتمع المحيط ـ رغم نجاحه في الاحتفاظ بالهوية ـ يجلب من الحساسيات والعقد تجاه اليهود ويجرّ عليهم من الأضرار ما لايقل عما يجلبه من نفع. وبدلاً عن ذلك ساستبدله (كـ 'يهودي') بالتميز السلوكي والخلقي (بالإضافة طبعاً الى التثقيف الداخلي والبيتي الذي لا يقصّر اليهود فيه). فمثلاً لو كنت (كـ 'يهودي') مثالاً للناس في الصدق والأمانة وعمل الخير وما شابه ذلك فانني سأحتفظ بالهوية وسأكسب احترام وحب المجتمع (الذي سيماهيني ويجعلني كـ 'يهودي' مكافئاً للخير والنبل وبذا سيحفظ المجتمع لي هويتي اليهودية قبل ان أحفظها أنا) بدل ان احتفظ بتسريحة شعر خرقاء او ازياءاً وشارات موحشة عادةً ما تؤدي الى سخرية واشمئزاز الجماعات الأخرى في المجتمع الذي أعيش فيه.

وأما نظرية الأمن فان البديل عنها في رأيي كـ 'يهودي' (والحل لهذه القضية كذلك) هو الرجوع الى نظرية الأمن القديمة بتفكيك 'دولة اسرائيل' اولاً مع تعديل نظرية الأمن القديمة بتعديل النظرة الى عناصر القوة المُراكَمة. فهذه العناصر ينبغي مراكمتها ولكن ليس بالشكل الفاحش الذي يقود الى الطغيان والعتو او الى إثارة حفيظة المجتمعات الحاضنة لليهود، وليس بغرض السيطرة على هذه المجتمعات الحاضنة واستغلالها وإنما هي عناصر قوة ذات هدف اخلاقي (مضافاً طبعاً الى هدفها النفعي المعقول)، وهذا منسجم تماماً مع التميز السلوكي المشار اليه آنفاً. كما ينبغي ان تكون عناصر القوة هذه منضبطة ومؤطَّرة بضوابط قيمية سامية تدخل في نسيج الثقافة اليهودية وتكون جزءاً اصيلاً منها لكي لا تقود هذه العناصر الى العتو والطغيان.

ولكن ـ للأسف ـ الثقافة اليهودية الراهنة هي في معظمها نتاج لاحلام توراتية وعقد تلمودية متراكمة عبر العصور والأجيال، وهي في معظمها وجوهرها قائمة اساساً على عقد التفوق والسيطرة والاستغلال والنظر الى الآخرين (خاصةً العرب) كأشياء او حيوانات[١٢١] لا كبشر، او كبشر من درجات دنيا (وهو ما يبرر وصفهم بالحيوانات البشرية). ولهذا لا أرجو لليهود في معظمهم (ولا لإسرائيل طبعاً) ان يصحوا من سكرهم ويفيقوا من سباتهم الا حين تقوم القيامة عليهم وتنزل بهم الطامة الكبرى.

---

[١٢١] الواقع ان غالانت كان مهذَّباً وكريماً ورقيقاً جدّاً تجاه الفلسطينيين حين وصفهم بالحيوانات البشرية لأنهم (وكل العرب وربما كل بني آدم من غير اليهود) في نظره ونظر امثاله من اليهود الصهاينة ليسوا سوى حيوانات لا أكثر.

٢.٧ العلاقة التاريخية بين اليهود والشرق المسلم

لقد ظل الشرق المسلم ملجأً آمناً لليهود على مرّ التاريخ إذ يكفي ان نتذكر رحيلهم من الأندلس بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له بعد سقوط الحكم الإسلامي حيث احتضنتهم المجتمعات المسلمة في المشرق والمغرب ومكّنتهم من اعادة بناء وجودهم والاحتفاظ بهويتهم الدينية والثقافية حتى يومنا هذا. والواقع ان كثيراً من المجتمعات اليهودية في العالم الإسلامي لم تكن اقليات هامشية او مهمّشة بل ولا حتى جماعات عادية تعيش كبقية المسلمين (لها ما لهم وعليها ما عليهم) بل كانت مجتمعات نخبة إذ حظيت بامتيازات لم تحظ بها غالبية الجماعات والفئات الاجتماعية المسلمة (خاصة بعض الأقليات المسلمة).

وينبغي ان ننوّه هنا بقضية هامة وهي عجز اليهود الأوروبيين عن فهم العلاقة التاريخية بين يهود الشرق والمسلمين إذ أسقط هؤلاء اليهود الأوروبيون العلاقة الإشكالية التي خبروها في اوروبا على علاقتهم بالعالم الإسلامي فاتخذوا المسلمين اعداءاً لهم كما لو ان المسلمين ـ لا المسيحيين الأوروبيين ـ هم الذين اضطهدوهم في حقبة العصور الوسيطة والعصر الحديث. بل ان الفكر اليهودي الأوروبي أثّر على كثير من اليهود الشرقيين فجعلهم يوجهون سهام حقدهم على المسلمين الذين احسنوا معاملتهم ويتحالفون مع مضطهديهم من الأوروبيين ضدّ المسلمين بدل ان يفعلوا العكس كما يقتضيه المنطق والإنصاف.

وربما يتظلّم بعض اليهود ـ تبريراً لسلوكهم الشائن هذا ضد المسلمين وعدائهم لهم ـ بتعرّضهم لسوء المعاملة في بعض البلدان الإسلامية خلال بعض الحقب التاريخية. والواقع ان كثيراً من الجماعات والفئات الاجتماعية العربية والمسلمة قد تعرّضت لمثل ذلك (بل اكثر من ذلك بكثير). ولكن لا يجوز لهؤلاء اليهود ان ينسوا او يتناسوا ان يهود الشرق المسلم لم يتعرّضوا في يوم من الأيام لجرائم الإبادة وحملات الاضطهاد والظلم التي تعرّض لها اليهود في اوروبا. وعلى كل حال، 'معاداة السامية' انما هو مرض غربي مسيحي وليس شرقياً مسلماً.

ومن اراد ان يتعرّف اكثر على وضع اليهود في الشرق المسلم والمعاملة الحسنة التي كانوا يحظون بها فليرجع الى تاريخ اليهود في الشرق المسلم (ابتداءاً من الفتح الإسلامي والعهدة العمرية مروراً بالعهد الأيوبي والمملوكي بعد تحرير فلسطين من الاحتلال الصليبي وانتهاءاً بالدولة العثمانية) ويقارنه بتاريخ اليهود الحالك في اوروبا خلال مختلف العصور والحقب.[١٢٢] والواقع ان حسن المعاملة التي حظي بها يهود المشرق المسلم خلال

[١٢٢] 'العصور والحقب' تشمل الزمن الحاضر لأن 'الحب' الذي يحظى به اليهود هذه الأيام في المجتمعات الأوروبية ما هو الا

مختلف عهود وحقب التاريخ الإسلامي تكشف ان هذا السلوك المسلم تجاههم هو ليس سمة 'نظام حكم' او نعمة من حاكم 'طيب القلب' بل هو منبثق من صلب تعاليم الإسلام السمحة التي اوصت بهم وبحسن معاملتهم، وهذا الإسلام هو عين الإسلام الذي يكنّ له اليهود سخائم حقدهم ويوجهون نحوه سهامهم ويكافؤون إحسانه بالشر والسوء.

وينبغي ان نلاحظ هنا ان اليهودية برموزها ورجالاتها وتنظيماتها ومؤسساتها تقوم بدور استثنائي لا يتناسب مع حجمها في الحرب الكونية ضد الإسلام والمسلمين بل انها غالباً ما تقود هذه الحرب وتسعّرها وتديرها مستغلة احياناً واجهات اخرى ومتخفية خلف كيانات اخرى. ان نظرة سريعة للجهد الدولي ضد الإسلام والمسلمين تكشف بوضوح ان كثيراً من رموز العداء للإسلام والمسلمين هم من اليهود، وان كثيراً من المنظمات المتخصصة في محاربة الإسلام والمسلمين مدعومة وممولة من جهات يهودية، وان كثيراً (وربما معظم) اجهزة الإعلام المعادية للإسلام والمسلمين تتلقى توجيهها وتمويلها من جهات يهودية او مقربة منها. بل حتى الجماعات الإنجيلية المسعورة في عدائها للإسلام والمسلمين (وما شابهها من جماعات المسيحية الصهيونية) غالباً ما يكون وراءها عنصر يهودي (فضلاً عن المحتوى اليهودي في فكرها ومعتقدها) بل ان بعضها إما مُختلَق يهودياً او مُخترَق يهودياً.

٣.٧ العلاقة المستقبلية بين اليهود والشرق المسلم

اليهود كجماعة بشرية ضئيلة العدد لا تستطيع العيش والبقاء إلّا في كنف جماعات بشرية اكبر منها بكثير، ولذا هم بحاجة دوماً الى حماية غيرهم. فحتى حين شكل اليهود دولتهم المزعومة ـ التي يفترض انها ستغنيهم عن حماية الآخرين ـ لم تزدهم هذه الدولة أمناً ولم تقلل حاجتهم للحماية بل تبين ان هذه 'الدولة' نفسها بحاجة الى حماية كما اثبتت الأحداث ذلك منذ تأسيس هذه الدويلة الملعونة. ولقد أظهرت ملحمة طوفان الأقصى حاجة هذه 'الدولة' الى الحماية بشكل فاضح لم يستطع إخفاءه حتى أكثر المتبجحين الصهاينة بقوتهم المزعومة واشدهم صلفاً ومكابرة.

لقد شكلت حرب الإبادة التي تشنها هذه 'الدولة' في غزة حدثاً فاصلاً ومنعطفاً تاريخياً لا في تاريخ هذه

حب زائف سببه الخوف من اليهود لنفوذهم القوي في الدول الأوروبية ولجوئهم الممنهج لوسائل الضغط والابتزاز (وعلى رأسها إصدار التشريعات الحامية لهم واستخدام وسائل التشهير والتسقيط الإعلامي ضد اعدائهم وما شابه ذلك) لكبت اي تعبير عن الكراهية والرفض لهم. فكراهية اليهود هي جزء من الثقافة الأوروبية المسيحية الغالبة وهي حقيقة يدركها اليهود جيداً.

الدولة والمستقبل المظلم الذي ينتظرها فحسب بل في العلاقة التاريخية بين اليهود والشرق المسلم. فما قبل طوفان الأقصى ليس كما بعده، إذ تكونت قناعة راسخة لدى الكثير من العرب والمسلمين (بل وغيرهم كذلك) ان هذا الإجرام الصهيوني المزمن هو ليس مرضاً صهيونياً اسرائيلياً فحسب بل هو في اساسه مرض يهودي تمتد جذوره في التاريخ اليهودي والتراث اليهودي والثقافة اليهودية المبتنية على الإرث التوراتي التلمودي بتعرجاته وتشوّهاته وعقده. وهذا لا يعني رغبة في الثأر والانتقام من اليهود حين تحين الفرصة (وهي قادمة دون شك) فحسب بل هو يعني كذلك رفضاً قاطعاً للوجود اليهودي في الشرق المسلم (لا كدولة فحسب بل كمجتمعات مندمجة كذلك) لما يشكله هذا الوجود من خطر على العرب والمسلمين (وهو ما اظهرته تجربة اسرائيل وحرب الإبادة على غزة بنحو خاص) فضلاً عن رغبة الثأر والانتقام المشار اليها آنفاً.

وعلى كل حال، إذا لم يُصلح اليهود (واعني بالمقام الأوّل عقلاءهم وحكماءهم) ما افسده الطيش والاستهتار والإجرام الصهيوني فستكون لمذبحة غزة نتائج كارثية على الوجود اليهودي حول العالم (لا في المشرق الإسلامي فحسب). فخزّان الحقد الأول على اليهود انما هو في الغرب لا في الشرق، واذا تخلى الغرب عنهم يوماً ما (وهو ما قد يحصل بسبب الكره العميق لليهود داخل المجتمعات الاوروبية والغربية عموماً) ونبذهم الشرق بسبب ما أظهروه من وحشية وارتكبوه من جرائم في غزة خصوصاً وفي فلسطين عموماً (بل وحتى خارج فلسطين) فسيكون من شبه المحتوم ان يواجه اليهود مستقبلاً مظلماً بل ربما مجازر إبادة لا تقل بشاعة عما ارتكب بحقهم في اوروبا خلال الحقبة النازية. وهذا ينبغي ان يشكل جرس انذار لليهود وداعياً لهم للعمل بجد على تصحيح علاقتهم بالعرب والمسلمين وهي العلاقة التي امّنت لهم افضل شروط العيش والرخاء والازدهار التي عرفوها في تاريخهم (لا خلال القرون الخمسة عشر الأخيرة فحسب).

والخلاصة، ان العلاقة التاريخية بين اليهود والشرق المسلم قد كُسرت - بما اقترفوه ويقترفونه في غزة - وربما لن تجبر، ولكن يبقى على اليهود ان يحاولوا جبرها وإصلاح ما فسد منها لأن هذه العلاقة كانت وما زالت وستظل اهم اطواق النجاة وصمامات الأمان للوجود اليهودي حول العالم (خاصةً إن لاحظنا تغير موازين القوى الدولية وإمكانية حصول زلازل جيوستراتيجية بحجم انهيار الاتحاد السوفييتي وربما اكبر). وعلى كل حال، إذا لم يتدارك اليهود ما اقترفوه من جرائم بحق العرب والفلسطينيين (والغزيين بشكل خاص) فقد يجدون انفسهم في يوم من الأيام اسوأ حالاً من الغزيين الذين يتفنن اليهود اليوم ويتلذذون بتعذيبهم وتجويعهم وقتلهم وإبادتهم.

٤.٧ وقفة تأملية

لقد أظهر اليهود عبر تاريخهم ذكاءاً تكتيكياً رائعاً وغباءاً استراتيجياً فاضحاً. فهم إذ ينجحون في تحقيق أهدافهم الجزئية والمرحلية (او معظمها على الأقل) فيحتفظون بوجودهم المعنوي والمادي حتى حين (راجع § ١.٧)، يجرّون على انفسهم نقمة جماعات كبيرة وبطشها الذي غالباً ما يهدد وجودهم فيفشلون في تحقيق الهدف الاستراتيجي الأكبر من هذه الأهداف الجزئية والمرحلية. ولذا كان التاريخ اليهودي سلسلة من الانتصارات والنجاحات التكتيكية المتبوعة بهزائم وخسائر استراتيجية.[١٢٣]

وقد كانت ملحمة طوفان الأقصى تجلياً صارخاً لهذا الذكاء التكتيكي الرائع وذلك الغباء الاستراتيجي الفاضح المدمّر، فهم إذ نجحوا في الانتقام من اعدائهم انتقاماً ماحقاً بما يخدم امنهم مرحلياً ويشبع شهواتهم الآنية في الثأر وسفك الدماء فقد فشلوا فشلاً ذريعاً في اكتساب (والاحتفاظ بـ) صداقات حيوية لهذا الأمن وجلبوا على انفسهم نقمة عارمة قد تهدد وجودهم كاملاً على المستوى الاستراتيجي بما اقترفوه من جرائم بشعة.

ولو كان اليهود (ممثَّلين بإسرائيل والتجمعات اليهودية الداعمة لإسرائيل وهي تشكّل الغالبية العظمى من اليهود) يمتلكون من الحنكة والذكاء الاستراتيجي الشيء القليل لكانت عملية طوفان الأقصى فرصتهم التاريخية لتثبيت وجودهم والقضاء على أعدائهم على المستوى الاستراتيجي والمدى البعيد. فلو انهم لم ينساقوا خلف احقادهم وعقدهم وساديتهم وانفعالاتهم وتهورهم وأظهروا شيئاً من التسامح والانضباط في ردود أفعالهم لكان العالم ـ او معظمه ـ يقف الى جانبهم (كما وقف في الأيام الأولى من ملحمة طوفان الأقصى معهم) ويتعاطف معهم ولصبّ العالم جام غضبه على حماس والفلسطينيين وداعميهم.

والواقع ان هذا الغباء والحمق الاستراتيجي هو ما ميز 'دولة' اليهود منذ (بل وقبل) إقامتها لأن إسرائيل كانت ستثبّت وجودها وتمدّ جذورها عميقاً في المنطقة لو انها التزمت بالحصافة والكياسة والتسامح والتعايش مع الفلسطينيين وبقية جيرانها العرب بدل سياسة البلطجة والإجرام المجاني والمذابح الجماعية والعنف المفرط اللامبرر والانتهاك الصارخ لكل القواعد والقيم والقوانين والحدود والقيود.

ولكن المشكلة ليست في إسرائيل والتجمعات اليهودية الداعمة لها بل هي في الثقافة اليهودية التوراتية التلمودية القائمة على نظرة فوقية وخلل سيكولوجي وعقد واحقاد تصل الى حدّ المرض المزمن وتمتد في اعماق

[١٢٣] يمكننا ادعاء ان هذه السلسلة (او الدورة) من النجاحات التكتيكية والهزائم الاستراتيجية مشار اليها ضمناً في القرآن الكريم (مثلاً في بداية سورة الإسراء: 'وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً' وما تلاها من آيات).

التكوين اليهودي بل تكاد ان تكون جزءاً من الجينات اليهودية وحمضها النووي. إنها ثقافة جماعة من البدو الرحل الرعاة (تختلط لديها ثقافة التنقل والرعي بثقافة الغارات والسطو المسلح) نشأت متسكعة في منطقة الهلال الخصيب قبل ما يقارب الثلاثة آلاف عام، وقد حرصت على الاحتفاظ بثقافتها البدوية البدائية هذه كما هي (في جوهرها بل وفي كثير من مظاهرها وشكلياتها وتفاصيلها) وإن حاول بعض 'الأذكياء' و 'العقلاء' من اليهود (ربما كانوا بشكل 'انبياء' او متنبئين او ماشابه ذلك) تحديثها وتطويرها من حين لحين.

فما كان لإسرائيل (وداعميها من اليهود) خيار سوى الانجرار خلف احقادها وعقدها مهما كان الثمن الذي ستدفعه في المستقبل، وما كان بمقدورها ان تختار ان تكون ذكية او غبية او اي شيء من هذا القبيل لأنها كانت تتصرف بغريزتها الحيوانية ـ التي لا تستطيع السيطرة عليها ـ لا بعقلها البشري وذكائها الآدمي.

وأنا على يقين ان معظم الإسرائيليين (وغيرهم من اليهود الداعمين لهم) لن يفعلوا إلا ما فعلوه بعد طوفان الأقصى من إجرام ومجازر حتى لو علموا يقيناً ان نهايتهم ونهاية اليهودية هي الثمن الذي سيدفعونه لذلك. والسبب في ذلك انهم ليسوا سوى اولئك البدو المتسكعين في الهلال الخصيب قبل ثلاثة آلاف عام (او تناسخاً لهم) بما يمثله الأخذ بالثار من قداسة وقيمة مطلقة لهم. فلا ينتظر من بدو كهؤلاء إلا ان يتصرفوا بغرائزهم الحيوانية ـ لا بعقولهم البشرية ـ فينتقموا ويدمروا ويقتلوا ليأخذوا بثارهم ويرووا عطشهم من دماء اعدائهم ويطفئوا نار الحقد التي تضطرم في قلوبهم مهما كانت النتائج التي سيجرها ذلك عليهم والوبال الذي سيحل بهم.

وهذا في الواقع يفسر جزئياً الغباء المطبق الذي اظهره قادة الكيان ومن لف لفهم من الاعلاميين والشخصيات العامة ونحوهم من الحرص ـ لا على إخفاء مقاصدهم والتستر عليها ولا على اظهار عدم اكتراثهم لافتضاح هذه المقاصد بتصريحاتهم الإبادية ضد الفلسطينيين ـ بل الحرص كل الحرص على الكشف عن هذه المقاصد والتصريح بها وإعلانها جهاراً نهاراً ليعلم العالم كل العالم بوضوح شديد ما يضمرونه في نفوسهم وما يعتمل في صدورهم لأنهم بذلك انما كانوا يلبّون حاجة نفسية تمليها عليهم طبيعتهم البدوية البدائية القبلية التي تفرض عليهم التنفيس عن حقدهم الدفين وإطفاء ناره التي تضطرم في داخلهم.

فهذه التصريحات وما شابهها لم تكن في جوهرها الا انفعالاً غريزياً 'لاإرادياً' (لا فعلاً إرادياً) منبعثاً عن عقدهم النفسية وصادراً عن حالاتهم المرضية المتجذرة في ثقافتهم البدوية البدائية التي تجبرهم إجباراً وتفرض عليهم فرضاً ان يفعلوا ذلك ليحسوا بشيء من الراحة ويخففوا الضغط الداخلي الهائل الذي يشعرون به. فليست هذه التصريحات هفوات او اخطاء او زلات لسان او ما شابه ذلك بل هي عين ما كان يجب ان

يكون وما كانوا يريدونه ان يقع. فهم قبل كل شيء وبعد كل شيء ليسوا سوى بدو رحل من الألفية الثالثة بعقليتهم وثقافتهم وامراضهم وعقدهم وقيمهم التي تقدس الثأر والانتقام وتحرص على اعلانه والجهر به وتسعى وراءه مهما كان الثمن الذي ستدفعه لذلك. فينبغي لهذه التصريحات الحمقاء الرعناء ان تفهم في هذا السياق وتقرأ بهذا النحو. ومخطئ من يظن ان هذه التصريحات (وما شابهها من تصرفات حمقاء رعناء هوجاء) هي من قبيل الفلتات وزلات اللسان والتصرفات المتسرعة اللامدروسة بل هي من صميم السلوك الإسرائيلي المعبر عن الطبيعة اليهودية الأصيلة.

الفصل الثامن
علاقة الغرب بإسرائيل

نقدم في هذا الفصل استعراضاً موجزاً لحقيقة العلاقة التي تربط الغرب بإسرائيل لنحاول التعرف على اسباب هذا ’الوله‘ و ’العشق‘ الغربي لإسرائيل الذي يصل احياناً بالغرب الى حد التخلي عن مصالحه من اجل سواد عيون اسرائيل (او هكذا يبدو). كما سنحاول تقييم مستقبل هذه العلاقة في ضوء المعطيات التي انتجتها ملحمة طوفان الأقصى.

١.٨ أسباب إقامة إسرائيل

من الواضح ان السبب الأساس لإقامة دولة إسرائيل هو رغبة اليهود الصهاينة في إنشاء دولة تؤويهم وتحميهم (وهذا ما بحثناه في § ١.٧). ولكن ما يهمنا في هذا القسم هو بحث الأسباب التي دفعت بعض الدول الغربية للتحمس لهذا المشروع وتبنيه ومساعدة اليهود في اقامة دولتهم المنشودة (وكذا الدفاع عنها منذ تأسيسها حتى اليوم وهو ما سنبحثه بمزيد من التفصيل لاحقاً).

والواقع ان هناك اسباباً كثيرة لإقامة الغرب ’دولة اسرائيل‘ في قلب المنطقة العربية الإسلامية ومدها بكل سبل الحياة والبقاء، وسنحاول تلخيص اهم هذه الأسباب في النقاط التالية:[١٢٤]

١. التغلغل اليهودي في الدول والمؤسسات والكيانات الغربية مما يتيح لليهود التحكم في كثير من السياسات الداخلية والخارجية لهذه الدول (في الماضي والحاضر والمستقبل) ومنها قضية إقامة دولة اسرائيل التي تعبر عن رغبة وهدف لليهود الصهاينة المتنفذين في هذه الدول.

٢. المعتقدات الدينية المسيحية البروتستانتية التي تطعّم المسيحية بكثير من العناصر اليهودية (وهو ما تجسد لاحقاً بظهور كنائس المسيحية الصهيونية). بل ان بعض هذه المعتقدات (والكنائس المستندة إليها) قد لا

[١٢٤] ينبغي ان نلاحظ ان هذه ليست اسباباً لإقامة الغرب ’دولة اسرائيل‘ فحسب بل هي اسباب كذلك للدعم المستمر الذي يقدمه الغرب لـ ’دولة اسرائيل‘ منذ إنشائها حتى الآن (بل وفي المستقبل المنظور كذلك). ولذا هذه الأسباب ذات قيمة مستدامة (وليست قيمة تاريخية فحسب).

يعدو كونه اختلاقاً يهودياً مدسوساً واختراقاً للمسيحية بالالتزام بولاء يهودي مع تقمص مظهر مسيحي. وهذا يصدق على معتقدات كثير من الكنائس الإنجيلية التي يتجاوز حماسها لإسرائيل غالباً حماس كثير من اليهود والإسرائيليين.

٣. رغبة الغرب في إذلال العرب والمسلمين وتشتيتهم وتفتيتهم ومنعهم من النهوض، وهو ما قامت وتقوم به (وستظل تقوم به) إسرائيل على أفضل وجه. واسرائيل من هذا المنظور وبهذه الحيثية ليست سوى اسلوب مبتكر وتمظهر جديد للحروب الصليبية على الإسلام والمسلمين إذ هي في جوهرها وهدفها مشروع تدميري إبادي هدّام. وواضح ان الأهمية الجيوسياسية والاستراتيجية والثقافية لفلسطين (التي هي في وسط العالم العربي حيث تقع بين مشرقه ومغربه وتحظى بقدسية خاصة لدى الأديان التوحيدية الثلاثة) تبرر اختيارها قاعدةً لهذا المشروع التخريبي الهدّام، كما ان تاريخ الحروب الصليبية هو مبرر آخر حيث كان احتلال فلسطين احد الأهداف الرئيسية للحملات الصليبية.[١٢٥] راجع كذلك § ٤.٨.

٢.٨ تبعية امريكا لإسرائيل

هناك خلاف معروف حول ما إذا كانت إسرائيل تابعة لامريكا ام ان امريكا تابعة لإسرائيل.[١٢٦] وهذا خلاف جديّ قائم بين خبراء ومختصين في السياسة الدولية وليس وهماً من نسج خيال اصحاب نظريات المؤامرة ومراهقي السياسة واغرارها. واعتقد ان طوفان الأقصى قد وضع (او ينبغي ان يضع) حدّاً لهذا الخلاف ويحسمه لصالح الفريق الثاني القائل ان امريكا هي التابعة لإسرائيل وذلك بسبب التغلغل الصهيوني في كل مراكز الضغط والقرار في امريكا بل وفي كل مفاصل حياة الدولة الأمريكية (كالإعلام والبنوك والشركات الكبرى فضلاً عن المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية والثقافية وما شابهها من مؤسسات وكيانات رسمية وغير رسمية). بل ان اسرائيل هي جزء من الدين والثقافة العامة لشريحة واسعة من المجتمع الأمريكي بما يمثله هذا من عامل ضغط وتأثير انتخابي ذي نواتج وتبعات سياسية معروفة (راجع § ٣.٣.٢).

وينبغي ان يكون واضحاً هنا انه حين تكون امريكا هي الطرف الأقوى في العلاقة مع اسرائيل وتنجح في

---

[١٢٥] يجدر التذكير في هذا المقام بالمقولة الشهيرة للجنرال البريطاني إدموند ألنبي حين دخل القدس محتلّاً خلال الحرب العالمية الأولى: 'الآن انتهت الحروب الصليبية'. وأجد نفسي مضطراً لتعديل هذه المقولة (كي تكون اصدق في التعبير عن الواقع) لتكون: 'الآن انتهت الحروب الصليبية القديمة وبدأت الحروب الصليبية الحديثة'.

[١٢٦] ينبغي ان يكون واضحاً اننا حين نتحدث عن تبعية امريكا لإسرائيل فان هذا ينبغي ان ينصرف للقضايا المتعلقة باسرائيل ومصالحها خاصةً ما يرتبط بشؤون ما يسمى بالشرق الأوسط وسياساته.

فرض شروطها ومطالبها عليها (كما قد يحدث احياناً) فان هذا يحدث حين يكون هذا قرار 'الفرع الأمريكي من المؤسسة الصهيونية' (وهو الفرع الأكثر نفوذاً وتأثيراً) حيث ان هناك اتجاهات وتيارات مختلفة داخل المؤسسة الصهيونية تجاه بعض القضايا التفصيلية والجزئية وهو ما يسمح بحدوث هذا النوع من 'الهيمنة' الأمريكية على اسرائيل وفرض ارادتها عليها. فحقيقة الأمر انه حين تريد المؤسسات الصهيونية الحاكمة في امريكا والمتنفذة في مراكز قرارها شيئاً ما فان المؤسسة الصهيونية في اسرائيل عادة ما تستجيب لها وتنصاع لإرادتها وهذا ما يجعل اسرائيل تبدو ـ مظهرياً لا حقيقياً ـ تابعة لأمريكا أحياناً.

ولقد لاحظ الجميع مدى عجز جو بايدن ـ خلال مذبحة غزة ـ عن إجبار اسرائيل على الالتزام ببعض الشروط والقواعد البسيطة 'المظهرية المضمون' التي هدفها تلميع صورته وصورة الولايات المتحدة التي مرّغها الجنون الإسرائيلي في الوحل. وانا لا أدّعي هنا ان لجو بايدن ذرّة من الإنسانية والضمير الحي ما يجعله متحمساً او مريداً لوقف المجازر في غزة او التقليل من بشاعتها ودمويتها ولكن ينبغي ان لا ننسى ان بايدن انما كان يضحي بمصالحه الانتخابية والحزبية بهذا الدعم اللامحدود لإسرائيل ولا تفسير لذلك الا انه لاخيار له الا ان يفعل ذلك لان مراكز الضغط والقرار الحقيقي في واشنطن هي جميعها تقريباً في يد اسرائيل ـ وهو ما يجعل بايدن عاجزاً عن فعل اي شيء حتى لو اراد ـ وهذا ما يؤكد نظرية ان اسرائيل هي التي تقود امريكا لا العكس.

٣.٨ علاقة الغرب بإسرائيل

تاريخياً، ليست دول الغرب سواء في علاقتها بإسرائيل وإن كان المشروع الصهيوني القاضي بإقامة هذه 'الدولة' على ارض فلسطين قد تُبنّي تاريخياً من قِبَل كلّ (او على الأقل معظم) القوى الغربية الاستعمارية الرئيسية (بما فيها ألمانيا النازية؛ راجع § ٥.٣). وعلى كل حال، يعرف الجميع ان بريطانيا هي المسؤول الأول عن تأسيس هذا الكيان لأن فلسطين كانت تحت السيطرة البريطانية، فقد فتحت باب الهجرة اليهودية الى فلسطين كما انها تواطأت مع عصابات الإجرام الصهيوني (كهاغاناه وارغون وشتيرن) وأمدّتهم (او تغاضت عن امدادهم) بالسلاح والعتاد وكل ما يحتاجونه ليبسطوا سيطرتهم على اجزاء واسعة من فلسطين التاريخية بعمليات تطهير عرقي منظمة ومعززة بمجازر ابادة واسعة.

وقبل ذلك كانت بريطانيا هي التي اصدرت وعد بلفور المشؤوم الذي يعتبر الوثيقة التأسيسية الأولى للكيان الصهيوني (او على الأقل هو الوثيقة الرسمية الأولى المعلنة). وهناك دلائل ووثائق تشير الى تورط امريكي

في مشروع بلفور الذي تضمنه وعده المشؤوم، كما ان هناك دلائل على تورط الفرنسيين كذلك في هذا المشروع (او على الأقل ترحيبهم به وتاييدهم له). ولا غرابة في كل ذلك فكل القوى الغربية الرئيسية (بما فيها المانيا قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وان كان لها اسباب خاصة بها) كانت متفقة عموماً على اسباب إقامة إسرائيل (وهي الأسباب التي فصلناها في § ١.٨) وإن كانت قد تختلف في بعض التفاصيل والجزئيات.

والواقع انه حتى الاتحاد السوفييتي كان مناصراً للصهيونية في الحقبة الستالينية (خاصة قبيل تأسيس 'دولة اسرائيل') ومساهماً في انشاء دولة اسرائيل التي كان هو ثاني دولة تعترف بها (والتفاصيل معروفة يستطاع الحصول عليها بسهولة من شبكة الانترنت فضلاً عن مئات الكتب والمصادر والموسوعات الموثوقة). ولا عجب في كل ذلك ما دامت ملة الكفر واحدة وهي تختلف في كل شيء الا في عدائها للإسلام والمسلمين ورغبتها في سحقهم وإضعافهم وإذلالهم.

وعلى كل حال، بعد إقامة اسرائيل تعاضدت كل دول الغرب في دعمها ومدّها بكل اسباب الحياة والقوة والازدهار، وكذلك تزويدها بكل ادوات التدمير والبطش والقتل لتظل متفوقةً ومنتصرةً على أعدائها من الفلسطينيين والعرب. فمثلاً قدمت المانيا دعماً اقتصادياً هائلاً للكيان منذ تأسيسه بينما أمّنت فرنسا له دعماً تسليحياً (تقليدياً ونووياً) وتقنياً ضخماً. وقد اعتمد الغرب كل هذا رسمياً كعقيدة ومبادئ تضمنتها مقولات والتزامات مشهورة (لا يفتأ الساسة الغربيون عن ترديدها) على رأسها الالتزام بتفوق اسرائيل (في القوة العسكرية ومتطلباتها من قوى استخبارية وما شابهها) على كل الدول العربية مجتمعةً، واعتبار امن اسرائيل ووجودها وسلامة 'اراضيها' جزءاً من الأمن الغربي.

وقد اخذت معالم العلاقة بين الغرب وإسرائيل تتشكل تدريجياً لتأخذ شكلها الحالي المعبر عن توازنات القوى وتوزيعها في الغرب وحول العالم. فقد اخذ ثقل هذه العلاقة يتحول تدريجياً نحو امريكا بعد ان كان متركزاً غالباً في اوروبا، وهذا امر طبيعي بلحاظ الصعود الأمريكي منذ الحرب العالمية الثانية الذي رافقه ضمور واضمحلال للقوى الاستعمارية التقليدية في اوروبا الغربية (وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا والمانيا) التي خرجت منهكةً (وبعضها مدمّراً) من هذه الحرب الطاحنة.

وينبغي ان نلاحظ بضع تطورات مهمة في التشكل التدريجي للعلاقة بين الغرب وإسرائيل (منذ قيام اسرائيل حتى الآن) نلخصها فيما يلي:

١. التنامي التدريجي في قوة علاقة امريكا باسرائيل فبعد ان كانت امريكا احدى الدول الغربية الداعمة لإسرائيل اصبحت امريكا (وبصعود تدريجي) هي الدولة الأولى في هذا الدعم، بل تحولت هذه العلاقة ـ بفضل التنامي

المطرد لقوة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة والتلاشي المطرد لقوة الجماعات المعادية لليهود والصهيونية ـ الى شكل شاذ من الالتزام الأمريكي بتقديم الدعم المطلق لإسرائيل لم تعرفه العلاقات الدولية من قبل.

٢. التحول التدريجي في علاقة امريكا باسرائيل من علاقة قوي بضعيف (واحياناً متبوع بتابع) الى علاقة تابع بمتبوع (اي فيما يخص الشأن الإسرائيلي وما يرتبط به من الشؤون الاقليمية). فبعد ان كانت امريكا تفرض (حين تشاء) ما تريده على اسرائيل اصبح العكس ـ بفضل سيطرة اللوبي الصهيوني ـ هو الغالب (راجع § ٢.٨).

٣. بعد ان كان الموقف الأوروبي (او بالأحرى المواقف الأوروبية) من اسرائيل مستقلاً الى حدٍّ بعيد (ثم لاحقاً الى حدٍّ ما) عن الموقف الأمريكي اصبح الموقف الأوروبي تابعاً او شبه تابع للموقف الأمريكي[١٢٧] (وهو ما ينطبق بشكل اساسي وخاص على الدول الرئيسية في اوروبا). ومما زاد الطين بلة تحوُّل دول اوروبا الشرقية 'الشيوعية المعادية لأمريكا' بعد تفكك الاتحاد السوفييتي الى دول تابعة لأمريكا ومتماهية في مواقفها تجاه القضايا الدولية عموماً وتجاه اسرائيل خصوصاً مع الموقف الأمريكي. فهذه التبعية الشرق ـ اوروبية لأمريكا جعلت موقف الغرب (اي بشكله الجديد الذي يضم دول شرق اوروبا) موحداً او شبه موحد تجاه اسرائيل. والواقع ان الموقف الغربي في السنين الأخيرة بلغ حد الغوغائية في تبعيته العمياء للولايات المتحدة (وهو ما تجلى بشكل فاقع في الموقف من الحرب الروسية ـ الأطلسية وظهر كذلك عموماً في الموقف من حرب الإبادة التي تدور في غزة).

وقد اسهمت هذه التطورات في تحول الموقف الغربي من اسرائيل من موقف داعم لإسرائيل لكنه يتسم بقدر من التنوع والاختلاف والاستقلالية الى موقف موحد ومتماهٍ (او شبه موحد وشبه متماهٍ) مع الموقف الأمريكي الذي هو بدوره 'موحد' ومتماهٍ (او شبه موحد وشبه متماهٍ) مع الموقف الإسرائيلي.

والخلاصة ان علاقة الغرب بإسرائيل تحولت تدريجياً (بفضل العمل الدؤوب للجماعات الصهيونية) من علاقة دعم وتأييد ورعاية (كانت ايضاً بفضل العمل الدؤوب للجماعات الصهيونية) تقتصر عموماً على دول غرب اوروبا وامريكا، الى علاقة تبعية غربية لإسرائيل (اي في الشؤون الإسرائيلية الفلسطينية وما يتصل بها) حيث دلالة 'غربية' تمددت لتشمل دول اوروبا الشرقية كذلك. هذا باختصار هو ما يلخص العلاقة الغربية الإسرائيلية الراهنة ويمثل كنهها وحقيقتها وطبيعتها التي ظهرت جلية خلال ملحمة طوفان الأقصى (بل

[١٢٧] هذا يصح الى حد ما على كندا واستراليا ونيوزيلندا التي هي امتدادات لأوروبا الغربية ولذا يمكن اعتبارها جزءاً من غرب اوروبا في هذا السياق وبهذا المعنى.

الأحرى ان هذا هو ما اظهره الطوفان).

٤.٨ أهمية إسرائيل للغرب

أهمية اسرائيل الاستراتيجية للغرب تتجاوز كونها قاعدة متقدمة له او حاملة طائرات ثابتة او الحفاظ على مصالحه الاقتصادية والتجارية او كونها مركز اشعاع لـ 'الحضارة' الغربية وممثلاً لـ 'الديمقراطية' الغربية في المنطقة وما شابه ذلك من تبريرات عادةً ما تُساق في هذا الصدد (وقد لا يكون بعضها صحيحاً او مهماً)، بل هي حجر الزاوية في مشروعه الاستراتيجي الأكبر لتدمير المنطقة العربية الإسلامية وتفتيتها والسيطرة عليها واستعبادها لأن هذه المنطقة أثبتت عبر التاريخ (بحكم الدين الإسلامي) انها المنطقة الأكثر مناعةً والأصلب عوداً في مواجهة الغرب الاستعماري (منذ الحروب الصليبية) وانها الأكثر إخافةً و 'إرهاباً' للغرب لأنها تمتلك عقيدة ترفض الانحناء والركوع وتأبى القبول بالمخططات التوسعية لفرض السيطرة والاستعمار والهيمنة كما انها عقيدة اصيلة ترفض الذوبان في 'الحضارة' الغربية او التصاغر امامها او الاندماج في نموذجها.

ورغم الضعف والهوان الذي اصاب العرب والمسلمين في القرون الأخيرة، يبقى الغرب يخشاهم ويعدّهم العدوّ الأول والأخطر له لأن الإسلام ـ هذا المارد النائم الكامن الذي يمثّل هوية هاتين الأمتين ـ يظل قادراً على النهوض والانبعاث والاستيقاظ ليحشد طاقات العرب والمسلمين في وجه الغرب المستعمر ويجندهم ويجيشهم في حرب الاستقلال الحقيقي الذي يتجاوز الاستقلال الصوري الذي حققته دول وشعوب المنطقة العربية والاسلامية حيث سمح لها الغرب بتشكيل كيانات مجزَّأة ضعيفة تتمتع بالاستقلال ظاهرياً بينما هي ـ في غالبيتها العظمى ـ مرهونة في ارادتها وقرارها للإرادة والقرار الغربيين.[١٢٨]

---

[١٢٨] الواقع اننا لا نتطلع الى خلافة اسلامية لأنها ـ على الأقل ـ لاتتسم بالواقعية بسبب الظروف الدولية والتنوع الثقافي للشعوب والجماعات والمجتمعات المسلمة، ولكننا نتطلع الى نوع من التحالف بين الدول العربية والإسلامية لتشكيل قوة حقيقية موحدة في توجهاتها وقراراتها وافعالها (في المجالات السياسية والدفاعية والاقتصادية وما شابه ذلك) بما يخدم العرب والمسلمين ويحقق تطلعاتهم كأمة ويدافع عن مصالحهم ويحميهم من اعدائهم ويحل خلافاتهم الداخلية دون تدخلات اجنبية. فتحالف حقيقي كهذا كفيل بمنع الاعتداءات الخارجية على المسلمين (كما حصل في افغانستان والعراق والبوسنة وميانمار وغزة مثلاً) ومنع نشوب نزاعات داخلية وحروب اهلية (كما حدث مثلاً في العراق بعد الغزو الأمريكي او خلال 'الربيع العربي'). كما يكفل تحالف حقيقي كهذا ردم الهوة الطبقية بين فئات العرب والمسلمين بما يضمن نوعاً من العدالة الاجتماعية وتوزيعاً اعدل لثروات العرب والمسلمين التي يستأثر بها الآن حكام وافراد وشعوب وجماعات فاسدة مفسدة تبدد ثروة العرب والمسلمين وتنفقها على شهواتها الشاذة ولهوها وفجورها، كما تكدسها في المصارف الأجنبية لينتفع بها اعداء العرب والمسلمين. بل غالباً ما تنفق هذه الثروات لتدمير العرب والمسلمين وقتلهم والتآمر عليهم خدمةً لمخططات الأجانب والأعداء (وعلى رأسهم الصهاينة والصليبيون) كما حدث مثلاً في حرب النظام البعثي ضد

٥.٨ مستقبل علاقة الغرب بإسرائيل

لا يُنتظَر حدوث تغير جوهري في علاقة الغرب بإسرائيل في المدى المنظور على الأقل (ما دامت اسرائيل باقية وما دام الغرب كما هو). والسبب الرئيس لذلك (عدا عن كثرة المصالح المتبادلة بين الطرفين) هو حقيقة ان اسباب إقامة اسرائيل في المقام الأول وبقائها ما زالت قائمة كما هي (راجع § ١.٨ و § ٤.٨) بل ان بعض هذه الأسباب قد تعزّز وتقوّى. نعم، قد تحدث بعض التغيرات الشكلية والطفيفة (ومن بعض الدول بالخصوص) بسبب ما حدث (ويحدث وسيحدث) في غزة ولكن ينبغي ان نبقى دوماً نتذكّر الحقيقتين التاليتين:

١. لا يجوز انتظار اي تغير جوهري وحقيقي في دعم الدول الغربية الرئيسية المطلق او شبه المطلق لإسرائيل (خاصةً بريطانيا وامريكا)، فقد تتخلى عن دعم اسرائيل (إن تخلت) دول غربية ثانوية وهامشية لا دول رئيسية ومحورية.

٢. أي تغير (مهما كان مهمّاً وبغض النظر عن كونه آتياً من دول غربية رئيسية او غير رئيسية) لن يمس اطلاقاً التزام الغرب بوجود اسرائيل وبقائها، بل لن يمس حتى التزام الغرب بتفوقها وسيادتها وهيمنتها على المنطقة (اي ان الغرب لن يتخلى عن هذا الهدف الاستراتيجي إطلاقاً). فإسرائيل بنظر الغرب لم توجد لتكون دولة عادية كإحدى دول المنطقة (او تبقى كذلك) بل هي وجدت وستبقى لتكون سيدة ومهيمنة على جميع دول المنطقة وتكون لها القيادة والريادة في كل شؤون المنطقة لأن اسرائيل هي المشروع الغربي الحقيقي الأكبر (بل الوحيد) للمنطقة العربية والإسلامية (راجع § ٤.٨).

وعلى هذا الأساس، فان اي تغير حقيقي وعميق وجذري في الموقف الغربي تجاه اسرائيل إن حدث فإنما يحدث لو حصل تحول او زلزال جيوستراتيجي يهز النظام الدولي القائم برمته (كحدوث انهيار غربي بحجم الانهيار السوفييتي مثلاً). ولكن هذا النوع من التغيرات او الزلازل الاستثنائية (بل الإعجازية) غير المتوقعة ـ مع اعترافنا بامكان حصوله ـ لا يدخل (ولا ينبغي ان يدخل) في حسابات التحليل السياسي والتخطيط للمستقبل.

وهذا يعني ان العرب والمسلمين لا ينبغي ان يراهنوا (او كثيراً على الأقل) على تغير الموقف الغربي تجاه اسرائيل وطبيعة العلاقة معها (بل لا ينبغي ان يراهنوا على اي شيء من هذا القبيل حتى من غير الغرب

ايران او في الحرب الأهلية السورية او في الحرب الأعرابية ـ الغربية ضد اليمن.

من القوى الداعمة للقضية الفلسطينية والمتعاطفة معها فضلاً عمن يقف على الحياد)، بل ينبغي ان يضعوا كل رهاناتهم واستثماراتهم في امكاناتهم الذاتية وقواهم المقاوِمة وقدرتهم على تحشيد طاقاتهم لإزالة هذا الكيان المجرم سلماً او حرباً. فهذا هو الطريق الوحيد امامهم لـ 'حل القضية الفلسطينية'، واول واهم خطوة في هذا الطريق هو رصّ صفوفهم وتحشيد طاقاتهم وتوحيد مواقفهم وتطهير انفسهم من الخونة والعملاء والمتخاذلين.

والخلاصة، ان الركون الى اوهام تغير الموقف الغربي تجاه اسرائيل وطبيعة العلاقة معها (بسبب ما يجري في غزة او في غير غزة) والرهان على هذه الأوهام إنما هو ضرب من الحمق والجهل والجنون. ورغم اعترافنا بأن كثيراً ممن يتشبثون بهذه الأوهام هم من طيبي القلوب وذوي النيات الحسنة فاننا نعتقد ان كثيراً ممن يروجون لهذه الأوهام هم من المغرضين والمثبطين والعملاء والمتواطئين مع الغرب والصهاينة، وهم يهدفون بهذا الترويج الى تخدير العرب والمسلمين عن العلاج الحقيقي لـ 'مشكلة اسرائيل' وصرف انتباههم عن المشروع العربي ـ الإسلامي الجدير بالمتابعة لـ 'حل القضية الفلسطينية' (وهو ما اشرنا له آنفاً).

٦.٨ تحالف الصهيونية العالمية والصليبية العالمية

ينبغي ان يكون واضحاً ان المشروع الصهيوني العالمي (الذي تمثل اسرائيل احدى ركائزه وتجلياته) هو في حقيقته وأبعاده ليس مشروعاً لاستعمار فلسطين فحسب (بل ولا لإقامة الدولة اليهودية من الفرات الى النيل كذلك) بل هو مشروع للسيطرة على العالم كل العالم والتحكم في مقدراته. وهذا المشروع يختبئ خلف (ويستخدم) الولايات المتحدة ـ مدعومة بدول الغرب الأخرى ـ لبلوغ هذا الهدف.

وإذا لاحظنا ان للصليبية العالمية (المتمثلة اساساً بالمعسكر الغربي الذي تقوده الولايات المتحدة) مشروعاً مماثلاً للسيطرة على العالم والتحكم في مقدراته، نستطيع القول ان هذا الدعم الاستثنائي الذي يقدمه الغرب لإسرائيل (الذي يستدعيه كذلك تشابك المصالح الصهيونية والصليبية حول العالم) هو مظهر من مظاهر التحالف الاستراتيجي بين الصهيونية العالمية والصليبية العالمية لاقتسام السيطرة على العالم (حيث تمثل اسرائيل حلماً يهودياً للصهيونية العالمية واداةً مسيحية للصليبية العالمية لتدمير العرب والمسلمين وهو ما يمثل هدفاً صهيونياً كذلك كما يخدم الهدف المشترك لهما في بسط السيطرة والنفوذ).

وهذا في الواقع يعطي بعداً اعمق لعلاقة الغرب بإسرائيل ما دامت هذه العلاقة هي جزء من هذا التحالف الاستراتيجي بين الصهيونية العالمية والصليبية العالمية. وهذا يعني ان هذه العلاقة هي ارسخ من ان تتأثر (فضلاً عن ان تنهار) بأسباب 'تافهة' وعلل طارئة كإبادة الشعب الفلسطيني في غزة او ارتكاب اسرائيل

انتهاكات جسيمة للقانون الدولي والإنساني وما شابه ذلك من 'سخافات وتفاهات وترهات' (لما قد تسببه مثلاً من 'إحراج' للغرب او 'تلطيخ لسمعته' او 'فتّ في مصداقيته' او 'انتهاك لقيمه').

والخلاصة، ان المشروع الغربي (الذي قادته ومازالت تقوده الولايات المتحدة) للسيطرة على العالم والتحكم في موارده ومقدراته ما هو الا مشروع صهيوني ـ صليبي مشترك قائم على اساس التحالف الاستراتيجي المشار اليه آنفاً بين الصهيونية العالمية والصليبية العالمية. وهذا هو ما يعطي اسرائيل (هذه 'الدولة' الصغيرة الضئيلة التافهة) اهميتها الاستثنائية بل 'قدسيتها الدينية' لدى المعسكر الغربي ويجعل الغرب يرتبط بها بهذه العلاقة 'الروحية والعاطفية' الوثيقة لأن اسرائيل انما هي جزء محوري من المشروع الجبار للسيطرة على العالم الذي تتحالف فيه اقوى قوتين آيديولوجيتين ـ سياسيتين معاصرتين (اي الصهيونية العالمية والصليبية العالمية).

الفصل التاسع
الدروس والنتائج

نقدم في هذا الفصل استعراضاً سريعاً لبعض الدروس والعبر والخلاصات وبعض التوقعات والمآلات والنتائج التي يمكن استخلاصها من مجريات طوفان الأقصى واحداثه حتى كتابة هذه السطور.

١.٩ الفشل الصهيوني

لقد فشلت العملية الصهيونية ضد المقاومة عموماً حتى الآن في تحقيق معظم اهدافها إذ عجز الجيش الصهيوني حتى الآن عن تحقيق اهدافه العسكرية والاستراتيجية المعلنة في القضاء على حماس واستعادة الأسرى[١٢٩] والسيطرة على القطاع. كما فشل حتى الآن في تحقيق بعض اهدافه غير المعلنة وهي تهجير سكان غزة (اي إحداث نكبة ثانية) واستعادة الردع المفقود. نعم، لقد نجح الصهاينة نجاحاً باهراً في بعض اهدافهم الخفية وهي ـ بالتحديد ـ الانتقام من الفلسطينيين وإبادتهم وتجويعهم وتدمير غزة وتحويلها مكاناً غير صالح للحياة البشرية.

ويتبين مدى ضخامة الفشل الصهيوني إذا لاحظنا الدعم الغربي اللامحدود للكيان الصهيوني في حرب الإبادة هذه، كما لاحظنا كذلك ان اسرائيل انما تقاتل حركات مقاومة محاصرة ومتسلحة بسلاح بدائي نسبياً معظمه مصنع محلياً ولا يقارن اطلاقاً ـ لا كماً ولا كيفاً ـ بما لدى الجيش الصهيوني من احدث الأسلحة والمعدات والدعم الاستخباري واللوجستي ونحو ذلك.

وهذا الفشل الذريع للجيش الصهيوني ينبغي ان ينذر بفشل اكبر ـ بل ربما بهزيمة وانهيار ـ إذا غامر الصهاينة

---

[١٢٩] استعيد بضعة اسرى إسرائيليين بالجهد العسكري والاستخباري (وربما استعيد بعض هؤلاء بصفقات مع افراد) واما الباقي ممن استعيدوا فقد استعيدوا اما بصفقة مع المقاومة واما امواتاً (وبضمنهم بعض ممن قتلهم الجيش الإسرائيلي اثناء استعادتهم). ويبقى العدد الأكبر من هؤلاء الأسرى في الأسر حتى الآن (ولا يعلم بالضبط عدد الأحياء من هؤلاء الأسرى).

بشن حرب مفتوحة على المقاومة في لبنان التي تمتلك اسلحة وتقنيات في غاية التطور تضاهي ما لدى العدو (بل قد تتفوق عليه احياناً في بعض المجالات)، كما ان لها خطوط امداد مفتوحة وجبهات اسناد متصلة وحاضنات شعبية ذات امكانيات مادية هائلة (لا كحاضنة غزة الفقيرة المعدمة). فكل هذا ينبغي ان يجعل انتصاره في مواجهة كهذه مستحيلاً او شبه مستحيل، بل انه لن ينجح حتى في الانتقام والإبادة (مما نجح به في غزة) لأنه سيُقابَل بانتقام وإبادة لا تقلان سوءاً وتدميراً عما سيُلحقه بلبنان.

وهذه العوامل (مضافاً الى الضغوط الغربية على الكيان لمنعه من الذهاب الى مغامرة كهذه لعلم الغرب بنتائجها الكارثية عليه) هي التي منعت الكيان حتى الآن من الانجرار وراء غرائزه الدموية وشهواته التوحشية بالذهاب الى حرب شاملة مع المقاومة في لبنان ومحاولة تحقيق ما توعد به من قبل مراراً وتكراراً (ربما مئات المرات وعلى اعلى مستويات الدولة والحكومة والجيش) من ارجاع لبنان الى العصر الحجري ثأراً لكرامته التي مرغتها المقاومة اللبنانية في الوحل. ولكن يجب ان لا ننسى ان الكيان كثيراً ما ينساق وراء غرائزه دون اعتبار للعواقب والنتائج وحسابات الربح والخسارة ولذا لا يجوز استبعاد ذهاب الكيان الى مغامرة كهذه خصوصاً مع اشتمال الحكومة الصهيونية الحالية على عناصر متطرفة في حمقها وغبائها ورعونتها بقدر تطرفها في ساديتها ودمويتها وإجرامها.

٢.٩ مستقبل الكيان الصهيوني

من الواضح ان مستقبل الكيان الصهيوني ان لم يكن قاتماً حالكاً فلن يكون مشرقاً برّاقاً كما يريد الصهاينة وحماتهم وداعموهم في الغرب الصليبي. والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح: ما هو مصير الكيان الصهيوني؟ ويبدو لي ان من شبه المؤكّد ان عمر الكيان الصهيوني لن يطول وانه سيَتفكك او يُفكَّك سواء حدث ذلك سلماً ام حرباً. ويبدو لي كذلك ان ما تبقى من عمر الكيان ليس سوى عقود قليلة على افضل الأحوال (اي لهذا الكيان). وهناك عوامل واسباب عديدة تعزز هذا الشعور او هذه القناعة منها:

١. تغير موازين القوى الاقليمية والدولية في غير صالح الكيان وداعميه بل ضد هذا الكيان وداعميه. ويكفي في هذا الصدد ان نعود عقدين او ثلاثة عقود الى الوراء لنقارن ما كان عليه الكيان وداعموه من 'قوة وعنفوان' وهيبة وردع آنذاك وما وصلوه اليوم من حالة شبه بائسة وهي تزداد بؤساً يوماً بعد يوم. ولاينبغي ان ننسى في هذا السياق دور طوفان الأقصى (وقبله دور المقاومة اللبنانية والفلسطينية في حروبها السابقة

ضد الكيان) في تحجيم دور الكيان وإضعافه وكسر جبروته. كما لا ينبغي ان ننسى التناقضات والتفككات الداخلية التي تعانيها الأنظمة الغربية بفعل عوامل الشيخوخة والهرم وبفعل الأزمات الاقتصادية والسياسية (مثلاً الأزمة المالية في 2008 ووباء كورونا بآثاره المدمرة) والهزائم العسكرية (كهزيمة الغرب في افغانستان والعراق) مع صعود قوى اقليمية ودولية منافسة بل معادية (كإيران والصين).

٢. القناعة الدولية التي شكلها الإجرام الصهيوني ـ خاصةً ضمن ملحمة طوفان الأقصى ـ بأن هذا الكيان المسخ لا يليق بالحضارة الإنسانية وليس له مكان بين البشر وانه ينبغي ان يزول او يزال لأنه كيان بربري مجرم ووصمة عار في جبين الإنسانية. فهذه القناعة ستساعد في عزل الكيان واضعافه خاصةً بلحاظ صعود اجيال جديدة (في الغرب وحول العالم) اكثر تعاطفاً مع القضية الفلسطينية من الأجيال القديمة.

٣. التناقضات والانقسامات الخطيرة داخل الكيان الصهيوني نفسه من دينية وآيديولوجية وعرقية وسياسية وحزبية ومؤسساتية وشخصية ومصلحية و ... إلخ. وهذه التناقضات كفيلة بتفكيك الكيان من الداخل والوصول به الى حالة تشبه الحرب الأهلية (إن لم تكن كذلك حرفياً). وقد رأينا ذلك يحدث او يكاد خلال ما يسمى بالتعديلات القضائية. والواقع ان هذا قد يكون اكبر تحدٍّ مباشر وآني (اي معجل لا مؤجل) يواجه الكيان خاصةً بعد ان تضع الحرب (اي ملحمة طوفان الأقصى) اوزارها وينجلي غبارها و 'يختفي' خطر التهديد الخارجي الذي يولد شعوراً بالوحدة والتضامن لدى الكيان ويوحد جبهته الداخلية. ونلاحظ في هذا الصدد ان هذه التناقضات والانقسامات هي نتيجة طبيعية لتركيبة وتكوين هذا 'الشعب' المزيف المصطنع المؤلف من الأفاكين وشذاذ الآفاق ممن جيء بهم من كل حدب وصوب لتحقيق مزاعم توراتية واكاذيب وهلوسات تلمودية (او هكذا يُزعَم)، وقد كان شعور الآباء المؤسسين لهذا الكيان بانتمائهم لقضية والتزامهم بمبدأ وسعيهم لتحقيق غاية 'عليا' عاملاً في تناسي هذه التناقضات والانقسامات والتستر عليها وإغفالها حتى حين. ولكن مع اختفاء هذا الشعور المُوحِّد ـ بغياب الآباء المؤسسين من الجيل الأول والثاني والثالث من المستوطنين ـ لم يبق الا المصالح الضيقة والغنائم المباشرة والمكاسب الحزبية والفئوية بما تثيره من خلافات وما تعكسه من تناقضات وانقسامات (او على الأقل هذا هو معظم ما بقي).

٤. إمكانية تضاؤل الدعم اليهودي للكيان وتنامي المعارضة اليهودية له حول العالم لما يسببه هذا الكيان من حرج لليهود واليهودية وما يجلبه من عار عليهم (فضلاً عما يجره من خطر عليهم بسبب تحميلهم مسؤولية ما يرتكبه هذا الكيان من جرائم). وقد لاحظنا تنامي الحراك اليهودي المناهض للصهيونية حول العالم وانحسار الدعم للكيان او التبرؤ منه لدى بعض الفئات والجماعات والشخصيات اليهودية بفعل احداث ومجريات طوفان

الأقصى وحرب الإبادة. والواقع ان تآكل الدعم اليهودي - إن حدث على نطاق واسع - يمثل تهديداً وجودياً داخلياً للكيان لا يقل خطراً عن التهديدات الوجودية الخارجية لأن 'دولة' اسرائيل هي دولة 'يهودية' بمعنى قيامها على العنصر اليهودي، ولذا اي تآكل جدي في الدعم اليهودي سيُفقد هذه 'الدولة' 'شرعيتها الذاتية' فضلاً عما يحدثه تآكل كهذا من انحسار الدعم المادي من المجتمعات اليهودية وتضاؤل الهجرة الوافدة وتنامي الهجرة الراحلة وما شابه ذلك من عوامل تقلل قدرات الكيان وتضعفه وتسير به نحو مصيره المظلم (او على الأقل تسرّع السير به نحو هذا المصير).

٥. تنامي - بل طغيان - التطرف الديني واليميني الذي هو كفيل - بلاعقلانيته وجهله وتعصبه وجنونه - ان يجلب الكوارث على هذا الكيان ويسقطه في حفر عميقة لن يخرج منها ويزيد في عزلته ونبذه وكراهيته اقليمياً ودولياً. وقد رأينا كثيراً من حماقات هذا التطرف ورعوناته خلال ملحمة طوفان الأقصى فيما اظهره الكيان من رغبة سادية جنونية للقتل والتدمير والانتقام دون حساب للنتائج التي تجرها هذه التصرفات عليه والأثمان التي سيدفعها لاحقاً. والواقع ان هذا التطرف ومن يقف وراءه من المتطرفين هم اعدى اعداء اسرائيل واشدهم إضراراً بمصالحها لأنهم سيوقعونها في الهاوية ويقودونها الى نتيجتها المحتومة.

٦. الهجرة المعاكسة[١٣٠] خاصة بعد ما اثبتت غزة ولبنان بشكل خاص ان الكيان ليس آمناً اطلاقاً وان بعض اجزائه على الأقل (كغلاف غزة والجليل) لا تصلح ان تكون الا ثكنات عسكرية وليست مناسبة اطلاقاً للحياة المدنية العادية التي تتطلب شعوراً عميقاً بالأمن والاستقرار والسلام الدائم ليتسنى للصهاينة (الجبناء بطبعهم والقادمين لهذه الأرض الغريبة عنهم بهدف الراحة والاسترخاء) ان يمارسوا حياتهم العادية. وهذه الهجرة المعاكسة لن تقلل من عديد الكيان و 'مواطنيه' وتثبط الهجرة المغذية لوجوده فحسب، بل ستسحب الكثير من الاستثمارات والخبرات البشرية كما ستبعد كثيراً من الاستثمارات الأجنبية.

٧. القنبلة الديموغرافية الفلسطينية وهي قنبلة لا يقدِّر اهميتها احد كما يقدرها الصهاينة انفسهم، بل ان كثيراً منهم ينظر اليها - بحق - على انها اكبر تهديد وجودي لهذا الكيان. فبمقاربات حسابية واحصائية بسيطة نستطيع القول ان 'الزحف' السكاني الفلسطيني ينمو ويتمدد بثبات وهو كفيل بأن يقضي على صهيونية الكيان ويهوديته عاجلاً ام آجلاً ولا توجد له حلول سهلة او بسيطة. والواقع ان هذا الشعور الداهم بخطر هذا الزحف الديموغرافي هو الذي يدفع عتاة الصهاينة من المستوطنين ومن يقف وراءهم في الغرب الى

---

[١٣٠] الواقع ان 'الهجرة المعاكسة' (او العكسية) ينبغي ان تفهم كانحسار في الهجرة الداخلة الى فلسطين المحتلة وازدياد في الهجرة الخارجة منها.

محاولة تهجير سكان غزة والضفة الغربية بل وحتى الفلسطينيين داخل 'الخط الأخضر' لتحويل 'اسرائيل' الى دولة يهودية خالصة.

٣.٩ مستقبل العلاقة بين الشرق والغرب

لقد كانت العلاقة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي علاقة إشكالية دوماً فقد كانت قائمة عموماً على اساس الصدام والصراع، وهي ليست في الواقع سوى امتداد للعلاقة التاريخية بين الشرق والغرب قبل ظهور الإسلام والتي سادتها الحروب والغزوات المتبادلة وكثير من اشكال التنافس اللابنّاء. وأياً كان رأينا في ماضي هذه العلاقة وحاضرها فان الأهم في رأينا هو النظر في مستقبل هذه العلاقة لتقرير طبيعة المقاربة التي ينبغي ان تسودها وتحكمها مستفيدين من الدروس والعبر المستخلصة من تجربة طوفان الأقصى التي ينبغي ان تكون قد فتحت عيون الغافلين والنائمين ودعاة التغريب (من السذج والإمّعات واصحاب النوايا الحسنة).

ورأينا في هذا الصدد واضح وصريح وهو الدعوة الى القطيعة التامة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي (او بالأحرى الصليبي كما وصفناه وسنظل نصفه كذلك). فلقد اثبتت تجربة طوفان الأقصى بما لايدع مجالاً للشك ان هذه العلاقة لا يمكن ان تسودها المحبة والإخاء او قيم التعايش المشترك او المبادئ والقيم الإنسانية السامية او المصالح المشتركة بل هي تقوم ـ حين تقوم ـ على اساس التبعية والعبودية والاستغلال والافتراس والتوحش حيث عادة ما يكون الشرق هو الطرف الأضعف والمغلوب في هذه العلاقة. وما يهمنا في هذه العلاقة هو مصلحة الشرق طبعاً، ونحن نعتقد ان هذه القطيعة هي عموماً في مصلحة الشرق وهو ما سنستعرضه ونحتجّ له (مع امور اخرى) في الأقسام الفرعية التالية.

والخلاصة ان المشكلة مع الغرب ليست مشكلة مع انظمة حكم معادية فحسب بل هي مشكلة مع شعوب وثقافات معادية للإسلام والمسلمين، وهذا ما يجعل اي حوار حضارات او الوصول الى تفاهمات ودعوات للعيش المشترك اموراً لا محل لها من الإعراب واوهاماً لا تمتّ للواقع بصلة، فالشرق شرق والغرب غرب وهما لم يلتقيا قط ولن يلتقيا ابداً. ولا ينبغي ان تُفهَم هذه كدعوة للصراع والتناحر رغم اننا ينبغي ان نكون مستعدين دوماً لهذا الصراع والتناحر الذي سعى ويسعى له الغرب دوماً منطلقاً في ذلك من نزعاته العدوانية وغرائزه الدموية واطماعه الاستعمارية وآيديولوجياته الظلامية الفاشية.

١.٣.٩ الحاجة المتبادلة بين الشرق والغرب

نعتقد ان الغرب احوج الى الشرق من الشرق الى الغرب وهذا يعود الى عوامل عدة منها:

١. الشرق المسلم هو قلب العالم وهو بذا يتمتع بموقع استراتيجي (بل 'فرط استراتيجي') يجعله قادراً على التحكم بحركة الحضارة الإنسانية ومتصرفاً بشؤونها وتقلباتها وتطوراتها. كما ان الشرق يسيطر على معظم الممرات البحرية والمضائق الحيوية وخطوط الملاحة والتجارة في العالم.

٢. الشرق يمتلك مساحة جغرافية هائلة (وهو بذا لا يعاني من 'ضيق المكان' المحدِّد للتمدد الحضاري والعمراني كما يعاني الغرب).

٣. الشرق يمتلك موارد طبيعية هائلة (زراعية، معدنية، طاقة نفطية وشمسية وغيرهما، تنوع مناخي وبيئي، إلخ) مما لا يمتلكه الغرب.

٤. الشرق يمتلك موارد بشرية هائلة كمّاً ونوعاً.

٥. الشرق يمتلك رصيداً روحياً ومعنوياً هائلاً (متمثلاً اساساً في الإسلام بالإضافة الى الديانات التوحيدية الأخرى) وهو ما لا يمتلكه الغرب الصليبي. ويكفي ان نعلم ان الشرق هو مهبط الديانات التوحيدية الثلاث التي يدين بها معظم سكان المعمورة وهو الملهِم والمعلِّم الروحي حتى للغرب الصليبي (او هكذا يُفترَض) لأن المسيحية التي يدّعي الغرب انتماءه لها وانها تمثل هويته الثقافية والحضارية ليست سوى منتوج شرقي مستورَد.

٦. الشرق يمتلك إرثاً حضارياً هائلاً تزخر به شعوبه ودوله (كالعراق مهد الحضارات ومصر ام الدنيا) ويمتلك اكبر رصيد من الاختراعات والاكتشافات التاريخية العظمى[١٣١] التي وضعت البشرية على مسارها الحضاري الصحيح والتي لا تقل في اهميتها (بل تزيد) على احدث الاختراعات والاكتشافات الحديثة التي يفخر بها الغرب ويستعلي بها على الشرق.

---

[١٣١] الواقع ان الاختراعات والاكتشافات التاريخية العظيمة التي اسهمت بها الحضارات الشرقية للحضارة الإنسانية لا تعدّ ولا تحصى نذكر منها هنا (كأمثلة بسيطة) العجلة والساعة ونظم التوقيت والكتابة والأبجدية ونظم العدّ الرقمي الستينية والعشرية وكم هائل من مبادئ الحساب والجبر والرياضيات والهندسة وكم هائل من الاكتشافات والاختراعات العلمية والتكنولوجية التي تمثل اللبنات الأساس للحضارة الإنسانية واسسها وركائزها واعمدتها. والواقع ان الغرب مدين للشرق اكثر مما يدين به الشرق للغرب. وجاهل من يظن اننا (اي الشرقيين) عالة على 'الحضارة' الغربية وانهم متفضلون علينا بل العكس اصح واصدق.

٢.٣.٩ التمايز الحضاري

هناك تمايز جوهري بين حضارة الشرق و 'حضارة' الغرب يجعل تزاوجهما وتلاقحهما وانسجامهما مستحيلاً او شبه مستحيل. فحضارة الشرق محورها الإنسان (وهو ما ينبغي ان يفسر مثلاً نشوء الأديان الكبرى والقوانين الناظمة وقواعد السلوك الأخلاقي في الشرق) بينما حضارة الغرب محورها الآلة (وهو ما ما ينبغي ان يفسر مثلاً التقدم التكنولوجي الكبير في الغرب). وهذا التمايز الجوهري في طبيعة الحضارتين ينبغي ان يكون عاملاً ومبرراً للفصل والقطيعة بينهما. فالشرق شرق والغرب غرب وهما لايلتقيان ولا يتفقان لأنهما لا يمكن ان يلتقيا او يتّفقا لأنهما من طينتين مختلفتين وطبيعتين متضادتين إذ هما يستندان الى فلسفتي حياة متباينتين بل متناقضتين ويرتكزان على اسس ومنطلقات متنافرة.

٣.٣.٩ وقف الذوبان الحضاري

مشروع القطيعة مع الغرب يخدم هدفاً مهماً (بل لعله الأهم) وهو الحفاظ على هوية الشرق ووقف الذوبان الحضاري امام التمدد الغربي الكاسح الذي يهدد كل ما هو شرقي من دين ولغة وقيم وعادات وتقاليد ونموذج حياة وفلسفة وجود و ... إلخ. فإذا استمر تآكل الحضارة الشرقية (العربية الإسلامية) امام المدّ الغربي بالمعدّل الذي نشهده الآن (فضلاً عما يزيد وهو متوقع لو ترك الباب مفتوحاً) فستصبح الحضارة الشرقية غريبة في دارها خلال عقود قليلة.

ولذا، ينبغي على كل العاملين والنشطاء والمفكرين الساعين للحفاظ على هوية الشرق ونموذجه الحضاري (سواء كان ذلك بدافع ديني او عرقي او ثقافي او ... إلخ) ان يستغلوا هذه الفرصة الذهبية التاريخية التي جاء بها طوفان الأقصى بما احدثه من نفور شرقي تجاه الغرب ووعي بمدى إجرام 'الحضارة' الغربية وانحطاطها الأخلاقي ونظرتها الفوقية العنصرية التي تستمرئ (في اقل تقدير) جرائم الإبادة بحق العرب والمسلمين لنشر الوعي بضرورة القطيعة مع الغرب وإغلاق كل ابواب التغريب والتذويب الحضاري.

إنّ على جميع العرب والمسلمين ان يعرفوا ان المقاطعة الحضارية للغرب ينبغي أن تكون اولوية قصوى في هذه المرحلة (بل اولى الأولويات). ولا ينبغي ان تكون المقاطعة التجارية والسعي الى الاستقلال الاقتصادي وماشابهها سوى خطوات ومفردات بسيطة في مقاطعة حضارية اشمل واكمل تمتد الى كل مناحي الحياة واشكال الاختلاط بالغرب والتفاعل والتعامل والتبادل معه مادياً ومعنوياً.

٤.٣.٩ تنامي التيارات الفاشية

ان تنامي التيارات الفاشية اليمينية المتطرفة المعادية للشرق (وللإسلام خصوصاً) وصعودها المشهود في الفترة الأخيرة (الذي يعبر عن نبض الشارع الغربي عموماً) ينبغي ان يكون عاملاً وحافزاً آخر على القطيعة مع الغرب ـ او للاستعداد لها على الأقل ـ لأن هذه التيارات ساعية للقطيعة (وإن بطريقتها الخاصة) وينبغي ان نبادلها ذلك، فالصدّ والتباعد لا ينبغي ان يقابل الا بالصدّ والتباعد.

واعتقد ان هذه التيارات الفاشية اليمينية المتطرفة ستؤدّي خدمة هائلة للشرق وللإسلام بوصولها الى سدة الحكم في الغرب الصليبي والمضي في مخططاتها المعلنة في اللاأسلمة (او بالأحرى في الحرب المعلنة ضد الإسلام والمسلمين) وهو ما سيؤدّي ـ او ينبغي ان يؤدّي ـ الى القطيعة المرجوّة. فهذه التيارات الفاشية هي خير جرس انذار للعرب والمسلمين ينبهم من غفوتهم ويوقظهم من نومتهم ويخرس الأصوات الداعية الى التغريب والانفتاح او بناء الجسور مع الغرب والسعي الى حضارة انسانية مشتركة (وما شابه ذلك من سخافات وترهات).

فالتطهير الثقافي والحضاري للغرب من الإسلام (على يد هذه التيارات الفاشية اليمينية ووفق خططها المعلنة) ينبغي ان يقابله تطهير ثقافي وحضاري للشرق من دنس الغرب الصليبي الصهيوني وشروره ووقف تمدده الثقافي وغزوه الحضاري. وسيكون من الخير ـ برأيي ـ ان يظل الغرب 'طاهراً' من الإسلام (او بالأحرى ان يظل الإسلام طاهراً من الغرب ودنسه، وهو ما يريده الفاشيون اليمينيون) مقابل ان يظل الشرق طاهراً من 'حضارة' الغرب فهذا الهدف المشترك هو خير للطرفين إذ يحفظ لهما هويتهما ويحقق أحلامهما وطموحاتهما.

٤.٩ مستقبل دول الخليج

لقد اثبتت عملية طوفان الأقصى ـ مع احداث عديدة سابقة ـ ان دول الخليج ونظمها (او معظمها) هي العديل الاستراتيجي لإسرائيل في المخططات الغربية وواحدة من اهم مرتكزات سياستها في المنطقة. فالضعف المادي والخواء الثقافي لهذه الدول يجعل منها قواعد وركائز مثالية لبسط النفوذ الغربي في المنطقة. فهذه الدول لا تكتفي ـ مثلاً ـ بأن لا تمانع في منح الاستعمار الغربي قواعد له يستخدمها في عدوانه على دول المنطقة وتنفيذ مخططاته ومؤامراته ضد شعوبها بل هي تبادر الى منحه هذه القواعد بالمجان والتحالف معه

لإنجاز مخططاته العدوانية ضد شعوب المنطقة. ويكفي ان نتذكر الإسهامات الهامة لهذه الدول في مخططات الغرب واعتداءاته وتدخلاته ومؤامراته ضد افغانستان وإيران والعراق وسوريا واليمن ومصر وليبيا (وقبل ذلك وبعده في فلسطين بالتطبيع والتحالف مع امريكا واسرائيل ضد حركات المقاومة وداعميها).

وينبغي ان يكون هذا دافعاً لإعادة النظر في أصل وجود هذه الدول وشرعيتها وأهليتها للبقاء. إن ما حدث في طوفان الأقصى وتداعياته يُتوقَّع ان يولّد قناعة[١٣٢] لدى قوى المقاومة والتحرر في هذه الأمة ان وجود هذه الدول لا يقل خطراً عن وجود إسرائيل، ولذا فان اي مشروع لتفكيك اسرائيل ينبغي ان يوازيه مشروع آخر لتفكيك هذه الدول (راجع § ٦.٥). وهذا يعني ان هناك تهديداً جدّياً حقيقياً لوجود هذه الدول نتيجةً للدور الذي لعبته خلال طوفان الأقصى وما ينبغي ان يكون قد نتج عنه من قناعة. وإذا لم يصرَّح عن هذه القناعة لأسباب معروفة فلا ينبغي الشك في وجودها، وهذا يعني انه مع انحسار النفوذ الغربي - بأفول الغرب المتوقع - وغياب الكيان الصهيوني - او على الأقل تلاشي قدراته - فان هذه الدول ستكون عرضةً للانتقام بل المحو الكامل او الابتلاع من قوىً اقليمية صاعدة ناشئة ومنبثقة عن قوى المقاومة والتحرر والانعتاق من العبودية والتبعية.

والخلاصة ان هذه الدول أثبتت انها اجسام غريبة في جسم الأمة وأنها تهديد استراتيجي (وربما وجودي) لدول الجوار كما حدث مثلاً مع العراق وسوريا واليمن التي انهكتها ودمرتها الحروب التي شنتها عليها هذه الدول مباشرة او غير مباشرة عبر دعمها المؤامرات الغربية الموجهة ضد الدول المذكورة وتمويل حركات التطرف الديني والتكفير والقتل والإجرام وتقديم الدعم المعنوي والفكري والإعلامي لها.

٥.٩ مستقبل التطبيع مع إسرائيل

خلافاً لما يُعتقَد من ان طوفان الأقصى قد وأد او أبطأ مسيرة التطبيع فاننا نعتقد انه اثبت للصهاينة وداعميهم في دوائر القرار الغربي - وعلى رأسهم أمريكا - أهمية مشروع التطبيع وحيويته لوجود الكيان الصهيوني وبقائه. وهذا يعني ان جهوداً اكبر ستبذل لتحقيق التطبيع بين الكيان الصهيوني والدول العربية والإسلامية.

[١٣٢] الواقع ان ما حدث في طوفان الأقصى وتداعياته ينبغي ان 'يعزز قناعة' سابقة نشأت من الدور الهدام الذي لعبته هذه الدول في الحرب العراقية - الإيرانية او في الغزو الامريكي للعراق او في تسعير الحرب الطائفية فيه او في نشر آيديولوجيات التعصب والكراهية او دورها فيما يسمى بالربيع العربي او حربها الظالمة ضد اليمن (وغيرها من احداث وادوار اخرى يطول سردها وشرحها).

إنّ من السذاجة المفرطة أن يُظَن ان النظم الحاكمة في الدول العربية والإسلامية (او معظمها) ستشعر بالإحراج او الخجل او الخوف من التطبيع بعد المجازر وحرب الإبادة في غزة، فلقد شهدنا كثيراً من هذه الدول ـ بشعوبها وحكوماتها ـ تمارس حياتها المعتادة دون اكتراث بينما كانت المجازر قائمة على قدم وساق. بل ان بعضها استمر في عقد حفلات اللهو والطرب والترفيه وبرامج المجون والسقوط الأخلاقي في ذروة حرب الإبادة (وربما زادها). هذا فضلاً عن الدعم الإعلامي ـ في تأييد الرواية الصهيونية والترويج لها وإلقاء اللوم على حركات المقاومة فيما يجري مثلاً ـ دون ان يسبب هذا احراجاً او خجلاً او خوفاً او يثير سخطاً او تململاً او حراكاً شعبياً او ما شابه ذلك من اوهام وأحلام وهلوسات رغبوية.

بل وصلت الوقاحة ببعض هذه الدول ان تشارك في الجهد الحربي الصهيوني مباشرةً بالتصدي لهجمات محور المقاومة على الكيان (كما حدث ويحدث في اعتراض الصواريخ والمسيرات اليمنية والإيرانية) فضلاً عن تقديم الدعم الاقتصادي واللوجستي للكيان عبر توفير ممرات وخطوط امداد آمنة لتلبية احتياجاته العسكرية وغير العسكرية وتخفيف آثار الحصار الذي يفرضه اليمن عليه. فهذه الدول ـ بشعوبها وحكوماتها ـ تمتلك من الوقاحة والسقوط والانحطاط العقلي والأخلاقي ما يجعل من فكرة شعورها بالخجل او الإحراج من التطبيع امراً مثيراً للسخرية والضحك.

كما ان من السخف الاعتقاد بأن الأنظمة العربية (والإسلامية لاحقاً) ستمتنع عن التطبيع او تتردد في المضي فيه بسبب الخوف من نقمة شعوبها وردود افعالها المحتملة لأن الجميع يعلم ان هذه الشعوب ما دامت تأكل وتشرب فلا يهمها التطبيع او التتبيع او اي شيء من هذا القبيل. وكل ما سيصدر عن هذه الشعوب ـ إن صدر شيء ـ لن يزيد عما يصدر عن انظمتها من خطابات فارغة وكلام منافق في دعم فلسطين وأهلها وذرف دموع التماسيح عليها وعلى اهلها وما شاكل ذلك مما ألفناه من (معظم) العرب والمسلمين شعوباً وحكومات. وكما قال الشاعر: من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام.

وقد شهدنا مثل هذه المواقف المنافقة ـ مع الفشل عن فعل اي شيء مفيد ـ من قبل مراراً وتكراراً بصدد قضايا الأمة وهمومها وأزماتها ـ فلسطينية وغير فلسطينية ـ فلماذا نتوقع غير ذلك مع التطبيع القادم (او بالأحرى المتمدد والمتصاعد). وإذا لم يحدث اي شيء ضد التطبيعات السابقة ـ بل ضد حرب الإبادة التي هي أشد من أي تطبيع ـ فلماذا نتوقع ان يحدث غير ذلك في قادم الأيام. بل لِمَ لم يحدث اي شيء من هذا حين بان لهذه الشعوب ان انظمتها لا تكتفي بالصمت او التواطؤ مع امريكا وإسرائيل في حرب الإبادة بل هي تشارك فيها بكل حماس ونشاط من خلال حصار غزة وتجويعها وفتح ممرات تجارية ومتنفسات للكيان الصهيوني والمشاركة

في نظم الدفاع الجوي الحامية للكيان (مثلاً في اسقاط المسيرات والصواريخ اليمنية والإيرانية) وفتح قواعدها العسكرية للاستخدام الأمريكي في دعم الكيان وتوفير الدعم الإعلامي للكيان بل وحتى تحريض الأمريكيين وحثهم على مواصلة دعمهم للكيان في حرب الإبادة للقضاء على غزة ومقاومتها التي تؤرقهم و ... إلخ.[١٣٣]

والخلاصة ان من الوهم الاعتقاد ان عملية طوفان الأقصى قد أجهضت او اربكت مسيرة التطبيع الصهيوني العربي (والصهيوني الإسلامي لاحقاً) بل يبدو لي واضحاً ان العكس هو الصحيح إذ خلقت عملية طوفان الأقصى قناعة امريكية عربية راسخة بأن التطبيع ضرورة ملحة لدحر 'التطرّف' بل لمعاقبة 'المتطرفين' بالقول لهم بلسان الحال: ما دمتم أردتم إجهاض التطبيع ووأده (او هكذا يظنون) فسنكون أشدّ حماساً له وسعياً اليه وجدّاً فيه.

نعم، لو فشل الأمريكيون واتباعهم العرب في تحقيق التطبيع ـ او تلكّأت هذه العملية ـ فسيكون ذلك لأسباب أخرى قاهرة وخارجة عن سيطرتهم وتحكمهم لا بسبب الخجل او الحرج او الخشية من النقمة الشعبية (فضلاً عن سخافات أتفه من هذه مثل صحوة الضمير) او ما شابه ذلك من تعليلات مضحكة مبكية.

٦.٩ نظرية الأمن العربي

لقد جاء طوفان الأقصى ليؤكّد حقيقة معروفة وهي ان الجيوش العربية ليست عديمة الفائدة لأوطانها فحسب بل هي آفة فتاكة وطفيليات مدمرة لهذه الأوطان دولاً وشعوباً، وهي في الواقع من أكبر اللعنات التي حلت بهذه الدول والشعوب إن لم تكن اكبرها على الإطلاق (كما هو الحال في بعض الدول). فهي من جهة مؤسسات نهب وعصابات ارتزاق تتطفل على مصادر هذه الشعوب فتمتص دماءها وتسرق ثرواتها

[١٣٣] الواقع ان عداء بعض القادة والمسؤولين العرب للمقاومة الفلسطينية ـ وحركات المقاومة عموماً ـ ومحاربتهم لها بل تحريض بعضهم عليها (بعضهم تزلفاً للغرب والصهاينة وبعضهم بدافع من حماس صهيوني ـ عربي) لا يعكس مدى ضعفهم الأخلاقي فحسب بل مدى ضعفهم العقلي كذلك، لأنهم كان يجب ان يفهموا ان وجود المقاومة وقوتها انما هو مصدر قوة لهم لو احسنوا التخطيط والتصرف إذ كان بإمكانهم ان يوظفوا المقاومة و 'يستغلوها' كورقة بأيديهم في علاقاتهم ومساوماتهم مع الغرب والصهاينة بدل ان يعادوها ويحاربوها ويصطفوا الى جانب أعدائها فيخسروا هذه الورقة القيّمة الثمينة التي يثمّن الغرب والصهاينة ـ خلافاً لهؤلاء العرب ـ قيمتها عالياً. ولكن التبعية العمياء والتصاغر امام الغرب والصهاينة وتأصل الخيانة والنذالة فيهم (بل والحقد الأسود الذي يضمره بعضهم ضد الإسلام والمسلمين) هي ما يدفع هؤلاء العرب الى تقديم خدمات مجانية كان بإمكانهم ان يتقاضوا اجوراً عالية عليها (او بالأحرى على افعال بديلة اقل تكلفة واكثر نفعاً لهم ولأبناء جلدتهم).

وتسخرها في خدمة شراذم فاسدة وسلالات حكم منحطة.[١٣٤] وهي من جهة اخرى ادوات لقمع شعوبها والسيطرة عليها وتعبيدها لحكامها. وهي من جهة ثالثة ادوات للقتل والإبادة لهذه الشعوب وجيرانها (حين تقتضي الحاجة ذلك وتصدر لها الأوامر من الحكام والوكلاء والعملاء المحليين او من سادتهم الغربيين). وهي من جهة رابعة ادوات للغزو والاحتلال والاعتداء على الجيران (حين تقتضي الحاجة ذلك وتصدر لها الأوامر كذلك). وهي من جهة خامسة ادوات لدعم المخططات الغربية والصهيونية وحماية اسرائيل بل والقتال عنها (كما حدث ويحدث في ملحمة طوفان الأقصى بل وقبلها كثير). والخلاصة ان هذه الجيوش هي مؤسسات فساد وإفساد وقتل وتدمير وعامل اساس لتخلف العرب وانحطاطهم ومصدر نجاح وإنجاح للمشروع الغربي الصهيوني في المنطقة العربية.

وهذه الحقيقة (مضافةً الى حقيقة ما قامت به حركات المقاومة في فلسطين ولبنان واليمن والعراق وسوريا من دور مشرف وجهد حقيقي وفاعل في الدفاع عن الأمة وتكبيد العدو الصهيوني وداعميه خسائر هائلة في معركة غزة وامتداداتها وفرض معادلات جديدة) تؤكد ضرورة وضع نظرية جديدة للأمن العربي تلعب فيها حركات المقاومة الدور الفاعل والحقيقي في حماية الأمة (شعوباً ودولاً) بينما تُحيَّد (بل وتُفكَّك إن امكن) جيوش الارتزاق والخيانة والجبن والانحطاط. ويمثل لبنان واليمن والعراق وسوريا (بالإضافة الى فلسطين طبعاً) نماذج مختلفة لماهية وكيفية الدور الذي يمكن ان تلعبه حركات المقاومة المحلية في الدفاع والتصدي ومقارعة العدو. ويمكن الاستفادة من هذه النماذج في تجارب قادمة كما يمكن اقتراح وتطوير نماذج اخرى تبعاً للظروف والمعطيات المحلية. وعلى كل حال، نظرية الأمن العربي هي موضوع واسع ومتشعب وغني جدّاً لا يمكن إعطاؤه حقه من البحث هنا، لكننا نأمل بالعودة اليه في المستقبل المنظور ضمن كتاب او مقالات او ما شابه ذلك.

٧.٩ الضربة الإيرانية لإسرائيل

لقد قيل الكثير عن الضربة الإيرانية للكيان الصهيوني رداً على قصفه للقنصلية الإيرانية وقتل بعض قادة الحرس الثوري الذين كانوا فيها آنذاك. ولا يهمنا ماقيل ويقال في وسائل الإعلام والانترنت وما شابه ذلك إذ معظمه يدخل في باب الدعاية وحروب الإعلام ولكننا سنلخص في النقاط التالية بعض الحقائق ـ كما نراها ـ عن

[١٣٤] الأمثلة على ما سنذكره هنا كثيرة ومتنوعة ولذا لا حاجة لنا للخوض في التفاصيل والتعرض للأمثلة والمصاديق المعروفة جيداً.

هذه الضربة:

● لقد اعتُرضت وأُسقطت معظم المقذوفات الإيرانية (من مسيرات وصواريخ) ولكن العدد الذي لم يُسقط منها كان بالتأكيد اكبر مما اعترف به العدو الصهيوني. ويكفي ان العدو تستر على كثير من تفاصيل الضربة التي كان بإمكانه الكشف عنها لتوظيفه في دعم وإسناد ادعاءاته الكاذبة عن فشل الضربة او افشالها. هذا فضلاً عن بعض التسريبات ـ عن نتائج هذه الضربة وانجازاتها ـ التي تؤكد ما نذهب اليه. بل نستطيع القول انه حتى بعض التصريحات الرسمية الأمريكية تشي او توحي بما نذهب اليه.

● لقد صمم الإيرانيون ضربتهم لتكون ردعيةً واستعراضية جزئياً (اي في قسم كبير منها) لا كلياً، فما ارادوا ايصاله وصل معظمه وما ارادوا اسقاطه أُسقط معظمه. والسبب في ذلك ان الإيرانيين ومحور المقاومة (كالأمريكيين) يتجنبون الدخول في حرب شاملة لا تخدم الا الكيان الصهيوني، وإلا كان بإمكان الإيرانيين استخدام تكنولوجيا اكثر تطوراً مما استخدموه في هذه الضربة (وهي متاحة لهم كما دلت على ذلك عملية اليمن الأخيرة ضد يافا ـ او تل ابيب ـ او كما اظهرته عمليات هدهد المقاومة اللبنانية قبلها وبعدها). بل كان بإمكان الإيرانيين ان يستخدموا عدداً أكبر من المقذوفات (وهي بالتاكيد في حوزتهم) بما يفوق قدرات التصدي المتاحة لدى العدو وداعميه. والخلاصة ان الضربة الإيرانية هي مصممة اساساً لتكون محدودة من حيث فعلها العسكري المباشر وإصابة الأهداف وهذا ما تحقق فعلاً. بل ان نفس اعلان الإيرانيين عن هذه الضربة مسبقاً (وربما ابلاغ الأمريكيين او اشعارهم بها مقدماً) وإعطاء العدو وداعميه الوقت الكافي للتهيؤ والاستنفار والتنسيق لصد الضربة واستخدام مسيرات بطيئة سهلة الإسقاط نسبياً تستغرق عدة ساعات للوصول الى اهدافها المفترضة (حيث تمر خلالها بأجواء عدة دول وتتعرض للرصد والاعتراض من عدة نظم دفاع جوي لدول التحالف الأمريكي الصهيوني) أدل دليل على ان الهدف العسكري المباشر للإيرانيين من هذه الضربة لم يكن الا ما وقع فعلاً (او ما يقارب ذلك).

● عطفاً على ما تقدم في النقطة السابقة (بل إغفالاً له وغضاً للطرف عنه) نقول: رغم اعتراض وإسقاط معظم المقذوفات الإيرانية لم تكن الضربة فاشلة إطلاقاً (حتى لو أغفلنا او رفضنا ما في النقطة السابقة) بل هي حققت معظم (إن لم يكن كل) اهدافها، وعلى رأس هذه الأهداف استعادة (او بالأحرى تثبيت) الردع الإيراني وتكبيد العدو وداعميه خسائر فادحة على رأسها نشر الذعر في الكيان لفترة زمنية طويلة نسبياً وتحجيم صورته امام نفسه وامام العالم والثمن المادي المباشر (الذي قدر بمليار دولار امريكي وهو أساساً تكاليف العتاد المستخدم لصدّ الضربة) وغير المباشر (ممثلاً بخسائر اقتصادية آنية بسبب الاستنفار الطويل

نسبياً وخسائر اقتصادية مستقبلية بسبب ما لحق بصورة الكيان وقدراته الردعية واستقراره الاقليمي).

● ان مجرد اشتراك ما لا يقل عن سبع دول (من بينها بعض الدول الأكثر تقدماً في تقنيات اعتراض المقذوفات الطائرة) في عملية الاعتراض والإسقاط يعدّ نجاحاً ضخماً للإيرانيين لأنه اظهر مدى تقدم (بل تفوق) القدرات الإيرانية التي تحتاج الى هذا الحشد الهائل من القدرات العسكرية والتنسيق والاستنفار للتصدي (جزئياً لا كلياً) لضربتها التي هي ليست سوى ضربة متوسطة (إن لم تكن صغيرة) الحجم باعتبار القدرات المتاحة لإيران. وهذا يعني ان ايران لو ارادت في المستقبل توجيه ضربة كبيرة (فضلاً عن ان تكون قاضية) فلن يستطيع تحالف كهذا (على فرض امكان حشده مرة اخرى) ان يصدها فضلاً عن ان يستطيع الكيان بمفرده فعل ذلك. وهذا يمثل في الواقع لا استعادةً (بل ولا حتى تثبيتاً) للردع الإيراني بل مضاعفةً وتعظيماً وتضخيماً لهذا الردع. فإذا كانت اسرائيل ومن معها يفكرون في ضربة (استباقية او غير استباقية) لإيران قبل هذه الضربة ويترددون في الإقدام عليها فانهم سيفكرون ويترددون اكثر من ذي قبل بعد هذه الضربة التي كشفت القدرات الإيرانية الكبيرة وعرّت عجز انظمة الدفاع الجوي الإسرائيلية (بل وحتى غير الإسرائيلية) إزاء ضربة كهذه فضلاً عما هو اكبر منها.

● كان الرد الصهيوني على الضربة الإيرانية رمزياً وفاشلاً رغم اكاذيب العدو والإعلام المتصهين (وعلى رأسه الإعلام الأعرابي) التي حاولت تضخيم هذا الرد وجعله مساوياً لـ (او حتى اكبر من) الضربة الإيرانية.

والخلاصة، ان الضربة الإيرانية كانت 'ضربة معلم' بحق وامتياز فهي قد نجحت وحققت أهدافها مائة بالمائة على المستوى الاستراتيجي، بل هي نجحت نجاحاً باهراً على المستوى التكتيكي كذلك حتى لو افترضنا ان الهدف العسكري المباشر للضربة هو تحقيق اصابات مباشرة للأهداف المفترضة (كلها او معظمها). وابسط دليل على نجاح هذه الضربة حجم الجهد الإعلامي الضخم الذي بذله الصهاينة وداعموهم من العرب والعجم (وعلى رأسهم أعراب الخليج) في محاولة تقزيم هذه الضربة وتتفيهها ونشر الأكاذيب والاختلاقات حولها، فلو كانت الضربة حقاً كذلك لما كلفوا انفسهم كل ذلك. فاهتمامهم المفرط بتقزيمها وتتفيهها ونشر الأكاذيب حولها يشي بمقدار اهمية هذه الضربة لديهم ووقعها على نفوسهم ورعبهم من آثارها الآنية والمباشرة وآثارها المستقبلية وغير المباشرة، حيث يأتي هذا الجهد الضخم لعكس ما يمكن عكسه من مفاعيلها وإبطال ما يمكن إبطاله من آثارها (كترميم صورة الكيان المحطمة المهشمة بفعل هذه الضربة).

وأخيراً، نلخص فيما يلي بعض الدروس والعبر (او النتائج النظرية) التي يمكن استخلاصها من الضربة الإيرانية:

١. أثبتت الضربة الإيرانية ان الصهاينة غير قادرين على حماية انفسهم فهم بحاجة الى دعم دولي وعربي واسع لتأمين امنهم (جزئياً في احسن الأحوال). وقد ظهر هذا جلياً في اشتراك العديد من الدول الغربية والعربية (كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والأردن) بمنظومات الرصد والاعتراض التابعة لها في التصدي للضربة الإيرانية. ويأتي هذا تأكيداً لحقيقة اظهرتها ملحمة طوفان الأقصى (بل تاريخ اسرائيل والحركة الصهيونية بكامله قبل وبعد انشاء هذا الكيان اللقيط) وهي ان اسرائيل عاجزة عن التصدي لأعدائها (خاصة ان كانوا من العقائديين كحركات المقاومة الإسلامية وإيران الثورة) دون دعم خارجي لامحدود في شكل جسور برية وبحرية وجوية من الأسلحة والذخائر والإمدادات العسكرية والمدنية ودعم دبلوماسي مطلق يتجاوز كل القوانين والمقررات والأعراف والقيم وتواطؤ عربي مع اسرائيل (بل دعم صريح ومباشر لها) بتحالف الأنظمة العربية العميلة مع الصهاينة ضد شعوب المنطقة.
٢. أثبتت الضربة الإيرانية عجز القبة الحديدية وغيرها من نظم الدفاع الجوي التي تمتلكها اسرائيل (بل حتى لو انضمت اليها نظم الدفاع الجوي الغربية في المنطقة ونظم الدفاع الجوي التابعة للأنظمة العربية العميلة) عن توفير حماية فعالة للكيان امام ضربات متتالية واسعة النطاق تشترك فيها آلاف الصواريخ القوسية والمجنحة والمسيرات والقذائف (وهو ما يستطيع حزب الله وإيران فعله بالتأكيد).
٣. أثبتت الضربة الإيرانية ان العلاقة بين الأنظمة العربية العميلة وإسرائيل هي ليست علاقة سياسية او دبلوماسية او ما شابه ذلك بل هي علاقة تحالف استراتيجي وارتباط عضوي تعبر عن وحدة في الوجود والهدف والمصير. وهذا يعني انها علاقة حيوية عضوية وليست علاقة عابرة او طارئة او مفروضة من الخارج او تعبير عن مصالح مشتركة مؤقتة وخاضعة للتعديل والتبديل حسب تغير الظروف والمصالح. وهذا يؤكد ما قلناه في موضع آخر من ان الأنظمة العربية العميلة (بما تمثله من دول ودويلات انشأها الاستعمار الغربي) إنما هي المعادل والمكافئ والظهير الاستراتيجي لإسرائيل في المخطط الصهيوني الغربي للمنطقة العربية.

٨.٩ الديمقراطية

لقد أظهر طوفان الأقصى فساد النظام الديمقراطي من حيث الأصل والمبدأ وليس من حيث الفعل والتطبيق فحسب. فالديمقراطية هي نظام حكم فاسد حتى إن طُبّق بشكله 'المثالي' المزعوم إذ هو نظام قائم على حكم القطيع المعرض للتضليل والإفساد وغسل الأدمغة وشراء الذمم والضمائر وتجنيد اللوبيات وجماعات الضغط

ونحو ذلك من مفاسد وألاعيب لا عدّ لها ولا حصر. كما انه نظام يفتقر ـ من حيث الأصل والمبدأ ـ الى القيم الأخلاقية ما دام معيار الخطأ والصواب فيه رغبات القطيع ونزواته وشهواته وهي غالباً ما تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً.

وباختصار، ان مجمل ما صدر عن الديمقراطيات الغربية من مواقف وتصريحات وافعال وردود افعال تجاه طوفان الأقصى وتداعياته يشكل اكبر فضيحة آيديولوجية وأخلاقية خبرتها هذه النظم المنافقة الفاسدة خلال قرون طويلة من هيمنتها على العالم ـ ليس مادياً فحسب ـ بل معنوياً واخلاقياً وثقافياً كذلك. فقد جرف الطوفان اوراق التوت التي طالما تسترت بها هذه النظم الفاسدة المفسدة فجرّدها واظهر عوراتها وكشف سوآتها امام الملأ بنحو لم يسبق له مثيل.

وهذا في الواقع لا يشكل إدانة لهذه النظم كتطبيقات فاسدة وخاطئة لنظام حكم سليم وصحيح (اي الديمقراطية) بل كتطبيقات سليمة وصحيحة لنظام حكم فاسد وخاطئ (هو الديمقراطية). فالعيب الأول والأساس إنما هو في المفهوم والنموذج لا في المصداق والتطبيق. ويكفي ان نستقرئ افضل النظم الديمقراطية الغربية لنجد ان خيرها وافضلها (فضلاً عن شرها وأسوئها) لا يأتي في انتخاباته البلدية والتشريعية والرئاسية وغيرها إلا بحثالات البشر وأحطّهم خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً (مع قليل من الاستثناءات و 'الأخطاء والزلات'). وهذا منطقي جداً لأن المُنتخَب إنما يعبر عن المستوى الفكري والأخلاقي للقطيع المُنتخِب (وهو مستوىً منحط عموماً ينعكس تلقائياً ومنطقياً في انحطاط المُنتخَب) فضلاً عن ان طبيعة النظام الانتخابي الديمقراطي تجعله قابلاً لسوء الاستغلال والتوظيف الشرير من قبل النخب الفاسدة والعصابات والمافيات واصحاب المصالح اللامشروعة من ذوي النفوذ (ونحو ذلك) وهو ما يقود الى نتائج كارثية حتى لو افترضنا ان القطيع المُنتخِب هو قطيع صالح ورشيد.

ومن يستقرئ الأصوات الشريفة والحرة (اي المساندة للحق الفلسطيني والرافضة لحرب الإبادة) التي صدرت من الشخصيات والبرلمانات والهيئات المنتخبة في جميع الدول الغربية يجد انها قليلة جداً بل هي معدودة واستثنائية. بل ان بعض هذه الشخصيات والكيانات المنتخبة (كما هو الحال في امريكا مثلاً) بلغ حداً من النذالة والخسة والإجرام في دعمه لحرب الإبادة (وبنحو شبه إجماعي) يصعب تصوره وتصديقه. وهذا انما يدل على المستوى الحضاري والأخلاقي للديمقراطية كمفهوم ونموذج حيث فشل هذا النظام فشلاً منهجياً وشاملاً (عدا استثناءات قليلة جداً) في ان يأتي بكائنات تمتلك حداً ادنى من الضمير الإنساني يمنعها من دعم حرب الإبادة (فضلاً عن ان يدفعها للوقوف الى جانب المظلومين من ضحايا غزة). وهذا دليل عملي

بسيط ودامغ على فساد الديمقراطية كفكرة ومفهوم ونموذج وعجزها عن ان تكون اساساً لإقامة حكم رشيد ملتزم بالحد الأدنى من القيم الإنسانية (السماوية والأرضية) النبيلة.

والخلاصة ان طوفان الأقصى قد فضح الديمقراطية (كفكرة ومفهوم ونموذج) فضيحة كبرى لم تعرفها في تاريخها قط وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك انها إن لم تكن افسد نظام حكم عرفه البشر فهي من افسد انظمة الحكم، وان قدرتها على ارتكاب ابشع الموبقات الأخلاقية واستعدادها لفعل ذلك يفوقان التصور والتصديق. وهذا يدفعنا الى الدعوة الى ضرورة قمع الأصوات الداعية الى الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي واعتبارها اصواتاً مشبوهة ومريبة او غرّة ومخدوعة، فالديمقراطية منتوج غربي تغريبي مناقض للإسلام والأديان السماوية ولكل القيم الشرقية النبيلة ولذا ينبغي ان نُجنّب الشرق المسلم رجس الديمقراطية ودنسها ونعمل على انتاج نماذج للحكم الصالح الرشيد مستقاة من قيمنا وتقاليدنا وتراثنا وثقافتنا العربية الإسلامية ونكف عن الجري وراء الغرب وتقليده واقتباس نظمه الفاسدة المفسدة.

٩.٩ الرابحون والخاسرون

نستعرض في هذا القسم بإيجاز قائمة الرابحين (الذين ابيضّت وجوههم بما فعلوه في ملحمة طوفان الأقصى وتداعياتها) وقائمة الخاسرين (الذين اسودّت وجوههم بما فعلوه في ملحمة طوفان الأقصى وتداعياتها).

أمّا قائمة الرابحين والظافرين (او قائمة الشرف والمجد) فتشمل ما يلي:

١. القضية الفلسطينية التي اصبحت القضية الأولى في العالم بفضل طوفان الأقصى بعدما لم يكن يكترث لهذه القضية سوى القليل، إذ اصبح العلم الفلسطيني يرفرف في كل مكان ممثلاً رمزاً للمظلومية والعدالة والتحرر. ولا اعتقد ان التاريخ البشري قد شهد رمزاً ـ كالعلم الفلسطيني ـ يحظى بهذا الانتشار والتبني الواسع الذي تجاوز كل الحدود الجغرافية والدينية والعرقية والثقافية و ... إلخ. ولا شك ان هذا واحد من اكبر انجازات طوفان الأقصى وبركاته في خدمة القضية الفلسطينية والإعلاء من شأنها، بل ينبغي ان يعدّ هذا واحداً من الإنجازات الإنسانية الكبرى التي تتجاوز كل الحدود والأطر الضيقة.

٢. حركات المقاومة الفلسطينية ـ وعلى رأسها حماس ـ التي حلّقت شعبيتها الى السماء في فلسطين وحول العالم حيث اخذ العرب والمسلمون (بل كل احرار العالم) ينظرون لها بكل إعجاب وإكبار كمثال للبطولة والشجاعة والتضحية والصمود (وقبل ذلك وبعده كحركات تحرر ومقاومة تحمل هدفاً سامياً وتدافع عن قضية عادلة).

٣. محور المقاومة ـ بدوله وحركات مقاومته ـ الذي اثبت مصداقيته وبأسه وأنه محور يقول ما يفعل ويفعل ما يقول، لا كالأدعياء والمنافقين والمتآمرين الذين خير من فيهم الجبان الرعديد الذي لا يجرؤ الا على اصدار بيانات الشجب والاستنكار والإدانة وما شابهها من اشكال 'الدعم' التي تليق بأشباه الرجال.
٤. حركات اليسار الحقيقي حول العالم التي تبنّت القضية الفلسطينية كقضية تحرر انساني ورفعت العلم الفلسطيني كرمزٍ للنضال ضد الاستعمار والظلم والهيمنة وكشعارٍ للعدالة والتحرر.
٥. الإسلام الشيعي الذي اثبت انه إسلام حيّ يهب لنصرة المظلومين وينتقم لهم وإن اختلفوا معه في العقيدة والانتماء. وهو بذا تجسيد حيّ لرموز العدالة والثورة في التاريخ الإسلامي ـ بل التاريخ الإنساني ـ كعلي بن ابي طالب والحسين بن علي وزيد بن علي ممن رفعوا السيف وقاتلوا وقُتِلوا في سبيل القيم الإنسانية النبيلة والقضايا الشريفة العادلة.
٦. دولة جنوب افريقيا التي رفعت دعوى قضائية ضد الكيان الصهيوني امام محكمة العدل الدولية بتهمة الإبادة وقادت الحملة الدولية لفضح جرائم الكيان وتوثيقها تفصيلياً ـ ضمن هذه الدعوى وعلى هامشها ـ كما استضافت مؤتمرات ونشاطات وفعاليات داعمة للقضية الفلسطينية وفاضحة للكيان الصهيوني وداعميه ورعاته. والواقع ان دولة جنوب افريقيا مثّلت ـ بكل جدارة ـ القيادة الأخلاقية للعالم والضمير الحي للإنسانية وهي بذا حظيت ـ وستظل تحظى ـ بمكانة رفيعة ومجد سيخلدهما التاريخ.
٧. كثير من دول امريكا اللاتينية ككوبا وفنزويلا وكولومبيا ونيكاراغوا وبوليفيا وبليز والبرازيل. والجامع المشترك بين هذه الدول ـ او معظمها ـ هو انتماء انظمة حكمها او قادتها الى اليسار الحقيقي التحرري.

وأما قائمة الخاسرين والمفضوحين (او قائمة الخزي والعار) فتشمل ما يلي:

١. النظم الديمقراطية الغربية (دولاً ومؤسسات وكيانات كالمجموعة الأوروبية والبرلمان الأوروبي) حيث اظهر الطوفان مدى كذبها وزيف ادعاءاتها بحقوق الإنسان ومدى عنصريتها وانحيازها وانحطاطها الأخلاقي وطول باعها في الإجرام فعلاً وقولاً (بل ومدى انحطاط الديمقراطية كفكرة ونموذج). وقد فاز بالقدح المعلى في سجل الإجرام هذا دول على رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا بينما كان لدول أخرى مواقف مشرفة الى حدٍّ ما (كآيرلندا والنروج واسبانيا). وهذه الخسارة في المصداقية والسمعة سيكون لها اثر ـ مادي ومعنوي ـ على مستقبل ما يسمى بالحضارة الغربية.
٢. اسرائيل التي خسرت خسارة استراتيجية تتجاوز في اهميتها خسارتها البشرية والاقتصادية والأمنية والعسكرية ونحوها من خسارات مباشرة وتفصيلية. فقد اظهرت ملحمة طوفان الأقصى ـ وولّدت

قناعة حول العالم ـ ان اسرائيل كيان شاذ عنصري قائم على الإجرام السادي ولذا ينبغي اجتثاثه وتخليص الإنسانية من لعنته وشذوذه. وهذا ما نلمسه ونحسّه في الشعار الذي تتردد اصداؤه حول العالم: 'ستتحرر فلسطين من النهر الى البحر' الذي يظهر بكل وضوح انه لا مكان لإسرائيل في المجتمع الإنساني لأنها وصمة عار على جبين الإنسانية.

٣. الإعلام الدولي (خاصةً في الأنظمة الغربية) حيث اظهر الطوفان مدى كذبه وانحيازه وتجرده من ابسط القيم الأخلاقية والإنسانية والمهنية.

٤. الإعلام العربي (الا ما عصم الله) حيث كان معظمه اما متواطئاً مع الصهاينة او مقصراً في تغطية الحدث بما يستحقه من دعم لمقاومة الشعب الفلسطيني في وجه محرقة الإبادة والإجرام. وعلى كل حال، الإعلام العربي ـ في معظمه ـ إعلام مأجور كالإعلام الدولي وهو غالباً ما يتبع في ترددانه وايقاعاته رغبات النظم الحاكمة ومراكز التمويل ودوائر التأثير والقرار، فلا ينبغي ان يُرجى منه احسن من هذا الأداء المخزي.

٥. محكمة العدل الدولية ومحكمة الجنايات الدولية لمواقفها وقراراتها المترددة والمتخاذلة والمتأخرة.

٦. اليسار المزيف حول العالم كحزب العمل البريطاني وبعض الأحزاب الأشتراكية الأوروبية.[١٣٥]

٧. الغالبية العظمى من الشخصيات النافذة والمؤثرة على الصعيد الدولي في مجال السياسة والفن والعلم والأدب والرياضة و ... إلخ.

٨. حركات الإسلام السياسي (بما يشمل نظم حكم تحسب على هذا التيار كالنظام التركي) كمعظم تنظيمات الإخوان المسلمين التي لم تقدّم شيئاً حقيقياً لنصرة غزة مع انها ابلت وتبلي بلاءاً حسناً في تسعير الحروب الطائفية والنزاعات البينية والمشاركة فيها بجد وحماس مستخدمة قواعدها وإعلامها وابواقها ومهرّجيها.

٩. الحركات 'الجهادية' كالقاعدة وداعش التي أثبتت انها لا تحسن الا جهاد المسلمين وقتل الأبرياء والاغتصاب وما شابهها من اعمال الخسة والنذالة التي تليق بها وبجهادها. ويلحق بهذه التياراتُ والحركاتُ السلفية الوهابية (غير 'الجهادية') ورموزها وقادتها الذين باؤوا بالخزي والعار لصمتهم وتخاذلهم وتواطئهم (وهكذا اثبتوا مرة اخرى انهم كلاب للأجانب وأُسودٌ على ابناء جلدتهم).

١٠. الشعوب العربية والإسلامية (مع استثناءات قليلة) التي ظهر مدى تفاهتها وسخفها وضعفها وخورها

---

[١٣٥] ينبغي إدراج الصين في قائمة اليسار المزيف إذ لم يبق من شيوعيتها المزعومة الا اللون الأحمر، فهي دولة راسمالية بحق وهي لم تكتف بالتزام الحياد ـ او شبه الحياد ـ في الصراع العربي الصهيوني بل هي واصلت علاقاتها التجارية والاقتصادية (وربما التسليحية كذلك) مع الكيان ضاربة عرض الحائط كل قيم اليسار الحقيقي التقدمي.

وانحطاطها العقلي والأخلاقي بنحو يصعب تصوره وتصديقه.

١١. ما يسمى بالأمة العربية والأمة الإسلامية حيث اظهر طوفان الأقصى زيف هاتين الأمتين اللتين ما وجدتا قط الا في الوهم والخيال وانهما ليستا سوى تجمعات قطيعية لا يصدق عليها مفهوم الأمة باي شكل من الأشكال. وعلى كل حال، هاتان الأمتان ـ إن وُجدتا ـ لا يُرجى لهما ولا منهما خير.

١٢. الغالبية الساحقة من انظمة الحكم العربية والإسلامية التي فاز بعضها بالقدح المعلّى في التواطؤ والمشاركة في حرب الإبادة (كالنظامين المصري والأردني وبعض نظم الخليج) بينما فاز بعضها الآخر بالقدح المعلّى في الضعف والخور والتخاذل (كالنظام التركي).

١٣. معظم المنظمات الدولية والإقليمية كالأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمة التعاون الإسلامي ومجلس التعاون الخليجي، إذ فشلت هذه المنظمات في اتخاذ اي اجراءات جادة لردع الكيان الصهيوني ومعاقبته بل ان بعضها ينبغي ان يعدّ متواطئاً مع هذا الكيان ومشاركاً له في الجريمة.

١٤. كثير من منظمات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية ذات الولاءات والارتباطات الغربية الواضحة، حيث لم يزد ما يفعله احسنها عن اصدار بيانات وإدانات غالباً ما تكون مخففة في لهجتها وملطفة في مضمونها مراعاةً للكيان الصهيوني وداعميه، بل ان بعضها (كهيومن رايتس ووتش) متواطئ بوضوح مع هذا الكيان.

١٥. النظام الدولي ممثلاً بشكل أساسي في الأمم المتحدة ومجلس الأمن حيث اظهر الطوفان مدى ضعف هذا النظام وخلله وانحيازه وكشف عوراته بشكل غير مسبوق.

١٦. كثير من الأديان والمعتقدات الدينية ويأتي على رأس قائمة العار في هذا الصدد المسيحية الإنجيلية (او المسيحية الصهيونية) التي اظهرت انها عقيدة إجرامية لا تقل خطراً ـ بل تزيد ـ عن داعش ومن لف لفها من حركات التكفير والقتل والإجرام المتلفعة برداء الدين والرسالات السماوية. وكذا الحال مع الهندوسية التي اثبتت مرة اخرى انها عدو لدود للإسلام والمسلمين (بل عدو لدود للإنسانية كذلك بقيمها الطبقية اللاأخلاقية القائمة على التمييز والظلم). والواقع ان الدين قد فشل عموماً في اختبار غزة لأنه كان اما مؤلباً وحافزاً لارتكاب الجرائم واما متواطئاً ومسانداً لها وإما متقاعساً وصامتاً عنها وعن نصرة المظلوم كالشيطان الأخرس.

١٧. الإسلام السني الذي ظهر عاجزاً عن تحشيد الجهود والطاقات لنصرة ابنائه ودفع الظلم عنهم (رغم صولاته وجولاته المشهودة في حروب الطوائف والنزاعات البينية).

١٨. دول كبرى كالصين وروسيا ممن تزعم التزامها بالقانون الدولي ودعمها للقضايا العادلة حيث كانت مواقفها ضعيفة لا تتناسب مع حجم هذه الدول او حجم كارثة غزة كما انها فشلت في اتخاذ اي اجراء حقيقي ضد الكيان الصهيوني والضغط عليه (بوسائل تجارية واقتصادية مثلاً) لوقف حرب الإبادة او التخفيف من شدتها ووطأتها ووقعها.

١٩. المجتمع الإنساني بغالبيته العظمى الذي لم يكترث لما يحدث او لم يفعل ما فيه الكفاية لوقف الإبادة والحد من آثارها (فضلاً عمن تعاطف مع اسرائيل وجرائمها وهم للأسف كثر ولهم امتدادات جغرافية وثقافية ودينية واسعة على امتداد المعمورة). والواقع ان طوفان الأقصى أظهر ـ للأسف ـ ان الضمير الإنساني هو موهبة نادرة لا يحظى بها الا اقل القليل من بني آدم، فمعظم من نراهم من البشر ليس لهم من البشرية الا الشكل والمظهر.

١٠.٩ مصير غزة

الأمل في الخروج بغزة من هذا المأزق هو صمود المقاومة الفلسطينية (وهو ما شهدناه وما زلنا نشهده مع انتفاء اي علامات ضعف او وهن او تراجع منها في المستقبل المنظور) ومواصلة الدعم الذي تتلقاه من جبهات الإسناد (متمثلةً اساساً باليمن ولبنان) التي يؤمل ان تنجح في وضع ضغوط لا تطاق على الكيان وداعميه مما يجبرهم على عقد صفقة ووقف الحرب. ويضاف الى هذا طبعاً الضغوط التي تضعها المقاومة الفلسطينية على الكيان الصهيوني في غزة (بل وحتى الضفة الغربية) متمثلة في الخسائر البشرية والعسكرية والاقتصادية والتهجير القسري للمستوطنين من غلاف غزة وما شابه ذلك.

الخاتمة

● لقد أحيا طوفان الأقصى القضية الفلسطينية التي بدت في السنين الأخيرة وكأنها على سرير الموت تُحتضَر وتوشك ان تلفظ انفاسها الأخيرة وتدفن، وهذا ما كان يسعى له لا اسرائيل وامريكا وحلفاؤهما الغربيون فحسب بل حتى الأنظمة العربية العميلة والخانعة، فقد كان خيراً لكل هؤلاء تصفية هذه القضية وزوالها الى الأبد، بل ان بعضهم كان يسعى لإعادة كتابة التأريخ وتزييفه لإنكار وجودها في المقام الأول.

● لقد اثبت طوفان الأقصى بما لا يدع مجالاً للشك انه لا حلّ للقضية الفلسطينية سوى تفكيك هذا الكيان المسخ الذي هو من أسوأ وأحط وأقذر ما انتجته البشرية عبر تاريخها الطويل لأنه كيان قائم على العنصرية والحقد والزيف والكذب والنذالة والإجرام وكل قيم الهمجية والانحطاط الأخلاقي.

● لقد اظهر طوفان الأقصى ضرورة التصدي للحركة الصهيونية العالمية بل العمل على تفكيكها كلياً لأنها كيان اجرامي يسعى الى السيطرة على العالم والتحكم بمقدّراته متخذاً من الدول الغربية قاعدةً اساسية له ومرتكَزاً لنشاطاته ومخططاته مستفيداً في ذلك من نقاط الضعف في النظم الديمقراطية الغربية المحكومة بالمال الفاسد والدعاية المضللة ومتحالفاً مع عصابات اجرامية مشابهة له في القيم والأهداف من تجار السلاح والبنوك العالمية والشركات الرأسمالية الكبرى وما شاكلها مما يتفق معه في المخططات والغايات الإجرامية. هذا فضلاً عن التحالف 'الآيديولوجي' مع الصليبية العالمية (التي تطمح كذلك الى السيطرة على العالم) حيث يتفق الاثنان في عدائهما للإسلام (الذي يعتبرانه اكبر خطر عليهما واكبر عقبة امام مخططاتهما في السيطرة والنفوذ) وهما لذلك ينسقان جهودهما لضرب الإسلام والكيد للمسلمين عبر الفتن والحروب والمؤامرت التي يُسخّران فيها الخونة والعملاء (وعلى رأسهم بعض الحكام العرب). وتلعب اسرائيل في هذا المخطط التخريبي التدميري الذي يستهدف الإسلام والمسلمين دوراً محورياً وهو ما يفسر استماتة الغرب الصليبي الصهيوني في الدفاع عن اسرائيل ودعمه المطلق لها.

● لقد اظهر طوفان الأقصى ضرورة تفكيك كيانات الأعراب في شبه الجزيرة العربية، فهذه الكيانات (التي ـ بالمناسبة ـ قد أنشئت في نفس الفترة التاريخية لإنشاء الكيان الصهيوني) هي الظهير والعديل والمكافئ الاستراتيجي للكيان الصهيوني في المخطط الغربي للمنطقة، وقد أقامها الغرب لنفس الأهداف والمرامي التي أقام من أجلها اسرائيل وهي تفكيك المنطقة والتآمر على شعوبها واتخاذها قواعد عسكرية ومرتكزات ثقافية لضرب نهضة الشعوب والتصدي لحركات التحرر والمقاومة. فمشكلة هذه الكيانات هي ليست مشكلة حكام

ونظم حكم بل هي مشكلة شعوب وثقافات، وهي بالضبط مشكلة الكيان الصهيوني التي هي ليست مشكلة نظام سياسي بل هي مشكلة 'شعب' غريب وثقافة شاذة يراد زرعها في المنطقة لتفعل فعل السرطان في تدمير المنطقة والقضاء على عافيتها. وقد اظهرت هذه الكيانات الشاذة مدى اهميتها وحيويتها لمشروع التدمير الغربي للمنطقة وهي في ذلك لا تقل ـ بل قد تزيد ـ عن الكيان الصهيوني في دورها التخريبي والتدميري للمنطقة، فهي قواعد عسكرية تستخدم بانتظام لشن الحروب والاعتداءات على شعوب المنطقة (كما حدث مراراً في العقود القليلة الماضية)، وهي مراكز اشعاع للفكر الثقافي السام كالعقيدة الوهابية التي تهدف الى تمزيق الشعوب ونشر الكراهية والتحريض على التناحر الطائفي والاقتتال البيني. كما انها تستخدم قواعد لنشر الإرهاب والقتل والتخريب كما حدث ـ مثلاً ـ مع العراق وسوريا واليمن حيث ساهمت هذه الكيانات في تغذية حركات الإرهاب في هذه الدول وتمويلها وتسليحها بل وساهمت حتى في الهجوم عليها مباشرة (كما حدث مع اليمن). كما استُخدمت هذه الكيانات كوسائل تحريض لإثارة الحروب والنزاعات او مصائد لجلب التدخلات الخارجية كما هو الحال في دورها في تحريض النظام العراقي السابق وتشجيعه لغزو ايران (ومن ثم دعمه بالمال والسلاح و ... إلخ) او في استخدام الغرب لها طعماً لدفع النظام العراقي السابق لغزو الكويت لتبرير تدمير العراق وشله بالكامل لعقود طويلة ضماناً لأمن اسرائيل ودفع الأخطار المحتملة عنها.

● لقد اظهر طوفان الأقصى خطورة الإسلاميين على العرب والمسلمين (باستثناء الإسلاميين المقاومين) وانهم احد اهم عوامل الفشل والتخريب والانحطاط، وهم بذلك يشكلون احد الأخطار الكبرى على العرب والمسلمين (كإسرائيل والأنظمة العميلة بدولها المصطنعة).

● لقد اظهر طوفان الأقصى مدى إجرام الغرب الصليبي ونذالته وحقده على الإسلام والمسلمين ومدى تجرّده من القيم الإنسانية وعنصريته ونفاقه. لقد جرّد طوفان الأقصى هذا الغرب المتمسح بلباس الفضيلة والقيم الأخلاقية وحقوق الإنسان وكشف عوراته بنحو لم يسبق له مثيل فأظهره بقبحه كما هو دون رتوش او نقوش وبما لم يظهر به من قبل.

● لم يكتفِ طوفان الأقصى بفضح النظم الديمقراطية الغربية فحسب بل فضح الديمقراطية كمبدأ وفكرة إذ أظهر معايبها الأصيلة وقصورها الذاتي لأنها فكرة قائمة على اساس حكم القطيع الذي يتحكم به رأس المال الفاسد وأجهزة الدعاية والتضليل والنخب السياسية المنحطة وجماعات الضغط المأجورة والفرق الدينية المخبولة وعصابات الجريمة المنظمة وتجار السلاح والقتل و ... إلخ. كما يدلّ هذا (اي ما جرى) على مدى نذالة القيم الديمقراطية حيث يُحل فيها السياسيون لأنفسهم دعم مجزرة إبادة مروّعة من أجل الوصول الى

كراسي الحكم ومقاعد البرلمان والبقاء فيها.

● لقد اثبت طوفان الأقصى ان الإسلام الحق هو اسلام التحرر والعدالة والثورة على الظلم ونصرة المظلوم. إنه إسلام علي والحسين وزيد وليس إسلام الطلقاء وأشباه الطلقاء واتباع الطلقاء من السلفيين التكفيريين (دعاة الكراهية والحقد والحروب الطائفية) او تجّار الإسلام السياسي المزيف (اصحاب الصفقات والتحالفات المشبوهة والمواقف المنافقة) او 'الجهاديين' الخوارج (الذين لايحسنون الا تفجير المساجد والأسواق وبقر بطون الحوامل واغتصاب النساء وذبح الأطفال واكل الأكباد وما شابه ذلك من اعمال النذالة والخسة والإجرام). كما أظهر طوفان الأقصى ان ما يهم من المعتقدات الدينية وعنصرها الفاعل هو النظام القيمي المتجسّد اساساً في رموز ورجالات هذه المعتقدات (بما يمثلونه من نماذج وقدوات في العمل والسلوك) لا المعتقد اللاهوتي او الفقه السلوكي.

● لقد اظهر الحراك الدولي الذي سبّبه طوفان الأقصى خطورة الحركات الفاشية حول العالم وضرورة تكاتف كل قوى الخير والإنسانية بكافة انتماءاتها وثقافاتها لدحر هذا الطاعون الذي هو تهديد وجودي للإنسانية. وهذه الحركات ينبغي ان تشمل فيما تشمل الحركة الصهيونية العالمية وقطعان ما يسمى بالمسيحية الإنجيلية (والمسيحية الصهيونية بنحو اعم بل والمسيحية الصليبية بنحو اكثر عموماً).

● لقد اظهر طوفان الأقصى ضرورة القطيعة التامة مع اوروبا والغرب عموماً لأن المشكلة مع الأوروبيين والغربيين لا تتمثل في أنظمة معادية فحسب بل في شعوب وثقافات معادية كذلك وهذا ما يبرر القطيعة التامة بين الشرق والغرب. مضافاً الى ذلك ان هذه القطيعة هي ضرورة وحاجة ملحة لحفظ هوية الشرق المسلم وإيقاف الذوبان الحضاري. وعلى كل حال، القطيعة واجبة ما دام الغرب على ما هو عليه من كراهية وحقد ضدّ الإسلام والمسلمين وملتزماً بالعقيدة الصليبية القائمة على استعباد المسلمين وقتلهم وإذلالهم وإبادتهم ومتحالفاً مع الصهيونية العالمية في ذلك. إن ما شهدناه من تظافر الغرب في دعم مجازر غزة ينبغي ان يكون جرس إنذار لكل عربي ومسلم عما ينتظره من هذا الغرب الحاقد المعبَّأ بالضغائن والسخائم الممتدة في اصولها ومصادرها الى تأريخ غابر والمتجذرة في ثقافته ووجدانه بل المكتوبة في مورّثاته وجيناته، وهذا ينبغي ان يكون حافزاً إضافياً للقطيعة مع الغرب. وباختصار، نحن ندعو الى قطيعة تامة وطلاق بائن ابدي لا رجعة فيه بين الشرق والغرب فهذا وحده ما سيحفظ للشرق هويته وحقوقه وكرامته ويجنبه الاستغلال والظلم الذي عاناه الشرق (كما عاناه غيره) على يد الغرب ولصوصه وقتلته وقطاع طرقه الذين ملأوا الأرض (وما زالوا) شراً وفساداً وهم ماضون في هذا الطريق الى يوم الدين.

● لقد اظهر طوفان الأقصى ان المانيا هي اكبر خزان للفاشية والعنصرية وافكار الإبادة والإجرام الممنهج وانها واحدة من اخطر دول العالم (بل ربما اخطرها على الإطلاق) لأنها لو سادت لدمرت وأبادت، كما ان ما قامت به من إجرام خلال الحرب العالمية الثانية (وقبلها في مستعمراتها في افريقيا) لم يكن 'هفوة' او صدفة او استثناءاً بل هو تعبير اصيل عن هويتها وروحها وثقافتها. ولذا ينبغي للعالم ان يظل حذراً منها ومراقباً لها خصوصاً مع انبعاث التيارات اليمينية الفاشية فيها (حيث تلعب المانيا دوراً مهماً كقاعدة ومنطلق ومركز اشعاع ومصدر إلهام للتمدد الفاشي والتيارات اليمينية في بعض الدول الغربية).

● لقد اظهر طوفان الأقصى ان امريكا تابع لإسرائيل لا العكس لأن امريكا مخترقة من قبل العصابات الصهيونية التي هي كالأخطبوط نفذت الى ـ وصارت تتحكم بـ او تؤثّر في ـ كل مؤسسات القرار ومفاصل الدولة في الولايات المتحدة من اقتصاد وسياسة ومال وإعلام وفن وثقافة ودين وصناعة وتجارة وتكنولوجيا اتصالات ومعلومات و ... إلخ. ولا أبلغ في الدلالة على ان امريكا هي التابع لا المتبوع من ان امريكا تضحي بمصالحها الحيوية والاستراتيجية من اجل مصالح ـ بل نزوات ـ اسرائيل.

● لقد اظهر طوفان الأقصى ان اسرائيل قوية بضعفنا وتخاذلنا وما تملكه من طابور خامس بيننا (ممثلاً بانظمة حكم عميلة وجبانة ونخب مأجورة لاهثة وراء الغرب وبريقه الكاذب). بل حتى الدعم الغربي اللامحدود لإسرائيل الذي هو مصدر قوتها وجبروتها ما كان ليكون فاعلاً ومؤثراً لولا ضعفنا وتخاذلنا وانبطاحنا امام الغرب شعوباً وحكومات ونخباً. يضاف الى ذلك انه لو كان لنا موقف قوي تجاه اسرائيل وجرائمها وتجاه الدعم الغربي اللامحدود لها لأعاد الغرب النظر في ذلك لأن هذا الدعم سيكون مكلّفاً للغرب وهو ما سيجبره على إعادة النظر في بعض مواقفه تجاه اسرائيل والقضية الفلسطينية. والخلاصة ان العرب والمسلمين لو استخدموا عشر معشار ما لديهم من عناصر القوة والضغط لأركعوا لا اسرائيل فحسب ـ وهي احط واتفه من ان يكون لإركاعها قيمة ـ بل امريكا والغرب وكل من يدعم اسرائيل. وهذا يعني ببساطة ان اعداءنا ـ بل ألدّهم على الإطلاق ـ هم فينا ومنّا، فنحن ـ بكل بساطة ـ أعدى اعداء انفسنا.

● لقد اظهر طوفان الأقصى بنحو فاضح ومخجل ان ما يسمى بالأمة العربية والأمة الإسلامية ليس سوى وهم فهاتان الأمتان المزعومتان ما ولدتا قط وما وُجدتا لا في الماضي ولا في الحاضر وربما لن توجدا في المستقبل. فما هاتان 'الأمتان' سوى تجمعات قطيعية لا تحمل روح الأمة ولاتتصف بصفاتها إذ هما لا تحسنان الا القتال الداخلي والنزاعات الطائفية البينية بينما هما تتصاغران وتخوران امام العدوان الخارجي، بل لا يتوانى كثير من هذه التجمعات القطيعية عن التحالف مع الأعداء والعمالة لهم ضد إخوانهم وبني جلدتهم. كما ان كثيراً

من افراد هاتين 'الامتين' يسهل شراء ذممهم وضمائرهم - إن كان لهم ذمم وضمائر - بدراهم معدودة ليُجنَّد في خدمة الأعداء فيكون اعدى اعداء 'امته' وبني جنسه. وهذه في الواقع هي واحدة من اكبر المشاكل ونقاط الضعف (وربما اكبرها على الإطلاق) لدى هاتين 'الامتين' وفي بنيتهما النفسية والاجتماعية والثقافية، وما لم يعالج هذا الخلل التكويني في بنية هاتين 'الامتين' وسمات افرادهما فانه لا امل لهاتين 'الامتين' ان تنهضا بل ستظلان مجزأتين تابعتين خاضعتين راكعتين للغرب بل لكل من يمتلك عناصر القوة والبأس في هذا العالم. والخلاصة اننا لن نتحرر من الخارج ما لم نحرر انفسنا من الداخل بالتخلص من هذه العقد والنواقص وجوانب القصور الذاتي والعمل على بناء وتكوين شعور حقيقي بروح الأمة والانتماء لها والإخلاص لقضاياها وان اغلى الأثمان في الوجود لاينبغي ان يساوي شيئاً مقابل خيانة الأمة والعمالة لأعدائها. فلنعلّم انفسنا وابناءنا ان العمالة للاعداء والعمل في خدمة مصالحهم عار ما بعده عار ورذيلة ما بعدها رذيلة، لا ان يكون وسام شرف وامنية يسعى لها الساعون من طامحين في منصب او كرسي حكم او نفوذ سياسي او مكسب مالي او تشريف دولي او منصب اكاديمي او جائزة مرموقة او سمعة دولية او ما شابه ذلك من متاع الدنيا الذي ينبغي ان يسخف ويُستصغَر امام الالتزام بقضايا الأمة والدفاع عن مصالحها والذود عن حياضها.

● يبدو ان مبدأ التعايش التاريخي بين المسلمين واليهود قد كُسِر الى الأبد وهذا يعني ان اليهود لن يكون مرحَّباً بهم في معظم الدول والجماعات المسلمة وهو ما يضع اليهود امام معضلة ايجاد 'البيئة الحاضنة' لهم خاصةً مع تنامي التيارات الفاشية اليمينية المتطرفة المعادية لليهود واليهودية بقدر معاداتها للاسلام والمسلمين. وإذا لم يسارع حكماء اليهود وعقلاؤهم الى جبر ما انكسر من علاقتهم مع المسلمين فان من شبه المؤكد ان يواجه اليهود نتائج كارثية حول العالم في المستقبل المنظور والبعيد.

● لقد فشلت الإنسانية كل الإنسانية (باستثناء نخب ضئيلة جدّاً) في اختبار غزة فشلاً ذريعاً (بل يبدو ان بني آدم حقاً هم اقلية ضئيلة بين بني البشر). وأكبر الفاشلين في هذا الاختبار هم العرب والمسلمون خاصّةً الأقربين منهم (كمصر والأردن). والواقع ان طوفان الأقصى أظهر خير ما في البشرية وأحسنها وأحطّ ما في البشرية وشرّها فنجح القليل وسقط الكثير في هذا الاختبار الإنساني الحاسم.

● اسرائيل هي اكبر سُبّة في وجه 'الحضارة' الغربية واقبح وصمة عار في جبينها. وينبغي ان نشعر بالامتنان لإسرائيل لأنها وجهت اكبر ضربة معنوية قاتلة لهذه 'الحضارة' وقيمها المزعومة بفضحها مدى نفاقها وانحطاطها الأخلاقي وهمجيتها، وهي بذا اراحتنا من عناء إثبات فساد هذه الحضارة المزعومة بالدليل والبرهان لأن اسرائيل بمحض وجودها (فضلاً عن جرائمها وقبائحها التي لا تعد ولا تحصى) هي الدليل والبرهان. ولقد حاول

الغرب بعد الحرب العالمية الثانية تجميل وجهه القبيح والتستر على جرائمه المنكرة خلال حقبة الاستعمار المكشوف (حيث كان يقتل ويستعبد الملايين ويمارس جرائم الإبادة المنظمة والاستغلال البشع) بتبني شعارات وقيم 'ليبرالية' وحقوق انسان وقانون دولي وما شابه ذلك من اكاذيب فجاءت اسرائيل (هذا النغل المدلل لدى الغرب) لتسقط هذا القناع الزائف وتظهر الغرب كما هو بكل همجيته وبربريته التي مارسها على مدى تاريخ وجوده. فشكراً لإسرائيل على هذه الخدمة العظيمة للبشرية وعلى هذا الإسهام القيّم للحضارة الإنسانية.

● لقد اظهر طوفان الأقصى ان اليمن هو خير مرشح لقيادة العالمين العربي والإسلامي لأنه يتمتع لا بالصدق والإخلاص والتضحية والثبات والحكمة (وغيرها من صفات القيادة التي اثبتها اليمن في ملحمة طوفان الأقصى) بل يتمتع كذلك بالوسطية والاعتدال الديني فهو بريء من الغلو الشيعي والتطرف السني كما انه كان تاريخياً بعيداً عن الصراعات الطائفية وله تجربة معروفة ومشهود لها في التعايش بين المذاهب الإسلامية.

● لقد ضمنت غزةُ 'الصغيرة' لنفسها مكاناً في التاريخ لا يبلغه الا نخبة النخب من الامم والشعوب والجماعات البشرية. صحيح ان تضحياتها غالية جدّاً ومهولة بكل المقاييس ولكن هذا هو ثمن العزة والمجد وثمن فعل جبار بحجم طوفان الأقصى. واياً كانت النتائج القريبة لهذا الطوفان فان النصر النهائي لن يكون الا لغزة (شعباً ومقاومةً)، وان الهزيمة والخزي والعار لن تكون الا من نصيب اعدائها ومن خذلها وتواطأ على ذبحها بفعله او بصمته. ولا شك ان الثأر والانتقام لما حلّ بها آتٍ لامحالة، وسيدفع القتلة والمجرمون ومن تواطأ وتحالف معهم اثماناً لا تقل عن الأثمان التي دفعتها غزة. فغبي احمق من يعتقد ان هذه المذبحة يمكن ان تمرّ مرور الكرام دون عقاب او حساب.

ملاحظات المؤلف

- تم إعداد هذا الكتاب بالكامل من قبل المؤلف بما في ذلك التنضيد وغلاف الكتاب والتصميم العام.